

ساردينيا والبحر
تأليف: ديفيد هربرت لورانس
ترجمة: زياد طارق نعيمة



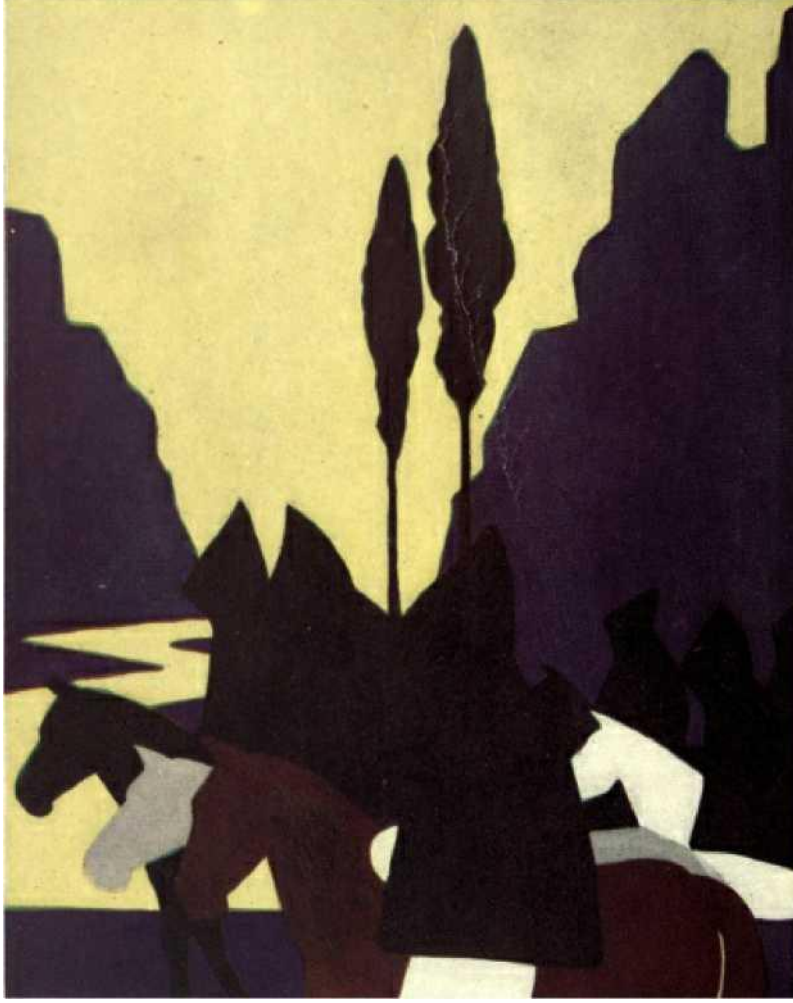
تم تصميم هذا الرسم الإيضاحي مع ثمانية رسوم أخرى من قبل جان غوتا، بالإضافة إلى خارطة لساردينيا أرفقها المؤلف.

ساردينيا والبحر

Sea and Sardinia

تأليف: ديفيد هربرت لورانس

ترجمة: زياد طارق نعيمة



أوروسي

المحتويات

1. بعيداً حتى باليرمو.

2. البحر.

3. كاجلياري.

4. مانداس.

5. إلى سورجونو.

6. إلى نوورو.

7. ترنوبا والسفينة البخارية.

8. العودة.

ساردينيا والبحر

الفصل الأول

بعيداً حتى باليرمو

--

إنَّ ما يُلْمُ بالمرء يضعه أمام ضرورة مطلقة للتحرك، وما بعد ذلك هو التحرك باتجاه معين،
ليجد نفسه أمام ضرورة مزدوجة؛ متابعة التقدم ومعرفة وجهة المسير.
لماذا لا يستطيع المرء البقاء في مكانه يا ترى؟ فالجُؤ هنا في جزيرة صقلية رائع للغاية، حيث
يسعك أن تمتّع ناظريك بمشهد البحر الأيوني المشمس، ناهيك عن مدينة كالابريا الجوهرة
المتماوجة الألوان، إنها كحجر عقيق يتوهج تحت الضوء، هذه هي إيطاليا الجميلة بمنظر سحابها
البديع في عيد الميلاد، وليلةٍ يُلقى فيها نجم ألفا الكلب الأكبر وميضه المشرق الطويل عبر البحر،
وكأنه يطلق النباح نحونا، وكوكبة الجوزاء² تسير أعلاه، كيف ينظرُ سيرْيوس (الشَّعْرَى
الْيَمَانِيَّة³) نجم ألفا الكلب الأكبر إلى الإنسان؟ بأي منظور يراه؟! إنه كلب يسكن السماء، أخضر
اللون، فائن المظهر، ويتصف بالشراسة! يا إلهي! ثم يتراءى أمامك نجم المساء الملكي، الذي

يتدلى نحو الغرب لينثر شعاعه فوق المنحدرات المظلمة المتعرجة لجزيرة صقلية شاهقة الارتفاع، ليصل بعد هذا إلى جبل إتنا، تلك الساحرة الشريرة التي ترقد بثلوجها البيضاء الكثيفة تحت السماء، ويتلوى دخانها برتقالي اللون ببطء شديد. أطلق عليها اليونانيون اسم "عمود السماء"، بدا ذلك خاطئاً أول الأمر، لأنها تتبع مساراً طويلاً سحرياً مرناً ابتداءً من حافة البحر وصولاً إلى مخروطها البركاني الحاد، أما منظرها تحت السماء فلا يبدو مرتفعاً، بل يميل إلى الانخفاض نوعاً ما، بيد أنها وكما يعرفها المرء على نحو أفضل رائعة وساحرة! **3** حيث تُطلُّ بعيدة تحت السماء، مُنْعَزَلَةٌ بذاتها، ولكنها تبدو قريبة بالوقت نفسه، إلا أنها وفي النهاية ليست معنا. لا يبرأ الرسامون عن محاولة رسمها في لوحاتهم، ويعجز اليأس عن دخول قلوب المصورين لثني عزيمتهم عن تصويرها، إلا أن جميع محاولاتهم ضاعت عبثاً. لماذا؟ يُخَايَلُ لهم أن سلاسل التلال بأشجار الزيتون التي تزينها والمنازل البيضاء التي تناثرت في مساحاتها تمكث جميعها قريبة منهم، لأن مجرى النهر وجزيرة ناكسوس تستلقي تحت بساتين الليمون، حيث تتوغل جزيرة ناكسوس عميقاً تحت الأوراق الداكنة، ووراء الكثير من بساتين الليمون وافرة الثمار، ولن ننسى ذكر حواف جبل إتنا وحافة سفوحها. ما زالت جميع هذه الأشياء تمثل عالماً، العالم الخاص بنا، حتى القرى المرتفعة القائمة بين أشجار البلوط والموجودة على جبل إتنا تخصُّنا كذلك، غير أن إتنا بحد ذاتها جبل الرياح المتغيرة الغامضة والثلجية، تتوارى خلف جدار بلوري، حين أنظر إلى إتنا أجدها منخفضة العلوّ بيضاء اللون، كساحرة تحت السماء تُدحرج ببطء دخانها البرتقالي، وتتفت في بعض الأحيان نفساً لاهباً على شكل وردة حمراء، فأجبر أن ألقي بناظري بعيداً عن الأرض، لأصل به نحو الأثير، صوب السماء الدنيا، لأجد هناك في تلك المنطقة النائية إتنا تمكث وحيدة، فإذا جذبك الشوق لرؤيتها فعليك أن تشيح بصرك من العالم رويداً رويداً، وتمضي كناظرٍ أعزل الثياب إلى جبل إتنا تلك الفجوة الغريبة في السماء الدنيا، أو كقاعدة ترتكز عليها السماء! كان لدى الإغريق إحساس بالحقيقة السحرية للأشياء، وشكراً لله أن لا يزال المرء يعرف ما يكفي عنهم للعثور على أواصره في النهاية، هناك الكثير من الصور وعدد لا يحصى من الرسومات بالألوان المائية واللوحات الزيتية التي تهدف إلى وصف إتنا، بيد أن قاعدة السماء! تفرض عليك اجتياز الحدود الخفية. بين مقدمة الجزيرة التي نمتلكها وإتنا ومحور الرياح في السماء الدنيا هناك خط فاصل، يدفعك إلى تغيير حالتك الذهنية، عبر التقمُّص، إياك والظن بأنك قادر على رؤية إتنا ومقدمة الجزيرة في آن واحد، مطلقاً، بل أحد الاثنين؛ إما مقدمة الجزيرة ورسم إتنا أو إتنا الحقيقية قاعدة السماء. لما إذاً على المرء أن يرحل؟ لماذا لا يبقى؟ آه يا لها من خلية، هذه الإتنا! **4** برياحها الغربية التي تطوف حولها خلصة مثل نمور

الساحرة سيريس، بعضها سوداء وأخرى بيضاء، إنها تذهب عقول الرجال، بهمساتها الشفوية النائية الغربية وبلظى زفيرها الرهيب المفعم بالحياة، يا لها من دذبذبات رهيبة من سحر طغيانها

الفائن الشرير، تلك التي تنشرها حولها وكأنها شبكة صيد قاتلة، لا بل يمكن للمرء أن يستشعر بين الفينة والأخرى بدقي جديد لجاذبيتها الشيطانية يستحوذ على الأنسجة الحية للإنسان ويغير دورة الحياة الهادئة لخلاياه النشطة، إنها تصنع عاصفة في البلازما الحية وتفرض تسوية جديدة، وفي بعض الأحيان يبدو الأمر أشبه بالجنون. هذه هي إتنا اليونانية الخالدة، في روعة سمائها الدنيوية، جميلة جدًا، فاتنة للغاية، آه يا معذبتى! يعجز الكثير من الرجال عن مقاومتها، دون أن يقدموا أرواحهم قربانًا لها، إنها أشبه بالساحرة سيريس، فما لم يتحلَّ الرجل بشجاعةٍ شديدة فإنها ستسلب منه الروح وتتركه على حال جديد، ليس كوحش، بل كمخلوقٍ بدائي ذكي بلا روح، عاقل ولكنه في الغالب مُلهَمٌ ومُجرَّد الروح، كحال الصقليين الذين يعيشون على سفوحها، إنهم أشبه بشياطين ذكية بهيئةٍ بشرية، وهم بالمقارنة معنا أكثر الناس غباء على وجه الأرض. آه، يا للهول! فكم عدد ضحاياها من هؤلاء الرجال فكم من الرجال والأعراق قد شردتهم؟ فهي من حطمت فورة الروح اليونانية، وحين فرغت منها التفت إلى الرومان النورمانديين العرب الإسبان الفرنسيين الإيطاليين وحتى الإنكليز ومنحتهم كلهم ساعة مجدهم ثم حطمت أرواحهم. ربما على المرء أن يسارع بالفرار منها حين يلقاها، بل يستلزم عليه الهروب وعلى الفور في جميع الأحوال، وبعد أن تتسنى العودة في نهاية شهر أكتوبر فقط، على المرء أن يعاود الاندفاع بعيدًا، رغم أننا لازلنا في الثالث شهر يناير والابتعاد عنها لا يطاق، بيد أنك ها أنت ذا تُلبي دعوة إتنا للابتعاد. **5** أين يجب على المرء أن يمضي يا ترى؟ توجد مدينة أغريجنثو⁴ في الجنوب، وتونس كذلك قريبة من هنا، هل إلى مدينة أغريجنثو حيث الحجارة الكبريتية، ومعابد الحراسة الإغريقية، ليعتريني الجنون أكثر؟ مطلقًا! ولا حتى إلى سرقسطة بجنون مقالع حجارتها العظيمة. إلى أين المسير؟ إلى تونس؟ أم أفريقيا؟ ليس بعد، ليس بعد. ولا البلاد العربية، ليس بعد. نابولي، روما، فلورنسا؟ لا شيء مناسب على الإطلاق، إلى أين إذا؟ إلى أين إذا؟ إسبانيا أو سردينيا، ربما سردينيا التي لا مثيل لها على وجه الأرض، سردينيا التي لا تملك تاريخًا ولا ميعادًا، عرقًا أو عطاء، فلتكن وجهة المسير هي سردينيا، يُقال أن لا أحد قد مُني بالنجاح في هزيمة سردينيا، الرومان والفينيقيون واليونانيون والعرب جميعهم وقفوا عاجزين أمام جبروتها، وذلك لأنها تنأى بنفسها خارج نطاق الحضارة، مثل بلاد الباسك⁵، لكنها باتت إيطالية الآن دون شك، بسككها الحديدية وحافلات نقل الركاب آلية الدفع، لكن سردينيا ما زالت حُرَّة هناك، فهي تقع وسط شبكة هذه الحضارة الأوربية، إلا أنها لم تستسلم لمصير السقوط بعد، حين تغدو الشبكة بمرور الوقت قديمة ومتهاكة، لن تتردد أسماك عديدة في التسلل من شبكة الحضارة الأوربية القديمة، تمامًا كحال حوت روسيا العظيم، وربما هذا هو حال سردينيا أيضًا. سردينيا إذا، فلتكن وجهة المسير نحو سردينيا.

علمتُ أنَّ هناك قاربًا يبحر كل أسبوعين من باليرمو -ستنتقل الرحلة الأربعاء المقبل، بعد ثلاثة أيام. دعنا نرحل إذًا، بعيدًا عن إتنا البغيضة، والبحر الأيوني¹، وهذه النجوم الرائعة التي أُلقت بانعكاس أطياها على سطح المياه، وأشجار اللوز التي تنتث البراعم على أغصانها، 6 وأشجار البرتقال المثقلة بالفاكهة الحمراء، وهؤلاء الصقليون الذين نال منهم فباتوا لا يُحتملون، فهم لم يُدركوا الحقيقة على الإطلاق، وقد فقدوا منذ زمن طويل كل فكرة عن ماهية الإنسان، وأصبحوا أشبه بالشياطين الكبريتية⁶. نحن ماضون في طريقنا! ولكن اسمحوا لي أن أعترف، بأنني لست واثقًا مما إذا كنت لا أفضل حقًا هؤلاء الشياطين على إنسانيتنا المقدسة.

لماذا يجلب المرء مثل هذا الضيق لنفسه؟ أن يُجبر على الاستيقاظ في منتصف الليل، عند الواحدة والنصف تمامًا، للذهاب والنظر إلى الساعة. لقد أبت ساعة يدي الأمريكية أن تستمر بالمواربة بوجهها الفوسفوري المخادع. الواحدة والنصف! الواحدة والنصف، مع تلك العتمة التي تميز ليلة بشهر يناير. آه، حسنًا! إنها الواحدة والنصف! وظلَّ النوم مضطربًا حتى حُلَّت الساعة الخامسة من الفجر أخيرًا، وحينها أشعلت شمعة ونهضت من سريري.

آه، صباحٌ مظلم كئيب، وضوء شمعة خافت، والمنزل الذي يبدو موحشًا في الليل، وهذا ما يدفع المرء للقيام بأشياء تدخل البهجة إلى قلبه، حسنًا؛ كإشعال النار في الفحم ووضع إبريق الشاي عليه، وتقبل زوجتي وملكتي مرتجفة هنا وهناك مرتدية نصف ثيابها وتحمل بيدها شمعتها المرتشعة التعيسة.

تنطق مرتجفة ببعض الكلمات: "هذا ممتع!".

فأجيب بوجه متجهم كالموت: "رائع".

ثم يحين دور الخطوة الأكثر روعةً، أولًا أملاً الثرؤس بالشاي الساخن، ثم اشرع بقلي لحم الخنزير المقدد الانكليزي ذي الجودة والقادم من مالطا، واصنع أيضًا 7 شطائر من البيض المخفوق، حضَّرتُ الخبز بالزبدة، وكذلك القليل من الخبز المحمص لأجل الفطور، والمزيد من الشاي، يا لها من مائدة شهية تُنعش الروح! ولكن أفِّ لهذا الحال! فمن سيرغب بتناول الطعام في هذه الساعة المثالية، خاصَّة إذا كان المرء هاربًا من جزيرة صقلية التي تسلب الألباب، ولهذا حدثت نفسي: امأ الحقيبة الصغيرة التي كنا ندعوها كيتشينينو، وضع فيها قارورة كحول الميثانول، قَدَّرًا صغيرًا من الألمنيوم، موقدًا كحوليًا، ملعقتين، شوكتين، سَكِينًا، طبَقَيْن من الألمنيوم، ملحًا، سكرًا، وشايًا. ماذا أيضًا؟ حافظة حرارية، السندويشات المتنوعة، أربع تفاحات،

وقليل من الزبدة. إنها أشياء كثيرة جدًا على حقيبة الكوتشينينو ولأجلي وحببتي، ثم هيأنا حقيبة ظهري وحقيبة يد كيوبي.

تحت غطاء سماء الليل نصف الملبدة بالغيوم، وبعيدًا عند حافة البحر الأيوني، ألقت الشمس أولى خيوطها كمعدن يُسال، من ثم ابتلعت كوب الشاي والخبز المحمص على عجلٍ، وغسلت الأواني بسرعة، لكي نجد المنزل مرتبًا ولائقًا حين نعود، صعدتُ وأغلقتُ باب شبّاك الشرفة العلوية ونزلت. أقفلت الباب، وهكذا انتهيت من الجزء العلوي من المنزل بسرعة. أما السماء والبحر، فيبدوان وكأنهما قد انفلقا عن بعضهما كصدفة محار فغرت الجزء السفلي من فمها الأحمر، وحين ينظر إليهما المرء من شرفة منزله تسري القشعريرة في جسده، ليس جرّاء شعورٍ بالبرد، فلا برد يشوب الصباح على الإطلاق، لكنّ ما يُنذر بالسوء هو ذاك الشق الأحمر الطويل، الممتد بين السماء المظلمة والبحر الأيوني كالح السواد، وكأنه الحيوان ذو الصدفتين العجوز المرعب، الذي أمسك الحياة بين شفتيه كل هذا الوقت. وهنا، في هذا المنزل، بتنا على حافة الفجر بشكل رهيب، ولا شيء يفصلنا عنه، أغلقنا بإحكام نوافذ باب الشرفة السفلية، فعادة لا يحبذ المرء إغلاقها على الإطلاق، لقد هاجمت حرارة الصيف تلك النوافذ وقامت بليّها باتجاه ما، ولم توقّر أكوام أمطار الخريف جهدًا بليها بالجهة الأخرى، 8 فأسندت كرسيًا عليه، وأوصدت باب البيت وخبأت المفتاح.

وضعتُ الحقيبة على ظهري، وأخذت حقيبة الكيتشينينو بإحدى يدي ثم رحّلتُ أنظر حولي، فوقعت عيناى على الامتداد الأحمر للفجر بين البحر الأرجواني والسماء المكفهرة، ثم شاهدت ضوءًا يمر هناك عبر دَيْرِ الكُبُوشِيَّة، وعندها داعبت أذناى أصوات صياح الديكة، وحمارًا طفق ينتحب بصوت نهيق طويل موحش كحازوقة أصابته: "كل الإناث قد ماتوا، كل الإناث- أوخ! أوخ! أوخ! - هووو! آها! - ولكن ما زالت هناك واحدة حيّة". ولهذا أنهى عزاءه بنخيرٍ ننتنٍ، لقد أخبرنا العرب أنّ الحمار ينوح حين ينهق.

أثناء نزولنا درجات السلم بدا المكان شديد الظلمة تحت شجرة الخَرْبُوب⁸ العظيمة، وما زال الظلام مُلقياً بوشاحه الأسود على الحديقة، وقد فاحت في الأرجاء رائحة نبات الميموزا، بالإضافة إلى عبير الياسمين العطر، ويا للأسف فقد أخفى الظلام شجرة الميموزا الجميلة عن ناظرينا تمامًا، ولم يسلم حتى الطريق الصخري من يد الظلام السليطة، وفجأةً إذ بمَعْرَةٍ أخذت تطلق صوت ثَغَاءٍ منبعثًا من حظيرتها، أما القبر الروماني المكسور الذي تدلّى منحنيًا فوق طريق الحديقة فأثر عدم السقوط فوقه حين انزلت لأمرّ تحت تحدّبه الشديد. أه أيتها الحديقة المظلمة،

ما أروع أشجار الزيتون التي تزينك، وتلك الكرمة وأشجار التوت والزعرور التي تناثرت في كل مكان، ومدرجاتك شديدة الانحدار والتي تبرز عاليًا فوق البحر، يا أيتها الحديقة! سأرحل متسللاً خلسة عنك، خارجاً بين السياج الذي صنعته أعشاب إكليل الجبل، عبر البوابة العالية، لأحث الخطى فوق الطريق الصخري شديد الانحدار، وأمرُّ تحت أشجار الكينا الكبيرة الداكنة، وأجول من فوق الجداول وأصعد باتجاه القرية، وحينها أكون قد اجتزت مسافةً طويلة.

ياه! ما زال الفجر يُلقي بسطوته، وقد منع الصباح أن يزهو مختلاً بطلعته، وكأنَّ الشمس مُتعبَةٌ مُتخاذلة لا ترغب بالظهور في هذا اليوم. وذلك ما جعل القرية **9** تستسلم لسباتها الليلي، ويغمرها شفق أحمر اللون على كامل مساحتها تقريباً، وها هي النافورة بجانب بوابة الكبوشية⁷ قد خلت من الناس، فالظلام هو سيد المكان حتى الآن، باستثناء رجل يقود حصانه حول ركن قصر كورفاجا⁹، وواحدٍ أو اثنين من أصحاب البشرة السوداء يسرون على طول شارع كورسو، وهكذا فوق حافة المنحدر أسفل الشارع الوعر الممتد بين المنازل والمرصوف بالحصى نحو التلة المكشوفة، تجلّى فجر ساحل صقلية مُعلنًا عن ظهوره، كلا، بل هو فجر ساحل أوروبا برمّتها، وبدا هذا الفجر أمامنا واسعاً شديد الانحدار، وقد ارتدى عباءته الحمراء التي زينها مزيج كأنه خثارة من السحب الداكنة ومُطعمٌ ببعض الذهب. لا بدَّ أنها الساعة السابعة الآن، تقع المحطة في الأسفل بجانب البحر، ولن أحدثك عن ضجيج القطار، أجل القطار لا شيء سواه، أما نحن فما زلنا نسير عاليًا على ذاك المسار شديد الانحدار، نشق طريقنا نزولاً بشكل متعرج، لكنه القطار المتجه من ميسينيا إلى كاتانيا، وتفصله نصف ساعة فقط عن قطارنا المتجه من كاتانيا إلى ميسينيا.

لهذا حدثنا الخطى وانحدارنا على عجالة، أسفل هذا الطريق القديم الذي يتعرج على سطح المنحدر، بينما بدا جبل إتنا هناك خامداً في الأسفل تماماً، مُنخفضاً جداً وسط تجمُّع دخانٍ كثيفٍ من الغيوم الحالكة السوداء، يقوم ببعض الأفعال الشيطانية بمنأى عن الأنظار دون شك، والفجر الأحمر والمتوج بإكليلٍ أصفر اللون في أعلاه قد ظهرت عليه ملامح الغضب، أما البحر فقد عانقته ثلة من الألوان الغريبة لتبدو كزينة عليه. لن أخفي سرّاً بأنني أبغض محطة القطارات تلك، التي بانّت وكأنها قِزْمٌ صغيرٌ من البعيد، والممتدة هناك على جانب البحر. فوق هذا السفح شديد الانحدار، في الزوايا الخالية الهادئة على وجه الخصوص، لا بدَّ أن تكون أزهار اللوز قد تفتحت بالفعل، فبدت شديدة الشبه بندف ثلج صغيرة تناثرت بفصل الشتاء بين غيض النفحات والبقع الصغيرة والنجوم. ندف من الثلج وأخرى من الأزهار، في اليوم الرابع من عام 1921،

كان المكان يعجُّ بهذه الأزهار الجميلة، على نقيض إتنا المغطاة بشكل كتوم لا يوصف بغيومها السوداء الكثيفة، لقد لفتهم حولها تمامًا، بشكل منخفض إلى حد بعيد أسفل حوافها.

10

حين وصلنا أخيرًا إلى أسفل الشارع المنحدر، مررنا بحفر مستديرة يحرق رجال الكلس فيها حتى يتوهج بلون أحمر، وهي تقع في الخارج على الطريق السريع، لا شيء يمكن أن يكون أكثر كآبة من الطريق السريع الإيطالي، الحال ذاته من سيراكوز إلى إيرولو: فبمجرد أن تقترب من قرية أو أي مأوى بشري تبدو لك الطرق السريعة رهيبة بطيئة كئيبة. لقد انتشرت في أرجاء المكان رائحة نفّاذة لعصير الليمون، حيث يوجد فيه مصنع لإنتاج سترات الليمون¹⁰، أما المنازل فقد تدافعت وصولاً إلى الطريق، تحت مقدمة الحجر الكلسي الضخم من التل، وقد فتحت أبوابها البالية وقذفت المياه القذرة وحثالات القهوة، فاضطررنا للسير فوق هذه الأوساخ، وقد مرت بجانبنا البغال تجر عرباتها بصخب، وأناس آخرون متجهون صوب المحطة، أما نحن فما إن اجتزنا دازيو¹¹ حتى وصلنا أيضًا إليها.

إنَّ الإنسانية في الظاهر تبدو متشابهة إلى حد كبير، أما من الداخل فهناك فروقات لا يمكن التغلب عليها، وهذا ما يدفعني للجلوس والاستغراق بالتفكير، مُراقبًا الناس في المحطة؛ وكأنهم طابور خط من الرسوم الساخرة بين ذات المرء والبحر المكشوف والفجر المضطرب الملبّد بالغيوم. وكأنك تبحث عبثًا هذا الصباح عن قصة حب رومانسية لأحد أبناء الجنوب، شخصٍ ماكر داكل البشرية. لربما، بقدر ما يتعلق الأمر بالتخيُّلات، لربما وبقدر ما تصبح الملامح مهمة، يصبح الأمر وكأنه حشد الصباح الباكر ينتظر القطار في إحدى محطات ضواحي شمال لندن. وباستعراض الملامح قدمًا، يبدو الأمر مقبولاً للبعض وآخرون يتسمون بالشحوب ولا يوجد أحد مثالي بعرقه، الشخص الوحيد الذي يشبه الرسم الساخر المعبر عن العرق هو صديق مسنّ طويل القامة وبدين مع نظارات وأنف قصير وشارب خشن، إنه شخص ألماني ذكرته الصحف الهزلية **11** قبل عشرين عامًا، بيد أنه اليوم صقليّ تمامًا. وهناك مجموعة من الشباب هم في الغالب أصدقاء تصدّروا الطابور للذهاب لمدينة ميسينا لأجل الوصول إلى وظائفهم، ليسوا حرفيين بل من الطبقة الوسطى الدنيا، يبدو مظهرهم الخارجي شبيهًا للغاية لأي باعة أو موظفين، سوى أنهم رثو الثياب إلى حد ما، وهم أقل وعيًا بالذات من الناحية الاجتماعية، إنهم مفعمون بالحيوية وقد التفتت أذرعهم حول أعناق بعض، حتى إنهم كادوا يتبادلون القبلات، كان أحد هؤلاء الشباب المساكين يعاني ألمًا في الأذن، ولهذا تم ربط منديل أسود حول وجهه، واعتمر قبعة سوداء

اللون، فبدا منظره هزليًا، على أي حال لم يلفت انتباه أي أحد فلا يبدو أنهم يفكرون بهذه الطريقة، لكنهم وبرغم ذلك قابلوا وصولي مع حقبة على ظهري باستنكار بارد، وكأني أتيهم ممتطيًا خنزيرًا بشكل غير لائق، فهم لا يستحسنون الأمر إلا إن كنت مُستقلًا عربيًا ما، وأحمل معي حقبة سفرٍ جديدة عوضًا عن حقبة الظهر. أنا على معرفةٍ بأفكار الخيلاء تلك التي تدور في أذهانهم، غير أنني في المقابل شخصٌ عنيد. هذا هو حالهم، كل واحد منهم يعتقد أنه يمتلك وسامة أدونيس¹² وجاذبية دُنْجُوَان. أمرٌ يثير العجب! ولكن بذات الوقت، حياة الإنسان عابرة؛ فإذا كان بنطاله يخلو من بعض الأزرار أو إن اعتلت قبة سوداء وجهًا لفت حوله عُصابة سوداء سميكة، ووجهًا طويلًا بانث عليه ملامح الوجع، فاعتبر أن كل هذه الأمور تسير في سياق الطبيعة، فيقبل الآخرون إليه ليُمسكوا ذراع الشخص معصوب الرأس ويسألوه قائلين: أتشكو من خُطبٍ ما؟ هل تتألم؟

وهذه الحالة الصحية الجسدية الرهيبة تنطبق عليهم جميعًا أيضًا، وقد كانوا يُقبلون بلهفة ويُحيون بعضهم بطريقة ودية ويبتسمون بوجوه بعضهم، لم أر قط في العالم **12** مثل هذه الألفة والمحبة كما هو الحال بين الصقليين العابرين على أرصفة السكة الحديدية، سواءً أكانوا فتية أصحاب خدودٍ نحيفة أو شجعانًا غلاظًا.

لا بد أن هناك شيئًا غريبًا متعلقًا بقرب البركان، والذي لاحظته في نابولي وكاتانيا على حد سواء، فالرجال سمانٌ على نحوٍ هائلٍ، وبكروشهم الكبيرة والمليئة بالمعكرونة هم منفتحون بطريقة ودية على الآخرين ويبدون مهتمين بشكل مثالي وتتملكهم ألفة وشغف عابرين. أما الصقليون فهم أكثر اكتنازًا وسُمنةً وجميعهم غير منعزلين عن بعضهم بشكل أكبر من النابوليين. وهم لا يكفون عن إظهار لباقتهم ولطفهم للجميع تقريبًا، لتنبعث منهم ألفةٌ أخوية، تبدو محيرةً تمامًا لشخص لم يترعرع بالقرب من البركان. إنَّ هذا ينطبق على الطبقات الوسطى، أكثر من الدنيا التي فيها الرجال العاملون أنحف وأقل اكتنازًا بحكم الضرورة، لكنهم يتسكعون في مجموعات، منعزلين بذاتهم. ولكني بذات الوقت لاحظت شيئًا غريبًا سيئًا عند الصقليين وكذلك الحال في نابولي وكاتانيا وهو تفشي المثلية بينهم.

إننا على بُعد ثلاثين ميلًا فقط من ميسينا، لكن القطار يستغرق ساعتين للوصول إليها، حيث يتلوى ويُسرّع في مسيره، ليقف بجانب بحر الصباح الذي استفاقت أمواجه الرمادية والأرجوانية وراحت تتراقص وتتعانق فرحةً مع بعضها، فهي هو قطيع من الماعز يُجرّجُ نفسه بكل كآبة على الشاطئ قرب الحافة التي راحت تلطمها الأمواج. ثم مررنا بصحارى شاسعة كبيرة تتخللها أنهار بقيعان حجرية تمتد صوب البحر، وبعد برهة إذ بي أشاهد رجالًا يركبون حميرًا ويشقون طريقهم عبرها، ونساء جاثيات بجوار مجرى التيار يغسلن الثياب، **13** وحين أمعنت النظر جيدًا

وجدت أن بساتين الليمون الوافرة بثمارها تمتد على مد البصر، والليمون يتدلى شاحباً باهت اللون على أغصان أشجارها، آه ياله من منظر بديع! إن أشجار الليمون تلك شبيهة بالإيطاليين حيث تتمايل على بعضها بكل ألفة ومحبة. تلقت حولي علني أكتشف مكان هذه الغابات الوافرة بأشجار ليمون ليست بذاك الطول فأدركت أنها تقع بين الجبال شديدة الانحدار والبحر على شريط من الأرض المنبسطة، وأكثر ما شد انتباهي هو مشهد تلك النساء اللواتي لفهن خمار من ظلال الأشجار فأضفى عليهن شيئاً من الغموض، وهن يقطفن ثمار الليمون ويتوارين إلى داخل البحر، وتحت الأشجار قبع أكوام من الليمون الأصفر الباهت، ظهرت وكأنها ألجنة نيران صفراء شاحبة تتراقص ببطء ملوحة بدخانها. من الغريب أن تبدو أكوام الليمون شبيهة بالجنة من النار تحت ظلال أوراق الشجر، وكأنها تصدر لها شاحب اللون وسط الجذوع الرقيقة الجرداء الضاربة إلى الخضرة. إن مجموعة أشجار البرتقال لها حال آخر، حيث تبدو ثمارها حمراء كالجمر بين الأوراق الداكنة، لكن ذاك الليمون لا تحصى أعداده، وكأن أوراق الأشجار بكثافتها أشبه بسماء خضراء وثمار الليمون نجوم معلقة على أغصانها. ثمار ليمون كثيرة للغاية! تخيل ذلك! تخيل كمية خلاصة عصير الليمون التي ستنتج منه، تخيل معي حين يشربها الشعب الأمريكي في الصيف المقبل حتى آخر قطرة!

لطالما تساءلت عن سبب انبثاق مثل هذه المجاري النهرية الصخرية العريضة المكونة من الجلاميد الصخرية الشاحبة من قلب الجبال الحجرية الشاهقة الارتفاع إلى حد كبير، التي تقع على بعد أميال قليلة من البحر، بضعة أميال فقط: وهي ليست أكثر من خيوط رفيعة من تقاطر مياه ضمن مجاري نهريّة عريضة بما يكفي لجريان نهر الراين فيها، ولكن هذا ما هي عليه. أما المناظر الطبيعية فبدت قديمة بطابع تقليدي يثير العواطف كما لو أنها معروفة في أزمان موعلة بالقدم بأنهارها الضارية وخضرتها الوافرة، وكذلك تجد الأرض المقفرة الوعرة شديدة الانحدار تتنامى صعوداً على شكل أطراف مدببة ومنحدرات، لتكوّن مجموعة متشابكة من المرتفعات، فبانّت متكدة فوق بعضها. إن المناظر الطبيعية القديمة حالها كحال الناس المسنين، حيث يهزل اللحم وتغدو العظام بارزة، 14 على نقيض الصخور التي تبقى منتصبّة بشكل عجيب. تقع غابة قمم الجبال تلك في صقلية القديمة. عندما ترفع ناظريك إلى السماء تجدها قد انتشحت بلون رمادي ألقى بظلاله على المضائق البحرية، باستثناء مدينة ريجيو¹⁴، آه يا مدينة ريجيو كم تبدين ناصعة البياض عبر صفحات مياه البحر، قابضة تحت موطئ القدم القاتم لإقليم كالابريا العظيم، إبهام قدم إيطاليا. خيمت سحابة رمادية على جبل أسبرومونت حبل بالمر! أوليس حظاً عاثراً أن يبدأ هطول المطر بعد تلك الأيام الرائعة التي تسرّ خاطر بزرقة سمائها الصافية.

ما أروع جبل أسبرمونت الشامخ القوي هذا! كم يذكرني بغاريبالدي! دائماً ما تسري في جسدي قشعريرة كلما وقع ناظري عليك يا جبل أسبرمونت، لكم أتمنى لو أن غاريبالدي¹³ شعر بالأنفة أكثر، لماذا تبدل حالك وانتهى بك المطاف ذليلاً، حاملاً كيس زادك من بذور الذرة والبراغيث تملأ أذنك، إبان وصول جلاله الملك فيكتور إيمانويل ذي الساقين القصيرتين سدة الحكم. يال غاريبالدي المسكين! إنَّ جُلَّ ما طمح إليه هو أن يغدو بطل وديكتاتور صقلية الحرة، ولكن عجباً! كيف للمرء أن يكون طاغيةً وذليلاً بأن معاً. غير أنَّ غاريبالدي كان بطلاً بالفعل ولكنه عجز عن إبداء الفخر في شخصيته، بالإضافة إلى أنَّ أناس هذا الزمان لا يختارون أبطالهم كحُكَّام عليهم، بل سيختارون أي شيء سواهم، حيث يفضلون الملوك الشرعيين، الذين يدفعون أجوراً لمواليهم ومن هم على علم بالدستور، فالديمقراطية تحترم القائمين على خدمتها ولا شيء غير ذلك، ومن المحال أن تصنع خادماً مخلصاً لها بحق حتى وإن كان غاريبالدي، لا أحد يصلح أن يتشرف بذلك سوى جلاله الملك فيكتور إيمانويل، وهذا ما دفع إيطاليا لاختياره، أما غاريبالدي فقد أدبرَ راحلاً مع كيسٍ من الذرة وصفعة على مؤخرته كحمارٍ ذليل. **15**

ها هي السماء بدأت تمطر بغزارة بشكل مفرع. وقد لاحت مدينة ميسينا أمامي من بعيد. آه يا ميسينا كيف خيم الفزع على أرضك، بعد أن حطمك الزلزال وجدد شبابك فأمسيت أشبه بمستعمرة تنقيب مترامية الأطراف، بحفرك وشوارك وأميالٍ من أكواخ الخرسانة وأكوام القذارة، وذلك الشارع الكبير بمتاجره وفجواته ومنازله التي لاتزال محطمة، خلف خطوط الترام تماماً، ومرفأً موحش بئس لم يترك الزلزال أملاً يرتجى منه في هذا الميناء الجميل. لا يستطيع أناسك النسيان ولا التعافي، فحالهم لم يتغير منذ ضربك الزلزال قبل عشرين عاماً. فأولئك الذين تلقوا صدمة رهيبية، باتت كل مؤسسات الحياة لا تعني شيئاً في نظرهم على الإطلاق، فلا حضارة يرجونها ولا هدف لهم. لقد انهار معنى كل شيء مع سطوة ذلك الزلزال المدمر، ولم يتبق سوى المال ومخاضُ لنوع من الإحساس. ميسينيا التي تقبع بين بركاني إتنا وسترومبولي لم يعد يخفى عليها رعب سكرات الموت. دائماً ما ينتابني الفزع من الاقتراب من هذا المكان المخيف، رغم أنني وجدت الناس لطفاً، بشكل محموم تقريباً، كما لو أنهم قد أدركوا الحاجة الفظيعة للطف. إنها تمطر ولا ينفك مطرها عن الانقطاع، نزلت جاهداً للأسفل صوب المصطبة الخشبية المبتلة وسرْتُ عابراً القضبان الحديدية المنذأة بالماء نحو المظلة، حثَّ العديد من الناس خطاهم مسرعين عبر خطوط السكك، وبين القطارات التي خضلتها مياه الأمطار ليخرجوا إلى المدينة المروعة في الجانب الآخر. الحمد لله ما من داعٍ لذهابي إلى المدينة. كان بين الحشد اثنان من المُدانين مكبلين بالسلاسل ويسوقهما جنديان، ارتدى السجينان ثياباً رثة بلونها الضارب للصفرة، من ذات نوعية القماش الذي يحيك الفلاحون ثيابهم منه، **16** تكشفت عن خطوط بنية متقطعة، إنها صناعة

يدوية جميلة نوعًا ما من نسيج خشن، لكنها موصلة ببعضها. يا إلهي القدير! وتلك القبعات البغيضة على جباههم الصلعاء، فالسجينان حليقا الشعر. لربما يمضون بهما إلى مقر المحكوم عليهم في جزر ليباري، وعلى كل حال لم يكثر أي من الناس لأمرهما. بيد أن المدانين مخلوقان رهيبان؛ ذلك الكبير بالسن على الأقل ذو الوجه الطويل الكريه؛ لقد بدا وجهه الحليق المرعب مجرداً من المشاعر، أو لعل هناك أحاسيس لا يستطيع المرء إدراكها، حيث يوجد شيء ما بارد و خفي فيه، باختصار إنه منظر قبيح فاقد للبصيرة، ينبغي أن أشمئز من التفكير حتى بلمسه. أما الآخر فلست واثقاً بشأنه، فهو أصغر عمراً بحاجبيه الداكنين، لكنه يمتلك وجهاً مستديراً ناعماً مع نوع من النظرات الخبيثة. إن الشر مروع حقاً، لم أعتد التفكير على وجود شر مطلق، أما الآن فقد أيقنت أن هناك قدراً كبيراً منه، لدرجة تهدد الحياة تماماً. إنهما نبذة مروعة عن المجرمين، فلقد نُزعت من صديريهما أحاسيس الإنسانية تماماً، ومع ذلك فهناك قوة رهيبة من نوع ما تدفعهم. إن إلغاء عقوبة الإعدام خطأ كبير، فلو كنت دكتاتوراً، لأمرت أن يشنق الكبير بالسن على الفور، ولا بد أن القضاة لدي سيكونون مرهفي الحس بقلوب حية، ولأن القلب على نحو فطري قد تعرّف على ذاك الرجل بأنه شر، فلن أرضى دون فئائه، وبسرعة لأن الخطر بات محدقاً بالحياة الدافئة الخيرة.

إنّ وقوفي في محطة ميسينا، تلك الحفرة الكثيبة الموحشة، ومراقبة أمطار الشتاء ورؤية زوج من المدانين، يدفعني لتذكر الكاتب والشاعر أوسكار وايلد¹⁵ مرة أخرى على منصة القراءة، كشخص مدان. **17**

علمتني هذه المغامرات والمواقف الكثيرة، أنه من الخطأ الفادح أن يتبع الإنسان هوى نفسه، حتى لا يصبح شهيداً من قبل الكثير من العامة، بل يجب على الرجل أن يكون عند كلمته حازماً، وأن يحرص على عدم التراجع عن موقفه والمهادنة في الأمور، وبهذا سيكسب احترام الآخرين وثقتهم. لاحظت أن هؤلاء الناس غريبي الأطوار، فها هما زوج من مأموري المحطة يسيران جيئةً وذهاباً، أحدهما شاب يعتمر قبعة سوداء مزينة بأشرطة الذهب ويتحدث مع زميله الأكبر منه سنّاً بقبعته قرمزية اللون والمزينة بأشرطة الذهب، أكمل الشاب طريقه بقفزة صغيرة رعاء، ولم تتوقف أصابعه عن التحليق في الهواء كما لو كان يرغب ببعثرتها في الجهات الأربع لرياح السماء، بينما انطلقت كلماته كألغاز نارية، وبأكثر من السرعة الصقلية المعتادة، مراراً وتكراراً، جيئةً وذهاباً، بدت عينه مظلمة ومتحمسة وكأنها خبت من نورها، كعين أرنب هارب. حقاً إن الإنسانية غريبة في نزعتها.

يال كثرة مأموري المحطة! تستطيع تمييزهم من قبعاتهم، إنهم قصيرو القامة وأجسادهم بدينة

وأنيقون بأحذيتهم الصببانية المميزة والقبعات المزينة بأشرطة ذهبية اللون، وكذلك منهم طوال القائمة بأنوف مستندقة تظللها المزيد من تلك القبعات، فبدوا كملائكة تدخل وتخرج من بوابات الجنان المتعددة. وبقدر ما أمكنني رؤيته، هناك ثلاثة من أمري المحطة بقبعاتهم القرمزية وخمسة آخرون بقبعات باللونين الأسود والذهبي وأعداد لا تحصى من المناصب والسلطات بأحذية متهتكة إلى حد ما وقبعات رسمية، إنهم كالنحل حول الفقير، يدوي أزيهم بمحادثات خاصة مهمة، وينظرون من تارة لأخرى لبعض الأوراق أو أشياء من هذا القبيل، ليستخلصوا القليل من العسل الرسمي. بدا أن إجراء محادثة هي كل ما تتمحور حوله الأمور، فبالنسبة لموظف رسمي إيطالي تبدو الحياة وكأنها محادثة طويلة مفعمة بالحياة. 18

--الكلمة الإيطالية تعطي معنى أفضل-- ولا يقاطعها سوى مرور القطارات المتقطع ورنين الهواتف. إلى جانب ملائكة بوابات السماء، هناك المعنيون بأعمال الخدمة وحسب، كالحمالين، منظفي المصابيح، وغيرهم. كان هؤلاء يقفون في مجموعات ويتحدثون عن الاشتراكية. شق رجل المصابيح طريقه، مؤرجحاً زوجاً من المصابيح، فضرب أحدهما بقوة بعربة يد، لتحطم هذه الضربة الزجاج، نظر للأسفل وكأنّ لسان حاله يقول، ما الذي تعنيه بذلك؟ اختلس نظرة سريعة للخلف ليرى إن كان أي عضو من التسلسلات الهرمية الأعلى يشاهد ما حدث، كان سبعة أفراد من المراتب الأعلى حريصون ألا تقع أبصارهم على ما حدث، فمضى المستخدم مع المصباح بمرح، ليتحطم جزء زجاجي آخر أو اثنان، وهكذا استمر الحال. تجمع الركاب مرة أخرى، وقد التحف بعضهم بوشاح وآخرين دونما شيء. وقف الشباب تحت صبيب السماء مرتدين ثياباً ذات نوع رديء، وكأنهم يجهلون أنها تمطر. بوسع المرء رؤية معاطفهم التي أسدلوها وحسب على أكتافهم قد تشبعت بالماء، ومع ذلك لم يكلفوا أنفسهم عناء البقاء تحت مأوى. ركض كلبا المحطة الضخمان في الأرجاء، وراحا يهرولان في القطارات المتوقفة كأنهما موظفان رسميان، كانا يتسلقان درج صعود القطار ويثبان إلى داخله ومن ثم إلى خارجه بعفوية حسبما يرغبان. وقف حمالان أو ثلاثة بانتظار المزيد من القطارات الفارغة وقد اعتمروا قبعات كبيرة من الكتان كأنها مظلة، بسطت حرفياً فوق أكتافهم فبدت كالزعانف. توافد المزيد والمزيد من الناس، وتمركزت المزيد من قبعات مأموري المحطة في مواقعها، واستمر المطر بالهطول أكثر فأكثر، لقد تأخر القطار المتجه إلى باليرمو وذاك المتجه نحو سيراكيوز ساعة بالفعل عن موعدهما، أثناء قدومهما من الميناء، أمر مزعج قليلاً، ومع ذلك فلا تزال هي الصلة الرائعة بروما، راحت القاطرات السائبة تتحرك جيئة وذهاباً، وبشكل غامض، كتلك الكلاب السوداء التي تركض وتعود أدراجها. لا يبعد المرفأ أكثر من أربع دقائق مشياً على القدمين، ولو أنها لم تكن تمطر بغزارة، لكننا سنمضي بوجهتنا، سائرين على طول السكة الحديدية لنصل إلى القطار الرابض في الأسفل هناك. 19

بوسع أي شخص أن يفعل ما يوافق هواه، وها هي مدخنة العبارة الضخمة الثقيلة تتجه الآن نحو الضفة، وهذا يعني وصولها البر الرئيسي أخيراً، لكن الطقس بارد للوقوف هنا. تناولنا القليل من الخبز والزبدة من المطبخ بعد أن سلمنا بالأمر. بعد كل شيء، ماذا يعني الانتظار لساعة ونصف؟ قد يطول الأمر بسهولة لخمس ساعات، كما حدث معنا في المرة الأخيرة حين قدمنا من روما. هناك عربة منامة، كان من المقرر ذهابها إلى سيراكوز، إلا أنها تركت عالقة بهدوء في محطة ميسينا، دون أن تمضي أبعد من ذلك. هيا اخرجوا جميعاً وابحثوا لأنفسكم عن غرف تبيتون فيها الليلة في ميسينا الوضيعة. سواء أذهبنا إلى سيراكوز أو لا، أو كان هناك قارب متجه إلى مالطا أم لا. نحن شركة خطوط السكك الحديدية الإيطالية، ولكن أنتم هناك، فيم التذمر؟ نحن الإيطاليون جيدون للغاية، سترردها أفواههم على مسامعك.

أخيراً! ابتهج الحشد، إذ راح قطاران سريعان يشقان طريقهما نحونا بفخر، بعد أن زحفا لنصف ميل، وأصبح هناك العديد من الغرف فجأة. برغم أرضية العربة باتت كبركة صغيرة والمياه ترشح من السقف، إلا أن هذه حال الدرجة الثانية للمسافرين.

رويداً رويداً، أخذ القطار بمحركيه ينفث وينفخ ويلتف ليتجاوز المرتفعات الخطيرة للغاية التي تحجز ميسينا عن الساحل الشمالي، أضحت النوافذ غير شفافة بسبب البخار وقطرات المطر، لكن ذلك ليس بالأمر الهام، فالتفت عنها وصببتُ كأساً من الشاي، 20 من حافظة حرارية، الأمر الذي أثار اهتماماً كبيراً لدى الراكبين الآخرين، فراحا يتأملان بعصبية هذا الشيء المجهول. "ها!" قالها بفرح، لدى رؤيته الشاي الساخن يتدفق للخارج "إنَّ لها مظهر القنبلة". بينما قالت مبديةً إعجاباً حقيقياً: "إنه ساخن بشكل رائع". تبددت كل المخاوف فجأة، وساد السلام المقصورة الرطبة التي تغشأها الضباب. قطعنا أميالاً وأميالاً خلال النفق، لقد قام الإيطاليون بإنشاء سكك حديدية وطرق رائعة.

لو دعك أحدهم النافذة بيده ونظر للخارج، فستقع عيناه على بساتين الليمون التي تتدلى منها الكثير من الثمار البيضاء الندية، وعلى المنازل التي دمرها الزلزال، والأكوخ الجديدة. وعلى اليمين بحر رمادي يبعث على الكآبة، أما الجهة الأخرى فتشابكات المرتفعات الوعرة الرمادية اللون التي تتدفق منها الأنهار ذات الأسرّة الحجرية بعرضها الهائل، وفي بعض الأحيان ترى على الطريق رجلاً يمتطي بغلاً، وأحياناً على مسافة قريبة تلمح ماعراً يبعث على الحزن بشعره

الطويل يتكىء على الجانبين كسفن متمائلة تحت حواف أسطح بعض المنازل الوضيعة. إنهم يسمون حواف السطح بمظلات الكلاب، بوسعك أن ترى الكلاب في المدينة تهرول ملتصقة بالحائط هرباً من البلل، أما الماعز هنا فهو يستند كالصخور ويجنح إلى داخل الجدار الجصي. ما الذي ترنو إليه؟ فالسكك الحديدية الصقلية كلها خط واحد. وبالتالي، تأتي المصادفة حين يجتمع قطاران في عقدة واحدة، إنك تجلس في عالم مطير منتظراً محرّكاً سخيفاً يجر أربع عربات أن ينفخ بجوارك. 21

أخيراً، ها هي المصادفة! ثم وبعد محاورة وجيزة بين قطاري البضائع والركاب، تدوي الصافرة لنمضي بعيداً، تغمرنا السعادة باتجاه مصادفتنا الثانية، بينما ينهمك الموظفون الرسميون في البعيد أمامنا بكتابة ساعات تأخيرنا على لوحة الإعلان بالطباشير بفرح غامر، أضفى كل ذلك نكهة المغامرة على الرحلة، وعلى قلبي العزيز. ثم انتهى بنا المطاف إلى محطة ماء، حيث عثرنا على قطار سريع آخر، قادم من وجهة أخرى، بانتظار وصولنا مصادفة، سار القطاران جنباً إلى جنب، ككلبين التقيا في الشارع وراحا يشتمّان بعضهما، واندفع كل موظف ليلقي التحية على الآخر، وهرعوا إلى بعضهم يتبادلون العناق والسجائر، وبدأ أن القطارات لا تطيق الفراق، وكذلك كان حال المحطة معنا. راح الموظفون يعاكسون بعضهم ويضايقوننا بكلمة بروننتو وتعني جاهز! بروننتو! ومرة أخرى بروننتو! أخذت الصافرات تدوي، مما جعل أي شخص بمكان آخر سوى القطار يتصدع رأسه إلى أقصى حد. ولكن لا! إن دويّها أشبه بصوت ذلك النفير الملائكي المنطلق من البوق الصغير الرسمي الذي سيؤدي العمل، وحاول أن تحملهم على إطلاق صوت البوق إن استطعت، فهم لا يطيقون الفراق.

لا زالت تمطر دونما توقف، والسماء على صعيد واحد رمادية اللون مثقلة بالمطر، وكذلك بحر رمادي مستوٍ وقطار مبتل يغشاه الضباب، فيلتف ويتلوى حول الخلجان الصغيرة، ويغوص في أعماق الأنفاق. ها هي أطراف جزر ليباري بغیضة المنظر تبرز على مسافة غير بعيدة في عرض البحر، كأكوام من الظلال أشبه بأكداس القمامة في رمادية الكون. 22

توافد المزيد من الركاب، من بينهم امرأة ضخمة للغاية بوجه أخاذ في حسنه؛ ومعها رجل هائل الحجم أيضاً في عز الشباب، وخادمة صغيرة، طفلة في الثالثة عشر من عمرها تقريباً بوجه جميل، غير أن جونو، هي من خطفت أنفاسي، فلا تزال شابة في الثلاثينيات من عمرها؛ لديها ذلك الجمال الغبي الملكي الذي توصف به آلهة الزواج الإغريقية هيرا؛ بحاجب عذريٍ قاتم اللون لا انحناء فيه، عينيّ داكنيّين واسعتيّين فيهما شيء من الغطرسة، أنف مستقيم، فم منحوت، ونفحة من البصيرة النائية. إنها تعيد قلب المرء مباشرة إلى الأزمنة الوثنية، وهي ببساطة هائلة مثل

منزل، كانت ترتدي تلك القبعة السوداء الصوفية مطوية من حوافها، وفرو أرنب أسود ينسدل على كتفها، راحت تلتمس طريقها بأناة. وحالما جلست، بدت وكأنها لا تريد النهوض أبداً. فمكنت بطابعها دونما حراك، وبشفتين مطبقتين، ووجه أصم يخلو من كل تعبير. ترقبت إعجابي بها؛ بوسعي رؤية ذلك، وتطلعت أن أثني على حسنها. فقط لأجل هذا؛ ليس تقديرًا لها بحد ذاتها بل لأنها تحفة جميلة، رمقتني بنظرات متحفظة صغيرة من تحت جفניה.

بات واضحاً أن جمالها الريفى بات برجوازيًا، راحت تتحدث على مضض إلى المسافرة الحولاء التي بجانبها، وهي شابة ترتدي فرو أرنب أسود أيضاً لكن دون تكلف. كان زوج جونو شاباً برجوازيًا متورد الوجه، وهو ببساطة ضخم أيضاً، فصدّاره لوحده يكفي أن يكون معطفاً للمسافر الرابع ذي ذقن غير حليق، يرافق الشابة حولاء العينين. **23**

كان الشاب جوبيتر يرتدي قفازات أطفال؛ فبدا ذلك لافتاً للنظر، إنه شخص متصنع أيضاً، لكنه ودود للغاية مع ذاك الرجل غير الحليق الوجه، ويتحدث الإيطالية دون تكلف، بينما تتصنع جونو الحديث بلهجتها. لم يعر أي أحد اهتماماً بالخدمة الصغيرة، كانت رقيقة وبوجه ملائكي كالقمر، وهاتان العينان الصقليتان الجميلتان كانتا شفافتين، فيغوص الضوء فيهما لتصبحا سوداوين أحياناً ومرات تعكسان زرقة داكنة، كانت تحمل حقيبة ومعطفاً إضافياً لجونو الضخمة، وتجلس على حافة الكرسي بيني وبين الرجل غير الحليق. أشارت لها جونو بانحناءة ملكية من رأسها، فأصاب الفرع الخادمة الصغيرة نوعاً ما، ربما لأنها يتيمة الأبوين على الأرجح، كان شعرها البني الكستنائي يتفرق برقة إلى ظفيرتين، لم تكن ترتدي أي قبعة، كما تقتضي مكانتها. على كتفها ينسدل رداء رمادي صغير محبوك باليد، غالباً ما يربطه المرء بدار الأيتام، وترتدي فستاناً رمادياً غامقاً، أما حذاؤها فمتين الصنع. كان هذا الوجه الملائكي الناعم الأشبه بالقمر خالياً من أي تعبير، شاحباً إلى حد يؤثر بالقلب، ولا تغيب عنه ملامح الفرع؛ يعود لطفلة صغيرة، وجه مثالي كأنه ينتمي إلى لوحة من العصور الوسطى، ويحرك المشاعر بشكل غريب. لماذا؟ يكون فاقداً للشعور في حين أننا لسنا كذلك. وكحيوان صغير صامت جلست هناك في محنتها، يبدو أنها ستصاب بوعكة، مضت إلى الممر وقد بانّت علائم المرض عليها— أوه، إنها متعبة للغاية، وحنّت رأسها ككلب مريض من على حافة نافذة القطار، دنا جوبيتر منها كبرج شامخ، ليس بطريقة غير ودودة، فمن الواضح أنه لا يشعر بأي نوع من الاشمئزاز، فالتشنج الجسدي للفتاة لا يؤثر عليه بقدر ما يحرك مشاعرنا. **24** بدا غير متأثر، وعقب قائلاً بكل بساطة أنها قد تناولت الكثير من الطعام قبل صعودها القطار، من الجلي أنها ملاحظة صحيحة، بعد ذلك جاءني وثرثر قليلاً عن بعض الأمور المبتذلة، شيئاً فشيئاً زحفت الطفلة للداخل مرة أخرى وجلست على حافة المقعد المواجه لجونو. ولكن لا، قالت جونو، إن كانت عليلة ستتقيأ علي، وهكذا قام جوبيتر بشكل أكثر استيعاباً بتبديل الأماكن مع الطفلة، والتي أصبحت وفقاً لذلك تجلس بجواري، جلست

على حافة المقعد وقد طوت يديها الصغيرتين الحمرأوين، بوجه شاحب لا حياة فيه، كم هو جميل ذلك الخط الرقيق لحاجبيها البنين الكستنائيين، وتلك الأهداب الداكنة التي اعتلاها الصمت والعينان الداكنتان الصافيتان. جلست صامتة دونما حراك كحيوان مريض.

لكن جونو طلبت منها أن تسمح حذاءها الملطخ بالقيء، تلمست الطفلة طريقها في الظلام طلباً لقصاصة من الورق، لكن جونو أخبرتها أن تأخذ منديل جيبها، وبوهن شديد مسحت الطفلة المريضة حذاءها ثم أسندت ظهرها ولكن يبدو أنها ليست على ما يرام، توجب أن تعود للممر وتتقيأ مرة أخرى. بعد فترة خرجوا جميعهم، عجيب كيف يبدو الناس طبيعيين للغاية، فلا جونو ولا جوبيتر كانا قاسيين بشكل مطلق، بل إنه قد بدا لطيفاً حتى، والأمر أنهم لم يشعروا بالضيق وحسب، ولا حتى بنصف الغم الذي أصابنا. أرادت كيوبي تقديم الشاي لها وما إلى ذلك، فتوجب علينا أن نمسك رأس الطفلة، فهما وببساطة تركاها لوحدها مع رعشاتها، دون أن يكدرهم ذلك أو ينفّرهم، جرت الأمور هكذا فحسب.

بدا سلوكهما اللامبالي غير طبيعي بالنسبة لنا، رغم ثقّتي أنه لا غبار عليه، فالتعاطف سيزيد الأمور تعقيداً لا أكثر، ويفسد تلك المسحة العذراء المنعزلة الغريبة، قالت كيوبي إنّ ذلك غباء إلى أبعد حد. **25**

لم يغسل أحد زاوية الممر، رغم أننا توقفنا في المحطة لفترة طويلة بما فيه الكفاية، وتبقى على وصولنا ساعتان أخريان. كان مسؤولو القطار يمرون جانبها ويحدقون، والركاب يتخطونها ويحدقون، وكذلك فعل القادمون الجدد. هل خطر ببال أحدهم أن يسأل من تقيأ؟ لم يرقم أي شخص ولو بدلق دلو من الماء، فلم يتوجب عليهم ذلك؟ كل ما يحدث هو من سلوك طبعهم، مما يدفع المرء أن يكون متحفظاً قليلاً على نفس حال طبيعة هؤلاء الناس في الجنوب الإيطالي.

يدخل راكبان جديان، أحدهما أسود العينين ذو وجه مستدير، طلقُ المُحيّا بيده بندقية، وآخر طويل الوجه ذو بشرة متوردة نضرة، وشعر أبيض كثيف، يرتدي قبعة جديدة ومعطفاً طويلاً بقماش أسود ناعم مبطن بفراء قديم نوعاً ما، كان باهظ الثمن في فترة خلت، بدا فخوراً للغاية بمعطفه الأسود الطويل وبطانة الفرو القديمة، وباختيال طفولي قام بلفه مرة أخرى على ركبته وقد ارتسمت البهجة على وجهه. بدت عينا الصياد الخرزيتان السوداوان مستديرتين ببقطة لا تخلو من الرضا، جلس قبالة صاحب المعطف، الذي بدا أشبه بآخر أنسال الدماء النورماندية، شعت ابتسامة من فم الصياد الذي ارتدى سروالاً قصيراً، بعينه الخرزيتين السوداوين ووجه

أحمر مستدير، على نحو يثير الفضول، بينما دس الآخر معطفه الطويل المبطن بالفرو بين ساقيه وهو مسرور من نفسه، كان كل هذا الابتهاج يدّخره لذاته، وبدا كما لو أنه أصم، ولكن لا، إنه ليس كذلك. 26 كان يرتدي حذاءً موحلاً يصل لنصف ساقه.

لدى وصولنا محطة تيرميني كانت المصابيح قد أنيرت مسبقاً، وفجأة تزامم رجال الأعمال للدخول، كان نصيبنا خمسة رجال أعمال منهم، كلهم ممتلئو الأجسام، ويتسمون بوقار سكان مدينة باليرمو. كان للرجل الذي جلس قبالي شارب، ودثار سفر مرقع بألوان عديدة على ركبتيه السمينتين، غريب كيف يتولد لديهم ذلك الشعور بالانسجام الجسدي، فلن تتفاجأ أبداً إن هم بدأوا بخلع أحذيتهم، أو ياقاتهم وربطات عنقهم، فالعالم بأسره ليس أكثر من غرفة نوم بالنسبة لهم، قد يساورك الضيق، ولكن عبثاً.

سرى حديث بين الصياد ذي العينين الخرزيتين السوداء ورجل أعمال، وكذلك حاول الشاب ذو الشعر الأشيب الأرستقراطي، فتلعثم مسهباً ببعض كلمات، وحسب ما تبين لي فالشاب مجنونٌ أو مختل، أما الآخر الصياد فهو الوصي عليه، وهما يسافران عبر أوروبا سوية. هناك حديث ما عن "الكونت"، والصياد يقول وقد بدا عليه الأسف "أنه قد تعرض لحادث"، ولكن هذه الكياسة الجنوبية يحتمل أنها أسلوب في الحديث لا أكثر، على أي حال فهي لا تخلو من الغرابة، بيد أن الصياد بسرّوالة القصير ووجهه المتورد المستدير، وعينييه السوداوين اللامعتين بشكل غريب، وشعره الأسود الخفيف؛ لا يزال أحجية بالنسبة لي، بشكل أكبر من ذاك الأمهق اللون طويل المعطف والوجه، ذي البشرة النضرة، إنه بقايا بارون غريب الأطوار كما يبدو. كلاهما ملطخان بالوحل، ومسرور بطريقة جنونية قليلاً من نفسه، لكنها السادسة والنصف، ونحن الآن في باليرمو عاصمة صقلية، علق الصياد بندقيته فوق كتفه، وفعلت كذلك بحقيبة ظهري، ثم نزلنا واختفينا جميعاً في الزحام، عبر طريق فيا ماكيدا. 27

يوجد في باليرمو شارعان بارزان، فيا ماكيدا و كورسو، ويتقاطعان مع بعضهما بزاوية قائمة. يتسم شارع فيا ماكيدا بأنه ضيق وأرصفته قليلة ضيقة، ويغص دائماً بالعربات والمشاة. لملت السماء حبائل أمطارها، غير أن الشارع الضيق كان يرصف ببلاطات ضخمة محدبة من الحجارة الصلدة، مما جعله مشحماً بشكل لا يصدق، وهكذا بات قطع شارع فيا ماكيدا عملاً بطولياً. على أي حال، حلت المشكلة بمجرد الفراغ منه. بدت نهاية الشارع القريبة مظلمة إلى حد ما، وتوزعت فيها متاجر الخضار بشكل رئيسي، وفرة من الخضروات، أكوام من الشمر الأخضر والأبيض، والكرفس، وحزم كبيرة من الخرشوف اليناع بلونه الأرجواني ولون رمال البحر تهز براعمها، أكوام من الفجل الكبير بلون قرمزي وأرجواني مزرّق، جزر، خيوط طويلة من التين المجفف، جبال من البرتقال كبير الحجم، فلفل أحمر كبير، شريحة أخيرة من اليقطين، كتلة كبيرة من

الألوان والخضروات النضرة، مقدار وافر من القرنبيط الأسود الأرجواني كرؤوس العبيد، وجبل آخر منه بلونه الأبيض إلى جواره. كيف لهذا الشارع المظلم الزلق الذي ترك الليل ندوبه عليه أن يشع بهذه الخضروات، كل هذا اللب الشهى الطازج للخضروات الزاهية مكومة هناك في الخلاء، وفي خبايا تجاويف المحلات الصغيرة التي لا نوافذ لها، حيث تلمع هناك تحت المصابيح في أثير الليل. أرادت زوجتي كيوبي على الفور شراء الخضروات. "انظر! انظر إلى البروكلي الناصع البياض كالثلج، انظر إلى الشمر الضخم. لما لا نبتاعهم؟ علي أن أحصل على القليل منها، انظر إلى عناقيد التمر الكبيرة تلك - عشرة فرنكات للكيلو الواحد، ودفعنا ست عشرة فرنكا، 28 إنه رهيب، هذا المكان رهيب ببساطة".

الأمر بما فيه، أن المرء لا يشتري الخضروات ليأخذها إلى سردينيا. قطعنا شارع كورسو عند تلك الدوامة الهائلة المزخرفة والمكان الخطر للغاية عند مبنى كواترو كانتى، أوشكتُ بالطبع أن أطرح أرضاً وأقتل، ما من دقيقتين تمر إلا ويكاد شخص أن يُصدم ويُقتل. حسناً، أحمد الله أن العربات خفيفة الوزن، والخيول مخلوقات واعية بشكل مثير للفضول، فهي لن تدهس أحد. الجزء الثاني من شارع فيا ماكيدا هو الجزء المزدهر؛ حيث يباع الحرير والريش، وعدد لا حصر له من القمصان وربطات العنق، أزرار الأكمام والشالات النسائية، ولوازم الرجال الفاخرة. يدرك المرء هنا أن الألبسة الجاهزة الرجولية والملابس الداخلية تحظى بنفس أهمية ملابس النساء تماماً، إن لم يكن أكثر.

أنا الآن أستشيط غضباً، فكيوبي تحقق بكل قطعة قماش ودرزة، وتجتاز وتعيد عبور هذا التموج المظلم الجهنمي من شارع فيا ماكيدا، والذي كما أسلفت آنفاً، يغص بالمشاة المتجولين والعربات، ومن الجدير بالذكر أنني أحمل حقيبتي البنية على ظهري، وكيوبي تحمل حقيبة اليد الجلدية، وهذا يكفي لجعلنا نبدو كسيرك متنقل، لو كان قميصي بارزاً من الخلف، أو صدف وانتزعت كيوبي قماش الطاولة ولفته حولها ببساطة وهي تهم بالخروج، فستكون الأمور على ما يرام، أما أن أحمل حقيبة ظهر بنية كبيرة! وسلة مع حافظة حرارية وما إلى ذلك! لا، لن يتوقع أحدُ مرور مثل هذه الأشياء في عاصمة جنوبية. 29

ولكني لم أعد أبه بشيء، فكم سئمت المحلات التجارية، صحيح أننا لم نمكث في مدينة منذ ثلاثة أشهر، ولكن هل ستجذبني الطرازات المتنوعة في خط الأقمشة المعروضة للبيع والتي تلف على الجسد؟ فهنا كل تفصيل صغير تافه يعتقد أنه يضفي أناقة إضافية يدعى طرازاً، إنَّ هذه الكلمة تتحدر بشكل حزين إلى أمعائي، فجأة أدركت أن كيوبي تخطتني كالعاصفة، لتتقضى على ثلاث شابات مشاغباتٍ علت ضحكتهن، وقد حدث ذلك تماماً أمام قبعة التخرج المخملية السوداء التي يتعذر تجنبها، والشال الأبيض المجعد المحتوم شراؤه، والفتيات الخليعات من الطبقة الدنيا.

صرخت كيوبي قائلة: "هل تردن شيئاً؟ أليكن ما تقلّنه؟ أهنالك ما يسلي؟ أوه-أه! عليكنّ أن تضحكنّ، أليس كذلك؟ أوه -- صوت ضحك! لماذا؟ لماذا؟ هل تسألن لماذا؟ ألم أسمعكن؟ أوه -- نتحدثن الإنجليزية! نتحدثن الإنجليزية! نعم—لِمَ لا؟ هذا هو السبب! نعم، هذا هو السبب!". انكمشت الشابات الثلاث الخليعات بأن واحد وكأن كل واحدة ستختبئ وراء الأخرى بعد انتفاضة متغطرة ومطالبة بمعرفة سبب مهاجمة كيوبي لهنّ؟ وسيدة شهدت الموقف وراحت تحقّق بذهول وتساّلهنّ عن ما يحدث. وهكذا انحشرن مع بعضهن بعدم راحة تحت وطأة قرعات غير متوقعة من مطرقة كيوبي الثقيلة، وما هو أكثر من رد الصاع بمطرقة ثقيلة. تجمع الناس بذلك المكان في شارع فيا ماكيدا ليشاهدوا هذا الجدل. أما الشابات فأخذن يتقلبن حول بعضهن، كل واحدة تحاول أن ترجع وراء الأخرى بعيداً عن كيوبي المتوقعة، لاحظت أنّ هذه الحركة الدورانية تعادل جمود أحاسيسهنّ، وهذا ما دفعني للتدخل كرجل وقول شيء حاسم، فألقيت في النهاية كلمة عليهنّ ببرودٍ وبنبرة الطرد: "جهلة! هذه أخلاق مدينة باليرمو الهمجية". 30 فأتت تلك الكلمات ثمارها، وسارعن بالابتعاد لآخر الشارع، ولازلن يتجمعن ويتضاءلن كقوارب شرعت بالإبحار ورحن يختلسن النظر لرؤية إن كنا قادمين وراءهن، نعم يا عزيزاتي إننا قادمان.

سألت كيوبي التي اعتلاها حنق شديد: "ما الذي ضايقك منهم؟" فأجابت: "لقد تبعنا طوال الشارع، ولسانهنّ يردد حقيبة ظهر عسكرية اللون، أوه، إنهما يتحدثان الإنكليزية، بالإضافة إلى تعليقاتهنّ الوقحة الساخرة، ولكن الإنكليز حمقى، فهم دائماً ما يتحملون هذه الوقاحة الإيطالية". وهو أمر قد يكون صحيحاً، لكن ما سرُّ هذه الحقيبة! فلو كانت مليئة بالإوز البرونزي الصاخب، فلن تجذب كل هذا الانتباه! على أي حال، إنها السابعة مساءً وبدأت المحال بالإغلاق، فلا مزيد من التحديق بالمحلات، سوى مكان واحد رائع؛ تجد فيه لحم الخنزير النيء، وذاك المسلوق منه، المخبوزات المنمنمة المحشية بالدجاج، اللبن المخثر الحلو، الجبن المصنوع من الخثارة، كعكة الجبنة الريفية، النقانق المدخنة، مرتديلا طازجة رائعة، جراد بحر أحمر اللون من البحر المتوسط، ومنها دون مخالب "رائع للغاية! ممتاز!" وقفنا وأخذنا نندب حظنا بصوت عالٍ، لكن هذا المحل أيضاً راح يوصد أبوابه. سألت رجلاً عن فندق بانتشينو، فعاملني بتلك الطريقة الجنوبية اللطيفة المحببة التي لا تخلو من الغرابة، حيث اصطحبني وأراني إياه، لقد جعلني أشعر وكأنني ورقة شجر بائسة ضعيفة لا حول لها، حيث عاملني كأجنبي فيه مسحة من البلاهة وبشيء من العطف، ممسكاً يدي ليدلني على الطريق. 31

أن تجلس في غرفة هذه الشابة الأمريكية بستانرها الزرقاء، وتشرب الشاي وتحدث حتى منتصف النهار! أه يال هؤلاء الأمريكيون الساذجون، يصبحون أكبر منا بقدر كبير وأكثر دهاء

بمجرد الاقتراب من وجهة النظر، ويبدو أنَّ جميعهم يشعر وكأن نهاية العالم قد حانت، وهم كرماء حقاً بضيافتهم، في هذا العالم القاسي. **32**

هوامش

1- البحر الأيوني: هو أحد أفرع البحر المتوسط ويتصل من شماله بالبحر الأدرياتيكي. يحد البحر غرباً الأجزاء الجنوبية من إيطاليا وكذلك جزيرة صقلية، ومن الشمال الشرقي تقع جمهورية ألبانيا والعديد من الجزر اليونانية والتي تعرف باسم الجزر الأيونية ويصله مضيق أترلنتو بالبحر الأدرياتيكي ويعد خليج كورنت الأكبر من بين عدة تجاوير عميقة شكلها البحر الأيوني على شاطئ اليونان. تعد منطقة البحر الأيوني من أكثر المناطق عرضة للزلازل في العالم.

2- كوكبة الجوزاء: أو كوكبة الجبار هي واحدة من كوكبات السماء الحديثة الثمانية والثمانين، وإحدى أشهر الكوكبات في الثقافات الإنسانية القديمة وأكثرها رواجاً بين هواة الفلك. كوكبة الجبار هي واحدة من أشهر الكوكبات السماوية لوضوحها الكبير وشدة لمعان معظم نجومها، ويجعل ذلك تمييزها سهلاً حتى في حال وجود تلوث ضوئي عالٍ، كما أنَّ هينتها - التي تخيلها الناس منذ القدم - واضحة كثيراً كمحارب يقف حاملاً سلاحه وعلى خصره حزام من ثلاثة نجوم.

3- الشَّعْرَى اليمانيَّة: يعرف بالإنجليزية باسم سيرْيوس هو نجم سماوي يعرف في الفهارس الرسمية وفي علم الفلك الحديث باسم (ألفا الكلب الأكبر)، يطلق عليه أهل البحر في شبه الجزيرة العربية اسم "التير" ويسميه أهل البادية في منطقة نجد باسم "المرزم" ويعد النجم الوحيد - باستثناء الشمس - الذي ذكر اسمه صريحاً في القرآن الكريم في الآية 49 من سورة النجم "وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى". وهو ألمع أو أسطع نجوم السماء كلها، وهو في الحقيقة عبارة عن نجمين مترافقين، يدوران حول مركز الجاذبية بينهما ويكونان معاً نظاماً نجمياً يعرف باسم النجم الرُّوجِيّ.

4- مدينة أغريجنتو: جَرَجَنْتْ أو كِرْكَنْتْ، مدينة إيطالية تقع على الساحل الجنوبي لصقلية، عاصمة مقاطعة جرجنت، تعرف كموقع لمدينة أكرغاس القديمة، عدد سكانها 59.111 نسمة. من أشهر ابنائها لويجي بيرانديلو الكاتب المسرحي الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 1934 م.

5- بلاد الباسك: أو بلاد البشكنش هي إقليم ضخم يمتد عبر جبال البيرينييه الغربية على الحدود ما بين فرنسا وإسبانيا تصل مساحتها لحوالي 20 ألف كم². بلاد الباسك مقسومة سياسياً بين دولتي فرنسا وإسبانيا.

6- الشياطين الكبرى: شياطين الجحيم التي تنبعث منها رائحة الكبريت وهي شديدة الشر.

7- الرهبنة الكبوشية: هي رهبنة كاثوليكية نشأت عام 1525 بوصفها حركة إصلاحية ضمن نطاق الرهبنة الفرنسيسكانية، حيث استقلت عنها نهائياً عام 1619.

8- الخُروب أو الخرنوب تذكر المصادر العالمية أنَّ التسمية ذات أصل عربي وهي شجرة دائمة الخضرة تنتمي إلى أسرة الفصيلة البقولية، تعيش بشكل طبيعي في المنطقة المتوسطية التي تشمل المشرق العربي والمغرب العربي ومن الدول العربية الموجودة بها غابات الخروب ليبيا بالقرب من مدينة البيضاء.

9- قصر كورفاجا: هو قصر من القرون الوسطى في تاورمينا، صقلية، إيطاليا. تم بناؤه بشكل أساسي في نهاية القرن الرابع عشر وتم تسميته على اسم واحدة من أقدم وأشهر عائلات تاورمينا التي امتلكتها من 1538 إلى 1945. يقع القصر القوطي القوطي على أربعة طوابق رئيسية وتم بناؤه حول فناء.

10- سترات الليمون: حمض الليمون أو حمض الستريك هو حمض عضوي ضعيف يوجد في الموالح. وهو مادة حافظة طبيعية. ويستخدم لإضافة مذاق حمضي للأطعمة والمشروبات. في الكيمياء الحيوية هو وسيط مهم في دورة حمض الستريك وبالتالي فهو يتكون في كل التمثيل الغذائي لكل شيء حي تقريباً. ويخدم أيضاً كعامل منظف للبيئة ويعمل كمضاد للأكسدة.

11- داريو: هي كومونا في مقاطعة سوندريو في المنطقة الإيطالية لومباردي، وتقع على بعد حوالي 80 كم شمال شرق ميلان وحوالي 20 كم غرب سوندريو. في 31 ديسمبر 2004، كان عدد سكانها 380 وتبلغ مساحتها 3.7 كيلومتر مربع.

12- أدونيس: هو أحد ألقاب الآلهة في اللغة الكنعانية - الفينيقية، وهو معشوق الإلهة عشتار انتقلت أسطورة أدونيس من الحضارة والثقافة الكنعانية للثقافة اليونانية القديمة وحببته صارت أفروديت. يجسد الربيع والإخصاب لدى الكنعانيين والإغريق. وكان يصور كشاب رائع الجمال.

13- جوزيبي ماريا غاريبالدي. كان جنرالاً إيطالياً ووطنياً وجمهورياً. ساهم في توحيد إيطاليا وإنشاء مملكة إيطاليا.

*فيكتور إيمانويل الثالث: آخر ملوك مملكة إيطاليا، وابن الملك أومبيرتو الأول وأبو الملك أومبرتو الثاني، ولد في 11 نوفمبر 1869، في مدينة نابولي في إيطاليا وتوفي في 28 ديسمبر 1947 بمدينة الإسكندرية في مصر ودفن بها ثم أعيد جثمانه إلى إيطاليا بعد سبعين عاماً ليُدفن في مدينة فيكوفورتى الإيطالية في ديسمبر 2017.

14- ريجيو: ريجيو إميليا، مدينة في إقليم إميليا رومانيا شمال إيطاليا، من أهم معالمها كاتدرائية سانتا ماريا أسونتا التي تتميز بأرضيتها الفسيفسائية. لبلدتها القديمة شكل سداسي، وقد استمدت ذلك من أسوارها القديمة.

15- أوسكار وايلد: كان شاعرًا وكاتبًا مسرحيًا أيرلنديًا. أصبح أحد أشهر الكتاب المسرحيين في لندن في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر. أفضل ما يُذكر عنه هو قصائده ومسرحياته، وظروف إدانته الجنائية بارتكاب أعمال شاذة جنسية بالتراضي في "واحدة من أولى محاكمات المشاهير"، دخل السجن، ومات باكراً من التهاب السحايا في سن السادسة والأربعين.

الفصل الثاني

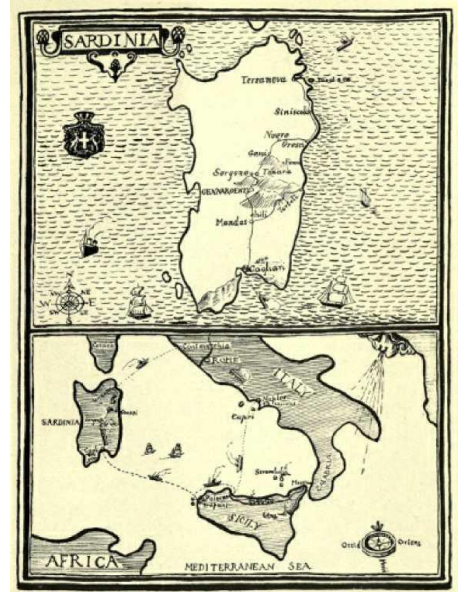
البحر

بينما كنت نائمًا في سريري إذ بي أسمع طرقات على الباب، دخل حَمَل سمين عجوز. يا لحظي العاثر! نظرت من النافذة، يا إلهي! إنه الظلام مجددًا، ولهذا فعلي النهوض تارة أخرى قبل حلول الفجر. خرجنا لنتابع المسير فوجدنا السماء ملبدة بالغيوم السوداء، وقد ضجَّت الشوارع والأزقة

برنين مثير لعدد لا يحصى من أجراس الماعز مع دخول أول قطيع إلى المدينة، فبدت وكأنها أصوات متماوجة. حسناً، إنه الصبح وقد أقبل بلا ريب، حتى وإن سرت رعشة في جسد المرء من حلول هذا الضيف، لكن على الأقل فإن السماء قد أحجمت عن البكاء.

لقد أعلن الفجر عن لحظة وصوله الأولى حين رمى في الأرجاء وسط الرياح الباردة ذاك الضوء الباهت الزائف الضارب إلى الزرقة. تقدمنا نحو رصيف ميناء عريض مهجور، عند منعطف الطريق المؤدي لميناء بانورموس، وهنا أبدى الفجر شحوباً رهيباً أمام برودة البحر الشديدة، وبالكاد أرسل النهار أولى خيوطه على ظلمة هذا البحر المدلج. كان هذا الميناء يعجُّ بالطين والدهن والشحم والأسماك، يا لها من نفاياتٍ عفنة! رباه! إنَّ البرد شديد وقارس! مما دفع الفتاة الأمريكية المرافقة لنا إلى التدثر بكنزتها، يا إلهي! إنه عالمٌ قاسٍ وبارد غطى الوحل الأسود كل بقعة فيه، يبدو أنها ستتلاشى تدريجياً فيه. ولكن يا ترى أي مصير ينتظر مثل

هذه المخلوقات الهشة في هذا العالم!



خريطة لساردينيا والبحر

عبر طريق رصيف الميناء الكبير العريض المرصوف على نحو رديء والمغطى بالوحل الزلق والمحاذي للبحر والذي يبعث اليأس والقنوط في النفس، تربض سفينتنا البخارية هناك في غسق الفجر الذي كلل حوض السفن بشيء من ضيائه، فباتت بالكاد تُرى. وصفها العتال قائلاً: "إنها كامراً أشعلت سيجارتها". وهي تبدو صغيرة الحجم مقارنةً بمدينة تريستا¹ الكبيرة التي كانت ترسو بجوارها هناك. **33**

كان الزورق الذي سيقلنا إلى سفينتنا محاطاً بالعديد من القوارب الفارغة المحتشدة على جانب رصيف الميناء، فراح يشق طريقه بينهم مثل كلب ماشية يسير بإصرار لأجل الخروج من بين قطيع الأغنام، أو زورق يبحر عبر كتل جليدية طافية. إننا نجدف الآن وسط حوض السفن، وفجأة نهض المُجَدِّف ورمى المجاذيف ثم أطلق صرخةً تقبض القلب نحو شخص ما على رصيف الميناء. أخذت المياه تدلف بقوة تحت مقدمة المركب المندفع، وراحت الرياح ترمي في كل مكان بسهامها الباردة التي تبعث القشعريرة في الأجساد، وظهرت القمم الجبلية الرائعة خلف مدينة باليرمو بصورة نصف طيفية وسط السماء التي بدأت ترمي عباؤها السوداء شيئاً فشيئاً، وقد بدا الفجر خجولاً متردداً في طلعه، أما سفينتنا البخارية فلا زالت تنفث أنفاس سيجارتها؛ وأعني بذلك أن الدخان ما زال يخرج من مدخنتها، وهذا ما يدفع المرء للبقاء ساكناً وعبور هذه المساحة المسطحة للمياه نصف الداكنة، ثم تراءى لي مشهد صواري وقوائم السفن الشراعية، وقد تجمعت نحو الجهة اليسرى وسط السماء التي خلعت خمار الظلام.

اصعدوا هيا اصعدوا، فهذه سفينتنا البخارية، دعونا نمضِ عاليًا، فوق السلاالم. قالت الفتاة الأمريكية: "آه ولكن! أليست صغير؟ إنها ضئيلة الحجم بشكل يتعذر ركوبها، آه يا لحظي العاثر؟ هل ستركب في مثل هذا الشيء الصغير؟ آه يا عزيزي! اثنتان وثلاثون ساعة على متن قارب صغير كهذا؟ ولم لا؟ لن أهتم لذلك على الإطلاق".

وجدنا على ظهر السفينة مجموعة من الخدم، الطهاة، المهندسين، منظّفي الأوعية، وما إلى ذلك... وقد ارتدى غالبيتهم معاطف سوداء من الكتان، لا أحد سواهم على السفينة، إنهم حفنة سوداء صغيرة لطاقم فظ يفتقر لأي واجبات ومهام لتأديتها، ونحن أول ركاب تم تقديمنا كقربان سخرية على هذا المركب، وكأنهم يرحبون بنا بتهكّم؛ ها أنتم ذا، وقد ارتسمت على وجوههم

ابتسامة خبيثة. 34 سأل أحدهم: "من منكم سيمضي برفقتنا؟". "نحن الاثنان، لكن الأنسة غير ذاهبة". "التذاكر من فضلكم!". هذه هي عادات طبقة العمال العفوية. بعد ذلك تم اصطحابنا إلى غرفة طويلة الشكل تحتوي على طاولة طويلة والعديد من الأبواب ذهبية اللون مصنوعة من خشب القيقب، ولوحات متقابلة أدخلت فيها صور فخارية بيضاء تمتاز بألوان زرقاء- بدت وكأنها آلهة مصنوعة من الرخام الأبيض قد نُصبت بعناية على قاعدة زرقاء تشبه إعلاناً في الجريدة لآلهة إغريقية تحمل أحد الأملاح الصحية المفيدة للجسم، فُتحت إحدى هذه اللوحات – فإذ بها مقصورتنا لهذه الرحلة.

أخذت الفتاة الأمريكية تبكي وتثرثر: "لِمَ هذه المقصورة ليست كبيرة بحجم خزانة صينية على الأقل؟ إلا أنك وبرغم ذلك ستدخل فيها!". فأجبتها: "بل سنلجأ الواحد تلو الآخر". "لكنها أصغر مكان شاهدته في حياتي".

إنها بالغة الصغر بالفعل، حيث يتوجب على المرء أن ينام في سرير مبيت ضيق ذي طابقين لكي يتمكن من إغلاق الباب، بيد أن ذلك لم يكن ذا أهمية بالنسبة لي، فأنا لست ذاك الرجل الأمريكي الضخم، ولهذا ألقيت حقيبة ظهري على أحد طابقي سرير المبيت وحقيبة الكيتشينينو فوق الآخر، ثم أوصدنا الباب لتختفي المقصورة داخل أحد الألواح المصنوعة من خشب القيقب للحجرة الطويلة الباطنية، 35 إلا أن الفتاة الأمريكية لم تكف لحظة عن التذمر والنحيب: "قل لي لماذا؟ هل هو المكان الوحيد الذي استطعت الحصول عليه لنمكث فيه؟ يا له من مكان رهيب تمامًا، حالك الظلمة ولا هواء فيه، وقد سكنته رائحة كريهة، لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا المركب! هل ستمضي حقًا؟ هل ستفعل؟". كانت الحجرة باطنية وخائفة بالفعل، لا أثاث فيها سوى منضدة طويلة ومجموعة غريبة من الكراسي الدوارة وضعت في ذلك المكان، ولا منفذ للهواء فيها. ولكن الحال من ناحية أخرى لم يكن سيئًا للغاية بالنسبة لأناس مثلي لم يسبق لهم مطلقًا الخروج من أوروبا. إن تلك الألواح المصنوعة من خشب القيقب والأقواس المعدّة من خشب الأبنوس وزخارف الآلهة تلك قد أحاطت بنا في كل مكان، حتى حول المنحنى الموجود في النهاية البعيدة الخافتة، لتستمر عائدة وصولاً إلى الجانب القريب منا. من ناحية أخرى لا يسعني وصف مدى جمال خشب القيقب القديم ذي اللون الذهبي! يالروعته مع التفافات خشب الأبنوس في قوس الباب! فبمقدورك أن تلاحظ وجود وهج فيكتوري بديع قديم الطراز وفخامة جليلة للعيان، أما تلك الآلهة فيتراءى للمرء من شدة لمعانها وكأنها قد أدخلت تحت الزجاج – حيث بدا اللون لائقًا على هذه الزخرفة الكلاسيكية البيضاء المنقوشة على أرضية زرقاء بلمعانها الذهبي البديع. إن هذا الترف في اختيار المواد يوحي لك أنه ينبع من عظمة أصيلة كانت موجودة في الأيام التي بنيت فيها هذه السفينة. أوصلني كل ذلك إلى استنتاج صادم، وهو أن اللافتات الإعلانية التي تتجسد على صفحاتها آلهة تحمل قارورة أملاح صحية أو الآلهة اليونانية بيضاء

اللون والمنقوشة على أرضية زرقاء لم تكن قط مجرد إعلانات تجارية بل لوحات فنية رائعة، لقد أثار ذلك قلقًا كبيرًا في نفسي، حيث لم يتم إعدادها لغاية تجارية أبدًا، ولربما قامت شركة ويغو للأملاح الصحية بسرقتها لاحقًا.

لم يُقدم لنا على هذه السفينة حتى فنجان من القهوة، إنه أمر مؤكد، فلا أحد يُنجز شيئًا بوقتٍ باكٍ في هذا المكان، **36** فما زال طاقم السفينة يحتشد في مجموعة وكأنهم عصابة من البلهاء احتلت إحدى زوايا الشارع وقد استحوذته لنفسها فقط، إنَّ حال السفينة مشابه لهذا الوصف تمامًا. ولهذا أثرنا الصعود إلى السطح العلوي منها.

إنها سفينة بخارية طويلة مشوقة قديمة ذات مدخنة صغيرة واحدة، وتبدو مهملة للغاية. لقد تخلصنا الآن من رؤية ذلك الطاقم الغير مبالي والأشبه بعصابة زاوية الشارع، فهم موجودون في الطابق الأسفل منا تمامًا. تبدو سفينتنا مهجورة كمرتج للأشباح، حيث يطلع الفجر عليها بوجه أزرق شاحب، وقد انتشج السماء مزيجًا كأنه خثارة من السُحب، فضلًا عن لمعان ذهبي طفيف نحو الشرق يبرز خجولًا من وراء جبل بيليجرينو² المهيّب، وراحت الرياح تلهو وتسرح مرحلة عبر الميناء، أما التلال الموجودة خلف مدينة باليرمو فبدت وكأنها تُصغي بحرص ولهفة إلى الأفق البعيد وتتبادل معه أطراف الحديث، وقد استلقت المدينة خفيّة على مقربة منا دون أن تغتلي هضبة أو تفترش سفح جبل، وفي هذه الأثناء إذ بسفينة كبيرة تظهر على مقتربة منا، يا إلهي! إنها سفينة مدينة نابولي. ثم توالى القوارب الصغيرة بالإبحار من الميناء مقبلةً نحونا، وأثناء ذلك شاهدنا ضابطًا شجاعًا من سلاح الفرسان يرتدي بزّة ذات لون أخضر رمادي، ويضع على كتفيه عباءة غامقة الزرقة مع بطانة قرمزية اللون منحتها لمعانًا بارزًا. وقد زينت وجهه لحية خفيفة ولم تتسم بذلته بالنظافة تمامًا، وكانت برفقته صناديق خشبية كبيرة مربوطة بحبال كأمتعة له، بيد أنه وبرغم ذلك بدا رجلًا فقيرًا لا ينتمي لأي طبقة اجتماعية، حتى مع تلك البطانة القرمزية المترفة والجوائز القيمة، حيث سيؤول به المطاف مع كل هذه الأشياء إلى الدرجة الثانية في السفينة، لكنه يحظى باحترام خاص مع ذلك، فقد سار للأمام تاركًا عتال السفينة بحمل تلك الصناديق الخشبية. ولم يحضر معه أي رفيق سفر حتى هذه اللحظة.

ما زالت القوارب تُقبل نحونا، ها ها ها، إنها مؤن عسكرية تتبع الضابط!، قطع لحم متنوعة من جدي³ صغير جاهزة للشواء، **37** أنواع كثيرة من وجبات الدجاج، شمرة شبيهة بالكرفس، زجاجات من العصير، خبز طازج. جُمعت بأكملها على شكل طرود، ليتم نقلها إلى السفينة

البخارية. انهمرت دموع الشوق من كيوبي وصرخت بلهفة: "يال أطايب الطعام تلك! كم أتوق لمذاقها الشهي!".

لا بد أنَّ الوقت قد اقترب من موعد متابعة سير الرحلة، غير أنَّ مسافرين آخرين قد أقبلوا لينضموا إلى ركب السفينة، إنهما شابان غليظان يرتديان ثيابًا مصنوعةً من الجوخ الأسود، ويقفان في مؤخرة قارب صغير، وقد وضعا أيديهما في جيوبهما، ويبدو أنَّ البرد قد تسلل إلى ذقنيهما. لم يمتلكا دماء إيطالية نقية، لكنهما شديدا البأس وشجاعان، إنهما في واقع الأمر مواطنان من جزيرة ساردينيا وينتميان لعاصمتها كالياري⁴ على وجه الخصوص.

نزلنا من الطابق العلوي شديد البرودة، وكان النهار قد انتصف. وفجأة، التفثُّ نحو الشرق، وإذ بشذرات من أشعة الشمس الذهبية الباهتة تتطاير بين رقائق سحب ناعمة وباردة، وقد انبثقت خصل ذهبية أخرى من رحم السماء الفيروزية البديعة التي اعتلت جبل بيليغرينو، ذاك الجبل العظيم الشامخ على الجهة اليسرى من مدينة باليرمو، حيث بسط هيئته وسيطرته على جميع موانئها التي مسها شيء يسير من الخراب والفوضى، وقد امتد على طول واجهة رصيفها البحري، ليعلن أنَّ نهاية البحر تقبع تحت قدميه، كلا بل نهاية العالم بأسره. حتى من موقعنا هذا تمكنا من رؤية العربات الصفراء تقرقع ببطء أثناء مسيرها على طول الجانب الواسع الكئيب المحاذي للميناء، وقد أخذت بغالها تهز رؤوسها المزينة بريشٍ منتصب قرمزي اللون. آه يا عربات صقلية الملونة! فكم روت لنا لوحات الرسامين عن تاريخك العريق!.

وفي تلك اللحظة وصل رجل آخر من طاقم السفينة إلى جانبنا وخاطبنا قائلاً: "يخشى القبطان عدم إمكانية تحرك السفينة، وذلك بسبب هبوب رياح عاصفة في الخارج". 38 يال هذا الطاقم البائس! فكم يحبون النعيق بالأخبار المرعبة والمزعجة والمقلقة! حتى إنَّ ذلك يمنحهم متعة عارمة، وترتسم ملامح الرضا والارتياح على وجوههم جميعاً، وبالطبع لم يتردد هؤلاء الكُسالى المماطلون بعد هذا عن مراقبتنا، إنهم مُتسكعو شوارع وضعهم القدر على سطح هذا المركب، وقد عانينا لدغاتهم المسمومة لمرات عديدة.

حدقت بالسماء فوجدتها بحالٍ مغايرٍ لما وصفوه، فقلت: "أهاااا! إنَّ الرياح ليست بالشديدة إلى هذا الحد". ساد الصمت لوهلة، أعقبتها بهز كتفي بلا مبالاة فذلك الأكثر فعالية؛ أن تظهر أنك ملم بالأمور إلى درجة كبيرة تفوق معرفتهم. أجاب الرجل بلهجته الإيطالية: "أجل يا سيدي! مولتو فينتو! مولتو فينتو -رياح كثيرة-! في الخارج في الخارج!".

وبوجه طويل وإيماءة درامية أخذ يشير إلى خارج الميناء نحو البحر الرمادي، فدفعني بذلك لألتفت بدوري وأنظر صوب خارج الميناء عند خط الأفق الشاحب خلف حاجز الأمواج، لكني لم أجد صعوبة في دحض مزاعمه بكل هدوء، فمضى مبتعداً لأنه لم يظفر بالنصر التام علي.

بدأت صديقتي الأمريكية بالتذمر والشكوى والبكاء من جديد: "يبدو أن الأمور تزداد سوءاً!". "ماذا ستفعل على متن مثل هذا القارب إذا كنت ستلقى وقتاً مروعاً هنا في الخارج وسط البحر الأبيض المتوسط؟ أه كلا! هل ستخاطر بذلك، حقاً؟ ألن تغادر مدينة تشيفيتافيكيا؟". ثم صرخت كيوبي وهي تتلفت بناظريها حول الميناء الكئيب، **39** والصواري العديدة المحتشدة في السماء الرمادية على الجهة اليمنى: "ألن يكون الأمر مهولاً!". أدارت سفينة نابولي مؤخرتها مبتعدة قليلاً عن حافة رصيف الميناء، وراحت تتراجع بحذر وببطء متزحزحة نحو الخلف، وكان المرفأ مغلقاً بالكامل تقريباً. أخذت الغيوم البيضاء تتراقص متعانقة بين طيات السماء الزرقاء، أما القوارب الصغيرة فبدت وكأنها خفافس تتجول هنا وهناك عبر حوض السفن، وقد أقبل كل هذا الحشد الكثيف على الرصيف لأجل استقبال سفينة نابولي.

مضى الوقت سراعاً وحانت لحظة الوداع! فلقد عقدت صديقتنا الأمريكية العزم على الرحيل، وأخذت تودعنا بتعاطف كبير: "سأكون مهتمة للغاية بمعرفة كيفية إكمالكم لرحلتكم". ثم ترجلت عند الجانب ومضت في سبيلها. طلب المراكبي عشرين فرنكاً زيادة -أترغب بالمزيد؟ لكنها لم تعطه سوى عشر فرنكات وهو ما كان أكثر بخمس فرنكات من الأجر المعتاد. وهكذا جلست في الزورق الخشبي الذي سيقها وقد بدت ضئيلة الحجم متضايقة والبرد يلفها بوخزاته. لملمت نفسها في كنزتها الصوفية وراحت تتأرجح مع حركة القارب فوق الماء المتماوج صوب تلك الأدرج الحجرية البعيدة. لوّحنا لها مودعين، غير أن حركة سير القوارب قد حالت بيننا. شعرت كيوبي بالانفعال ورسمت حركة الصليب حولها، أهو نزق عرضي ناجم عن أفكار صديقتنا الأمريكية عن الرفاهية الأمر الذي جعلنا نشعر بالسوء حيال أنفسنا! أحسنا وكأننا أفقر مسافرين على متن السفن قد تلتقي بهم أبداً. تنطلق سفينتنا بأقصى سرعتها لتأتي الدقائق الأخيرة بصعود سريع لها للأعلى بينما راحت حبالها الضخمة تقعقع بضراوة. **40** أما طيور النورس—فوجودها في البحر المتوسط ليس بتلك الأعداد الكبيرة، راحت تدور بين الغيوم وكأنها قطرات ثلج بيضاء جميلة، إنَّ أعداد هذه الطيور قليلة للغاية في البحر الأبيض المتوسط. ودون أن نشعر تلاشى وجودنا

عن الشاطئ مبتعدين شيئاً فشيئاً عن مرسى الميناء، مودعين مدينة تريبست الكبيرة بأنظار حزينة، حتى حالت بيننا وبينها سفينة بخارية سوداء ضخمة وقفت كالجدار، أخذنا نلتقط أنفاسنا قبالة الحائط الأسود الثاني لتلك السفينة البخارية التي ظهرت أمامنا بشكل جلي، وقد شاهدنا على متنها رجلاً يرتدي قبعة رسمية يقف عند أسفل سلم المغادرة فوق حافة سطح الماء تماماً وهو يصرخ نحو قارب ما: "برشلونة! برشلونة!"، وفي هذا القارب رجل عجوز تحدى العالم بمجذافيه وأخذ يدفع قاربه الغير متقن الصنع بسرعة متزايدة بيننا وبين الجدار الأسود الآخر للسفينة البخارية، ها هو يقف بعيداً هناك، كم يبدو صغير الحجم من تلك المسافة، منطلقاً بقاربه الغير متقن الصنع نحو الأمام، ليبتعد أكثر وكأنه صورة مرسومة على سطح المياه الخضراء الداكنة. كان الجانب الأسود من سفينتنا يتطلع بمكر وخبت نحو الجدار الأسود الضخم الآخر. راح العجوز يجذّف في أخدود مائي ضيق يتوسط المساحة بيننا والجدار الأسود الضخم للسفينة البخارية، ويكاد أن يصل إلينا.

عندما حصل ذلك استدار الشخص الواقف على الدرج السفلي بالاتجاه الآخر، فقد برز زورق آخر من حوض السفن مكتسحاً غمرة البحر. يا إلهي! فهمت ما يجري الآن إنه سباق، وها هو يقترب أكثر فأكثر وبانحناءة التف الزورق القادم من حوض السفن حول السلم، وعندما أصبح وسط الخليج أرجع مجاديفه للخلف. أخذ الرجل ذو البزة الرسمية يصرخ ويلوح، بينما أرجع الرجل العجوز مجذافيه للخلف في الخليج تحت وطأة صرخات الاتهام المضاد تلك. التقط الزورق القادم من حوض السفن غنيمته، بينما راحت سفينتنا تتقدم على استحياء وتضرب الماء في مروحتها رويداً رويداً، بينما انشغل الرجل العجوز وسط الخليج بالتجديف لينجو بحياته، ونحن بدورنا كحاله نعوم بسفينتنا على سطح هذا الحوض المفتوح للوصول إلى وجهتنا. **41** وهكذا، ببطء ببطء رويداً رويداً، استدرنا: ومع دوران السفينة، التوت قلوبنا وجعاً والماء، وأخذت مدينة باليرمو تتلاشى من أذهاننا شيئاً فشيئاً، سفينة نابولي، وكذلك حشود الناس التي كانت تترجل من على متن السفينة، وقرقة العربات الصاخبة على أرض مدينة تريبست العظيمة. جميع تلك الذكريات قد تلاشت من قلوبنا. وما عادت أبصارنا تدرك سوى الفجوة المكشوفة لمدخل الميناء، فضلاً عن الفراغ الرمادي الباهت المسطح خلف البحر، الذي تناثرت في مساحته خُصلات من الأضواء اللامعة المتلاألة.

لقد راحت قلوبنا تراقب مشدودة بلهفة نحو مدينة باليرمو، رغم أنّ البحر لم يدفع بنا لمسافة بعيدة عنها، بل هي خلفنا تماماً. تَلَقَّتْنا من حولنا، فبدا لنا أنّ كل شيء بات وراءنا بالفعل، إلا أنه قد تلاشى وتبدد من قلوبنا، فالرياح المنعشة وخصلات الضوء اللامعة والبحر المكشوف ذو الأمواج الدافقة خلف حواجز الميناء، جميعها قد ولّت من الفؤاد دون رجعة.

راحت مدخنة سفينتنا تنفث دخانها، وعلى الفور شرعت السفينة بانغماسة طويلة بطيئة سببت لنا الدوار وإغماءة واهنة صاحبها صعودها للأعلى، تبعتها بغطسة أخرى تماثل الأولى وانزلاقة بعدها إلى مستوى أخفض، فغدى وجه كيوبي شاحبًا، فلأعلى صعدت دكة السفينة في ذلك الإغماء الواهن للخلف ثم للأسفل مخفية في ذلك الانزلاق الذي لا يوصف للأمام. ولكن من وجهة نظري فإن كل شيء في السفينة لطيف للغاية باستثناء غطسها البطيء الطويل المسبب للدوار على نحو شديد.

خاطبت كيوبي: "ممتعة إلى حد ما!". فأجابت بحزن: "أجل، إنها رائعة نوعًا ما". سأبوح لكم بما يسكن خاطري؛ هناك شيء ما في صعود السفينة للأعلى وانزلاقها للأمام بنهج بطيء وطويل يجعل فؤادي ينبض فرحًا. إنها حركة الحرية. 42 وهكذا ما تزال سفينتنا ترتفع للأعلى ثم تنزل ببطء نحو الأمام، فيتناهى إلى مسامعي صوت تحطم المياه، الذي بدا أشبه بَعْدُو سحري للسماء، أو أن الفضاء الجوهري يهرع هاربًا. إنه ذاك الإيقاع الطويل البطيء المتذبذب ما بين صعود السفينة وهبوطها يرافقه صوت شخير المياه الذي بدا وكأن خياشيمها تصدره، أوه يا للروعة! لقد أحسست بفرحة عارمة في أعماق روعي الجامحة، لينال المرء أخيرًا قسطًا من الحرية؛ خلال هذا التحليق المتناقل بين الماء والهواء والأرض والسماء يفرد جناحيه على اتساعهما وتترنم شفاهه أهزوجة فرحة. يا إلهي، ما أجمل أن تتحرر من كل ما تحاصرك به هموم الحياة؛ من رعب القلق البشري، من الجنون المطلق للآلة التي لا تعرف الكلل. من العذاب الذي عناء لي ركوب القطار دون شك. وعذاب الحياة الذي طالت سكراته بين أولئك البشر المتمردين على اليابسة والذين نُزعت الطمأنينة من قلوبهم. لتشعر بعد ذلك بارتفاع وهبوط طويل بطيء على متن هذه السفينة التي تكاد تخلو من أي شيء خلال اجتارها المياه. رباه! الحرية، أنشد الحرية، تلك الحرية الجوهريّة. تمنيت من أعماق قلبي أن تدوم هذه الرحلة للأبد، وألا يكون لهذا البحر الشاسع نهاية، بحيث يسع المرء أن يطفو على هذا النبض المتماوج المرتجف رغم أنه طويل ومتصاعد إلى آخر الدهر؛ فالفضاء الرحب محال أن يستنزف، ولا مجال للعودة، أو حتى التفاتة للوراء.

كانت السفينة فارغة تقريبًا، باستثناء حمقى زاوية الشارع يتسكعون في الأسفل هناك، على ظهر السفينة. وقفنا بمفردنا في المتنزه الصغير على سطح السفينة خلال هذا الطقس الباهت، فوجدناه يحتوي مقاعد قديمة من خشب البلوط، ومنحوتات بشكل أسود صغيرة على جانبيها لتسند ذراعك

عليها، ومقصورة صغيرة مغلقة بشكل غامض، تبين لنا بعد أن اختلسنا النظرات عليها أنها مكتب اتصال لاسلكي، وسرير مزخرف لعامل المقسم. **43** يا له من بحر متلاطم الأمواج ببرودته ورياحه العلية وزرقة مياهه التي يتشربها السواد، فثري العين شيئاً وتحجب آخر، فتشق سفينتنا طريقها على سطحها مُخْلِقة وراءها رغوة مفرقة. وها هي مدينة صقلية تلوح من الميسرة. وذاك جبل مونتي بيليغرينو يشرب نحو السماء ككتلة ضخمة جامحة من الصخور الوردية، وهو بالكاد يبدو متماوجاً بذلك الغطاء الأخضر الهزيل الذي يتكلله. وبشكل يثير الحيرة يبدو هذا الجبل ضخماً بجُرمه وكتلته؛ وقاحلاً كصحارى الجنان، وطاعناً بالسن. إنَّ المهابة قد لفت هذه السواحل الصقلية، فجعلتها تبدو رائعة للغاية وكأنها أسوار تحصن ما بداخلها. ومرة أخرى يساور المرء إحساساً بأنَّ تقادم الزمان قد عزَّاهَا تماماً، كما لو أنَّ تربتها قد تآكلت واستنزفت بفعل الحضارات القديمة، مخلفة وراءها صخوراً جرداء مفزعة، كحال هضاب سيراكيوز، وهنا عند هذه الكتلة العظيمة.

بالكاد تلمح أحداً على متن السفينة باستثنائنا؛ فنحن بمفردنا في هذا المتنزه الصغير على سطحها، تلفنا الوحدة بشكل غريب، نطفو على متن سفينة متهالكة صماء تمضي بنا قدماً عبر هذه السواحل العظيمة الجرداء، تتقاذفنا أمواج البحر، فتتلاعب بنا الريح هبوطاً وصعوداً. رحت أقلب عينيَّ على تجهيزات السفينة المصنوعة بأكملها من الخشب فقد ألبستها عوامل الطقس ثوباً فضياً؛ سواء المقصورة، المقاعد وحتى أسود المقاعد الصغيرة. أما الطلاء فقد تلاشى منذ زمن بعيد، وهذه العارضة الخشبية لن ترى الطلاء مجدداً. سيكون غريباً إن أسند أحدهم يده على خشب البلوط القديم هذا، فقد بات أشبه بالألياف البحرية. يا له من بلوط قديم وجيد، تم ثقبه بكل كياسة، وأجزم أنه قد نما في بريطانيا. كل شيء تم إنجازه بعناية وإحكام ليدوم أطول فترة ممكنة. ألقيت نظرة أخرى على تلك الأسود، وعلى تلك الدبابيس الخشبية التي أدخلت بشكل مثالي في مخالباها لثحنى للأسفل، بينما تُركت أفواهاها الصغيرة فاغرة. لا زالت متينة كعهدها في العصر الفيكتوري وراسخة تأبى الحراك. **44** لن تبلى أبداً. عجباً! أي بهجة وعناية قد تخللت هذا العمل الخالد لصنع هذه السفينة؛ على الأقل في هذا المركب الذي يبلغ من العمر ستين عاماً. كل جزئية من خشب البلوط القديم راسخة للغاية، رائعة الجمال، وقد التحمت أجزاؤها كلها ببعضها بمفاصل وأوتاد خشبية زادت ألقاً وحيوية طغت على وصلات اللحام المعدنية. لا يعرف الصدا إليها طريقاً. متجددة الحياة كأنسجة هذا الخشب القديم المفعم بالحياة، لا تصدأ كأنها من لحم ودم، ومنتشية بفرحة يعجز الحديد عن فهم ماهيتها. إنها تمتطي صهوة الموج بأروع ما يكون، وتمخر عباب البحر بجمال يسلب الأبواب، وكأن ذلك أمر طبيعي بالنسبة لها.

راح أفراد الطاقم على تنوعهم يتجولون قربنا ويرمقوننا بنظراتهم، فمشى السفينة هذا يقع فوق غرف ركاب الدرجة الأولى فأضفى ذلك علينا بشيء من الاستياء. لذلك رأينا أحدهم يتجه صوب

السلم يتبعه آخر— حاسري الرأس تقريباً؛ وهكذا مروا بجانبنا بأجسام متهذلة، هيئة بشرية متبوعة بأخرى وراحوا يدخلون السجائر، وفعل الأمر عينه كل الطاقم. في نهاية المطاف استوقفت كيوبي أحدهم —وهو ما كان بانتظاره الجميع، فرصة لإجراء حديث— وسألته عما إذا كان ذاك الشيء الغريب على قمة جبل بيليجرينو أثاراً. أيعقل أن يكون هناك سؤال سياحي أكثر من هذا! لا إنها محطة إشارة، ونظر إلى عيني كيوبي بصفاقة! غير أنها لم تكثرث على أي حال، واسترسل عضو الطاقم بحديثه، كان ابن مدينة هزليلاً أجوف الخدين من باليرمو، يرتدي ثياب عمل زرقاء باهتة اللون وأعلمنا أنه نجار السفينة، وأعرب عن سعادته، لأنه سيكون عاطلاً عن العمل لبقية حياته، جزء مما يستحقه إلى حد ما. كانت السفينة فيما مضى تسير برحلات نابولي —باليرمو —إنها لرحلة هامة للغاية-- في أيام خلت للشركة العامة للملاحة. وقد قامت الشركة ببيعها لقاء ثمانين ألف ليرة قبل عدة سنوات. **45** والآن باتت قيمتها مليوني ليرة. تظاهرنّا بأننا نصدق كلامه، لكنني لم أكن مُقنعاً بأدائي، فلقد شعرت بالسقم يتغلغل داخلي من وقع كلمة ليرات علي، فلا يمكن أن تصل مسامع أي شخص اليوم عشر كلمات بالإيطالية دون أن يتخللها ألفان أو مليونان أو عشر أو عشرين من الليرات الطائرة كبعوض سام حول أذنيك. ليرات—ليرات— ليرات—ولا شيء آخر. لم يعد أحد يأتي على ذكر الرومانسية، الشعر، وأشجار السرو والبرتقال الإيطالية، لتختنق إيطاليا ضمن سحابة كثيفة قذرة من رنين لا حصر له للفظ ليرة، نقود ورقية ممزقة بغیضة تزيد الهواء حولك ثقلاً فيتعسر أخذ النفس وكأنها ضباب دهني. ووراء هذا السديم ربما لا يزال بعض الناس يرون الشمس الإيطالية مشرقة. أجد أنّ هذا الأمر صعب علي، فتلك السحابة القاتمة من الليرات التي تغشي عينيك وأنت تمعن النظر إلى أعمال مايكل أنجلو⁷ وبوتشيلي⁸ وغيرهما، تجعلك تنظر إليهم بسوداوية عبر طبقة من الزجاج، فهذا الثقل من حولك الذي تستشعره في أجواء إيطاليا ما بعد الحرب، يضغطك، يعصرك، يطحنك إلى رنين أوراق نقدية قذرة. لقد كان الملك هاري محظوظاً لأنهم أرادوا فقط صك صورته على عملة من الذهب، أما أنت فأيطاليا ترغب بطحنك إلى ليرات ورقية قذرة.

يبرز رأس آخر، لكنه يرتدي معطفاً أسوداً من صوف الألبكة⁹ ومنديلاً هذه المرة، ليخبرنا أنّ القهوة باتت جاهزة، قبل أن يحين وقتها حتى. نزلنا إلى قاعة في قعر السفينة وجلسنا على مقاعد دوارة بينما أكملت السفينة انزلاقها وانحدارها من تحتنا. شربنا فنجانين من القهوة بالحليب، وتناولنا قطعة من الخبز والزبدة. وعلى الأقل قدم لي أحد أعضاء الطاقم الذين لا يحصى عددهم فنجاناً ثم أبدى الجفاء، من الواضح أنّ نيته هي إفهامي بعدم حصولي على المزيد، لأنه بالطبع لا يحق سوى لأعضاء الطاقم الذي لا يحصى عددهم أن يتناولوا فنجاناً آخر من القهوة بالحليب. **46** على أي حال، وبرغم أنّ السفينة راحت تمور للأعلى بينما تفاقت أعداد أولئك الذين يرتدون معاطف الألبكة عند المدخل بشكل خطير، وازنّت خطواتي إلى البوفيه القصديري وقبضت على

إبريق القهوة ووعاء الحليب لأنجح تمامًا بتقديم فنجانيين لكيوبي ولنفسى. وبعد إعادة الأوعية الأنفة الذكر إلى هيكلها المقدس القصديري، أرجعت كرسيي الدوار إلى الطاولة الخشبية الطويلة الخالية تمامًا. بتنا أنا وكيوبي لوحدنا، باستثناء ذلك الشخص الجالس في البعيد بظهره البدين وياقة مجذولة من الذهب تميل إلى أحد الجانبين ويد سميكة تنشر أوراقًا مختلفة؛ إنه أحد الجالسين على تلك الطاولة الوحيدة بالطبع. دخل رجل طويل هزيل يرتدي معطفًا من صوف الألبكة وله وجه كحجر أصفر اللون وشاربان طويلان أسودان وراح يحملق متجهًا بفناجين قهوتنا الملانة، ثم مضى إلى البوفيه القصديري ليلمس مقابض الإبريقين. كان يمسحهما بيده على الترتيب، وكأن لسان حاله يقول: هذه ملكي. أي أجنبي قذر يتجرأ على خدمة نفسه بنفسه!

وبسرعة قدر المستطاع ترنحنا مسرعين إلى الأعلى من هذه الزنزانة الطويلة، حيث راحت معاطف الألبكة تنقض كالذباب الأزرق على أبريق القهوة، وهناك كان النجار جاثمًا بانتظارنا كالعنكبوت، قالت كيوبي بصوت يملؤه الحزن، بينما بدا الشحوب عليها: "أليس البحر أهدأ قليلًا؟" أجاب النجار نحيل الوجه: "لا يا سيدتي، وكيف عساه يكون كذلك؟ لازالت الريح بانتظارنا وراء كيب جالو، أترين ذلك اللسان البحري؟". وأشار إلى جرف صخري شاهق أسود اللون أمامنا في البحر **47** "عندما نصل إلى ذلك الرأس، ستواتينا ريح وبحر، هنا" وقام بإيماءة: "معتدلين". تحدثت كيوبي وقد زاد شحوبها: "أفف، سأذهب لأستلقي قليلًا". ثم اختفت. لم ير النجار جدوى من إكمال الحديث معي، فمضى للأمام، ورأيت يذوب في حشد من الطاقم الذي لا يحصى، والذي كان يحوم على ممر دكة السفينة السفلية قرب المطبخ والمحركات.

أخذت الغيوم تعدو مسرعة في السماء فوقنا؛ بينما هطلت قطرات متفرقة قارصة من المطر، ليساور المرء اعتقاد أنه رذاذ ماء، لكن لا، إنها حفنة من الأمطار. تهادت السفينة مصدرة حفيفًا وغاصت في البحر المدّج أمامها، مطلقة صوت جلجلة أجوف لتنهض من كبوتها بأناة، على طول هذا الساحل الوردي المنيف لصقلية، الذي لم يكن أكثر من تفهقر إلى داخل الخليج. ومن عرض البحر تراكضت الأمطار لتتبعها أمواج طولانية.

لا ملاذ يدرأ عنا غضب البحر، فتوجب علينا أن ننزل للأسفل، استلقت كيوبي بهدوء على السرير ذي الطابقين. كانت قاعة الجلوس المطلة على البحر بالية كحال ممر على سكة حديد تحت الأرض. لا مأوى، سوى بجانب المطبخ والمحركات حيث بوسعك أن تصيب شيئًا من الدفء. كان الطاهي منهمكًا في تنظيف السمك، لتقوم هذه الحيوانات البحرية بعض ذبولها بحقد على لوح التقطيع الصغير عندما يخرجها الطاهي من حوض غسيل الأواني. بينما دفع من قاذورات المطبخ يتحرك جيئة وذهابًا على طول جانب السفينة. **48** كانت عصابة من أفراد الطاقم تتكىء على الجدار بجانبها، ومجموعة أكبر في الأسفل كذلك. الله وحده أعلم بما تخفيه صدورهم، بيد

أنهم لم يقدموا على فعل شيء سوى التجمع بشكل عصابات ليتحدثوا ويأكلوا ويدخنوا السجائر. هم في الغالب شباب معظمهم من باليرمو مع بضعة أشخاص من نابولي، لا يمكن للعين أن تخطئهم، فليدهم ذلك المظهر الوسيم البائس الذي يميز النابوليين، وتلك الخدود المنحوتة والشارب الأسود الصغير والعينان الكبيرتان، لكنهم يمضغون الطعام بأوداج منتفخة، وتبرز ضحكاتهم من تحت أنوفهم المستدقة شبه الساخرة. بدا وقوف المجموعة بقربي بشكل عرضي دائم، لا زعيم يقودهم ويبدو أن لا أحد باستطاعته السيطرة عليهم مطلقاً. فقط ذلك المهندس البدين بثوبه الكتاني الرمادي، بدى نظيفاً ومؤهلاً كآلاته، عجيب كيف أن ضبط الآلات يضيفي على الإنسان العزة واحترام الذات!

كفكفت السماء دموعها، فمضيت وجلست القرفصاء قبالة قماش القنب الذي بُسط على كوة السقف المقوسة في ذلك الممشى الصغير على دكة السفينة، حيث جلست على المقعد الذي تم تثبيته على جوانب الكوة. الرياح باردة، والشمس تطل خجولةً وتهرب على عجل، لتتبعها زخات المطر. ها قد وصلنا الرأس البحري الكبير ليمسي خلفنا بجهة اليسار، إننا نتجه بعيداً عن ذلك الجرف الصخري كما لو أننا سحابة في هواء رمادي. عتمة تخيم على عقل المرء؛ نوع من الذهول سببه الريح وانزلاق السفينة وارتقاؤها الذي لا يعرف الهوادة. ليس مرضاً، بل نوع من الوهن المضجر. يا لها من حركة كثيرة إنها وليدة لهذا الهواء العاصف، بالإضافة إلى نشوة النصر المتواصل لعنّو السفينة البطيء الطويل عبر هذا البحر. **49** دوى صوت جرس شديد للغاية؛ فذهب الطاقم لتناول الطعام عند منتصف النهار بل هرولوا مسرعين لأجله، وبعد مرور بعض الوقت تم استدعاؤنا، فسأل النادل بلهفة آملاً أنها لن تفعل: "ألن تتناول السيدة طعامها؟". أجبت: "بلى إنها قادمة". ثم أحضرتُ كيوبي من مخدعها، فجاءت وجلست على كرسيها الدوار. قُذِف على الطاولة طبق كبير من حساء الكرنب السميك الدسم وقد امتلأ حتى آخره، فتدفق من على الجوانب. تناولنا ما استطعنا منه، وكذلك فعل الراكب الثالث، وهي شابة لم تكن تعتمر قبعة، وبالتالي فهي تعترف في قرارة نفسها بأنها ببساطة "واحدة من الناس"، بيد أنها ترتدي ثوباً مذهلاً باهظ الثمن، وجوارب حريرية رفيعة بلون أسود، وحذاء من المخمل بكعب عالي. إنها بهية الطلعة وصلبة، لديها عينان داكنتان كبيرتان وأسلوبها جزل وصريح. إنها تتمتع بصراحة قوية يفقدها الإيطاليون. هي من مدينة كالياري، ولم تستطع تناول الكثير من حساء الكرنب، فأعلمتُ النادل بذلك، بصوتها العميق الودود الذي يثير التعاطف. راحت مجموعة صغيرة من الرجال المرتدين معاطف الألبكة تحوم في المدخل، وقد اعتلت وجوههم ابتسامة خافتة لا تخلو من الخبث ترقباً للطعام، أملين كالذباب الحائم، أن نكون عليّين للغاية فنعجز عن تناوله. تم أخذ الحساء بعيداً وظهرت عجة صفراء ضخمة محله، تشبه بعض عضادات الخشب المصفر، إنها قاسية وثقيلة وقد طهيت في زيت زيتون ذي مذاق عف، لم تكن الشابة على معرفة بكيفية التعامل

مع هذا الشيء، وكذلك نحن، ليظفر به ذلك الذباب البشري الحائم في الأجواء، الذي يرى هذا الوحش الأصفر كغنيمة تُساق إلى مذبحهم. بعد ذلك قُدمت شريحة طويلة من اللحم خُتم علينا تناولها بعد أن قُطعت إلى شرائح لا حصر لها فبدا مذاقها كالعدم الذي لا حياة فيه، وصبت فوقها صلصة كثيفة بنية بنكهة حيادية لا تشبه أي شيء، كانت تكفي لاثني عشر شخصًا على الأقل، بالإضافة إلى مقدار كبير من القرنبيط الأخضر ذي الطعم اللاذع المثقل بسخاء بالزيت، على متن سفينة تلُفها التعاسة مسبقًا، ليصنع عشاء فيها. تراكمت الانتصارات الخبيثة للذباب البشري الحائم في الممر. **50** وهكذا انتقلنا إلى حلوى البرتقال والكمثرى بقلوبه الخشبية وطبقة لحمية جلدية مصفرة سميكة، وتفاح، ومن ثم القهوة. بقينا جالسين حتى أتينا عليها كلها وهو ما كان بالنسبة لنا أمرًا رائعًا. راحت الذبابات الزرقاء بمعاطف الألبكة تنز فوق كميات الطعام الغفيرة التي أعيدت بأطباقها إلى البوفيه القصديري، من المؤكد أنه تم تحضيرها عمدًا بهذا الشكل حتى لا نتناولها! تبادلت معنا الشابة الكاليرية أطراف الحديث، نعم لقد اقتحمت المحادثة التي جرت بيننا بتلك اللغة الفظيعة التي يدعوها الإيطاليون —العاديون تمامًا— بالفرنسية، والتي يصرون على التحدث بها من أجل التمجيد، نعم فعندما يصلون بوابات السماء سيسألون القديس بطرس عن "أوون بيغلياببيور أونغ—تروزييميه كلاسيه".

لحسن الحظ أو سوء طالعنا تغلب عليها فضولها، وعادت إلى لغتها الإيطالية الأصلية. وراحت تسأل: ماذا كان عملنا، من أين قدمنا، إلى أين نحن ماضون، لماذا نعتزم الذهاب إلى وجهتنا، ألدنيا أطفال، هل نرغب بأي... وما إلى ذلك. كانت تومئ برأسها بعد كل إجابة منا وتقول آها! وترقبنا بعينيها الداكنتين الحيويتين، ثم تأملت جنسياتنا مليًا وقالت وكأنها تتكلم مع نفسها: أونا بيبلا كوبييا، يا لكما من زوج رائع! غير أننا في تلك اللحظة لم نشعر بالجمال ولا بالارتباط، بل أحسنا وكأننا مهاجرون حديثو العهد. جاء الرجل العابس الوجه الذي يشبه فارسًا مدججًا من العصور الوسطى ليسألنا مرة أخرى إن كنا لا نعتزم تناول حصتنا من النبيذ، فزل لسانها ببضع كلمات من فرنسيتها الثقيلة للغاية، والتي كان من الصعب جدًا فهمها، وقالت إنه خلال الرحلة البحرية يجب على المرء تناول الطعام حتى ولو قليلًا. ولكنها أفلتت كلمات بالإيطالية، لا يجب على المرء احتساء الخمرة بأي حال من الأحوال، أبدًا أبدًا! قلت بحزن: "لن يرغب المرء بذلك". فذاك الرجل المتجهم الوجه الذي يبدو كفارس من العصور الوسطى **51** والذي تحايلنا عليه لنمنعه أن يفتح لنا زجاجة الخمرة، حاول إقناعنا ولكننا رفضنا ذلك. في الحقيقة تسلل الضجر إلي بسبب جلوسنا بهذا المكان في قعر السفينة، مع وجود هذا الرجل وإصراره، فنحن بدورنا لم نطلب أيًا منها. أخبرتنا الشابة الكاليرية أنها جاءت الآن من نابولي، وسيتبعها زوجها بعد بضعة أيام، حين يفرغ من بعض الأعمال التجارية في نابولي. كدت أن أسألها إن كان زوجها لاصًا؛

فهذا هو حال الإيطالي حين يتعلق الأمر بالربح، لكنني امتنعتُ عن ذلك في الوقت المناسب. وهكذا انسحبت السيدتان لتستلقيا قليلاً، أما أنا فمضيت وجلستُ تحت دفيئتي⁶.

انتابني شعور بالسوداوية ولملمت بقايا نفسي، وغلبنني نعاس جارف، أما شمس منتصف الظهيرة فقد أغدقت علينا بفيض من إشراقها، واستدارت السفينة نحو الجنوب، لتتناهى عن الريح والموج فأصبحت أكثر دفئاً وسلاسة في مسيرها، وحينها أرسلت الشمس دفئها الأخاذ القوي كخمرة معتقة، فتلاًلأ البحر بلون ذهبي طغى على زرقته، فبدا خشب البلوط أبيض عاجي اللون تقريباً. كانت ظهيرة جميلة مرت بنا في هذا البحر. وتحت أشعة الشمس الناعسة وهسهسة أمواج البحر، وذلك العدو السريع لسفينة فارغة، غلبنني نوم مكلل بالدفع، ومرت ساعة عذبة، لأستيقظ من جديد. ترامت أمامنا جزر شاحبة لفها الغموض على يميننا؛ إنها جزر إيغاديس التي تعصف الريح بها، ونحو اليمين أكثر برز جبل أو لعلها هضبة مخروطية شاهقة، احتضنت قممها العديد من المباني؛ وقبالة هذا البحر في الأمام، وعلى مسافة بعيدة نوعاً ما، أطلت مباني رصيف الميناء علينا من داخل مرفأ السفن، وها هي قلعة بحرية وحاجز للأمواج يعانقان البحر أمامنا، وبدأت جميعها صغيرة وبعيدة وكأنها لوحة فنية بديعة. كانت المباني مربعة الشكل ومنمقة، هناك شيء ما يثير العجب؛ ذاك السحر تحت أشعة الشمس. **52**

هناك شيء ما يثير العجب؛ ذاك السحر تحت أشعة الشمس، والرياح العاتية والمباني مربعة الشكل المنمقة التي تنتظر من البعيد، وكأنها المدينة الضائعة في قصة ريب فان وينكل¹⁰، فعرفت أنها مدينة تراباني، وهي الميناء الغربي لجزيرة صقلية، الذي يتربع بأنفة وشموخ تحت أنوار شمس

أما التلة القريبة منا فهي جبل إيركس¹¹، لم يسبق لي رؤيته قبلاً، وهذا ما جعلني أتخيله كجبل يناطح السماء، لكنني فوجئت بأنه ليس أكثر من تلة، يوجد على قممها تجمع لا يمكن تمييزه لقرية صغيرة، حيث بوسع عيني المرء أن تلتقط حتى في هذا الوقت خيوطاً باردة من البخار المتصاعد راحت تتمايل بأناة، ويُقال أن ارتفاع الجبل يصل إلى 2500 قدم، غير أن هذا لم يغير من حاله، فهو لا يزال مع ذلك مجرد تلة فقط.

ولكن بحق الله! لماذا يجمد قلبي كلما وقعت عيناى صوب هذه التلة المرتفعة المطلة على البحر؟ لأنها تتمتع بذات فخامة وبهاء جبل إتنا في الغرب، رغم أنها مجرد تلة متوجة ببلدة بسيطة، فبالنسبة للرجال هي تمتلك سحراً يفوق عظمة إتنا، حيث يتسنى لك عبورها أن ترى أفريقيا باسطة بين يديك ساحلها الخلّاب في أيام جميلة صافية، إنها أفريقيا المهيبة ومعبد الحراسة العظيم عند القمة الشامخة، لذلك العالم المقدس، العالم الصوفي في ذاك الزمان! لقد كان كذلك حقاً في الزمان

السالف. كانت الإلهة فينوس¹² التي عبدها المحليون ذات قدم يفوق آلهة أفروديت¹³ اليونانية، حيث تسكن فينوس في معبدها هذا المطل على أفريقيا التي تقع وراء جزر إغاثيان الصغيرة، ولن أغفل عن ذكر الإلهة عشتروت¹⁴ ذات الابتسامة الدائمة ورمز الغموض العالمي. يُعدُّ هذا المعبد أحد المراكز العالمية الأقدم من القَدَم بحد ذاته! إنه من يسمح لهذه الإلهة الأنثوية أن تراقب أفريقيا من على إطلالته، إنها الإلهة إريسينا¹⁵ بالطبع، هي من يعتلي قمته، حيث تبدو فرحة ضاحكة بسطوتها وجبروتها على مركز العالم القديم الضائع تمامًا.

أعترف أن قلبي ظل ساكنًا، ولكن مع تساؤل يداعب خاطري؛ فهل مجرد الحقيقة التاريخية قوية للغاية إلى هذا الحد، **53** أن أقل شيء ينهله المرء من الكتب قد يؤثر به بشدة حتى وإن كان يسيرًا جدًا؟؟ أم أن الكلمة بحد ذاتها تناشد صدًى منبثقًا من دم أسود؟ إنَّ الأمر يبدو على هذا النحو بالنسبة لي، حيث أن أحلك خبايا دمي ظلمة تتبع من صدى رهيب يردد اسم جبل إيركس، وهو أمر يعجز اللسان عن تفسيره تمامًا. اسم أثينا بالكاد يحرك جوارحي، على نقيص جبل إيركس الذي يجعل أعماقي الداكنة ترتعش، ذاك الجبل الأفريقي الذي يتأمل غروب الشمس حيث تتربع الإلهة إريسينا على عرشها.

فجأة، إذ بي أسمع صوت تكتكة في المقصورة الصغيرة التي أتكى عليها، دنوت منها لأتبع مصدر الصوت، فوجدت عامل الاتصالات اللاسلكية فيها، وهو مشغول في التواصل مع مدينة تراباني بلا شك، إنه شاب سمين يكسو رأسه شعر مجعد أشقر ولعمله تأثير هام، فحين يمتلك المرء سيطرة على آلة ما ترتسم على مَحْيَاهُ هالة من الأهمية المتنامية ويتعاطف إحساس الرفة والسمو لديه، إنه أحد الأعضاء الذين يصعب مساءلتهم من طاقم السفينة المتقاعسين المتسكعين طوال الوقت في المدخل الصغير، كدجاجة بساق واحدة لا نفع لها بأي شيء. خرجت فتاة كاليارية وبرفقتها شابان، وهما من سكان ساردينيا أيضًا، حيث يمكن أن تلاحظ هذا من خلال بنيتيهما الغليظة وهيئتيهما التي تعكس الثقة بالنفس ولمسة الفخر التي تبرق في عيونهما الداكنة. لم تكن الفتاة تلف نفسها بأي شيء، إنما يكسو جسدها ثوب أنيق فاخر فقط وجوارب حريرية شفافة سوداء، لم يُتَوَّج رأسها بأي شيء إلا أن خصلات شعرها الساحرة أخذت تتناثر عبر جبينها الناعم، وبرغم ذلك لا يبدو أن البرد قد نال منها، وراحت تتحدث بحيوية رائعة أثناء جلوسها بين الشابين، وقد أمسكت يدها بمودة ورقّة بالغة أحدهما، وهو يرتدي معطفًا، ودائمًا ما تمسك يد أحد الشابين تارة، وتمسح على جبينها تارة أخرى لترفع عنه شعرها المجنون الذي قذفت به الريح عليه، وشرعت تتحدث بصوت قوي لا مبالٍ عجولٍ يأبى أن يستكين، تدفع به طاقة هائلة. وحدها السماء تعلم إن كانت تربطها بهذين الشابين معرفة سابقة أم لا، وهما ينتميان لركاب الدرجة الثالثة، بيد أنهما قد أمسكا يديها بطريقة أخوية بكل بساطة ولطف. **54** كل ذلك يدخلك في جو من التساؤل: "لِمَ لا؟". وما إن مررت أمامها حتى ندهت لي بلغتها الفرنسية القوية الرائعة

والعجبية: "هل زوجتك في السرير؟". فأجبتها: "أجل إنها مضطجعة هناك". فأومأت برأسها: "آه! هل هي مصابة بدوار البحر؟". "كلا، بل هي مستلقية فقط". أما الشابان اللذان جلست بينهما وكأنهما وسادتان فقد راحا يُراقبان بفضول بعيون سردينية سوداء غامضة قد أظهرتا بياض المقلتين المستدير بشكل جلي. كان منظرهما بهيجًا وشكلهما يشبه الفقمة قليلاً، وبدت نظراتهما للحظة خالية الأحاسيس لتأثرهما باللغة الغريبة التي تنطق بها هذه الفتاة، غير أنها تشرع بنشاط للترجمة لهما إلى اللغة السردينية بينما أكون قد تابعت المسير وتجاوزتهم.

لا يبدو أننا ذاهبون إلى تراباني، فالبلدة تقع على يسارنا تحت التل، بمبانيها مربعة الشكل وكأنها مصانع شركة الهند الشرقية تسطع تحت أشعة الشمس على طول الميناء الغريب المغلق، وراء البحر الأزرق الداكن. يبدو أننا نتجه صوب الجزء الأكبر من مجموعة جزر ليفانزو، ولربما سندير دفة السفينة بعيدًا إلى ساردينيا دون أن نعكر صفو تراباني.

ها هي سفينتنا الآن تشق عباب البحر مسرعة 55 لتميل بوجهتها بين جزر محتشدة مزيّنة بزرقة باهتة، تاركين تراباني على الجهة اليسرى وراءنا، حيث ظلت المدينة على مرأى أنظارنا لساعة أو أكثر، وسفينتنا تسير عبر البحر فرارًا صوب مجموعة جزر ليفانزو. أما عامل الاتصالات اللاسلكية فما زال يُتَكَتَك ويدق بنشاط في مقصورته الصغيرة الموجودة على سطح السفينة العلوي، دفعني الفضول إلى النظر داخل المقصورة، فلاحظت وجود سرير وكرسي له مخفية خلف ستارة لأجل فصلها عن مكتبه الضئيل، وقد وضع كل أشياءه تلك بطريقة أنيقة تسر الناظرين.

في تلك الأثناء ظهرت من بين الجزر سفينة شراعية تشق طريقها في البحر المتوسط عبر مسارنا متجهة إلى تراباني، في الحقيقة أنا أجهل اسم هذه السفينة، لكن النجار أخبرني أنها مركب شراعي بصاريتين، لقد قالها بنبرة ممزوجة بذاك الشك الإيطالي، الذي يوحي بعدم مقدرة المرء أن يجزم بشكل قاطع عن ما يدلي به، ولكنه يأبى بذات الوقت الاعتراف بقلة معرفته. على أي حال هي تدنو منا، بسلمها الطويل ذي الأشعة البيضاء المزينة بخيوط شمس الظهيرة الذهبية، ومقدمتها فاتنة الجمال والمقوسة لتأخذ شكل تجويف متقن بصورة مثالية، وقد كانت تسابق الريح كحيوان مفترس يتبع بشغف رائحة الطريدة عبر المياه، وهذه الرائحة اقتادتها هناك نحو الشمال مرة أخرى، فغيرت كالسهم مسارها من مدخل الميناء ومضت مارقة من خلفنا نحو البعيد، رباه! كم هي جميلة رشيقة سريعة وتوجف القلب! مع كل أشرعتها البيضاء المشرقة التي دب فيها حماس لا مثيل له.

ها نحن ذا نغير مسارنا أيضًا، حيث كنا ننحو طوال الوقت صوب جنوب ليفانزو، وأرى الجزيرة الآن تتراجع ببطءٍ إلى الوراء، فبدأت أشبه برجلٍ في الشارع يتنحى جانبًا ليفسح الطريق أمامنا، وهكذا أخذت الجزيرة تحيد بنفسها جانبًا مبتعدةً عن أنظارنا، وقد بات جليًا أننا نتجه نحو مدخل الميناء. أمضت سفينتنا معظم الوقت تطوف حول الجزء الخلفي من الميناء. وعند هذه اللحظة أبصرت عيناى القلعة الحصينة، وهي عبارة عن شيء قديم يواجه البحر، فضلًا عن وجود منارة صغيرة ومدخل للولوج منه. **56** ومن خلف القلعة تطل عليك واجهة القرية مع رفقة من أشجار النخيل العظيمة وأشجار داكنة غريبة، لتبرز من ورائها المباني المربعة الكبيرة عند الجنوب مرتفعة بشكل مهيب، وكأنها قصور كبيرة متينة تم بناؤها على الكورنيش، وقد بدا كل شيء فيها فخمًا فآخرًا يتحلّى بالأصالة الجنوبية، وبعيدًا كل البعد عن حضارة قروننا الحديثة، وقد حافظت على مسافة تفصلها عن المد والجزر الذي يصوغ حياتنا الصناعية. راحت مخيلتي ترسم صورًا للصليبيين عندما أشعلوا هذا المكان بزخم من الصرخات أثناء مرورهم خلاله متجهين إلى الشرق، ويبدو أن تراباني ما تزال بانتظار عودتهم ملوَّحةً بأشجار نخيلها مع صمتٍ أطبق على أنفاسها عند طلوع شمس الظهيرة، ولكنها لا تملك من الأمر شيئًا سوى الانتظار، كما يبدو لي.

خرجت كيوبي لتتال نصيبًا من أشعة الشمس الدافئة وراحت تعلو بصوتها مبدية إعجابها بهذا الجمال البديع! وقد سكن البحر قليلًا لينعم ببعض الهدوء، وكنا قد وصلنا مسبقًا إلى المرج الأخضر المحاذي لمنعطف مرسى المرفأ، وحينها شاهدت سفينة متعددة الأشرعة قادمة من الجزر تسير بسرعة لتدفع الريح بها إلينا، ثم التفت بعيدًا عند الجنوب على مستوى سطح البحر فوجدته حافلًا بالكثير من الطواحين الهوائية القصيرة التي تدور أجنتها بنشاط كبير وحيوية، إنها طواحين قصيرة وعريضة إلى حد ما، أخذت تدور بمرح وسرور وسط زرقاء سماء الظهيرة الساكنة، بين البحيرات المالحة الممتدة باتجاه مدينة مارسالا، إلا أن فيلقًا من الطواحين وقفوا صفًا واحدًا بعد أن تحولوا إلى جنود وعقدوا العزم على القتال، وها هو الفارس النبيل دون كيشوت¹⁶ قادم بإصرار ليطيح برؤوسهم، حيث سيفقد عقله ويجن جنونه. وقد راحت هذه الطواحين تغزل بمراوحها هنا وهناك فوق سطح البحر الأزرق الشاحب، وربما يمكن للمرء أن يلمح بريق أكوام الملح البيضاء، في الحقيقة فأَنَّ البحيرات المالحة الكبيرة هي سر الثراء والغنى الذي الذي تتمتع به تراباني.

ها نحن الآن على أية حال ندخل حوض السفن مرورًا بالقلعة القديمة المنتصبة بثبات في الخارج، **57** وبالمنازة الصغيرة ثم تقدمنا عبر مدخل الميناء منزلقين بأناة عبر صفحة المياه الساكنة. أه

ما أروع شمس الظهيرة التي رمت بخيوطها الذهبية على المرفأ المستدير ليسارع بأخذ غفوة طويلة بعد أن غمرته بدفئها وحنانها! وقد انسابت ناعسة على طول جانبيه أشجار النخيل الفارعة، بالإضافة إلى مياهه المائلة في مزاجها للهدوء. إنه ميناء صغير لكنه يمنح شعورًا بالدفء والراحة والاسترخاء، مع مبانيه الرائعة ذات الألوان الدافئة إثر عناق الشمس لها من خلف طريق المرسى المشجر المظلم، إنها ذات الفخامة التي لفها الصمت والرقود والمحاطة بدفء الشمس حتى آخر الزمان.

وفي خضم هذا الهدوء عمدنا إلى الالتفاف بهوادة فوق سطح المياه الذي زينته الشمس ببريقها الأصفر الخلاب، وما إن مرّت لحظات قليلة حتى رست سفينتنا معلنة وصولنا إلى بر الأمان. لاحظنا وجود سفن أخرى حطت الرحال بعيدًا عند جهة اليمين، وقد غمرتها شمس الظهيرة بدفئها الفيّاض فغطت في سبات عميق. ما وراء مدخل الميناء يمر البحر العظيم مهوولًا تذروه الرياح، بدا كل شيء في هذا المكان ساكنًا دافئًا منسيًا. وفجأة أخذت الشابة تنده عليّ بلغتها الفرنسية المفعمّة بالحيوية، وقد أحجمت عن الإمساك بأيدي الشباب للحظة: "هل ستترجّل إلى اليابسة؟". في الواقع لم نكن واثقين تمامًا، ولا نرغب بمرافقتها لنا بأي حال، وذلك لأنّ اللغة الفرنسية التي تتحدثها مغايرة للطريقة التي ننطقها بها.

بدت اليابسة هامة متجاهلة قدومنا ولم يعرنا أحد اهتمامًا، باستثناء قارب كان يجدف على بعد عشرات الياردات إلى جهتنا، وفي النهاية حسمنا أمرنا واتخذنا القرار بأن تطأ أقدامنا الشاطئ.

لا ينبغي للمرء فعل ذلك، وكنا على معرفة مسبقة بهذا؛ فلا يجب أن تطأ قدمك أرض هذه المدن الجنوبية التي تبدو بديعة جدًا وبغاية الجمال من الخارج فحسب. **58** خطر لنا أن نبتاع بعض الكعك، فقطعنا الطريق المشجر العريض الذي بدا لنا رائعًا ونحن في البحر، ولكن عند دخوله اتضح أنه تقاطع بين مكان مهمل حيث تُرمى النفايات وطريق وعر غير معبد لضاحية حديثة العهد مع بعض المقاعد الحديدية وفوضى من القش القديم وقطع قماشية بالية. إنه كئيب بشكل لا يوصف، حتى مع الأشجار البارزة وإشراقة الشمس البهيجة، والبحر والجزر التي تلمع بطريقة ساحرة وراء مدخل الميناء، بالإضافة إلى الشمس السرمدية التي انجذبت بكل أحاسيسها إزاء هذا المكان. لقد شاهدنا ثلة من الأناس القذرين الذين لا يفعلون شيئًا سوى الوقوف في حيرة من أمرهم، مرتدين ثيابًا ذات طراز جنوبي، وكأنهم قد تركوا هناك مثقلين بالمياه بعد أن انقض عليهم الفيضان الأخير، وهم بانتظار قدوم الفيضان التالي ليغسل أجسادهم تارةً أخرى. عند الحافة الموجودة على طول رصيف الميناء هناك سفينة بخارية نرويجية يراودها حلم بأن يتم تحميل بضائعها وسط الفوضى التي تضرب هذا الميناء الصغير.

نظرنا إلى الكعكات في أيدينا—فبدت ثقيلة مثيرة للسقم بالنسبة لبطوننا التي أصابها البحر بالاضطراب، ولهذا أثرنا أن نتمشى في شارع رئيسي مظلم رطب شبيه بالمجاري، وأثناء ذلك ذهلنا من منظر قطار ترامواي كان قد اصطدم بطريق مسدود، ليوحى لك وكأن نهاية العالم قد حلت الآن. أما التلاميذ المنصرفون من مدارسهم فما إن رأونا حتى راحوا يركضون بمرح ونشوة في أعقابنا، وقد حرصوا على خفض أصواتهم منصتين إلى رعب اللفظ الصوتي الصادر عن حديثنا الأجنبي. ثم دخلنا نزولاً في زقاق جانبي مظلم بعمق حوالي أربعين خطوة؛ وصل بنا إلى الخليج الشمالي، وقد عكرت نقاء الهواء رائحة كريهة قذرة بدت كنتانة المجاري التي لا تنتهي، وكانت تفوح من ركام طيني، فحثثنا الخطى نحو نهاية ذلك الشارع الرئيسي الداكن واستدردنا بسرعة تجاه الشمس. وفجأة! أصبحنا أمام أشجار نخيل تعلو شامخة مختالة، **59** فهناك حلت سفينتنا ضيفة على حوض السفن المنحني اللامع بانتظار عودتنا، حيث رمت الشمس بسهام ضيائها الشديدة عليه، فأصبنا بالذهول والنشوة من هذا المشهد البديع، لقد أبهرنا حقاً! وهكذا جلسنا على مقعد حديدي في الشارع المشجر المقفر الغارق في الشمس.

انتبهنا لوجود فتاة متسخة رثة الثياب كانت ترضع طفلاً سميئاً مبللاً جامد الحركة، وتعتني بذات الوقت برضيع آخر مكتنز قدر، وقفت على بعد ياردة واحدة وراحت تحديق بنا كمن يتمتع خنزيراً بغية شرائه، اقتربت منا وعمدت إلى تفحص كيوبي، فأخفضت قبعتي الكبيرة مغطياً عيني كي أتجنبها، ولكن دون جدوى، فلقد جلست بجانبني وحشرت وجهها مباشرة تحت حافة قبعتي، حتى لمسني شعرها المجعد، وظننت أنها ستقبلني لا محالة، لكنها لم تفعل واكتفت بالتحديق في وجهي وأنفاسها تدغدغ وجنتي، وكأنها معضلة مستفحلة لا حل لها! فانتفضت منتصباً على الفور.

قلت لكيوبي: "هذا كثير بالنسبة لي". فضحكت ثم التفتت إلى الفتاة وسألتها عن اسم الرضيع، فأجابت أن اسمه بوبو، كما يطلق على سائر الصغار.

واصلنا المسير مندفعين نحو الأمام، تجولنا في الأماكن المظلمة من الشارع المشجر، حيث كانت الشمس متجهة نحو السفينة تماماً، ثم عدنا ثانية إلى المدينة. لم نبق على الشاطئ لأكثر من خمس عشرة دقيقة، واتجهنا هذه المرة إلى اليمين لنمر بالمزيد من المتاجر، كانت الشوارع مظلمة باردة لا شمس فيها، وبدا لي أن مدينة تراباني بأسرها تباع نوعين من البضائع فقط، وهي الجلود المعالجة للأرانب والقطط وتجهيزات مفارش الأسرة الحديثة البشعة الكبيرة المشبعة بالحريز المزهر ذات الأسعار الخيالية. يبدو أن الناس في هذه المدينة لا يفكرون بشيء سوى آلاف الليرات، **60** لكن البضائع الرائجة أكثر هي الجلود المعالجة للأرانب والقطط، حيث تشاهدها في الأسواق مبسوطة كأوراق مرصوفة إلى بعضها تتدلى بمجموعات في كل مكان، وقد كان

فراء الأرناب وافرًا للغاية بأنواع عديدة كالأسود والأبيض والمبقع والرمادي، أما فراء القطط فيأتي بالدرجة الثانية كالمخطط وفرو الذبل¹⁷ إلا أنَّ الأسود هو الغالب، وبكل تأكيد كانت جميعها منبسطة لتعبر عن مظهر مروّع للحياة. لقد تحولت هذه الحيوانات الأليفة لمجرد فراء لا أكثر. تحتوي هذه الأسواق على جلود هررة وأرناب منبسطة بشكل بسيط، معلقة ومتدلية على شكل عناقيد وحزم وأكوام. إنَّ هذه البضائع متوافرة بالعشرات، وكأنها أوراق مجففة وضعت فقط لكي تنتقي منها ما تشاء، فإذا تسللت قطعة من إحدى السفن العابرة وذهبت إلى شوارع تراباني أضمن لك أنها ستطلق صرخة رهيبية ويدركها الجنون من هول ما ستري مما حل بأبناء جلدتها.

تابعنا المسير لعشر دقائق أخرى في هذه المدينة الضيقة المتعرجة الزائفة، حيث بدت زاخرة بالسكان الأثرياء وعدد لا بأس به من الاشتراكيين، ويمكن للمرء أن يتبين ذلك من خلال الخربشات الكبيرة على الجدران لـ "لينين"¹⁸، "فلتسقط البرجوازية". بالمناسبة، تخيل أنَّ لينين هو رمز آخر للذكورية على القائمة حيث أنَّ اسمه يستهل بحرف دبليو وهو تعبير عن تحية النصر على الأعداء.

لا يجرؤ المرء على شراء الكعك في هذه الأسواق بمجرد النظر إليه، لكننا وجدنا بسكوت ماكرون¹⁹، ونوعًا من المخبوزات المسطحة التي تشبه قوالب الجبس للطفل يسوع تحت الحمامة، اشترينا منها اثنين. تناولت كيوبي بسكوت ماكرونا أثناء تجولنا في الشوارع ثم ذهبنا إلى السفينة، وهناك شاهدنا المراكبي السمين ونده علينا ليعيدنا، لا يفصلنا عنها سوى ثماني ياردات من التجذيف في الماء، **61** فالسفينة راسية عند الرصيف حتى إنَّ المرء بوسعه القفز إليها. أعطيت المراكبي البدين ليرتين وفرنكين، فوضعها على الفور بطريقة تعبر عن سخط العامل الاشتراكي، فدفع بقائمة الحساب نحوي: "ستون سنتيمًا إضافية!". كانت الأجرة ثلاثة عشر سو²⁰ للذهاب أو الإياب إلى السفينة! وفي البندقية أو سيراكيوز تصل التكلفة إلى اثني سو فقط، نظرت إليه وأعطيته النقود قائلًا: "حبًا بالله، نحن في تراباني!". فتمتم ممتعًا بشيء عن الأجانب، بيد أنَّ الوقاحة البغيضة المجردة من الرجولة لأمرء الكدح هؤلاء، الذين أسسوا نقابات متعددة تدعمهم وتضمن حقوقهم كرجال عاملين تجعل الدم يغلي في عروقي، لم يعودوا رجالًا عاديين فقد هجرت البساطة والعفوية قلوبهم، واختفى الإنسان الإيطالي السعيد القنوع بشكل رائع، ليعلقوا أوسمة شرف جديدة قابلوها مصادفة، وباتت كرامة الرجل الكادح تكمن باتصافه بالعدوانية، فالانخراط في العمل يمنح المرارة في قلب كل شخص مسكين فقير غير مستعد لكل هذا.

اسمحوا لي أن أذكر نفسي بعبارة بين قوسين أنّ المسؤولية تقع على عاتقنا نحن الانكليز، فرحنا نتحدث بحماس عن نبل الكدح، حتى دفعنا النبلاء في النهاية إلى تبني هذا الأمر بشكل طبيعي، وما يزيد على ذلك هو أننا ذكرنا أنّ هذا السعي السامي هو حرية مقدسة، وفي الوقت عينه نملاً جيوبنا جهاراً دون أدنى خجل، ولهذا فلا عجب من رفض الجنوب الساذج المثالي لنا بشدة.

حسناً، لقد عدنا إلى السفينة، وطلبنا فنجانين من الشاي، تقول القائمة المعلقة بجوار الباب أنّ احتساء القهوة والحليب والزبدة عند الساعة الثامنة والنصف، 62 وتناول الغداء في الساعة الحادية عشرة والنصف، أما الشاي والقهوة أو الشوكولاتة بتمام الثالثة، والعشاء عند السادسة والنصف. علاوة على ذلك، ستقوم الشركة بإطعام المسافرين خلال المدة الاعتيادية للرحلة فقط، لا بأس بذلك، ولكن أليس هذا وقت تقديم الشاي؟ يبدو أننا لن نحصل على شيء! كان طاقم معاطف الألبكة يتهرب منا، غير أننا عثرنا على المسؤول عن الرحلة وطلبنا بحقوقنا؛ على الأقل كيوبي فعلت ذلك. تكلفة التذاكر من باليرمو إلى كالياري لكلينا هي 583 ليرة، من بينها 250 ليرة للتذكرة الواحدة و40 ليرة ثمن الإطعام للشخص الواحد. وهذا ما سيجعل المجموع 580 ليرة. أما الثلاث ليرات العجيبة فهي ثمن الطوابع. كان من المفترض أن تستغرق الرحلة حوالي ثلاثين إلى اثنتين وثلاثين ساعة، من الساعة الثامنة صباحاً لوقت المغادرة وحتى الثانية أو الرابعة من ظهيرة اليوم التالي. ولهذا يبدو أننا سندفع ثمن الشاي الذي نحتسبه بكل تأكيد.

ظهر الركاب الآخرون، بينهم شخص من باليرمو سمين ضخم شاحب الوجه يتحلى بمسحة من الوسامة، في طريقه إلى كالياري ليعمل كبروفيسور فيها، مصطحباً زوجته البدينة ذات الوجه المتورد، وأولاده الثلاثة؛ وهم صبي في الرابعة عشرة من عمره أشبه بفتاة نحيلة هشة متعلقة بأبيها، وآخر صغير يرتدي معطفاً غير منفوش من جلد الأرنب، وطفلة بعمر السنة لازالت في حضن أمها، كانت محط اهتمام الأسرة بالطبع، بدت أجسامهم مريضة طوال اليوم وتسلل الشحوب إليهم، مما أثار تعاطفنا نحوهم، بينما راحوا يشكون ويتذمرون من قساوة الرحلة، وعدم وجود أي خادمة تقوم بهم. طلبت الأم فنجاناً من القهوة، وكوباً من الحليب لأطفالها، ولكن لدى رؤيتها الشاي بالليمون الذي كنا نحتسبه، ادّعت أنها لم يسبق لها أن تذوقته من قبل، وطلبت كأساً منه، إلا أنّ الصبي بمعطف الأرنب هو من حظي بالقهوة مع الحليب ولا شيء آخر، بالإضافة إلى برتقالة. 63 وكان من نصيب الطفلة الصغيرة بعض حروز الليمون، أما الشقيق الأكبر فقد قهقه بمودة على حماقات أخويه الصغيرين، وشاركه الأب الضحك معتقداً أنّ كل ما يحدث هو أمر ظريف ومتوقع منا أن نشاركه ذات الشعور، وقد بدا شاحباً للغاية وغير قادر أن يولي كامل اهتمامه لما يفعل أولاده. وفي نهاية الأمر حصلت الأم على كأس من الشاي، فوضعت قطعة من

الليمون فيه، وصبت الحليب فوقه. أخذ الصبي ذو معطف الأرنب يمص البرتقالة، وسال لعبه على الشاي، ثم تركها فجأة وأصر على شرب بعض القهوة بالحليب، وحاول قضم حز من الليمون، وحصل على قطعة بسكوت، بينما راحت الصغيرة تمضغ حزوز الليمون لتتبدل تعابير وجهها بشكل غريب، ثم تسقطها في كأس العائلة، لتعاود التقاطها من جديد مضيفة عليها القليل من السكر، وتدحرجها على الطاولة إلى فمها، ثم ترميها بعيداً وتمد يديها متناولة قطعة حامضة جديدة. لقد اعتقدوا جميعاً أنّ ذلك مضحك وظريف، عندما آل الأمر بها إلى الحليب، وتناولته ككوب محبب آخر، فمزجته بالبرتقال، الليمون، السكر، الشاي، البسكويت، الشوكولا والكعك. لم يأكل الأب والأم والولد الأكبر أي شيء، فلم يستسيغوا تناول ذلك، بيد أنهم بالطبع كانوا مفتونين بمقالب الصغيرين وعبثهم. لا أنكر أنّ صبرهم بدا ودياً لأبعد حد، ووجدوا في الصغار مصدرًا دائمًا للتسلية الساحرة، وكانا ينظران إلى بعضهما ولابنهما الأكبر، ضاحكين ومعلقين على ما يفعل طفلاهما، بينما حول الصغيران نفسيهما والطاولة إلى مزيج من فوضى الليمون والحليب والبرتقال والبسكويت والشاي والسكر والكعك والشوكولا. هذا الصبر الإيطالي المترقق المبالغ فيه تجاه قرديهما الصغيرين لهو أمر مذهل بحق، فقد أصبح هذان المشاغبان أكثر شبهاً بالقروء، ومدركين أنهما محط أنظار من حولهم بشكل لا يصدق. وهكذا أصبح في جعبة هذا الطفل كل حيل زانية بابل²²، فيحاول لفت الانتباه إليه وتجريب مقالب جديدة، حتى يكتشف المرء في آخر المطاف أنّ هذه العائلة الجنوبية المباركة **64** قد أضحت ثالوثاً أحمق غير مقدس. في أثناء ذلك أخذت أمضغ حلوى الطفل يسوع والحمامة، كانت أشبه بتناول قطعة رقيقة من الزجاج القاسي الحاد، رغم أنها مصنوعة من اللوز وبياض البيض كما يُزعم، إلا أنّ طعمها ليس بذاك السوء إن تمكنت من لوكلها بأي حال، وكأنها أيقونة أثرية لعيد الميلاد. أخذت أراقب هذه العائلة صغيرها وكبيرها محاولاً ألا تفضح عيناها ما يدور بداخلي.

صعدنا إلى سطح السفينة بأسرع ما يمكن، ورحنا نشاهد تحميل براميل النبيذ إلى عنبر الشحن، كانت عملية لطيفة بعيدة عن التعقيد. بدت السفينة خالية تقريباً من البضائع والركاب، فقد كنا على ما يبدو اثني عشر راكباً بالمجمل مع ثلاثة أطفال، أما بالنسبة للحمولة فهناك الصناديق الخشبية الخاصة بالضابط، وأربعة عشر برميل نبيذ من تراباني، وقد استغرق وضع البرميل الأخير في مكانه بشكل محكم وقتاً طويلاً، بحيث يتمكن المالك أو التاجر المسؤول من رؤيتها، إذ لا يبدو أنّ أحداً على متن هذه السفينة مسؤول عن أي شيء، بينما قام أربعة من أفراد الطاقم الذي لا يحصى بإعادة الألواح الكبيرة إلى مكانها فوق عنبر الشحن. غريب كيف بدت السفينة بائسة، ثم أعلنت الآن استعدادها مجدداً للإبحار، وطاقمها لم ينجح بجعل الحياة تسري في شرايينها، فانطلقت برحلتها كروح تائهة عبر البحر المتوسط. خارج الميناء بدت الشمس وكأنها تغوص في أعماق البحر، لتصبغ السماء بحمرة متشربة بلون ذهبي أخاذ، **65** امتد في البعيد إلى

ما وراء مجموعة جزر إيغاديس المظلمة، ليزغ بعدها الفجر قادمًا من الجانب الشرقي للجزيرة كحالنا تمامًا، فترتمي خيوط نهاره من وراء البحر الأيوني مشكلاً حدثًا عظيمًا معهودًا كل يوم، يا له من حدث حاسم جدًا! فبمجرد سطوع الضوء على طول حافة البحر، تسمرت عيناينا ناظرتين بدهشة تجاهه، وحينها أدركت أنه الفجر. ومع ذوبان اللون الأرجواني لليل المتقهقر، والمزين في أعلاه بإكليل قرمزي يبعث الحماسة في النفس، شعرت يومًا بعد آخر بشيء يدفعني للنهوض من رقادي؛ وهكذا ها نحن قادمين من جهة الشرق، تحول بيننا وبين الغرب جبال شديدة الانحدار بارزة خلفنا، لينتابنا شعور رهيب مثير من مشهد هذا الغروب في البحر القريب من السواحل الإفريقية. يا الله! إنه أكثر بهاء وملحمية من بزوغ الفجر في بحرنا الأيوني، والذي لطالما ارتسم وكأنه إحياء لزهرة تتفتح، غير أن هذا الغروب الأحمر العظيم، الذي راح يتسع كصوان بوق، كان فيه شيء ما نصف مشؤوم يعتلي البحر. وبدا بعيدًا للغاية لأرض مجهولة، بينما بدا فجرنا في البحر الأيوني قريبًا مألوفًا سعيدًا دائمًا. لا بد أن ابتسامة مظلمة من عصور ما قبل التاريخ تعتلي وجوه الآلهة المختلفة لصقلية، كعشتار، وإيرسينا، وهي تراقب غروب الشمس المخيف وراء جزر إيغاديس، من على جبل أبولو المضاء بالذهب من شرق البحر الأيوني، إنها آلهة غريبة بالنسبة لي، إيرسينا فينوس، وكذلك الحال بالنسبة للغرب فهو غامض وغير مألوف ومرعب قليلًا، سواء أكان إفريقية أو أميركا. وبينما أخذت الشمس تؤذن بالرحيل تحركنا خارج الميناء ببطء، وبالكاد عبرنا حاجز الأمواج، حتى لاح أمامنا في البعيد بين الجزر، غمرًا لضوء موجه سريع، نظرنا ورائنا، فرأينا ضوء الميناء يرتعش عند المدخل، بينما ومضت أضواء البلدة النائية المتبددة بشكل خافت. **66** أخذ الظلام يرخي أستاره على البحر، ملتهما ما تبقى من اللون الأرجواني القرمزي للشفق، بينما ظهرت لنا الجزر بشكل أكبر كلما اقتربنا منها أكثر، ولفتنا عتمة حالكة في هذا الظلام الدامس. سطع فوقنا وميض نجمة المساء الرائع فعانق نورها البحر الذي لا حدود له، لينقبض صدري لهذا المشهد البديع، فأنا معتاد على رؤيتها تحتضن ذرى الجبال، ودائمًا ما ينتابني شعور أنها قد تسقط من عل، لتقبض على أطراف الفضاء من تحتها.

كانت الظلمة تلف ليفانزو والجزر الأخرى، بعتمة حالكة، باستثناء شعاع وحيد تصدره المنارة ليتبدد في البعيد. هبت الريح بقوة مرة أخرى ببرودة قارصة، فعادت السفينة لتستهل عهدها القديم بالانزلاق والنهوض من حضن البحر، وتعاود الكرة مرة أخرى وهو أمر لم يرغب عن بالنا إلا بشق الأنفس. شعت فوق رؤوسنا أعداد لا حصر لها من النجوم وكأنها نبضات قلوب حية في كنف السماء. لمحت عيناينا نجمة كوكبة الجبار عالية خلفنا، ونجم الشعري اليمانية يسطع بزهو، وفجأة سمعت أذناي صوت انسلال السفينة على سطح البحر! إننا نمخر عباب البحر ونرافق أمواجه، وبعد أن نغور طويلًا في مياهه، نسمع ذاك الحفيف! هذا الحفيف المتناغم الغريب

وصوت قعقة أجوف تصدره باخرتنا على البحر، له مفعول مخدر يكاد يثير جنون الروح. إنه صوت هسهسة طويل لتفجر المياه، حيث تغور السفينة متمائلة، ثم تصعد للأعلى مرة أخرى لتصدر تلك الهسهسة المفاجئة.

قرع الجرس فعلمنا أنَّ الطاقم يتناول الطعام مرة أخرى. كان تناول أو شرب القهوة والطعام مستمرًا على قدم وساق في كل لحظة من النهار والليل على الأرجح. 67 تم استدعاؤنا لتناول العشاء، لنجد الشابة التي معنا قد اتخذت مكانها مسبقًا. وهناك رفيق بدين يرتدي زيًا رسميًا أو لعله ضابط المحاسبة أو مسؤولًا من نوع ما قد فرغ من طعامه على مسافة منا. ظهر البروفيسور شاحب الوجه أيضًا. وعلى مسافة معينة آخر الطاولة جلس رجل رمادي الشعر صارم الملامح قليلًا، مرتديًا معطف سفر مصنوعًا من صوف الألبكة رمادي اللون. وبعد لحظات أحضرت المعكرونة المحببة تعلقوها طبقة من صلصة البندورة. لماذا لم يُقدم أي طعام بحري؟! فكم كانت متأملًا أن أحظى بسمكة شهية، مع أنه قد سبق لي رؤية الطاهي يعد الأسماك التي تعض ذبول بعضها بوحشية. أه كأي أرى سمكة، ما عساها أن تكون؟ أهى وعاء جبر مقلي بالزيت؟! فالكاليماري ليس أكثر من علبة حبر، أو بوسعك تسميته سلية مخاطية. يال حظي العاثر! أخطبوط صغير موجود بوفرة في البحر المتوسط وينفث الحبر إن غضب. تم تقطيع هذه السلية المخاطية²³ مع مجساتها وقلبت بالزيت، فأنقص قوامها لتصبح بكثافة شريط تصوير سينمائيًا. تُعتبر طبقًا شهيرًا، لكنها أقسى من المطاط الصناعي وتتخللها الغضاريف في أعماقها. لدي نفور غريب من جلب الحبر هذه، فذات مرة وأثناء وجودنا في ليغوريا امتلكننا قاربًا ورحنا نجذب بصحبة قوارب الفلاحين، فاصطاد أحد الفلاحين ويدعى أليساندرو حبارًا، وبكل بساطة قام بتقييد أنثى الحبار بطريقة خيط في الكهف؛ بأن أدخل الخيط في ثقب مناسب بطرفها، ليُبقِيها على قيد الحياة وكأنها كلب مقيد من سلالة الأمفتريت بشعره المجعد، وظلت على هذا الحال حتى ذهب أليساندرو للصيد، ثم جرّها خلف القارب ككلب بودل، فتهافتت عليها الذكور الطفيلية للبحار المالحة، فكانت هذه الأكياس المخاطية المسكينة العاشقة هي الضحايا، وتم رفعها كفريسة على سطح الزورق بينما رحّت أحرق برعب إلى مجساتها الشفافة الرمادية وتلك الأعين المتحجرة الكبيرة التي لا روح فيها. ثم سُحبت هذه الحبارة خلفنا مرة أخرى، لكنها ماتت بعد بضعة أيام. 68 وأعتقد أنَّ هذه الطريقة وضعية بشكل لا يوصف، حتى بالنسبة لمخلوقات ذات مظهر مفرع، وتوضح كيف أنَّ الإنسان المتغطرس أدنى مرتبة حتى من الأخطبوط.

حسنًا لقد قمنا بمضغ القليل من أطراف جلب الحبر المقلية بالزيت، ثم أحجمنا عنه. كذلك فعلت الفتاة الكاليرية، أما البروفيسور فلم يحاول حتى تذوقه. فقط ذلك الرجل صارم الملامح بشعره الرمادي ومعطف الألبكة راح يمضغها بحيوية ونهم لافت. بقيت كميات هائلة من الكاليماري

لذلك الذباب البشري الأزرق الذي تهلل فرحة. وبوصول اللحم الذي لا مفر منه؛ وهو عبارة عن قطعة طويلة مقسمة إلى شرائح بنية رمادية وتفتقر تماماً لأي طعم، فهرب البروفيسور على الفور. آه يا إيطاليا! وصلت الإجازات بجلد الثمرة الكتاني، التفاح، البرتقال؛ وقمنا بالاحتفاظ بتفاحة لأوقات أفضل. ثم حان وقت تناول القهوة، وكمتعة رائعة رافقتها بعض المعجنات الشهيرة، وجميعها تحتاج إلى النكهة على حد سواء. هزت الشابة رأسها بحسرة، وقمت أيضاً بالأمر نفسه بينما كانت كيوبي سعيدة كالأطفال بها. أما الأكثر سعادة من الجميع فهي تلك الذبابات البشرية الزرقاء المرتدية معاطف الألبكة والتي وثبت إلى البوفيه القصديري، وسُمع صوت أزيزهم بشكل جامح وهم يلتهمون الكعكات الباهتة، باستثناء ذاك الشخص الجلف ذي الخدود بلون نبات الكباد حيث لم يول أي اهتمام مطلقاً بالكعكات، فجاءنا مرة أخرى ليغيظنا بشأن الشراب، وبدرجة كبيرة دفعت الفتاة الكاليارية لطلب كأس منه؛ وتوجب علي أن أتبعها بذلك. وها نحن ذا **69** مع ثلاثة كؤوس صغيرة من الشراب. جرعت الفتاة الكاليارية كأسها لتهرب فجأة، أما كيوبي فاحتست القليل منه بحذر بالغ، وأحجمت عنه بهدوء. شربت كأس كيوبي الصغير وكأسي، فطنّ الذباب الأزرق النهم بسخرية وحماسة. أما ذاك ذو الخدود الصفراء فقد اختفى فجأة. وفي خضم هذه الفوضى التي تحدث تناهى إلى مسمعا صوت نحيب خافت من حجرة البروفيسور، وفي بعض الأحيان كان محمومًا، وكأنّ شخصًا أو آخر قد أصابه المرض، ولا شيء يفصل بين حجرة البروفيسور وبينهم سوى باب رفيع، ثم تبين لنا أنه رجل تم اضطهاده حتى أمسى أشبه بخرقه بالية قديمة، فيمضي بتكتم إلى أحواض السفن محاولاً ألا تفضح عيناه البؤس الكامن بداخله. صعدتُ للأعلى لألقي نظرة على النجوم الزاهية الغارقة، ولأملأ صدري بنسمات الرياح الباردة، ولأرغب انزلاقنا على البحر المظلم. ثم اتجهت إلى الحجرة لأشاهد البحر يعدو مارًا بمحاذاة الكوة لدقيقة من الزمن، وأدخلت نفسي كقطعة لحم في شطيرة داخل السرير السفلي الضيق، أوه! يا لها من حجرة متناهية في الصغر، حيث كنا نتأرجح داخلها أنا وكيوبي كعودي ثقاب في علبة كبريت، يا للغرابة! إلا أنّ عدو السفينة في البحر ما زال رائعًا برغم ذلك.

ورغم تلك الليلة الخائفة المتماوجة حظيت بنوم جيد، بل في الواقع غفوت بوقت لاحق بشكل عميق. وفي صباح اليوم التالي نظرت من الكوة، فوجدت النهار صافيًا ويزداد إشراقًا، وبدا البحر أكثر سلاسة، فأسرعتُ وغسلت نفسي على عجلة من الإناء ليتحدر الماء إلى دلو في الزاوية. لم يكن ثمة مكان حتى لكرسي واحد، وهذا الإناء كان بجانب رأسي في السرير ذي الطابقين. صعدتُ إلى سطح السفينة، **70** فأبهرتني جمال الصباح! نظرت للخلف نحو البعيد فوجدت الشمس قد تسالت لتوها فوق أفق البحر، لتصبغ أشعتها السماء بلون ذهبي مفرح، والبحر يلعب كالزجاج، وقد تلاشت الرياح فانساب البحر بأموج هادئة، أما الرغبة التي تركها مرور السفينة فقد ظهرت كجليد أزرق شاحب يداعبه هواء أصفر. إنه صباح رائع حقًا يطل على البحر

برحابة، وكأن الشمس تُقبل وهي تسبح صاعدة من لحي قيعانه، وها هو قارب شراعي طويل، بسلم أشرعته الأمامي العريض، يتقاطع مع ضوء النهار بشكل رقيق، وباخرة في البعيد البعيد تمخر أفق الصباح الجذاب المفعم بالحياة.

يال ذلك الفجر الساحر، فقد عكس جماله على الصبح فبات رحبًا بهيجًا متألقًا وسط البحر، بهذا اللون الذهبي الذي كحل مقلتي السماء فأسبغ سرورًا على النفس، أما مياه البحر فتراقصت وتلألأت كخرز لماع، وتلك السماء البعيدة القاصية هناك في الأعلى يخالج عتباتها صفاء لا يمكن إدراكه. أيُّ سعادة تغمرك عندما تبهر على ظهر سفينة! وأي فرحة على القلب تعود بها ساعة نفيسة من الزمن عليك! آه لو أن بوسع المرء أن يبحر للأبد، وحيدًا على ظهر سفينة صغيرة، من أرض لأخرى، ومن جزيرة لثانية، فيتجول عبر مساحات هذا العالم الجميل، ويمضي به الدهر أبدًا بين مساحات هذا العالم الرائع. ألن يكون الأمر فائقًا إن وطأت قدمك أرضًا مجهولة ببعض الأحيان، أو إن منعت نفسك من الحنين إلى اليابسة الصلبة، ولذلك يجب أن يلغى هذا التذبذب في رحلة المرء مقابل ذلك الجمود الكامن على أرضنا الراسخة! بيد أن الحياة ذاتها في هذه الرحلة، ليست سوى رعشة للفضاء. آه من رجة هذا الفضاء الذي لا نهاية له، بينما يمضي المرء مكملًا رحلته مع فؤاد يفيض بالسعادة ويعتصر من الوحدة بذات الوقت، دون أن تعيقه اليابسة بعد الآن، وأن لا يكون أشبه بحمار يقيد النير من ساقيه بالأرض المنهكة التي لا تحيب على تساؤلاتك. بل يجب أن يغدو بمنأى عن كل ذلك. فإذا وجدت ثلاث أرواح رجولية تائهة في هذا العالم، **71** وسرت معهم على غير هدى، عبر الفضاء المتردد، طالما في الروح نفس! فلم عساك تحط الرحال؟ فلا شيء يستحق أن تلقي مرساتك لأجله، فلم يعد بوسع اليابسة الإجابة أكثر عن الأسئلة التي تخالج الروح، بعد أن أمست خاملة. أعطني سفينة صغيرة، ومباركة ودودة، وثلاثة رفقاء تائهين في هذا العالم. اصغ لهمساتي! ودعني أجوب بلا هدف في هذا العالم الخارجي النابض بالحياة، عالمًا خاليًا من البشر، حيث يفرد الفضاء جناحيه بسعادة.

يا له من صباح جميل بلون صفرة ورود الخشخاش يطل على هذا البحر المترامي الأطراف، الذي تحقّه زرقاة أخاذة نادرة. بزغت الشمس فوق الأفق، وكأنها مياسم متقدة لزهرة اليوم المقدسة، أما تلك السفن الشراعية التي تجوب البحر المتوسط والتي بدت من القرون الوسطى فقد راحت تحوم هنا وهناك بنفحات من ريح الصباح الواهنة، وكأنها تائهة حائرة في أي طريق تسلكه، فبدت مثيرة للفضول كحشرات ذات أجنحة غريبة تسكن زهرة. أما سفينتنا البخارية التي لم يعد يبرز منها سوى مقدمتها فقد كانت تغوص متجهة نحو اسبانيا. بدا الفراغ واضحًا تمامًا من حولنا، إنه بحر مستو! ظهرت الشابة الكاليارية وصديقاها، وبدت رائعة الحسن فمن الواضح أنها استعادت عافيتها الآن بعد أن بات البحر هادئًا. كان صديقاها الشابان يحيطان بها، واحد

على كل جهة. ندهت علي: "صباح الخير يا سيدي! هل تناولت القهوة؟". فأجبت: "ليس بعد، ماذا عنك؟". "كلا! أين السيدة زوجتك..." 72

راحت تزمجر ككلب درواس²⁴، ثم التفتت تترجم بحماسة زائفة لصديقها عديمي المعرفة، كيف حدث وأنهما لم يفهما لغتها الفرنسية لا أدري، فهي ليست سوى محاكاة مضحكة بالإيطالية. انسحبت بلطف وذهبت للأسفل للعثور على كيوبي.

عند وصولنا بدا وجه اليايسة الباهت أكثر شفافية من اللؤلؤ الوضاء. تمتاز جزيرة ساردينيا في ذلك الحين بأراضيها الساحرة المرتفعة بكل أنفة وكبرياء بحيث يمكن للناظر أن يراها وسط البحر من البعيد، لتبدو له شفافة طيفية كجبال البحار الجليدية. هذا ما كانت عليه ساردينيا، غامضة كظلال أسرة تتوسط البحر. أما القوارب الشراعية فتظهر للرأي وكأنها قد اقتطعت من ذاك اللؤلؤ الشفاف بالغ الرقة لتبحر كنسمات الريح صوب نابولي، أحصيت عدد أشعتها فوجدتها تبلغ خمسة، وهي على شكل مربعات مصممة فوق بعضها بشكل متتالٍ، ولهذا أطلقت عليها اسم "السلم"، ولكن كم هو عدد الأشرعة الجناحية بشكل نصل السيف يا ترى؟ لم يتسن لي بعد رؤيتها.

في هذه الأثناء اكتشفت أن صديقنا النجار كان يتلصص علينا، هو ليس بصديقي على أي حال، حيث لم أكن محبوباً بالنسبة له، أنا واثق من ذلك، ومع هذا صعد للأعلى وشرع بالترفيه عنا بابتذال ممل. اتجهت الشابة الكاليارية إلينا وسألت ثانية: "هل تناولتما القهوة؟". فأجبنا أننا كنا على وشك النزول، فشرحت لنا بضرورة أن ندفع ثمن كل ما استهلكناه في هذا اليوم؛ يا إلهي! لقد انتهت فترة إطعامنا التي تدوم يوماً واحداً، فأثار ذلك استياء كيوبي بعد أن عرفت أننا قد وقعنا ضحية لهذا الخداع، لكنني أدركت ذلك مسبقاً.

73

نزلنا للأسفل وتناولنا قهوتنا برغم ذلك، ثم أقبلت الشابة وألقت نظرة إلى أحد الذبابات البشرية الزرقاء المرتدية معاطف الألبكة، بعد ذلك رأينا فنجاناً من القهوة والحليب وقطعتين من البسكويت يتم نقلها إلى مقصورتها بتكتم. حين يتبنى الإيطاليون التحفظ والخداع، يغدو الهواء

المحيط بهم شاهدًا عليهم، ويوشي بهم بألف لسان وهكذا بات واضحًا للعيان أنَّ الشابة قد تناولت القهوة في مقصورتها سرًا ودون مقابل.

أطل علينا الصباح بطلعته البهية، فتسللنا أنا وكيوبي إلى مقعد في نهاية مؤخرة السفينة وجلسنا بعيدًا عن الأنظار وبمناى عن الريح، تمامًا فوق الرغوة الناتجة عن أثر السفينة في المياه. أشرق الصباح الطلق أمامنا، وقد بدا لمعان أثر مسير سفينتنا في المياه كدرب رسمه الحلزون وهو يزحف عبر البحر؛ حيث بقي مستقيمًا لبعض الوقت، ثم اختار نهجًا لطالما اتبعه وهو الانحناء إلى اليسار، مقبلًا نحونا من الأفق النقي، كدرب حلزون لامع. كان من دواعي سروري أن أمكث هناك لأنعم بالسكون، برفقة بحر لا يحمل بين طياته نزعة بشرية، والذي راح يومض متألفًا وكأنه يرحب بنا، إلا أنَّ هذه الأوقات العذبة قد انتهت عندما وصل النجار وعثر علينا جالسين على ذلك المقعد في مؤخرة السفينة. **74** خاطبنا قائلاً: "آه، لقد وجدتما مكانًا رائعًا!". أجابت كيوبي: "إنه لطيف للغاية!". بيد أنني لم أستطع تحمل مقاطعته لنا. ثم شرع بالحديث وكأنه قدر لا مفر منه، حيث راح يروي لنا عن الحرب ويصف فظاعتها وبأنها قد تسببت بإصابته بالمرض الشديد، وذلك لشح الغذاء المفيد وانعدام ما يكفي من الراحة والدفع، فضلًا عن الخوف من شبح الموت الذي يطوف في الأرجاء طوال الوقت. إنَّ خشية الموت لها أثر سلبي، فلقد جعلتني أمكث ستة أشهر في المشفى! لقد تعاطفت معه كيوبي بكل تأكيد.

يتمتع الصقليون بالبساطة عند سردهم وهكذا قصص، حيث لا يخبرونك بشيء سوى أنهم كانوا مرتعبين بشدة فبالمرض منهم، أما كيوبي فقد أحبت تلك البساطة فيهم كحال أي امرأة أخرى، على النقيض مني حيث أغضبني ذلك إلى حد ما، فهم يتوقعون من المرء أن يتعاطف بشكل كامل معهم، ومهما تقلصت وذوت آلهة الحرب العظيمة في العالم فسماعي للتجذيف الذي ينطق به ظل مزعجًا للغاية بالنسبة لي.

على مقربة منا كان اللوك 25 ذاتي الحركة يدور بسرعة، وحبل القياس الرقيق يزحف خلفنا في البحر. وبطريقة عشوائية أخذ يهتز ويدور مع التواء متقطع. أوضح النجار أنَّ البرغي الصغير في طرف حبل القياس يلف بالسرعة نفسها التي كنا نبحر بها، حيث سرنا بسرعة تبلغ من عشرة إلى اثني عشر ميلًا إيطاليًا في الساعة، وبمقدورنا أن نضاعف السرعة، لكننا أثرنا عدم زيادتها حرصًا على عدم نفاذ كمية فحم الوقود. **75**

آه الفحم! يا للهول! لقد أدركت حينها أننا في ورطة الآن. وبدأ النجار كلامه بأنّ انكلترا بلد وافر بالفحم، ولكن ماذا تفعل به؟ إنها تبيعه بثمن باهظ جدًّا، خاصة لإيطاليا التي خسرت الحرب، لكنها الآن لا تملك حتى الفحم، فهي تعاني من ذلك بسبب سعر صرف العملة. أنا الآن في مأزق حقيقي بسبب ذلك. وأكمل بأنّ هناك دولتين فقط قد نجحتا في الحفاظ على ارتفاع عملتهما وهما انكلترا وأمريكا، حيث يعدّ كلا الجنيه الانكليزي والدولار الأمريكي النقود الحقيقية السائدة، فدفع ذلك البريطانيّين والأمريكيّين إلى التوافد صوب إيطاليا وشراء كل ما يرغبون بثمن بخس. هذا هو ما عليه الحال! بينما نحن الإيطاليون الفقراء منغمسون في خراب حقيقي. الحلفاء، الحلفاء وهلم جرا.

لقد أصبحت معتادًا على هذه الكلمة بشدة، ولا أستطيع المشي خطوة واحدة دون أن يُرمى في رأسي صرف العملة الأجنبية البائس، ويحدث هذا مع حقد فاضح جريح يجعل الدم يغلي في عروقي، لأجل التأكيد لهم بأنّ كل ما أملكه في إيطاليا قد دفعت ثمنه، فأنا لست انكلترا، لست الجزر البريطانية بشحمها ولحمها.

لقد ارتكبت ألمانيا خطأ باتخاذها قرار شن الحرب، غير أنها قد وقعت على أي حال، لقد كانت حربًا مجيدة، ولطالما ربطت الصداقة والمودة بين إيطاليا وألمانيا، غير أنّ الولايات التي ذاقتها باليرمو تشهد بحديث يناقض ذلك.

يا إلهي! لم أعد قادرًا على تحمل ثانية أخرى، فالجلوس فوق الرغوة التي تصنعها مروحة السفينة في المياه مع هذا المخلوق البائس ليحشو رزم جرائد عفا عليها الزمن في أذني، لن أستطيع المكابرة على نفسي والصبر عليه أكثر من ذلك، ففي إيطاليا لا مهرب لك من مصادفة هكذا أنواع من الناس، فما إن يتفوه فاك بكلمتين أمام أحدهم حتى يبدأ بحشو الجرائد القديمة في أذنيك، **76** لا مهرب من هذا الحديث، ولمجرد كونك إنكليزيًا فأنت تمثل انكلترا التي تستمتع بالفحم وصرف العملة، ومن غير المجدي على الإطلاق أن تحاول التحلي بالإنسانية حيال ذلك، أنت نظام ربوي فاحش وشيطان فحم ولص صرافة، لقد تلاشى كل رجل إنكليزي في هذا التجريد الثلاثي بنظر الإيطاليين من طبقة العمال البروليتارية على وجه الخصوص. حاول أن تجعلهم بشرًا واجبرهم على رؤيتك كمجرد فرد عادي إن استطعت. فبعد كل شيء، أنا لست أكثر من رجل يتجول في طريقه وحيدًا عبر هذه السنوات، لكن الإيطاليين أبوا ذلك ونظروا إلي كتجريد مثالي يتمثل بانكلترا والفحم وصرف العملة. كان الألمان ذات يوم شياطين التجريد النظري اللاإنساني تجاه الكائنات الحية، بيد أنّ الإيطاليين اليوم قد تفوقوا عليهم، وما يثير استياء الإيطاليين في شخصي كانكليزي هو أنني جدول إحصائي يسير على قدمين، ويفاقم الأمور سوءًا

بالنسبة لإيطاليا. هذا ما أمثله ولا شيء آخر. ولأنّ هذا حالي بالنسبة لهم، فعلي أن أغلق فمي وأمضي مبتعدًا.

وفي الوقت الراهن يخرج النجار ما في صدره من غيظ، لكن الغضب بات يملكني، يا لي من أحمق، إنّ الأمر أشبه بالتعرض لمضايقة بعوضهم. أصبحت القوارب الشراعية قريبة منا وقد أحصيت خمسة عشر شراعًا، وكم بدا مشهدها جميلًا! ولكن حتى إن كنتُ على متن إحداها فسيظهر لي رجل يشبني بكلامه الفارغ القديم ويخاطبني باسم انكلترا والفحم وصرف العملات.

البعوضة (النجار) تحوم وتحوم، لكن تعابير وجهي الجامدة كالصخر تبقىها بعيدًا، ومع ذلك ظل يحوم حولنا، كانت كيوبي متعاطفة بشدة معه، لأنه يعاملها كتمثال جميل 77 وكأنه يلحق حذاءها.

رحنا نتناول التفاح المتبقي لدينا من تحلية مائدة مساء البارحة، وبقايا حلوى الطفل يسوع واليمامة الخاصة بكيوبي. أخذت سفينتنا تقترب من اليابسة وحينها لاحظت لنا بقعة بيضاء أشبه بالكنيسة، حيث بات بمقدورنا رؤية الشكل النهائي للجزء النائي في الصخرة الشاطئية وشبه الجزيرة. الجزء الأكبر من اليابسة التي ندنو منها مهجور وعديم الشكل إلى حد ما، لكنها تتسم بالجاذبية بذات الوقت. في الحقيقة، التطلع قدمًا نحو اليابسة يمنحنا مخرجًا، لكن البعوضة (النجار) انقضت علينا، حيث يعتقد بيقين مذبذب أنّ البقعة البيضاء هي كنيسة أو منارة، فحين نجتاز الرأس البحري على اليمين وندخل الخليج الواسع بين رأس سبارتيفينتو ورأس كاربونارا حينئذ سيتحتم علينا الإبحار لساعتين نحو كالياري، سنصل بين الساعة الثانية والثالثة ظهرًا، فالساعة بلغت الحادية عشر من الوقت الآن.

أجل، من المحتمل أن تكون السفن الشراعية متجهة إلى نابولي، بيد أنّ الرياح قد خذلتهم وأصبحت كسولة مماطلة، فلو أنها لم تتخلّ عن قوتها ونشاطها لساروا بشكل أسرع وسبقوا سفينتنا البخارية، تحدث النجار: آه يا نابولي! جميلة ورائعة، أليس كذلك؟ قلتُ: "لكنها متسخة قليلًا". فأجابني: "ولكن ما الذي تريده؟ إنها مدينة عظيمة! غير أنّ باليرمو تفوقها بهاء بكل تأكيد". وأكمل: "آه يال النساء النابوليات، هل يصلحن للزواج أم لا، إنهن يسرّحن شعورهن بشكل رائع للغاية وأنيق وجميل لكنهن قدرات من الداخل". استقبلتُ هذا الكلام بصمت ممزوج بالفقر، 78 ثم تابع حديثه: "نحن نجوب الأصقاع، وبتنا على معرفة بالعالم". فمن كان يقصد

بكلمة نحن، ليس لدي أدنى فكرة؛ إنَّ صاحب السمو النجار الباليرمي شخص أخرج بلا شك، فنحن الذين نلف العالم أصبحنا نمتلك خبرة واسعة عنه. إنَّ النجار يتهياً الآن لتسديد ضربة إلي حيث قال: "لكن النساء الإنكليزيات حالهن كحال الإيطاليات في القذارة والوساخة، إنهن بمنتهى القذارة!". واستطرد قائلاً: "أما نساء لندن..." . وهنا بات ما ينطق به يفوق احتمالي كثيراً.

خاطبته: "أنت يا من تبحث عن النساء القذرات، إنهن موجودات في كل مكان". فتوقف لبرهة محدقاً بي ثم قال:

"كلا! كلا! أنت لم تفهمني. لا! لا أقصد ذلك. أعني أنَّ النساء النابولييات والإنكليزيات لديهن ملابس داخلية قذرة".

غير أنه لم يحظ بأي إجابة أو تفاعل منا، بل رمقناه بنظرة باردة وأدرنا وجوهنا عنه، فالتفت عندئذ إلى كيوبي ليواصل الحديث بلطافة وبعد لحظات قليلة عاد واستدار نحوي وقال:

"يبدو أنَّ السيد مستاء! إنه مستاء مني".

استدريت صوب الاتجاه الآخر، فشعر بعدم تقبلنا له وانصرف أخيراً مستمتعاً بنشوة النصر. يجب أن أعترف بأن هذا الرجل أشبه بالبعوضة التي تلسعك في العنق. في واقع الأمر، لا ينبغي للمرء أبداً السماح لمثل هؤلاء الرفقاء بالدخول في محادثة معه بهذه الأيام، فلقد تجردوا من الإنسانية ولم يعودوا بشراً، إنهم يكرهون الشخص الإنجليزي ويتجاهلونه.

79

عمدنا إلى السير نحو الأمام باتجاه مقدمة سطح السفينة، حيث توجد حجرة المراقبة الخاصة بالقبطان، وهو رجل مسن صامت ومنكسر، مع هيئة رجل نبيل محترم، لكنه يبدو محبطاً مهزوماً، وهناك رجل آخر من طاقم الخدم يصعد الدرج إليه بين الفينة والأخرى يحمل فنجاناً من القهوة السوداء. ثم التفتنا عائدين واختلسنا النظر أسفل الكوة المثبتة في السقف لنشاهد المطبخ، وهناك رأينا الدجاج المشوي والنقانق! يا إلهي! هذا هو المكان الذي توجد فيه أضلاع الجدي والدجاج وما لذ وطاب من أطعمة أخرى، ستمضي جميعها إلى بطون الطاقم، أما نحن فلا مزيد من الطعام لنا حتى ننزل إلى اليايسة حين تحط السفينة رحالها.

وصلنا إلى الرأس البحري أخيرًا ومررنا بجانبه، وتبيّن لنا أنّ الشيء الأبيض هو منارة. خرج البروفيسور الوسيم حاملًا الطفلة الصغيرة، بينما قام الأخ الأكبر الصبي الأنثوي بإمساك يد الولد الأوسط الشبيه بالأرنب المنفوش واقتياده. يا لها من عائلة، عائلة رهيبة للغاية. كانوا يؤمنون على أنفسهم بقربنا، وهذا ينذر بمحادثة أخرى. ولكن بأحلامكم ذلك يا أعزائي!.

إنّ البحارة أو بالأحرى عصابة المتسكعين عند زاوية الشارع، شرعوا برفع العلم الإيطالي ذي الألوان الثلاثة الأحمر والأبيض والأخضر، وراح يطفو في الهواء على رأس الصاري، فانتاب الأخ الانثوي شعورٌ ملأ قلبه غبطة وسرورًا. **80** وخلق قبعته المضحكة ملوحًا وصرخ:

"ها هو ذا العلم الإيطالي العظيم!".

آه، إنها المشاعر البغيضة السائدة في هذه الأيام.

إننا نجتاز اليابسة ببطء شديد للغاية، وقد بدت لنا قاحلة كثيرة التلال والتحدّرات ويكسوها عدد قليل من الأشجار، وليست بالمديبة الحواف بل رائعة مثل صقلية، لكنّ برغم ذلك تتفرد صقلية بطابع خاص بها. تابعنا المسير على طول الجانب الشرقي من الخليج، ولهذا فقد أصبح رأس سبارتيفينتو بعيدًا عنا بجهة الغرب، ولكن حتى الآن لم يبرز أمامنا على مد البصر ما يشير إلى ظهور كالياري.

بكت الفتاة الكاليارية قائلة: "يا للهول! ساعتان إضافيتان! ما زال أمامي ساعتان حتى أتمكن من تناول الطعام. آه، يا لها من وجبة شهية تلك التي سأتناولها حين تطأ قدمي اليابسة!".

قام الرجال بجذب اللوك آلي الحركة. بعد الظهيرة هبت رياح الشمال العنيفة المريرة لتدفع الدفء بقوة عن الأرجاء المحيطة بنا، فاكفهر وجه السماء وتلبدت بغيوم أشبه بختارة جليدية.

أخذت سفينتنا تزحف رويدًا رويدًا على طول الشاطئ عديم الشكل، وقد مرت ساعة كاملة ونحن على هذا الحال، حتى ظهر حصن صغير أمامنا، تم تصميم بنائه على شكل مربعات كبيرة بيضاء وسوداء، شبيهة برقعة شطرنج عملاقة، وقد انتصب عند نهاية لسان الشاطئ الطويل لليابسة، وهو عبارة عن شبه جزيرة مطيرة طويلة خالية من المنازل أشبه بتضاريس ملعب الغولف، لكنها ليست كذلك. **81** يا لسرورنا، فوجئنا بظهور كالياري أمامنا أخيرًا، وإذ بها بلدة جرداء ترتفع شاهقة بمظهر ذهبي، حيث تحتشد هناك في الأعلى عارية تحت السماء مستلقية على سهل

لرأس خليج أجوف لا شكل يحدده، وقد بدت صغيرة الحجم من هذا العلو بالنسبة لنا. إنها غريبة ورائعة إلى حد ما، ولا تشبه إيطاليا بأي شيء، وقد جعلتني أعود بالذاكرة إلى مدينة القدس، فهي مثلها تبرز مكشوفة فخورة متغطرسة بعد أن اقتلعت عنها الأشجار وخلعت ستارها، وتراها كذلك صغيرة الحجم، كبلدة رهبانية نقية من الخطايا قد رسم الكتاب المقدس المنير أحرفها بين سطور صفحاته، فيقف المرء للحظة ويتساءل: يا للقدير! كيف أمكنها أن تتربع على عرشها هناك! فهي لا تبدو كإيطاليا مطلقاً، بل شبيهة بإسبانيا أو مالطا²⁶، إنها مدينة مهجورة شديدة الانحدار لا أشجار تكسوها كما لو أنها مخطوطة توضيحية قديمة، وبرغم ذلك فهي تشبه حجراً كريماً، كأنها جوهرة من الكهرمان²⁷ الأصفر تم نحتها بشكل وردة مفتحة تسر ناظرها، قاحلة في أعماق أخدود واسع. أما الهواء فكان يعصف بارداً لاذعاً مريراً، وقد أشبعت السماء بخثارة الجليد تلك، هذه هي مدينة كالياري بمنظرها المثير للفضول، كما لو أنّ بالوسع رؤيته دون دخوله. إنها أشبه بقارب يبحر بين أمواج الذاكرة والخيال، وكأنها نيزك قد مر بنا ثم مضى مودعاً نحو البعيد. من المحال أن يتمكن المرء من المشي في هذه المدينة، فما إن تطأها قدماه حتى ينشغل بالأكل والضحك فيها. آه، كلا! إنّ سفينتنا تندفع مقتربة أكثر وأكثر، سعياً للعثور على مرفأ حقيقي.

إنها الواجهة البحرية المألوفة مع الأشجار الداكنة لمنتزه ومباني فخمة خلفه، ولكنها هنا ليست وردية تخطف الأنفاس، بل تميل أن تكون كتومة أكثر وكئيبة كحجارتها الصفراء، والمرفأ بحد ذاته عبارة عن حوض مائي صغير انزلقنا فيه بحذر، بينما راحت ثلاث سفن محملة بملح أبيض كالثلج تتسل من جهة اليسار، وقد تم جرّها بواسطة زورق قَطُر صغير. ولا شيء آخر في الحوض المائي سوى سفينتين مهجورتين أخر، وقد كان البرد قارساً على سطح السفينة. ثم استدارت السفينة ببطء وتم سحبها إلى جانب الرصيف. **82** نزلت لإحضار حقيبة الظهر، فانقضت علي ذبابة بشرية زرقاء سميكة: "عليك أن تدفع تسعة فرنكات وخمسين قرشاً". فنأولته النقود على الفور وترجلنا من السفينة.

هوامش

أ- تريستا: إسطاجانكو أو إسطاجانكو، مدينة وميناء في شمال شرق إيطاليا قرب الحدود مع سلوفينيا، سكانها 207.000 نسمة وهي عاصمة لإقليم فريولي فينيتسيا جوليا ذاتي الحكم ولمقاطعة إسطاجانكو.

- 2- جبل بيلغرينو: هو تل يواجه الشرق على خليج باليرمو ، صقلية ، جنوب إيطاليا ، يقع شمال المدينة. يبلغ ارتفاعه 606 مترًا مع إطلالات بانورامية على المدينة والجبال المحيطة بها والبحر التيراني.
- 3-الجُدِّي: صغير الماعز.
- 4- كالياري: عاصمة جزيرة سردينيا الإيطالية وأكبر مدنها وعاصمة مقاطعة كاليري. يقع الساحل الجنوبي لها المطل على البحر الأبيض المتوسط عند الطرف الشمالي لخليج كالياري وعلى شرقها يوجد جبال مونتي دي كابوتيرا وشمالها سهل كامبيدانو. يبلغ عدد سكانها 161.465 نسمة.
- 5- الهُوسَر: جبلٌ ضخمٌ تشدُّ به السفينة إلى البر.
- 6- الدفيئة: قماش مشمع.
- 7- مايكل أنجلو: رسام ونحات ومهندس وشاعر إيطالي، كان لإنجازاته الفنية الأثر الأكبر على محور الفنون ضمن عصره وخلال المراحل الفنية الأوروبية اللاحقة.
- 8- بوتشيلي: أندريا أنجل بوتشيلي، الحائز على وسام استحقاق الجمهورية الإيطالية ووسام استحقاق دوارتي وسانشيز وميلا، هو مغني أوبرا إيطالي، وكاتب أغاني، ومنتج تسجيلات.
- 9- الألبكة: حيوان ثديي ذو حافر مدجن شبه مستأنس من فصيلة الجمليات يعيش في أعالي جبال الانديز بأمريكا الجنوبية ويشبه الخروف طويل الرقبة، ويشبه أيضا اللاما الصغيرة، وتؤكد الدراسات الجينية الحديثة أنه ينحدر من سلالة حيوان الفكوة الجنوب أمريكي.
- 10- ريب فان وينكل: هي قصة قصيرة للكاتب الأمريكي واشنطن إيرفينج نشرت في 1819، وكذلك اسم القصة الروائية الخيالية. كتبت عندما كان إيرفينج يعيش في برمنغهام بانكلترا، كانت جزءًا من مجموعة بعنوان الكتاب الكروكي للجيوفري كرايون.
- 11- جبل إريكس: أو مونتي إريتشي اليوناني القديم، هو جبل صقلية، في مقاطعة تراباني.
- 12- فينوس: إلهة الحب والجمال والرغبة والجنس والخصوبة والرخاء والنصر لدى الرومان.
- 13- أفروديت: إلهة الحب والجمال والنشوة اليونانية.
- 14- عشتروت: أو عشتر أو عشتر: هي إلهة الخصب والحب والحرب لدى الفينيقيين والكنعانيين. ويطلق عليها البابليون عشتر، وتانيت لدى القرطاجيين وأفروديت وهيرا وسيل لدى الإغريق.
- 15- إريسينا: أحد أسماء الآلهة الرومانية فينوس.
- 16- دون كيشوت: هو الشخصية الرئيسية في دون كاخوتي دي لا مانتشا للأديب الإسباني ميغيل دي ثيربانتس سايبيرا، نشرها على جزئين بين أعوام 1605 و 1615. اشتهرت الرواية بين العرب بالعديد من الأسماء مثل دون كيشوت.
- 17- ذبل القطط: هو وصف تلوين جلد يوجد في الغالب في القطط الإناث ويكون في الغالب لونًا برتقاليًا أو لون الشوكولاتة، وأسود أو أزرق. ويكون على نمط مبرقع ليس محددًا في سلالات محددة.
- 18- فلاديمير ألييتش أوليانوف: المعروف بـ لينين ولد في 22 أبريل عام 1870 وتوفي في 21 يناير عام 1924. كان ثوريًا روسيًا ماركسيًا وقائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعاً شعاره الأرض والخبز والسلام.
- 19- الماكارون: هو نوع من البسكويت الصغير المستدير الذي عادة ما يُصنع من اللوز المطحون، وجوز الهند، وقد يُضاف له أنواع من المكسرات، والسكر، وفي بعض الأحيان تدخل البطاطس في صنعه، كما قد تُستخدم بعض المنكهات، وألوان الطعام، والكرز الجلاسيه، وقد يتم تغطيته بطبقة خارجية من المربي أو الشوكولاتة.
- 20- السو: عملة فرنسية قديمة.
- 21- السير جالاهاد: هو شخصية خيالية وفارس شجاع من أسطورة فرسان المائدة المستديرة وهو واحد ممن حققوا الكأس المقدسة. وهو من أشهر النبلاء وأكثرهم تذوقاً للفن. وهو الولد الغير شرعي للسير لانسلوت.
- 22- زانية بابل: هي إحدى شخصيات العهد الجديد المذكورة في رؤيا يوحنا في الكتاب المقدس، وهي شخصية رمزية أو صورة وليست حقيقة واقعة، تشير إلى ما تعرضت له الكنيسة من اضطهادات.

23- السِّلِيلَةُ الْمُخَاطِيَّةُ: ورم ناتئ من البطانة المُخَاطِيَّة لعضوٍ، كالأنف إلخ.

24 - الدرواس: سلالة من الكلاب الكبيرة.

25- اللوك: مقياس سرعة السفينة. جهاز لتحديد سرعة السفينة، يتكون في الأصل من عوامة متصلة بحبل معقود ملفوف على بكرة، ويتم استخدام المسافة التي تنفذ في وقت معين كتقدير لسرعة السفينة.

26- جمهورية مالطا: أو جُمهُورِيَّةُ مَالِطَة هي دولة أوروبية تقع في البحر الأبيض المتوسط، وهي واحدة من أصغر دول العالم وأكثرها من حيث الكثافة السكانية. عاصمة البلاد هي فاليتا، وهي أصغر عواصم دول الاتحاد الأوروبي.

27 - اللون الكهرماني: هو الأصفر الضارب إلى الحمرة.

الفصل الثالث

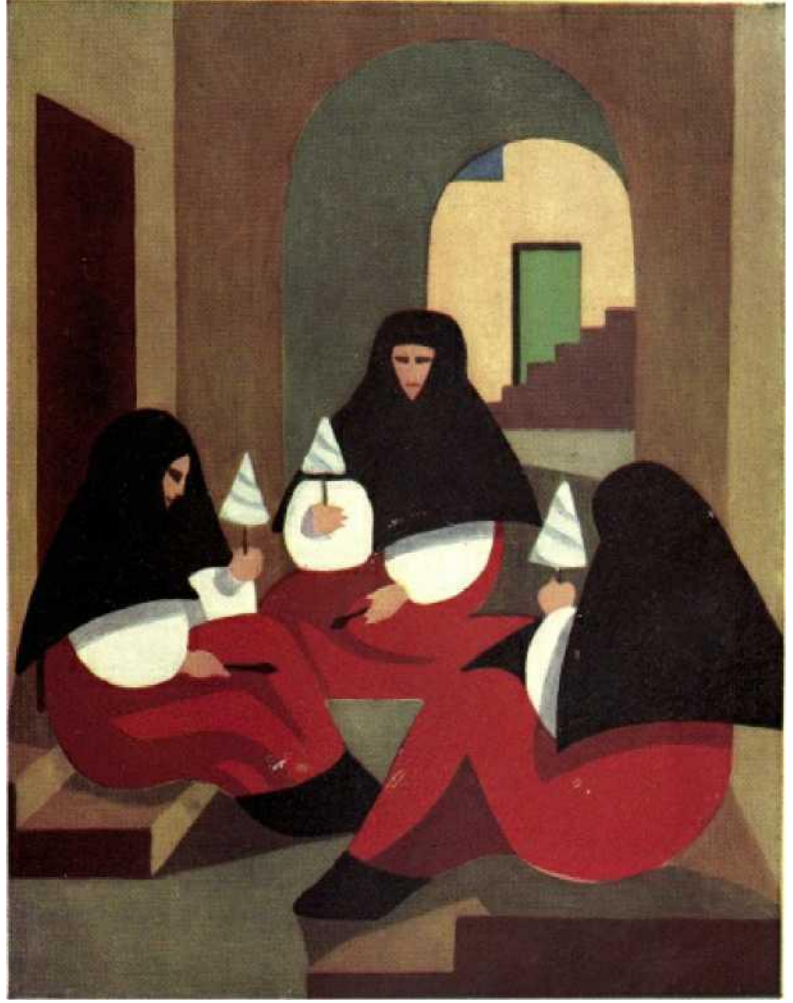
كالياري

وصلنا إلى رصيف الميناء فوجدنا هناك حشدًا صغيرًا جدًّا، معظمهم من الرجال وقد وضعوا أيديهم في جيوبهم، ولكن حمدًا لله! فلقد لاحظت أنهم يتحلون بقدر معين من التحفظ والحيطة، فهم ليسوا مثل أولئك الطفيليين الذين يعلقون بالسباح حين ظهرُوا بأيام ما بعد الحرب، فتراهم ينقضون بهجوم مشبع بروح ناقمة مرعبة متحجرة القلب في اللحظة التي يخرج فيها المرء من أي مركبة. لقد ظهرت على بعض هؤلاء الرجل ملامح الفقر بالفعل، وبرغم انعدام الفقر في إيطاليا، لكن الساحة لن تخلو من بعض الكسالى المتسكعين على الأقل. يا للعجب! غريب ذاك الإحساس الذي يلف الميناء، وكأنَّ الجميع قد هجره، ولكن ما زال بمقدوري ملاحظة وجود بعض الأشخاص هنا وهناك؛ إنه عيد الغطاس¹ على أي حال، لكنه ذو

طابع مختلف تمامًا عن صقلية، فهو يخلو من الترانيم الإيطالية اليونانية العذبة، ويفتقر كذلك للأجواء والزخارف والبريق، بل هو عارٍ كئيب ومشوب بالقسوة والبرودة إلى حد ما، إنه بطريقة ما شبيه بمالطا ولكن باستثناء حيويتها غير المألوفة والمدهشة. أشكر الله أنني لم أصادف أحدًا أقبل علي رغبة بحمل حقيبتي، أو من ألقى بالأل لها، أو أن أحدًا قد لاحظ أي شيء، فلقد وقف الجميع بعزلة وتحفظ دون حراك.

عمدنا إلى شق طريقنا عبر إدارة الجمارك ثم اتجهنا صوب قسم الرسوم الجمركية، وبعد ذلك أصبحنا أحرارًا بمقدورنا التنقل كما نشاء. ثم انطلقنا عبر طريق عريض حديث شديد الانحدار قد تناثرت أشجار قليلة على كلا جانبيه، إلا أنه صخري قاحل ضارب للصفرة ويحتوي على بلاطات عريضة ويبدو تحت السماء الباردة وكأنه مهجور، لكنه لا يخلو من وجود بعض المارة بالطبع وقد أخذت رياح الشمال تعصف فيه. 85 ولأجل العثور على فندق يأوينا وتناول وجبة طعام بعد أن أنهكنا الجوع، قمنا بصعود مجموعة من الدرجات العريضة في شارع عريض آخذ بالارتفاع والانتساع بشكل مستمر، يا إلهي كم هو وعر كئيب تكتنفه أشجار متبرعمة الأغصان في كلا جانبيه.

عثرنا على ضالتنا أخيرًا إنه فندق سكالادي فيرو عبر فناء مزين بالنباتات الخضراء، فأقبل نحونا رجل ضئيل الحجم بوجه باسم ذو شعر أسود مسترسل مثل الأسكيمو، حيث يعد مظهر رجل الأسكيمو كأحد السمات المميزة لجزيرة ساردينيا، فأخبرنا بعدم وجود غرفة بسريرين بل غرف مفردة فقط، وهكذا طلبنا الإذن بأن نستهل إقامتنا بجناح حُجَر الحمامات في الطابق الأرضي الرطب. وحين أخذنا إليه وجدناه مكانًا مؤلفًا من حُجرات نوم على كلا جانبي الممر الحجري وفي داخل كل واحدة منها مغطس حجري داكن وسرير صغير، ومن الممكن أن يحظى كل منا بمقصورة ومغطس خاص به، لا شيء آخر بعد يعرض علينا، ولكن المكان يبدو شديد الرطوبة وباردًا تحت الأرض، مما يجعل المرء يمعن التفكير بجميع تلك اللقاءات الغرامية البغيضة في أماكن الاستحمام تلك التي عفا عليها الزمن. هذا صحيح، ففي نهاية الممر يجلس اثنان من الشرطة الإيطالية، ولكن من ذا الذي يعلم إن كان وجودهما لأجل ضمان الاحترام أم لأسباب أخرى؟! السماء وحدها تعلم بهذا. فلندع كل ذلك وننشغل في أنفسنا فقط، فنحن الآن في الحمامات، وهذا كل شيء.



إيسيلي

غير أنّ رجل الأسكيمو عاد إلينا بعد مرور خمس دقائق ليخبرنا بتوافر غرفة نوم في النزل، كان سعيداً إذ لم يحبذ أن يتركنا نبيت في الحمام، من أين وجد غرفة النوم تلك لا أدري، لكنها كانت هناك، باردة كنيية وكبيرة فوق أدخنة المطبخ لفناء داخلي صغير، وكأنها بئر، لكنها نظيفة تماماً وكل شيء فيها مُرضٍ للغاية، وقد لاحظت أنّ الناس يمتلكون طبيعة لطيفة وودودة كسائر البشر، **86** فلقد اعتدنا على التعامل مع الصقليين قديمي الطراز المتجردين من الإنسانية الذين حملت قلوبهم مزيجاً من الدمثة والغلظة المُغالي فيها.

بعد أن تناولنا وجبة لذيذة ذهبنا للتجول في المدينة، فوجدنا جميع المتاجر مغلقة رغم أنَّ الساعة قد تجاوزت الثالثة وكأنه يوم عطلة الأحد في انكلترا. تمتاز كالياري بطبيعة صخرية باردة، أما صيفها فحار وكأنك تتقلب في أتون ساخن، ثم مررنا برجال يقفون في مجموعات لكنهم مجردون من تلك اليقظة الإيطالية الحميمة التي لا تترك أحدًا من المارة وشأنه على الإطلاق. إنها مدينة كالياري الصخرية العجيبة، صعدنا الشارع الشبيه بسلم لولبي، وهناك شاهدنا إعلانات لحفلة تنكرية للأطفال، ثم تابعنا المسير على أرض كالياري الوعرة شديدة الانحدار، وكم كان صعبًا ومرهقًا، في منتصف الطريق لاحظنا مكانًا غريبًا يدعى الزاوية المحصنة²، وهو عبارة عن ساحة مستوية كبيرة كأرض محفورة زرعت فيها الأشجار، معلقة بشكل يثير الفضول فوق المدينة، مرسله غصناً طويلاً كجسر عريض خلال وفوق الشارع اللولبي الصاعد للأعلى، وفوق هذا المكان المحصن تجد البلدة لا زالت ترتفع بشكل حاد صوب الكاتدرائية والحصن. أه! إنَّ ما يثير العجب هو الحجم الكبير لهذا الحصن الذي جعله تقريباً مثل منطقة ترفيهية كبيرة، لدرجة تصيب المرء بالكآبة فيغدو عاجزاً عن فهم سبب جعل هذا الحصن معلقاً في الهواء. أما في الأسفل فتوجد الدائرة الصغيرة للميناء، وإذا التفت إلى الجهة اليسرى فستشاهد سهلاً بحرياً منخفضاً منبسّطاً شاحباً كمريض ملاريا، يحتوي على حزم من أشجار النخيل ومنازل عربية الطراز، من خلالها يمتد لسان رملي³ في اتجاه حصن المراقبة الأبيض والأسود والطريق الأبيض المتأرجح صعوداً. وإذا استملت البصر نحو اليمين فسترى المشهد الأكثر إثارة للفضول: لسان رملي غريب طويل يقتحم طريقاً مرتفعاً بعيداً عبر المياه الضحلة للخليج، **87** مع البحر المفتوح من ناحية، والبحيرات الساحلية الشاسعة المروعة من ناحية أخرى، ووراء كل هذا انتصبت جبال خجولة شاحبة اتخذت من الظلمة رداء لها، تماماً كما امتدت تلال قاتمة عابسة على المساحة الواسعة للخليج، يا له من منظر عجيب قد رسمته الطبيعة بأناملها وكأنَّ عجلة العالم بأسره قد توقفت عن الدوران أمام روعته. إنَّ الخليج بحد ذاته شاسع كبير، وجميع هذه الأشياء الغريبة تحدث عند رأسه؛ كذلك البلدة المرصعة بالأجراف المنحدرة على نحو مدهش، وكأنها منزل قد رُصِّع بالحجارة على نحو كبير ليبرز فوق تسطحات الخليج، وحولها من جانب واحد يوجد سهل الملاريا ذو المظهر العربي والمقفر إلا من أشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك، وعلى الجانب الآخر توجد البحيرات الساحلية المالحة الكبيرة التي لا أثر للحياة فيها وراء شريط الرمال؛ لتسندها من ناحية أخرى جبال متسلسلة بشكل عنقودي بينما تشرئبُّ الهضاب من خلف السهل بأعناقها نحو البحر منجذبة لعظمة جماله وبهائه. يبدو أنَّ البر والبحر قد أنهكا واستنفذت قواهما عند رأس الخليج الذي يجسد نهاية العالم، حيث تبدأ كالياري عند هذا المكان بالتجلي أمامك حين تلاحظ فجأة على كلا جانبيك وجود تلال تتلوى قممها كجسد الثعبان.

إنَّ هذا الضياع السرمدي يذكرني بمالطا، فهي تائهة ما بين أوروبا وأفريقيا ولا مكان تنتمي إليه، وقد رفع الشتات رأيته عاليًا فوقها، ولهذا فمن الممكن أن تنتمي إلى الحضارة التي تحلو لها، لكنني أعتقد أنَّ الكفَّة ترجح إلى اسبانيا والعرب والفينيقيين أكثر، بيد أنها قد نبذت خارج نطاق الزمان والتاريخ، منسية لا مصير حقيقي لها.

إنَّ روح المكان تدعو للغرابة، مما دفع عصرنا الذي هيمنت عليه الآلة للشروع بتخطيها، لكنه لم يُمنَ بالنجاح، ففي النهاية ستحطم هذه الروح الغربية الشريرة كل شيء فيه، ثم ترحل لزيارة أماكن أخرى لتلقي لعنتها عليها بطريقة وخيمة مختلفة تمامًا، وقد عقدت العزم على سحق وحدتنا الميكانيكية وتحويلها إلى أشلاء صغيرة، أما نحن فكل ما نعتقد أنه حقيقي سيتلف مع موسيقا البوب لنترك مُحملقين بذهول على ما يحدث. **88** شاهدنا شرفة كبيرة تقع فوق قاعة البلدية والشارع الرئيسي ذي الشكل اللولبي فيها تجمع كثيف من الناس كانوا يتدلون من على درابزينها ناظرين نحو الأسفل، أثار ذلك فضولنا فذهبنا لنلقي نظرة بدورنا ونراقب ما يجري، فشاهدنا في الأسفل مدخلًا يؤدي إلى حفلة راقصة تنكرية، وهناك راعية صينية ذات شعر أملس لونه أزرق باهت تحمل عصا راعي مزينة بأشرطة، وقد ارتدت فستانًا مصنوعًا من نسيج ساتان⁴ الحريري الأنيق فبدت وكأنها ماري أنطوانيت، وراحت تسير ببطء وغطرسة على الطريق وتحقق حولها بطريقة رائعة، وقد رافقها خادمان برغم أنها لم تتجاوز الثانية عشر من العمر، وكانت تقلب النظر بين جهة اليمين واليسار بدقة وتركيز شديد، إنها تستحق جائزة العجرفة والتكبر بالفعل، كم هي مثالية! وقد تجاوزت غطرستها قليلًا حتى انطوان واتو⁵، لكنها كانت "مركيزة"⁶ بالنسبة للناس الذي يشاهدون بصمت، سكنت أصوات الناس أمام خيلائها وحسن جمالها، فلا ضجيج أو صراخ أو أقدام تجري وتضرب الأرض، بل راقبوها بصمت لائق.

في هذه الأثناء، وصلت عربة يجرها حصانان سمينان كستنائي اللون، وكانت تسير برقة وخفَّة على الشارع الرئيسي لولبي الشكل وكأنها زورق يمخر مياه البحر، هذا العمل يدل على البراعة والقوة والألمعية، فلا وجود للعربات في كالياري. تخيل شارعًا مثل سلم حلزوني مرصوف بحجر زلق، وحصانين كستنائيي اللون يشقان طريقهما للأعلى مسرعين راكضين دون أن يمشيا خطوة واحدة، لكنهما قد وصلا برغم ذلك. ثم لفت انتباهي ثلاثة أطفال رائعين للغاية راخوا يرفرفون بأياديهم بشكل غريب، وقد ارتدا اثنان منهم زي مهرج مصنوع من قماش الساتان الحريري الأبيض الرقيق للغاية، إنهم مهرَّجان ومهرَّجة واحدة، كانوا مثل فراشات الشتاء الرقيقة المزينة ببقع سوداء، وقد تحلَّوا بظرافة غامضة مثيرة للفضول تبنت أسلوبًا ليس بالودود مبتدلاً قليلاً ليظهروا كمن عاشوا في حقبة نهاية القرن⁷ الذي تخطينا معتقداته وأفكاره في عصرنا الحالي، شيء ما تقليدي كان سائدًا في القرن الثامن عشر. لقد ارتدى الأولاد ياقات مستديرة مكشكشة كبيرة مثالية تطوق أعناقهم، **89** وقد تدلَّت من على أكتافهم وظهورهم شالات إسبانية

قديمة كريمة اللون لكي تدفئ أجسادهم الصغيرة، لقد كانوا ضعاف البنية كأزهار التَّبغ، بتلك الكياسة الباردة الغير ودودة، وأخذوا يرتجفون من البرد بجانب العربية التي ظهرت منها أمٌ صقلية ترتدي ثوبًا واسعًا من الساتان الأسود، حيث ارتعشت أقدامهم الصغيرة كأرجل فراشات على الرصيف، راحوا يحومون حولها كأشباح ثلاثة ترتدي أقمشة رقيقة واهنة، حيث شقوا طريقهم إلى القاعة عبر مقاعد رجال الشرطة أشداء البنية.

ومن هذا الذي وصل الآن يا ترى؟! إنه فتى في الثانية عشرة من عمره، يرتدي ديباجًا مزيّنًا بزهرة الربيع مع تلك الكشكشات⁸ بثوبه، يبدو أنه عاشق، وقد حمل قبعته تحت ذراعه، يمشي بفخامة واختيال دون أن يقلق من الالتفافة المنحدرة للطريق، أو أنه يملك وعيًا مثاليًا أكسبه ثقة متألقة بالنفس، بدا كشخص أصيل متأنق للغاية ينتمي للقرن الثامن عشر، وربما هو يبدو أكثر صلابة من الفرنسيين حيث تجلى ذلك تمامًا في شخصيته. لقد امتلك هؤلاء الأطفال شديدي الفضول نوعًا من الفخامة المتحفظة ولم يعترّ قلوبهم أي أثر للشك في ذلك، فهم يرون أنفسهم بشكل لا يقبل الجدل أشخاصًا يتحلون بالنبالة، إنها المرة الأولى التي أتعرف فيها على الروعة الباردة الحقيقية لـ "طبقة النبلاء" القدامى، حيث لم ينتابهم أي قلق أو ارتباك بشأن تمثيلهم البارع للرتبة الأعلى.

أقبلت بعد ذلك مركيزة صقلية بيضاء البشرة وبرفقتها خادمة، لقد كانت هذه الطبقة بأوج قوتها في مدينة كالياري القرن الثامن عشر، ولعلها كانت آخر حقيقة مشرقة لها، أما في القرن التاسع عشر فبالكاد قد حظيت ببعض الأهمية.

غريبون هم أطفال كالياري، **90** حيث يبدو الفقر جليًا على هؤلاء الفتية الصغار الحفاة البائسين، إنهم مليون بالحيوية ومتوحشون يجوبون الشوارع الضيقة المظلمة، ولكن كلما زاد الثراء كلما كان الأطفال بخير، وبدت ثيابهم أنيقة بشكل يفوق التصور، هذه الحقيقة تصيب المرء بالارتباك فجأة، ولكن ليس كثيرًا عند من اشتد عوده منهم، بل تؤثر في الأطفال وحدهم! إن كل الأناقة والموضة والأصالة يتم تكريسها لأجل الأطفال الأثرياء، وبقدر كبير من النجاح، ليتجولوا في أماكن أفضل حتى من حدائق كنسينغتون⁹ في كثير من الأحيان، وهم ينتزهون برفقة آبائهم بثقة حذرة، بعد أن حققوا نصرهم التام، مختالين بأزيائهم الغريبة المواكبة للموضة، من كان يتوقع ذلك؟

يا لهذه الشوارع الضيقة المظلمة الرطبة التي تسير بك صعودًا نحو الكاتدرائية وكأنها شقوق

طولية، تجنّبت بصعوبة دلوًا كبيرًا تجمعت فيه مياه الصرف الناتجة عن هطول المطر والذي سقط من الأعلى وتحطم، ثم وقعت عيناى على طفل كان يلعب في الشارع، إلا أنّ تجنب هذا الطفل لم يكن سهلًا علي، حيث برقت عيناه بذلك التساؤل المبهم الساذج وراح يحرق بنجمة في السماء أو ربما بمشعل مصباح الشارع.

لا بد أنّ الكاتدرائية كانت فيما مضى قلعة حجرية وثنية قديمة ورائعة، وها هي اليوم وقد نجت من آلة سحق العصور، ليرشح منها العصر الباروكي¹⁰ الذي اشتهر بأطعمته اللذيذة كالنفائق، إنها تشبه قليلًا مظلة الكاهن في كنيسة القديسين بطرس وبولس¹¹ وليست بأقل من ذلك، فكم هي غامضة متواضعة بسيطة لم تتزين بالزخارف، مع كتلة عالية قماشية مسحوبة عبر الرصيف باتجاه مذبح سامٍ، فالיום عيد الغطاس وها قد غربت الشمس، ليشعر المرء وكأنه يربض في إحدى الزوايا يقلب الأفكار في رأسه سارحًا في الخيال ويأكل الخبز والجبن كما يفعل في منزله، إنه شعور قديم يبعث الراحة في النفس. **91** لقد تم تغطية أقمشة المذبح المتنوعة ببعض أقمشة الدانتيل المخرمة، ولا بد أنّ القديس جوزف هو القديس الأكبر، فهذا مذبحه، وتتلى نصوص التضرع في الصلاة على روحه.

"آه أيها القديس جوزف، إنك الأب الصادق المرتقب المرسل من ربنا". أتساءل ما الثمرة التي سيقطفها الإنسان حين يصبح أبًا لأي كان! أما ما يتعلق بالأشياء الأخرى فأنا لست كارل بادكر¹².

أما القلعة فقد بانّت وكأنها ملكة تتربع فوق عرش مطل على كالياري، وهي عبارة عن بوابة وأسوار قديمة مبنية من أحجار رملية صفراء فاخرة مليئة بالتجاويف، ليمتد السور بشكل قوس متجه نحو الأعلى، بطراز إسباني باهر مسبب للدوار، يال فخامتها المبهرة! ثم ينحدر الطريق تارة أخرى عند السفح في الجهة الخلفية للتلّة، حيث يتجلى الريف، وهو عبارة عن سهل قاحل يوجد فيه حزم من النخيل وبحر شاحب ومجموعة من التلال، ولهذا فلا بد أنّ كالياري تقع على صخرة شامخة منسية واسعة. وهكذا وقفنا في الشرفة الموجودة أسفل القلعة مباشرة، والمطلّة من الجهة التي تقع فوق المدينة وليس خلفها وأخذنا نتأمل غروب الشمس؛ فأصبنا بالذهول من فظاعة ذاك الذي يجري خلف التلال المتشابكة، يا للهول! إنها تتعرج وتتولى كالأفعى، ومن خلفها تقع تلك البحيرات الشاطئية الزرقاء المخملية. ها هو الغرب الداكن يتدلى بلونه القرمزي ليبعث الشؤم في الأرجاء بشرائط الغيوم الزرقاء القاتمة وأكوام السحاب المرسومة في الآفاق؛ إنّ كل ما يتوارى خلف القمم الزرقاء الموحشة يمتد وكأنه ستار يُخفي شؤمًا مهولًا بعد أن ازدان بحُمْرة باهتة في ذلك المكان البعيد عن البحر. أما البحر فيضم في طياته الكثير من الأسرار والخبايا، ففي أعماقه السحيقة تستلقي مجموعة من البحيرات، وهي عبارة عن أميال وأميال من المسافات المهملة تمامًا، لكن الشريط الرملي يتقاطع معها ليشكل جسرًا وطريقًا فوقها. لقد امتدت

العتمة بكل كيائها في الأرجاء، 92 لينبعث من بين خفاياها لونٌ كثيبٌ ضاربٌ للزرقة، ولو قلبت بصرك صوب جهة الغرب العظيم لرأيتَه يحترق وكأنَّ نارًا تلتهم داخله وقد ظهرت عليه ملامح متجهمة، لكن أعماقه الملتهبة تلك لم تنفث أي وهج بعد، وكل ما أسفر عن ذلك هو مجرد لون أحمر قاتم.

نزلنا في الشوارع شديدة الانحدار التي بدت كريهة الرائحة مظلمة رطبة وباردة للغاية، وعلى الأرجح ليس بمقدور أي مركبة ذات عجلات أن تندفع إلى أعلاها. يعيش الناس في هذا المكان داخل بيوت مؤلفة من غرفة واحدة، وبسبب هذا الضيق يعتمد الرجال إلى تصفيف شعورهم أو ربط ياقاتهم في المداخل، وها قد حل مساء يوم العيد.

تابعنا مسيرنا بكل همة حتى بلغنا أسفل الشارع، وهناك قابلنا مجموعة من الشبان المقنعين، أحدهم يرتدي فستانًا أصفر طويلاً وقلنسوة مزركشة، وآخر مثل امرأة عجوز، وشخصاً يلف جسده بقماش مضلع أحمر مصنوع من نسيج قطني، وقد تشابكت أذرعهم مع بعضها ليعترضوا بذلك المارة، فذعرت كيوبي من منظرهم وأطلقت صرخة قوية مفاجئة وراحت تتلفت مرتبكة من حولها بحثاً عن طريق للفرار منهم، فلقد لازمها هلع من الأشخاص المقنعين منذ طفولتها، وللحقيقة لم أكن مختلفاً عنها بذلك، فتوارينا بسرعة صوب الجانب السفلي البعيد من الشارع، ثم خرجنا من تحت المعازل المحصنة، وبعد ذلك أخذنا ننزل في شارعنا المشجر البارد الواسع المتجه نحو البحر.

عند وصولنا نهاية الشارع شاهدنا عربة محملة بمجموعة أخرى من الشبان المقنعين، وحينها أدركنا أنَّ الاحتفال قد بدأ، فهناك رجل يرتدي الزي الأصلي لامرأة قروية، وقد تسلق بصعوبة بتنورته العريضة الكبيرة وخطواته الواسعة على صندوق العربة مخاطباً حشداً صغيراً من المستمعين، ملوحاً بسوطه الملفوف بالشرائط، وقد فتح فاه على مصراعيه مطلقاً صرخات طويلة متواصلة، وبرفقته رجل آخر يجسد شخصية والدته تجلس متمائلة على الصندوق، يرتدي خُلِيًا وملابس مبهرجة أنثوية ويضع على رأسه شعراً مستعاراً لامرأة عجوز، 93 أما الرجل الأول الذي يجسد شخصية المرأة القروية ابنة العجوز، فقد راح يلوح ويصرخ ويقفز على صندوق العربة، بينما أصغى الحشد إليه بانتباه وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامات معتدلة، معتبرين كل هذا الاستعراض أمراً حقيقياً وجدياً بالنسبة لهم. أما كيوبي فطفقت تحوم وتراقب من مسافة بعيدة منجذبة لما يجري، ثم أقال عثرته ومع تلويح رائع بسوطه وساقيه انكشف سرواله المكشكش، ليستمر المقنعون بقيادة عربتهم على طول الشارع المشجر المحاذي للبحر، وهو المكان الوحيد الذي يمكن للمرء أن يقود فيه.

إنَّ الشارع الكبير المطل على البحر يدعى فيا روما، ويمكنك أن تشاهد المقاهي المشيدة عند جانب واحد منه، أما على الجهة الأخرى فهناك أجمات كثيفة من الأشجار الممتدة عبر المسافة الفاصلة بيننا وبين البحر، ومنها أشجار مواجهة للبحر تمامًا، صاغت من نفسها لوحة قد رُسم فيها قطار بخاري صغير، يندفع بارتياح بعد أن التف حول الجزء الخلفي من المدينة. يحتوي شارع فيا روما على جميع المظاهر الاجتماعية الخاصة بمدينة كالياري، بما في ذلك المقاهي بطاولاتها المصفوفة خارجًا في الهواء الطلق على جانب واحد من الطريق، وعلى الجانب الآخر يوجد الشارع الفسيح المشجر، إنه واسع للغاية للدرجة التي تتيح له أن يحتوي جميع سكان البلدة كل مساء، فهنا يمكن للعربات أن تنطلق بسرعة ورشاقة أو تنهادر في مسيرها، وبمقدور الشرطة امتطاء أحصنتهم، وأيضًا يستطيع الناس التنزه بشكل جماعي. ذهلنا من الحشد الهائل الذي وجدنا أنفسنا في وسطه، وكأنه نهر قصير غزير من الناس يتدفق ببطء وبكميات كبيرة، لا توجد عمليًا أي حركة مرور للمركبات، بل فقط تدفقات كثيفة ثابتة من كافة أنواع البشر يسرون على أقدامهم، لا بد أن شيئًا من هذا القبيل كان يحدث في شوارع الإمبراطورية الرومانية، في زمان لم يعرف أي مركبات يقودها الإنسان،⁹⁴ وجميع البشرية تسير على أقدامها. تدفق الناس بوجوههم التي أخفتها الأقنعة إلى تحت الأشجار، وبدأوا يرقصون بمجموعات وفردى؛ فحين ترتدي قناعًا لا يتوجب أن تمشي كالإنسان العادي، بل يفرض ذلك عليك أن تقفز وترقص في الأرجاء بجرأة وحرية، مثل دمي يتم تحريكها بواسطة أسلاك من الأعلى. هكذا يصبح حالك مع هذا الجنون الغريب، وكأنَّ الناس قد رفعوا بأسلاك من أكتافهم. وفجأة مر من أمامي مهرج جذاب، ملون بألوان ماسية فبدا براقًا جميلًا كقطعة من الخزف الصيني، وراح يرقص بهدوء وخفة! كان يسير وحيدًا تمامًا في الحشد الكثيف مطلقًا المرح هنا وهناك. ثم أقبل طفلان ممسكان بأيدي بعضهما ويتجولان بهدوء وقد ارتديا أزياء بيضاء قرمزية متألقة، دون أن يشاركا برقصة الأقنعة. وبعد فترة من الوقت ظهرت فتاة تشع منها زرقة السماء ترتدي قبة عالية وتنورة واسعة وقصيرة للغاية، وأخذت تنقر الأرض بقدميها وتتحرك بسرعة كأنها راقصة باليه، ثم بدأت تتبختر في مشيها، وبعدها شرع نبيل إسباني بالوثب والرقص بمرح كالقرد. كانوا يشقون طريقهم بحذر بين السيل البطيء للحشد. بعد ذلك ظهر أشخاص يرتدون أقنعة وأزياء تجسد شخصيتي دانتي¹³ وبياتريس وهما ينعمان بالعيش في جنة الخلد، حيث ارتديا ثيابًا بيضاء اللون وقد توجت رؤوسهم بأكاليل من الورد الفضية، وتراصت أذرعهم وراحوا يقفزون بروية، ونثرت المهابة فوقهم وميضًا ساحرًا يأسر قلوب الناظرين، وظلوا يغنون بجزالة ويتحركون بخفة ونشاط وكأنَّ أسلاكًا من فوقهم قد ربطت بهم وتحكمت بحركاتهم تلك. لقد قدموا

أداء رائعاً، بجميع أحداث الرؤيا المشهورة التي دبت فيها الحياة هنا من جديد، حيث تم تجسيد دانتى مرتدياً ثوباً أبيض شبيهاً بالكفن، بشعره المربوط وتاجه الفضي، وبياتريس الخالدة تتبختر ملتصقة بذراعه وتختال في مشيها عبر الشوارع التي ترامت الأشجار على جنباتها، لقد امتلك أنفاً متناسقاً وعظماً وجنتيه بارزان ونظرة متبلدة وفارغة، وراح يقدم رؤيا ناقدة بشكل عصري عن الجحيم. **95**

حل الظلام الحالك فسارح الناس إلى إشعال مصابيحهم، عبرنا الطريق متجهين إلى مقهى روما، وهناك وجدنا طاولة على الرصيف وسط الحشد، وقدم لنا الشاي بسرعة، كانت أمسية باردة حقاً وقد امتزجت حبات الثلج بالرياح وجعلت منها خيولاً تمتطي صهواتها وانطلقت بقوة لتجوب المكان، بينما راح الحشد يتدافع ببطء جيئةً وذهاباً. تلفت من حولي وإذ معظم زبائن الطاولات هم من الرجال الذين انشغلوا باحتساء القهوة أو شرب العصائر، وجميعهم ودودون وبسيطون دون ذلك التكلف العصري للذات. وطغى على شخصياتهم نوع من الغلظة المحببة، وشيء من الحرية الإقطاعية والبساطة. بعد ذلك وصلت عائلة فيها أطفال، وممرضة بزيها الأصلي الخاص بالعمل، جلسوا جميعاً حول المائدة وتبادلوا المودة فيما بينهم، برغم أن الممرضة الرائعة بدت الأقل حظوة بينهم، كانت مشرقة مثل ورود الخشخاش¹⁴ مرتدية ثوباً ذا لون أحمر وردي مصنوع من القماش الناعم، مع صدر صغير غريب ذي لون ممزوج ما بين الأخضر الزمردي والأرجواني، وصدرية طويلة من الكتان الصوفي الناعم بأكمام كاملة وكبيرة، وقد غطت رأسها بخمار متموج ما بين اللون الأحمر الوردي والأبيض، ووضعت رصعاً كبيراً من الزركشة الذهبية وأقراط أذن مماثلة. شربت العائلة الإقطاعية البرجوازية العصائر أثناء انشغالها بمشاهدة الحشد، وأكثر ما لفت النظر هو الغياب التام للتكلف الذاتي. وقد امتلكوا جميعاً رباطة جأش طبيعية ومثالية، وكانت الممرضة بزيها الرائع تبدو بسيطة للغاية وكأنها في شارع قريتها، وأخذت تتحرك وتتحدث وتدعو أحد المارة دون أدنى قيد أو حُسبان. كانت مكانتها هي الأدنى بينهم لكنها مكانة لا يمكن تخطيها، لكن ما أذهلني أن ذلك التعامل يعود بالنفع لكلا الطرفين؛ حيث منحهما المساحة الكافية ليتمكننا من الحفاظ على الإنسانية سائدة بينهم دون التحول إلى مخلوقات شيطانية تتدافع وتتراحم على المتراس.

96 وها هي أيضاً جمهرة من الناس عبر الشارع قد استطلت بالأشجار المحاذية للبحر، بينما تتابع خطى المتنزهين من حين لآخر على هذا الجانب من الطريق، لتلمح عيناى أول فلاح مرتدياً زيّه، وبدا لي رجلاً عجوزاً وسيماً لم تستطع سنين العمر ليّ ظهره، وكم أضفى عليه زيّه الأبيض والأسود جمالاً مميزاً، بقميصه الأبيض ذي الأكمام الطويلة وصدر أسود ضيق منسوج

من صوف مزركش سميك أصيل مفتوح من أعلاه، امتدت منه تنورة قصيرة اسكتلندية أو لعله ثوب مكشكش محاك من النسيج الصوفي الأسود نفسه، الذي انسدلت منه عصابة، بين السروال الفضفاض المصنوع من الكتان الخشن. غطى الرجل العجوز أسفل الركبة بجوارب طويلة مصنوعة من نسيج صوفي مكشكش ضيق. وكان يعتمر قبعة صوفية سوداء طويلة تدلت للأسفل. كم بدا مظهره وسيماً، ورجلاً لا تخطئ العين جماله! راح يسير بتأنٍ وقد أسدل يديه خلف ظهره لا عوج فيه فبدت عليه أنفة جلية. إنه ذاك النوع من الرجال المحبب الذي يصعب التعامل معه، ولا يعرف الخضوع لأحد. إنَّ ألقَ لباسه الأبيض والأسود فضلاً عن جواربه وقبعته منحته مظهرًا خلاباً متناقضاً رائعاً بديعاً كطائر العقعق¹⁵. يال جمال الرجولة إذا عرف الرجل الطريقة الملائمة لإظهارها، وكم هي مثيرة للسخرية تماماً عندما يرتدي المرء ثياباً عصرية. آه هذا فلاح آخر أيضاً يظهر أمامي، إنه شاب بنظرات خاطفة وقسمات وجه خشنه وفخذه متينين خطيرين. قام بطي قبعته الصوفية، فتقدمت للأمام إلى جبينه لتبدو كقبعة فريجية¹⁶. ارتدى بنطالاً ضيقاً إلى الركبة، وصداراً ضيقاً بأكمام، مصنوعاً من قطع بنية سمكة ليبدو كالجلد، **97** ليعتلي صدار الوسط نوع من الدرع الأسود، معد من جلد الغنم الأسود النحاسي، وصوف مجعد من الخارج. وهكذا حث الشاب خطوات واسعة ليتحدث إلى رفيق له. كم هو رائع رؤية الإيطاليين الناعمين وقد حشرت أطرافهم داخل بناطيلهم الضيقة التي تصل للركبة، برغم اللمسة الرجولية الشرسة التي لا تزال متأصلة فيهم، ليدرك المرء برعب أنَّ عرق الرجال قد انقرض تقريباً في أوروبا. إنَّ زمن الرجولة الجسور التي لا تقهر قد ولى، فقد تم اخماد صلابتها الشرسة، وها هي الشرارات الأخيرة منها تخدم في سردينيا واسبانيا. لم يتبقَّ شيء سوى بروليتاريا القطيع¹⁷ وجماعات المطالبين بالمساواة، والطبقة المثقفة المتحضرة المضحية بشكل مؤذٍ حزين. ياله من أمر مقيت! إلا أنَّ الشيء الذي ظلت صورته مرسومة في مخيلتي هو ذلك الزي المتألق الغريب الملون بالأبيض والأسود، يخالجنى شعور بأنني قد عرفته من قبل، فربما قد ارتديته يوماً ما، أو حلمت به، أو ينتمي إلى ماضي عشتة، في الحقيقة لا أعرف، لكنَّ شعور مضطرب بألفة كقاربة الدم يطاردني، إنه ذات عدم الارتياح الذي يخالجنى حين أقف أمام جبل إريكس¹¹، لكنه إحساس متحرر من قيود الرهبة هذه المرة.

ألقت شمس الصباح أشعتها الذهبية عبر زرقة السماء، بيد أنَّ برودة قارصة قد لفت الظلال، لتنفخ الريح في الأثير كشفرة مسطحة من الجليد، فهرولنا للخارج لننعم بدفء الشمس. لكن ما كدر خاطري هو أننا لم نحظ بالقهوة مع الحليب؛ إذ لم يتمكن الفندق من تقديم شيء لنا سوى القليل من القهوة السوداء، ولهذا أثرنا النزول عائدين إلى الواجهة البحرية، **98** حيث يوجد طريق فيا روما ومقهانا. إنه يوم الجمعة، وصخب يصم الأذان، ينبعث من الناس القادمين من

الريف محملين بسلال ضخمة. حصلنا على قهوتنا بالحليب في مقهى روما لكن دونما زبدة، فجلسنا ورحنا نراقب الحركة في الخارج، إنها الحمير السردينية الصغيرة، أحد أصغر الأشياء التي أبصرتها أعيننا على الإطلاق، مهرولة بأقدامها المتناهية في الصغر على طول الطريق، وهي تجر عربات صغيرة تشبه عربات اليد. ما أثار دهشتي هو حجم أجسادها الصغير للغاية حتى إن الصبي الذي يمشي بجوارها يبدو كرجل طويل، أما الرجل الطبيعي فتحسبه عملاقاً يمشي بجبروت وبطش. إنه لأمر مضحك أن يقتني رجل بالغ أحد هذه المخلوقات الصغيرة، فهي بالكاد أكبر من ذبابة لتتمكن من جر الأحمال له، وذات مرة قام حمار بسحب خزانة بأدراج محمولة على العربة، فظهر وكأنه يجز بيتاً كاملاً وراءه، وبرغم ذلك ظل يندفع بشجاعة، بعيداً تحت وطأة حملة، يال الصغير المسكين! وقد روى لي شخص ما عن وجود قطعان من هذه الحمير فيما مضى، كانت ترعى على هضاب سردينيا البرية الشبيهة بالمستنقعات، لكن الحرب وعبثها الأحرق قد قضى على هذه القطعان أيضاً، ولم يبق إلا القليل منها. وذات الأمر حدث مع الماشية، فساردينيا هي موطن الماشية، إنها التلال الأرجنتينية للبحر المتوسط وقد أمست الآن شبه مهجورة. إنها الحرب كما يقول الايطاليون، وكذلك الاستهتار والفجور والإسراف الأحرق لأسياد الحرب، فليست الحرب وحدها من أرهق كاهل العالم، بل الإسراف الشرير المتعمد من قبل صناع الحروب في بلدانهم، ولهذا فإن إيطاليا هي من دمرت نفسها. 99 ثم مر أمامنا فلاحان آخران يرتديان الأبيض والأسود يتنزهان تحت أشعة الشمس التي أضفت عليهما ألماً مضيئاً؛ فائثاً في داخلي حيناً لا أعرف إن كان وهماً أم حقيقة، فها هو ذات الشعور يعشعش في صدري تارة أخرى، كلما رأيت هؤلاء الرجال بملابسهم الصوفية والكتانية، وحينها أيقنت أن القلب يتوق لشيء قد ألفه ويتمنى عودته. في هذا اليوم الرائع قررنا الذهاب للتسوق، فقادتنا أرجلنا إلى فتحة عريضة أخرى من شارع آخر، فسيحة مشجرة لكنها قصيرة وكأنها نهاية لشيء ما. تتألف كالياري من أجزاء صغيرة وخطوط قصيرة ذات نهاية. شاهدنا العديد من الأكشاك مصطفة بجانب الرصيف، منها ما يبيع الأمشاط، وأخرى تعرض أزرار الياقة، المرايا الرخيصة، مناديل، سلماً رديئة من مدينة مانشستر، أقمشة مفارش الأسرة، معجون تلميع الأحذية، أواني فخارية رديئة، وما إلى ذلك. لكننا رأينا أيضاً سيدة من كالياري ذاهبة للتسوق بصحبة خادم لها يحمل سلة ضخمة منسوجة من العشب المجدول، وأخرى عائدة من تسوقها، يتبعها صبي صغير يسند على رأسه إحدى هذه السلال الضخمة المصنوعة من النجيل، وكأنها أطباق كبيرة، وقد تكس فيها الخبز والبيض والخضروات والدجاج وغيرها؛ فخطر لنا أن نتبع السيدة ذاهبة للتسوق وإذا بنا في مجمع تسوق فسيح يعرض فيه الكثير من البيض اللامع، وقد تم وضعه في هذه السلال المستديرة الكبيرة بشكل الطباق، مصنوعة من الأعشاب المجدولة ذهبية اللون، بيد أنه كان مصفوقاً على شكل أكوام وتلال، وكأنها جبال سيرا نيفادا تتألق بلون أبيض دافئ. يال ذلك

اللمعان الذي يزين البيض! لم يسبق لي أن لاحظته أبداً من قبل. ذلك اللمعان اللؤلؤي الذي ينبعث من البيض ليحتضن الهواء، وقد شع منه دفء طفيف وكأن وهجاً ساخناً ذهبياً يصدر عنه. عدد هائل من البيض المتوهج اللامع يزين طرقات المكان وقد كتب عليه: 60 سنتيماً، 65 سنتيماً. فقالت كيوبي وهي بغاية الذهول، يجب علي أن أعيش في كالياري، فثمن البيضة الواحدة في صقلية يصل إلى ليرة ونصف، 100 قادتنا أرجلنا إلى سوق اللحم والدواجن والخبز، حيث توزعت أكشاك تعرض جميع أنواع الخبز الطازجة ولونه البني اللامع. وأكشاك أخرى صغيرة تباع الكعك المحلى الشهي وكم رغبت بتذوقه. وهناك أيضاً كمية كبيرة من اللحوم ولحم الجداء، غير أن بعضها عرضت الجبنة بمختلف أنواعها وأشكالها، وبكل تدرجات اللون الأبيض والكريمي وصولاً إلى اللون الأصفر النرجسي، لجبن الماعز، والغنم، الأجبان السويسرية والبارميغانو¹⁸، الستراشيونو¹⁹، والكاتشيوكافالو²⁰، التورولوني، والعديد العديد من الأجبان التي أجهل أسماءها! لكنك لن تجد أثمانها تختلف كثيراً عن صقلية، فهي بين ثمانية عشر فرنكاً، عشرين فرنكاً، وخمسة وعشرين فرنكاً للكيلو. أما لحم الخنزير الممتاز فبثلاثين أو خمسة وثلاثين فرنكاً. هناك القليل من الزبدة الطازجة أيضاً معروضة بثلاثين واثنتين وثلاثين فرنكاً للكيلو، لكن معظم الزبدة على أي حال تأتي معلبة من ميلان، وثمانها بنفس سعر الطازجة تقريباً. وغير بعيد عن هذا تلمح عيناك أكواماً رائعة من الزيتون الأسود المملح، وأوعية ضخمة من الزيتون الأخضر المملح. وأيضاً دجاج وبط وطيور برية، بأحد عشر واثني عشر وأربعة عشر فرنكاً للكيلو الواحد. ولعل ما سيلفت ناظريك تلك المرتديلا وسجق بولونيا الضخمة الحجم، فهي سميكة كعمود كنيسة، وبسطة عشر فرنكاً، ناهيك عن أنواع شتى من النقانق الأصغر حجماً، والسلامي، الذي يتم تناوله بشكل شرائح. يا لها من وفرة رائعة للطعام، متألفة ونضرة. سرقنا الوقت فتأخرنا نوعاً ما عن سوق الأسماك، وخصوصاً أننا في يوم الجمعة، لكننا صادفنا رجلاً حافي القدمين عرض علينا شينئين غربيين من البحر المتوسط الذي يعج بالوحوش البحرية، وهناك رأينا الفلاحات وقد جلسن خلف بضائعهن، بتنانيرهن التي حيكت من الكتان المنسوج في المنزل، طويلة للغاية، بألوانها المتنوعة، وقد انتفخت حولهن كالبالون، أما السلال الصفراء فبدت وكأنها ترسل وهجاً من النور. هناك شعور بالوفرة يحيط بك مرة أخرى، ولكن للأسف ما من شيء رخيص، باستثناء البيض؛ فبكل شهر يزيد الغلاء وترتفع الأسعار أكثر. 101 التفتت كيوبي إلي فرحة وقالت: "يجب أن آتي وأعيش في كالياري، وأتسوق هنا، وأقتني إحدى تلك السلال العشبية الكبيرة". ثم تابعتنا السير إلى أسفل الزقاق، لكن أعيننا لم تلمح سوى المزيد من السلال التي برزت من الفسحات الواسعة للأدراج الحجرية المغلقة. وهكذا صعدناها لنجد أنفسنا في سوق الخضراوات، وهنا بدت الغبطة على كيوبي أكثر. بعد ذلك مررنا بفلاحات حافيات الأقدام يجلسن تارة ويقفن تارة أخرى خلف أكوام من الخضراوات، مرتديات صداراتهن الصغيرة الضيقة

وتنوراتهن الملونة الفضفاضة، فلم ترَ عيناى عرضًا أجمل من هذا قبلاً. أما الخضروات فكانت يانعة طازجة وذات ألوان زاهية، حيث بدا اللون الأخضر الفاقع للسبانخ طاعياً، لتبرز آثار من القرنبيط الذي اكتسب لون الخثارة البيضاء والأرجواني المسود، بيد أن القرنبيط الأخاذ الذي بدا كعرض للزهور هو ذاك الأرجواني الفاقع الأشبه بباقات كبيرة من البنفسج. ومن هذه التكتلات الخضراء والبيضاء والأرجوانية، أطل الفجل بلونه الوردي القرمزي الزاهي والقرمزي المزرق، فجل كبير مثل اللفت الصغير قد تم جمعه في أكوام مرتبة. ثم براعم الخرشوف الطويلة النحيلة ذات اللون الرمادي الأرجواني، وعناقيد التمور المتدلّية، وأكوام التين الأبيض السكري المغبر والتين الأسود بمظهره المتجهّم، وذاك التين البراق كشعلة من النار. لقد امتدت سلال تلو أخرى مليئة بالتين، باستثناء القليل منها المملوءة باللوز، والكثير من حبات الجوز الضخمة، وسلال حديدية شبكية صغيرة من الزبيب البلدي، والفجل القرمزي الذي بدا كالأبواق. لن تغفل عيناك عن نبات الشمر الرائع، أبيض وكبير للغاية وعصاري، وكذلك سلال من البطاطا الطازجة، والكرنب الحرشفي. وقد عُرضت حزم الهليون البري، والبراعم الصفراء للكرنب، الجزر الكبير بقشره النضر. الخس الريشي بقلوبه البيضاء، والبصل الأرجواني البني الطويل، ومن ثم أهرامات من البرتقال الكبير، وأخرى من التفاح الأبيض الشاحب، وسلال من اليوسفي اللامع الزاهي، **102** البرتقال الصغير الضارب للحمرة مع أوراقه الخضراء المسودة. يا له من عالم أخضر نابض بالفاكهة اللامعة ذات الألوان الجميلة، لم أشهد مثيلاً لروعها قبلاً تحت سقف سوق كالياري، إنها يانعة مذاقها شهى ومنظرها خلاب وكلها رخيصة للغاية، باستثناء البطاطا التي يصل ثمنها إلى 1.40 أو 1.50 فرنكاً للكيلو. صرخت كيوبي: "أه! إذا لم يتسنّ لي العيش في كالياري، والتسوق في هذا المكان، فسأمت دون أن أحقق إحدى أمنيّاتي".

غير أن الطقس كان بارداً بعيداً عن أشعة الشمس، فنزلنا إلى الشوارع علّنا نصيب شيئاً من الدفء، فلا بد أن الشمس قد أغدقت عليها أشعة حامي، غير أننا تفاجئنا بأن الشوارع كانت محرومة من الشمس كالآبار حالها كحال البلدات الجنوبية. وهكذا رحنا أنا وكيوبي نتبع ببطء شذرات من أشعة الشمس، لتبتلعنا الظلال رغماً عنا. نظرنا إلى المحلات، لكن لم يتبقّ لنا الكثير لرؤيته، سوى حفنة من المحلات القروية المزرية بالمجمل، لكن هنالك عدد لا بأس به من الفلاحين في الشوارع، والفلاحات يرتدين زيّاً عادياً إلى حد ما، صداراً ضيقاً، وفساتين ذات حجم كبير مصنوعة من الكتان المنسوج باليد أو من قطن سميك. أكثرها جمالاً كانت تلك الملونة بالأسود والأزرق والأحمر، على شكل خطوط وشرائط متداخلة، مما أضفى على اللونين الأسود والأزرق حول الوسط لوناً موحداً، أما اللون الأحمر الوردي فقد أخفته الطيات الكثيرة. ولكن عندما تمشي إحداهن، سترى بطانة فستانها الطويلة، وحينها يلمع اللون الأحمر كضوء المنارة، وكأنك ترى طائراً يفرد ألوان ريشه، **103** ليطنى جمال هذا المنظر على كآبة الشارع. ذلك

الصدر البسيط الضيق بحافة ناتئة أعلاه، أحياناً يكون على شكل سترة تحتية صغيرة بأكمام طويلة بيضاء، وعادة ما يعقد عليه شال أو منديل بشكل رخو. ساحرة هي الطريقة اللاتي يمشين بها، بخطوات سريعة قصيرة. ولو أخذنا بالاعتبار كل شيء، فإن أكثر زي جذاب للمرأة بالنسبة لي، هو الصدر الصغير الضيق، وتنورة متعددة الثنيات، طويلة وتهتز أثناء الحركة، إن لها سحرًا تفتقر إليه الأناقة الحديثة تمامًا، وكأنها طيور تتراقص أثناء الحركة. لا تمل العين رؤية هؤلاء الفتيات والنساء الفلاحات، فهن مفعمات بالحيوية وجريئات. لديهن ظهور مستقيمة، كجدران صغيرة، وحواجب قد أحكم رسمها بشكل متقن وهن دائماً متأهبات بصورة مسلية. ما من ملامح شرقية تطغى عليهن، وكطيور رشيقة نشيطة يندفعن على طول الأزقة، فينتابك شعور أنهن سيرتطن رأسك بمجرد أن ينظرن إليك. فالرقّة، والحمد لله لا تبدو سمة ساردينية، رغم أن إيطاليا غضة للغاية، كمعرونة مطهية، مساحات ومساحات من الطراوة الناعمة تتهافت حول كل شيء. لكن الرجال هنا لا يعظمون النساء وفق مظهرهن، وهنا لا وجود لتلك النظرات الخبيثة، فعندما ينظر الرجال الريفيون إلى هؤلاء النساء، فهم يعنون انتبهي إلى تصرفاتك يا سيدتي. أعتقد أن الوله المتدلل بمادونا²¹ ليس سمة من سمات سردينيا. على هؤلاء النساء أن يبحثن عن مصلحتهن، ويبقين عظام ظهورهن مشدودة، ومفاصل أصابعهن صلبة، فالرجل لن يتوانى أن يصبح الأمر الناهي إن استطاع ذلك، والمرأة لن تتركه على هواه أيضاً.

104 فإليك الأمر، ذلك الانقسام العسكري القديم الرقيق بين الجنسين منعش ورائع حقًا، بعد التعثر بالكثير من الاختلاط الشائك بينهما والافتتان بمادونا بذل ومهانة، فالرجل السارديني لا يبحث مطلقاً عن "المرأة النبيلة بتخطيط نبيل"؛ فهو يرغب بتلك الشابة الواقفة هناك، التي تنتمي إلى الجيل الشاب المتعنت، فاللهو الصيبياني بالنسبة له أفضل من النوع الذي يتم التخطيط له بطريقة نبيلة. هؤلاء الرجال وقعوا في شرك الخداع الفارغ، هذا ما هم عليه. يعتبر ذلك الإقدام صدع رائع بين الجنسين، فكل منهما قد عقد العزم بشكل مطلق للدفاع عن جانبه أو جانبها من التعدي عليه، وهكذا فاللقاء بينهما سيكون فيه نوع من المذاق المالح الجامح، وكل منهما سيمسي قاتلاً مجهولاً بالنسبة للآخر، وفي ذات الوقت له فخره وشجاعته، ليقدّم على قفزة خطيرة ثم يندفع متراجعاً. ولهذا فأنا أفضل طريقة الحب القديمة اللاذعة، فكيف لي أن أشمئز من المشاعر والنبيل.

يلمح المرء بعض الوجوه الرائعة في كالياري، في هذه الوجوه عيون قاتمة واسعة، كذلك لا تخلو صقلية من تلك العيون القاتمة الرائعة، إنها براقعة كبيرة مع أثر ضوء يعكس قسوة وجرأة فيها، تزينها أهداب طويلة ملفتة، إنها تضاهي أعين الإغريق القدامى بلا ريب، إلا أن هذه العيون الإيطالية يعشعش فيها الظلام الدامس الرقيق كالمخمل، دون عفريت يطل منها. إنها حذرة لمّاحة،

105 وكان الذكاء يكمن في أعماق محجرها، ولا يتقدم مطلقاً. يبحث المرء بين ثنايا الكآبة لوهلة، بينما تدوم النظرة الخاطفة أبداً، غير أن اختراق الواقع من المحال، وهذا ما يجعله يتقهقر كمخلوق مجهول عميقاً في عرينه، كمخلوق مظلم وقوي. ولكن ما هو هذا المخلوق؟ يمنحنا فلاكويز وغويا في بعض الأحيان تلميحاً عنه، حين يتحدثان عن هذه العيون القائمة الكبيرة التي بدت رائعة مع ذاك الشعر الأسود ناعم الملمس المرهف كالقرو. أما شمال كالياري فهو يخلو من هذه العيون.

راحت كيوبي تراقب خلصة بعض الشرائط الزرقاء والحمراء وقطعاً قطنية مخططة، يصنع الفلاحون منها ألبستهم؛ فاسترعت انتباهها لفافة كبيرة من القماش في مدخل متجر معتم، فمضينا داخله وبدأنا نتلمس القماش الذي كان عبارة عن نسيج قطني طري وسميك، باثني عشر فرنكاً للمتر. ومثل معظم الطرازات القروية فهي أكثر تعقيداً ودقة مما تبدو، بتلك الإضافة الغربية للشرائط، والتناسق الحاذق، والخيط الأبيض الذي ترك منسدلاً للأسفل إلى جانب واحد فقط. علاوة على ذلك فالشرائط تمر عبر القماش وليس بشكل طولي معه، لكن عرض القماش بالكاد سيكون طويلاً بما يكفي لأجل صنع تنورة، ومع هذا تلحظ أن التنورات القروية جميعها تحوي على شريط أسفل منها مع خطوط تلتف باتجاهات دائرية. أخبرنا الرجل الشبيه بالأسكيمو والذي كان بسيطاً وصريحاً وودوداً، أن تلك القطع مصنوعة في فرنسا، وهذه أول لفافة قماش تصل منذ الحرب. كان من ذلك الطراز القماشي القديم للغاية، إنه مناسب تماماً، لكن المواد ليست بتلك الجودة. **106** أخذت كيوبي كفايتها منه لتخيط ثوباً. عرض علينا البائع القماش الكشميري أيضاً، والبرتقالي والقرمزي، وذاك السماوي، وبلون الزرقة الملكية. قماش كشميري من صوف نقي جيد، كان يرسل إلى الهند ويتم الاستيلاء عليه من الغواصات البحرية الألمانية، ولذلك طلب خمسين فرنكاً للمتر الواحد، وهو ثمن باهظ للغاية، لكن قطع القماش تسبب الكثير من المشاكل عند حزمها في حقيبة ظهر، برغم تألقها الساحر. وهكذا تجولنا ونحن ننظر إلى المحلات التجارية، منجذبين نحو تلك المصوغات الذهبية المخرمة القروية، معروضة على واجهات المكتبات الجميلة. بيد أنه لم يتبق الكثير لرؤيته، فتساءلنا هل نواصل جولتنا ونمضي قدماً؟ هناك طريقتان لمغادرة كالياري صوب الشمال، إما عبر سكة الحديد الحكومية التي تمتد على الجانب الغربي للجزيرة، أو سكة الحديد الضيقة ذات القطارات البخارية التي تخترق المركز، لكننا متأخرون للغاية على القطارات الكبيرة. لذلك اخترنا سكة القاطرات البخارية أيًا كان الطريق المؤدي إليها. هناك قطار ينطلق عند الثانية والنصف سيمكننا من الوصول بسرعة إلى مدينة مانداس، على بعد حوالي خمسين كيلومتراً في الداخل، وعندما عدنا إلى الفندق تحدثنا مع النادل الصغير الغريب عن ذلك، فقال إنه من سكان مانداس، وهناك نزلان فيها. وهكذا تناولنا غداءنا وهو وجبة من السمك، ثم دفعنا فاتورة الفندق التي تقدر بحوالي الستين فرنكاً، لأجل ثلاث وجبات

لذيذة مع عصير ومنامة، وهذا الثمن يعد رخيصًا، كحال الأسعار في إيطاليا. 107 أسعدتني الإقامة بفندق سكالالا دي فيريه البسيط الودي، فوضعتُ حقيبتي على ظهري، وانطلقنا مشيًا إلى المحطة التالية. كانت أشعة الشمس حارقة هذه الظهيرة، وكأنها تنفث لظاها بجانب البحر، وبدأت الأبنية والطريق مجدبة وقاحلة، ولفت الميناء كابة وسوداوية. وجدنا حشدًا كبيرًا من الفلاحين عند المحطة الصغيرة، وبدأ كل رجل منهم تقريبًا يحمل زوجًا من حقائب السرج المنسوجة، وهي عبارة عن حزام عريض رائع من صوف محاك بطريقة غير متقنة، مع جيوب مسطحة على كلا الطرفين، محشوة بالمشتريات. كانت هذه هي حقائب السفر الوحيدة تقريبًا، وقد علقها الرجال على أكتافهم، وهكذا بات جراب كبير متدلّ في الأمام وآخر من الخلف. حقائب السرج هذه رائعة للغاية، تم نسجها بشكل غير متقن على صورة أحزمة من الصوف الخام بلونه الأسود المشرب بالحمرة، مع تنوع بين هذه الشرائط ما بين الصوف الخام الأبيض أو القنب أو القطن. الأحزمة والشرائط ذات العرض المتفاوت تتقاطع مع بعضها، وقد حيكت في بعض الأحيان على الشرائط الباهتة ورود بأكثر الألوان رونقًا، الأحمر الوردي والأزرق والأخضر، وبطراز قروي، لتحاك في أحيان أخرى وباستخدام الصوف الأسود على شكل حيوانات ووحوش رائعة. وهكذا فحقائب السرج المخططة كالحرير الوحشي، تعكس طرازًا رائعًا مرحًا بألوان مزهرة رسمت على شرائطها، وبعضها غريب مع حيوانات رائعة تشبه الغريفيين²²، لتبدو بمجملها منظرًا طبيعيًا بحد ذاتها.

لا يوجد في القطار سوى مقاعد من الدرجة الأولى والثالثة، وقد كلفت حوالي ثلاثين فرنكًا لكلينا، فأصبحنا من ركاب الدرجة الثالثة في قطار متجه نحو مانداس التي تبعد حوالي الستين ميلًا، ولقد تراحمنا في داخله مع حقائب السرج المبهجة، لنصل إلى عربة الركاب الخشبية الخاصة بنا بمقاعد الكثرة.

هوامش

١- عيد الغطاس: عيد الدنح أو عيد العماد، هو عيد يحتفل المسيحيون به في السادس من كانون الثاني يناير من كل عام لذكرى معمودية يسوع في نهر الأردن على يد يوحنا المعمدان.

2- الزاوية المحصنة أو البستين: هو ركن مرتفع على شكل مستدير تارة أو مربع تارة أخرى ويكون في الأبنية العظيمة كالقلاع والأسوار. عرفت بعد استخدام المدفعية لدعم الدفاع في العصور الوسطى.

3- اللسان: قطعة أرض رملية تمتد في البحر.

٤- نسيج الساتان الحريري: نسيج أطلس أو أطلس الزيتون إحدى التراكيب النسجية الثلاث المهمة في نسج الأقمشة. في نسيج أطلس تتعاشق خيوط السدى واللحمة بطريقة معينة تجعل إحدى مجموعتي الخيوط عائمة على الأخرى لمسافات معينة وتجعل سطح النسيج لامعاً وناعماً.

٥- أنطوان واتو: أو فاتو، هو رسّام فرنسي ولد في فالونسيان سنة 1684 وتوفي في نوجون سور مارن سنة 1721 م.

٦- المركزة: هو نبيل من رتبة وراثية عالية في مختلف الأقران الأوروبيين وفي بعض مستعمراتهم السابقة. المرأة التي تحمل رتبة مركزة أو زوجة المركزة هي سيدة ماركية أو مركزة. تُستخدم هذه العناوين أيضاً لترجمة الأنماط الآسيوية المكافئة، كما هو الحال في الصين الإمبراطورية واليابان الإمبراطورية.

7- نهاية القرن: هو مصطلح فرنسي استخدم لوصف الحالة الثقافية في حقبة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك للإشارة إلى التغير المرحلي من المنظور الثقافي. كانت السمة السائدة في تلك المرحلة يشوبها السأم والتهكمية والتشاؤمية، بالإضافة إلى انتشار الاعتقاد بأن الحضارة المدنية ستقود إلى الانحطاط.

8- الكشكشة: في الخياطة وصناعة الملابس، الكشكشة أو الرتوش أو الفراء هو شريط من القماش أو الدنتله أو شريط مجمّع أو مطوي بإحكام على حافة واحدة ويتم وضعه على الملابس، أو الفراش، أو نسيج آخر كشكل من أشكال التشذيب. القفزة هي نوع معين من التلاعب بالنسيج الذي يخلق نظرة مماثلة ولكن بكميات أقل.

9- حدائق كنسينغتون: هي إحدى الحدائق الخاصة في قصر كنسينغتون في لندن، وهي واحدة من الحدائق الملكية في لندن، وتقع إلى الغرب من حديقة هايد بارك. تغطي الحديقة مساحة قدرها 111 هكتار، وتشكل المساحات المفتوحة في حدائق كنسينغتون، هايد بارك، وجرين بارك وسانت جيمس بارك معا "الرئة الخضراء" في قلب لندن.

10- الباروكية: أو الباروك فترة تاريخية في الثقافة الغربية نشأت عن طريق أسلوب جديد في فهم الفنون البصرية وانطلاقاً من سياقات تاريخية وثقافية مختلفة أنتج أعمالاً عديدة في حقول فنية متنوعة: الأدب، العمارة، النحت، الرسم، الموسيقى، الأوبرا، الرقص، المسرح، الخ. 11- كنيسة القديسين بطرس وبولس: هي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في اسطنبول، وهي مهمة لأسباب تاريخية. تمتلك الكنيسة أيقونة للعدراء من نوع هودجيتريا، والتي كانت تقع أصلاً في كنيسة الدومينيكان في كافا، شبه جزيرة القرم.

12- كارل بادكر: ناشر ألماني كان الابن الأكبر لعشرة أطفال ورث دار النشر التي أسسها والده.

13- دانتي أليغييري: ويعرف عادة باسم دانتي وهو شاعر إيطالي من فلورنسا، أعظم أعماله: الكوميديا الإلهية المكونة من ثلاثة أقسام: الجحيم، المطهر والفردوس، يعتبر البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجته أوروبا أثناء العصور الوسطى، وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة.

14- الخشخاش: زهرة صغيرة ذات ألوان مختلفة يمكن أن تكون بيضاء أو صفراء أو برتقالية أو حمراء أو زهرية اللون. وهي تنمو في المناطق الباردة والوحيدة التي تنمو في أقصى الشمال في جرينلاند خلال فترة الصيف القصيرة للغاية وتزهر لأيام قليلة.

15- العَقَّعُ: اسم يُطلق على عدد من الطيور المختلفة من فصيلة الغرابيات، لها أذيال طويلة. والعقق الشائع في آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية أسود اللون مع وجود لون أبيض في الأجزاء السفلى وأطراف الجناح.

16- قبة فريجية : وتُسمى أيضاً قبة الحرية هي قبة مخروطية الشكل، لينة ومسحوبة إلى الخلف. تعود إلى العصور القديمة لعدد من الشعوب في أوروبا الشرقية والأناضول، وأخذت اسمها من فريجيا في تركيا.

17- بروليتاريا القطيع: الطبقة العاملة تضم أولئك الذين يعملون مقابل راتب أو أجر، وخاصة في المهن اليدوية للعمالة والعمل الصناعي.

- 18- بارميغيانو ريغيانو: وتعرف أيضًا باسم جبن بارميزان، حيث يمزج الحليب الكامل الدسم المأخوذ من حليب الصباح مع الحليب الطبيعي المنزوع الدسم المأخوذ من حليب المساء، مما ينتج عنه خليط منزوع الدسم إلى حد ما.
- 19- جبنة الستراشينو: نوع من جبن حليب البقر الإيطالي، يؤكل صغيراً جداً، وليس له قشرة، وعادة ما تكون نكهته خفيفة وحساسة. انها عادة ما تكون مربعة الشكل. اسم الجبن مشتق من الصفة لومبارد، التي تعني "متعب".
- 20- كاتشو كالفالو: هي نوع من الأجبان ممدودة التخثر تصنع من حليب الأغنام أو البقر. يتم إنتاجها في جميع أنحاء جنوب إيطاليا، وخاصة في جبال الأبينيني. تحمل شكل دمعة وتشبه في مذاقها إلى حد ما طعم جبن البروفولوني التي تصنع في جنوب إيطاليا أيضًا مع قشرة صلبة صالحة للأكل.
- 21- مادونا: أو مادونا لويز سيكون؛ فنانة استعراضية ومغنية وراقصة وكاتبة أغاني وملحنة ومنتجة أغاني ومنتجة تنفيذية ومنتجة أفلام ومخرجة أفلام وممثلة وعارضة أزياء وكاتبة وكاتبة سيناريو وسيدة أعمال وناشطة إنسانية أمريكية من أصول إيطالية. وُلدت في باي سيتي.
- 22- الغرفين: حيوان أسطوري له جسم أسد، ورأس وجناحي عقاب، استخدم الأوروبيون صورته وقصصه كثيرًا في تراثهم ورمزًا لأسرهم ومؤسساتهم ودولهم. استخدموه في العمارة في منشآتهم الدينية والمدنية والعسكرية. يماثلها أيضًا أبو الهول، ولكن الفرق أنَّ رأس أبي الهول رأس إنسان وجسمه جسم أسد.

الفصل الرابع

مانداس

وكانها معجزة، عندما استدارت عقارب الساعة للوقت المحدد، أطلق قطارنا صافرته وانطلق مبتعدًا خارج كالياري، لنعود إلى درب رحلتنا مرة أخرى. كانت عربة القطار مليئة بالناس العائدين من السوق، لا يتم تقسيم عربات الدرجة الثالثة على هذه السكك الحديدية إلى مقصورات، بل تترك مفتوحة بحيث يتسنى للمرء رؤية جميع الركاب وكأنهم تمامًا في غرفة واحدة. قام المسافرون برمي حقائب السرج¹ الجذابة بشكل عشوائي في أماكن غير محددة داخل العربة، وقد استكان الجزء الأكبر من الناس وانشغلوا بمحادثات مرحة وممتعة، في الحقيقة، السفر بالدرجة الثالثة على السكة الحديدية هو أجمل وأفضل اختيار بشكل عام، ففيها وفرة من المساحة والهواء المنعش وكأنك في نزل مفعم بالحيوية، حيث تجد الجميع في مزاج جيدة.

كان هناك متسع كبير في مقصورتنا، ولكن برغم ذلك هناك زوجان عجوزان يمكنان عبر الممر وبدا السرور على محياهما وكأنهما طفلان عائدان إلى المنزل بسعادة بالغة، بدا الزوج سمينًا تمامًا وقد اعتلى فمه شارب أبيض اللون وارتسم على وجهه بعض من العبوس الذي لا يطاق، أما زوجته فتويلة نحيفة ذات بشرة سمراء ترتدي فستانًا بنيًا تنورتته منتفخة ومزركًا أسود له جيب كبير. لم تضع غطاء على رأسها ولهذا فقد بانّت خصلات شعرها الرمادية الناصعة التي راحت تتناثر بنعومة وسلاسة. غمرهما وجودهما على هذا القطار بسعادة وحماس بالغ، وأثناء ذلك شرعت الزوجة بإخراج جميع ما لديها من النقود في جيبها الكبير وقامت بعدها ثم قدمتها لزوجها، وهي تتألف من أوراق نقدية لفئة عشر ليرات وخمس ليرات والليرتين والليرة، متفحصة هذه القصاصات الفذرة لفئة الليرة الواحدة والمعززة من خلفها باللون الوردي للتأكد مما إذا كانت ما تزال صالحة أم لا، ثم ناولت زوجها حفنة عملات معدنية من فئة نصف بنس، فدسها في جيب بنطاله، بعد أن نهض ليحرص على حشرها أسفل ساقه السمينية، لكن ما أثار دهشتي حقًا هو أنّ ذيل قميصه قد ترك محررًا بالكامل خارج بنطاله من وراء **109** ليبدو كمزرك تم ارتداؤه بشكل معكوس في الخلف. ما سبب ذلك يا ترى؟ إنها أحجية بحد ذاتها! إنه من أولئك الرجال الذين يتسمون بالبدانة والطبع الحسن، فضلًا عن اللامبالاة وشيء من التجهم المتسلط، وعادة ما يمتلكون زوجات طوال القامة نحيلات ذوات مراس صعب وقد أذعنن بالطاعة لهم رغم ذلك.

لقد عانق السرور الجامح هذين الزوجين، وحين عمدنا إلى شرب الشاي الساخن من قارورة الترمس راح الزوج يحدق بنا بذهول بعينيه الزرقاوين اللتين يعتليهما حاجبان أبيضان منتصبان، وأظن أنّ الشك قد خالجه أيضًا بأنها قنبلة، وحين وقعت عيناه على البخار المنبعث من الشاي أطلق آهات لا مناص منها قائلًا: "آه، آه، يا له من شاي ساخن ويبعث البهجة في النفس! هل مذاقه لذيذ؟". أجابت كيوبي: "أجل، إنه لذيذ للغاية". فأومأ الزوجان برأسيهما بنفس راضية، فهما في طريقهما إلى منزلهما ليشربا ما يحلو لهما من الشاي أو غيره.

راح القطار يعدو مسرعاً فوق البحر الذي بدى شاحباً متقدماً خلف أشجار النخيل المتناثرة والمنازل الشبيهة بالمساجد، وعند الوصول إلى المزلقان² خرجت حارسة العبور مندفعة بقوة وهي تحمل رايتها الحمراء. وهكذا راح القطار يجول عبر أول قرية صادفناها، فوجدنا منازلها مبنية من طوب القرميد المجفف بالشمس، أما جدران أسوار حدائقها فمن الطوب السميك، ولها حواف سقفية قرميدية مقوسة لحمايتها من الأمطار، وقد أحاطت بسياج كل حديقة أشجار البرتقال الداكنة. إن هذه القرى مثيرة للعجب بالفعل فهي مكونة من الطين الجاف الذي أكسبها لونه البني، أما ما تبقى خلف هذه القرى فيتراى لك أنها مجرد أكوام ترابية أشبه ما تكون بجحور الثعالب أو أوكار الذئاب **110**.

إذا ألقى المرء نظرة خلفه فسيرى كالياري تبرز شامخة على صخرتها، بمظهر يفوق الوصف روعة وبهاء، بتلك الحافة المحنية بشكل مقوس للسيف البحري. إن وجودها فوق بحر حقيقي وعلى هذا السهل الطيني الشاحب هو أمر مذهل بالفعل.

واصل القطار رحلته وسرعان ما بدأنا بصعود التلال، لتظهر أمامنا قطع زراعية تتراعى هنا وهناك بين الفينة والأخرى، وجود تلك التلال التي تغطيها المروج والأشبه بالمستنقعات بمحاذاة البحر أمر مذهل بالفعل، وكم هو مستغرب وجود هذه المساحات الهائلة وعرة وغير مأهولة في ساردينيا، إنها مجرد برية لا تجد فيها سوى الأراضي الجذباء وشجيرات القطلب³ ونوع من نباتات الأس⁴ التي لا يتجاوز ارتفاعها الصدر، ويمكنك أحياناً رؤية بعض رؤوس الماشية. ثم مررنا مرة أخرى بتلك القطع الرمادية الصالحة للزراعة حيث تزرع الذرة فيها، إنها تشبه منطقة لاندزاند الموجودة في مقاطعة كورنوال⁵، ويمكنك رؤية الفلاحين هنا وهناك وهم يعملون من مسافة بعيدة في تلك البساتين النائية، وأحياناً يصفو البصر في رؤية أحدهم بوضوح شديد بزيه الأبيض والأسود، وقد بدا صغير الحجم من البعيد كغراب عقق وحيد نأى بنفسه عن جميع أبناء جلدته فبرز للعيان بصورة غريبة، لقد تجلى كل سحر ساردينيا العجيب في هذا المشهد، فبين تلك التلال الشبيهة بالمستنقعات العشبية بعيداً في أجواف البساتين الواسعة التي تجسد هذه المناظر الطبيعية الملفتة، تقف هذه الشخصية المنعزلة التي بانّت صغيرة الحجم من تلك المسافة، تعمل لوحدها مرتدية زياً يتعاقب فيه اللون الأبيض والأسود ليعكس مشهداً زاهياً ومشرقاً وكأنما سيبقى أبد الدهر. تحتوي هذه البرية على الكثير من قطع وأغوار الأراضي الرمادية الصالحة للزراعة والملائمة لزراعة حبوب الذرة، وقد كانت سردينيا ذات يوم صومعة كبيرة للحبوب.

لقد تخلى فلاحو المناطق الجنوبية على أي حال عن زيهم، ليسود بينهم كما جرت العادة ارتداء زي الجنود المموه باللون الرمادي والأخضر، واللون الخاكي⁶ الإيطالي، ولهذا فأينما تحل أو تذهب فستجد أمامك اللون الخاكي أو ملابس الحرب الرمادية الخضراء. فأتساءل كم مليون يارد يجب أن توفرها الحكومة لشعبها من تلك المادة السمكية الممتازة والبغیضة بذات الوقت، **111** لا أدري! ولكني أعتقد بأنها كافية لفرش إيطاليا برمتها بسجاد مصنوع من اللباد، فهي منتشرة بكل مكان.

إنها تغلف الأطفال الصغار بمعاطف وفساتين قاسية لا لون لها، وهي تكسو كذلك آباءهم الذين أطفالهم شقاء الحياة، وتحيط النساء في بعض الأحيان بدفئها. إنها رمز للضباب الرمادي العالمي الذي حل على الرجال، وإخماد لتألق الشخصية الفردية وطمس ومحق كل شخصية جامحة. آه يا لهذه الديمقراطية! إنها ديمقراطية اللون الخاكي.

هذا الحال مغاير تمامًا للمناظر الطبيعية الإيطالية، فطالما تحلت إيطاليا بصفات درامية ورومانسية، ومن المعروف أن الدراما تسكن سهول لومباردي، والرومانسية تطفو على مياه بحيرات البندقية، والإثارة الدرامية قد ألقت بسحرها تقريبًا على جميع الأجزاء التي تضج بالتلال لشبه الجزيرة، وربما هي تورّد للتكوينات الجيرية الحجرية. غير أن المناظر الخلابة التي تمتاز بها الأراضي الإيطالية موجودة منذ القرن الثامن عشر، ليتم تمثيلها بهذه الطريقة الرومانسية الكلاسيكية التي تجعل كل شيء رائعًا وموضوعيًا للغاية؛ كالفنات المائية والآثار غابرة القدم فوق جبال شوغارلوف والوديان الوعرة وشلالات ويلهيلم مايستر المائية. وتتراوح هذه الأراضي كلها ما بين الصعود والهبوط.

وإذا انتقلنا بالحديث لساردينيا فسنجدها بصورة مختلفة، فهي أكثر اتساعًا وألفة وأرضها مستوية لا تلمح فيها صعودًا أو هبوطًا سوى أرض تجمع نحو البعيد، تتخللها نتوءات لتلال أشبه بالمستنقعات العشبية الممتدة وكأنها تعدو مسرعة هاربة، لا أدري إلى أين، ربما هي متجهة نحو قمم جبال درامية تقع في الجهة الجنوبية الغربية. هذا المشهد يمنحنا إحساسًا بوفرة كبيرة من المساحة، وهو ما تفتقر إليه إيطاليا بشدة في الحقيقة. ها هي الآن تطوقني مساحة محببة ومسافات شاسعة لا نهاية لها تصلح للسفر والترحال، **112** إنها الحرية بحد ذاتها بعد عزلة بلغت ذروتها في صقلية. امنحني حيزًا من هذا الامتداد الأزلي لتسكن روعي فيه، وسأغدق عليك في المقابل بكل ما تجود به الحناجر من رومانسية.

وهكذا أخذنا نسير تحت شمس الأصيل التي ألقت بخيوطها الذهبية في جميع الأنحاء، عبر مساحات واسعة من المناظر الطبيعية القلطية⁷ للتلال، بينما راح قطارنا الصغير يعدو بنا متعرجًا وينفث دخانه بعيدًا بكل رشاقة، ولم نشاهد سوى الأراضي البرية والشجيرات الخفيضة التي كان ارتفاعها يصل للصدر أو بعلو القامة أو كبيرة للغاية فبدت أشبه بقطاع الطرق لجزيرة سلانية، والماشية البرية ذات القرون السوداء تظهر كل حين.

بعد مسير القطار بثبات لمسافة طويلة وقد تملكنا شعور شديد بالوحدة وصلنا أخيرًا إلى المحطة، هكذا تجري الأمور معنا على الدوام، ففي كل مرة يستقر بنا الحال في محطة نظن أنها آخر الطريق ولا أبنية بعدها، إلا أننا حين نتابع المسير نجد أنفسنا وقد وصلنا إلى محطة جديدة.

غادر معظم الناس القطار؛ فعادة ما يترجل المسافرون في كل محطة لاستنشاق الهواء الطلق مثلما يقوم سائقو العربات الخفيفة ذات العجلتين بزيارة كل حانة يمرون بها. ها هو صديقنا الزوج المسن البدين يقف منتصبًا وقد دسَّ طرف ذيل قميصه بشكل مريح في بنطاله، هذا النوع من البناتيل يجعله يحبس أنفاسه طوال الوقت، وهي تبدو دائمًا وكأنها تكاد أن تنسدل لأسفل ساقيه، فيحرص على إدخالها في جسده بحرج وتعجب، تتبعه ساقا زوجته الطويلة السمراء. وهكذا نال القطار قسطًا من الراحة لمدة خمس أو عشر دقائق حتى بدأت أصوات الصافرات والأبواق تضج في المكان، وما إن شرع القطار بالتحرك حتى هرع صديقنا المسن البدين مسرعًا وأخذ يجري ثم تشبث كسلطعون سمين بأخر القطار، إلا أنه وفي ذات اللحظة انطلقت صرخة مدوية أعقبتها مجموعة صيحات قادمة من الخارج، **113** فنهضنا جميعًا فزعين لرؤية ما يحدث؛ وإذ بالزوجة الشبيهة بطائر اللقلق ذي الساقين البنيتين الطويلتين هناك في الأسفل على السكة، كانت قد ذهبت لتوها إلى منزل يبعد مائة ياردة عن المحطة لأجل الثرثرة مع أحد ما، ويبدو أنها قد انتبهت الآن إلى القطار وهو يتحرك.

انظر إليها الآن وقد رفعت كلتا يديها للسماء حائرة، لتعصف في أذنيك صرخة عاتية وسط كل الصخب: "مادونا!". حيث أنها رفعت تنورتها إلى ركبتها واندفعت بجنون خلف القطار بساقيها النحيفتين المغطاتين بجوارب رمادية، لكن سعيها ضاع عبثًا، فلقد بقي القطار متابعًا التقدم بلا هوادة، فراحت تتنطنط حتى وصلت أحد طرفي المنصة بينما كنا نغادر النهاية الأخرى، لتدرك حينها أننا لن نتوقف لأجلها. ونتيجة لذلك شهدنا لها تصرفًا مرعبًا للغاية؛ فقد مدت ذراعيها الطويلتين معبرة عن توسل جامح خلف القطار المتراجع ثم رفعتهما للأعلى مبتهلة إلى الله، لتتقلب بيأس مطلق على رأسها.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي نراها فيها بمنظرها ذاك ممسكة بشدة رأسها السقيم الذي لاقى ألمًا مبرحًا وعادت إلى مكانها. في الحقيقة لقد تُركت هذه الزوجة المسكينة وتم التخلي عنها. أما

الزوج البدين فقد ظل طوال الوقت واقفاً على المنصة الخارجية الصغيرة لعربة القطار وبسط يده إليها صارخاً بتوبيخ شديد وملامة حزينة نحوها ومطلقاً صيحات جنونية نحو القطار ليتوقف، إلا أن القطار لم يبال بهما وتابع التقدم، لتترك الزوجة في تلك المحطة المشؤومة بينما راح ضوء النهار يتلاشى شيئاً فشيئاً.

وهكذا، بدا الزوج محمر الوجه وعيناه المستديرتان تشعان كنجمتين، ولقد تغير مظهره كلياً بسبب ما اختلط في داخله من مشاعر الفزع والحزن والغضب والضيق، فأقبل وجلس في مقعده مشتتلاً كالجمر جامداً وعاجزاً عن الكلام. لقد بدا على وجهه جمالاً ملفتاً في لهيب المشاعر المتضاربة، التي كادت أن تفقده الوعي في بعض الأحيان، ليتفجر الغضب والاستياء كالبركان من أعماق الرعب الذي أحاط به، 114 ثم التفت إلى الحارس الماكر ذي الأنف الطويل والمظهر الفينيقي وصرخ قائلاً: "لماذا لم يوقفوا القطار لأجلها؟!". فأجاب الحارس على الفور بغضب شديد وكأن أحداً قد أشعل النار داخله: "هيه! لا يمكن للقطار أن يتوقف وفقاً لأهواء كل شخص! فله نظام صارم ومن المحال الإخلال بجدوله الزمني. ما الذي كانت تريده تلك العجوز لدرجة جعلتها تهفو عن اللحاق بقطارها؟ هيه! إنها تدفع ثمن تهورها، هيه! هل قامت بتسديد ثمن تذكرة القطار؟". وفي كل مرة كان الرجل المسن يجيب عليه بغضب عارم ودون أدنى اكتراث أو مبالاة. لو أن موظف قطع التذاكر قام خلال دقيقة واحدة بإبلاغ السائق أو صرخ فقط! يا لحظها العاثر! فلن يصل أي قطار آخر إلى المحطة! كما أنها لا تملك مالاً بحوزتها بعد أن أعطت كل شيء لزوجها! يا لها من امرأة مسكينة!

قال موظف قطع التذاكر: "كان هناك قطار عائد إلى كالياري في تلك الليلة". فكاد الزوج البدين أن ينفجر ويمزق ثيابه كما تتفلق حبة الفول عن قرننها وارثد جالساً بعنف على مقعده. ما فائدة ذلك؟ ما النفع من عودة القطار إلى كالياري بينما يقع منزلهما في سنيلي! إن هذا يزيد الأمور سوءاً.

وهكذا ظل الحديث والجدال محتدماً بينما راح ظهراهما يرتدان ضاربين مقعديهما ليهتز جسداهما من شدة انفعالهما وتنازعهما ليلقيا في وجهي بعضهما البعض ما فاضت به قلوبهما. ثم انسحب موظف قطع التذاكر مبتعداً عبر ممر القطار ليعود إلى مكانه الهادئ المعزول مع ابتسامة ماكرة تملو وجهه. التفت صديقنا المسن البدين ونظر إلينا بعيون كئيبة خجولة تشتعل غضباً بذات الوقت وخاطبنا قائلاً: "يا له من أمر مخز!". أجل إنه لشيء معيب ونحن نتفق معه في ذلك. عندئذ تقدمت آنسة مزهوة بنفسها وقالت إنها طالبة بإحدى جامعات كالياري وطرحت عدداً من الأسئلة الوقحة بنبرة من التعاطف المتطاوّل. بعد ذلك غادر صديقنا البدين وحيداً مغطياً وجهه المكفهر بيده، 115 ومضى عابساً حزيناً بعد أن أدار ظهره للعالم بأسره.

لقد كان كل ما حدث حلواً ومرّاً وذا سمة درامية لدرجة أننا ضحكنا رغماً عنا، حتى أن كيوي قد ذرفت بعض الدموع من شدة الضحك.

حسناً، تابع القطار مسيره واستغرقت رحلتنا عدة ساعات، وحين وصلنا إلى المحطة أمرنا موظف قطع التذاكر بالخروج، فعربات القطار لن تسير لأبعد من ذلك، باستثناء اثنتين منها تتبعان لقطار آخر ستذهبا إلى مانداس، ولهذا خرجنا حاملين حقائبنا، وكذلك فعل صديقنا البدين الذي بات يمثل صورة للبؤس.

اتجهنا صوب القطار الذي يجر العربتين، وصعدنا إلى إحدهما وكانت مزدحمة إلى حد ما، والعربة الأخرى معظم راكبيها من الدرجة الأولى، أما عربات القطار الباقية فمخصصة لحمل البضائع، وهكذا وصل بنا الحال ماكثين داخل عربتين متواضعتين بسيطتين لنقل المسافرين تم وصلهما في نهاية سلسلة طويلة من عربات النقل والشحن.

وجدنا مقعداً فارغاً وجلسنا فيه، وما إن مرت خمس دقائق حتى ظهرت أمامنا عجوز نحيلة وبرفقتها طفلان هما حفيداها اللذان راحا يشكوان لها بصوت منخفض لروح بأن المقعد يكون لها، وهي بالمقابل لم تبرر سبب مغادرتها لهذا المقعد. ثم انتبهت لوجود حزمة من الخبز تحت قدمي، فكاد أن يجن جنونها! أما على الرف الصغير فوق رأسي فقد وضعت حقيبة سرج لها. ثم لفت انتباهي أصوات مجموعة من الجنود البدناء راحوا يضحكون على سذاجتها وبساطة تصرفاتها، غير أن العجوز كانت ترتجف وتنتفض كدجاجة مُسنفرة بلا ريش، ولا اعتبار أنها قد حظيت بمقعد آخر شعرت بالراحة فيه ابتسمنا وتركناها تتشكى بصوت منخفض، وهكذا قبضت بأصابعها على حزمة خبزها من تحت ساقي، **116** وتشبثت بها بشدة وكذلك فعلت مع حفيدها السمين ثم جلست بتوتر.

غابت الشمس وحل الظلام الدامس في الأرجاء، وفجأة أقبل موظف قطع التذاكر وأعلن أن كمية البارافين⁸ قد نفذت، وبمجرد نفاذ الكمية المتبقية منه في المصابيح سنضطر للجلوس في الظلام، وسنبقى على هذا الحال طوال الرحلة، ولهذا صعد موظف قطع التذاكر على المقاعد وبرفقتها عدة فتية يشطبون أعواد الثقاب لأجله، وبعد كفاح طويل نجح في الحصول على ضوء بحجم حبة البازلاء. جلسنا وسط هذا التباين ما بين العتمة والنور، وعمدنا إلى النظر صوب الوجوه الكئيبة المظلمة حولنا؛ وهم جندي بدين يحمل بندقية وآخر وسيم معه حقائب سرج كبيرة ورجل داكن غريب صغير الحجم ظل يتناوب على حمل طفل مع امرأة صلبة سمراء قد ربطت قطعة

قماش بيضاء حول رأسها، وامرأة طويلة ترتدي زياً ريفياً خرجت مسرعة لدى توقفنا في محطة مظلمة وعادت مظفرة بقطعة من الشوكولاتة، وشاب طفق يحدثنا عن كل محطة سنمر بها، بالإضافة إلى وجود رجل كان يبصق على الأرض ودائماً ما تصادف مثله في أي مكان. وشيئاً فشيئاً راح الحشد يتناقص عدده، وعند وصولنا إلى المحطة شاهدنا صديقنا البدين يمر بمرارة كروح تائهة وقعت ضحية للخداع وحقيبة السرج خاصته معلقة أمام وخلف صدره، وها هو ذا وقد فارقت الراحة ولن ينعم بها مطلقاً بعد الآن. تضاعل النور الصادر عن مصباح البارفين أكثر ليغدو بحجم حبة البازلاء، فجلسنا في ظلام لا يطاق، ورائحة صوف الأغنام والفلاحين تطوف حولنا، باستثناء وجود شاب سمين ورزين استمر يشرح لنا عن كل مكان نصل إليه. وبعد حين بدأت الوجوه الداكنة الأخرى تغرق في صمت قاتم مُميت، فبعضهم استسلم للنوم، بينما تابع القطار الصغير تقدمه دون توقف عبر ظلام ساردينيا المجهول، وفي خضم هذا اليأس استنفذنا آخر قطرة من الشاي وتناولنا قشرة الخبز الأخيرة لدينا، ولقد كنا على معرفة بأننا سنصل عما قريب إلى وجهتنا.

117

وصلنا إلى مانداس أخيراً والساعة لم تجتز السابعة بكثير. تعتبر مانداس نقطة التقاء طرق هذه القطارات الصغيرة، تتوقف فيها فتستريح وتجري محادثات طويلة سعيدة بعد اندفاعها المضني فوق المنحدرات. لقد استغرقنا حوالي خمس ساعات لاجتياز مسافة تبلغ خمسين ميلاً، ولا عجب إذن من أن ينطلق جميع المسافرين استعداداً للخروج من القطار كبذور تنبت من جراب منفجر حين يلوح التقاطع أخيراً في الأفق ليسارعوا إلى مطعم المحطة دون شك، حيث تم تجهيز مطعم صغير في المحطة لغرض التجارة النشطة ويمكن للمرء أيضاً أن يحظى بسرير للمبيت فيه. وعند دخولنا إلى المطعم استقبلتنا ورحبت بنا امرأة لطيفة للغاية تقف خلف البار الصغير، لها بشرة ذات لون حنطي ضارب للسمررة وعينان بنيتان وشعر بني موزع، ترتدي صدرية مخملية بنية ضيقة، فقادتنا لنصعد برفقتها سلماً حجرياً متعرجاً ضيقاً وكأننا داخل قلعة، وقد حملت معها شمعة لتنير دربنا وترشدنا إلى الطريق، حتى أدخلتنا إلى غرفة نوم رائحتها كريهة كما هو حال أي غرفة مغلقة منذ زمن، فعجلنا بفتح النافذة على الفور لتزهر أمامنا فجأة نجوم كبيرة كندف الثلج تتألق بلمعان شديد في السماء. احتوت الغرفة على سرير نظيف تماماً وكبير للغاية يتسع لثمانية أشخاص، وطاوله مغطاة بقطعة قماش وضعت عليها شمعة واحدة، ولكن أتمنى لو تتمكن من تخيل منظر قطعة القماش تلك! أظنها كانت بيضاء اللون في السابق إلا أن الزمن قد نال منها وأحدث فيها الكثير من الثقوب لتبدو أشبه بالشبكة، فضلاً عن بقع الحبر السوداء الكثيرة والعصير

الفاقد الرديء اللذين جعلها تبدو ككفن مومياء عمرها ألفا عام، 118 أتساءل ما إذا كان من الممكن رفعها عن تلك الطاولة، أم أنها محنطة عليها! أنا شخصيًا لم أقدم على المحاولة. لقد ظل غطاء الطاولة هذا مطبوعًا في ذاكرتي، حيث أظهر جوانب لم أكن أتخيلها. نزلنا درج القلعة وذهبنا إلى غرفة الطعام، ووجدنا فيها طاولة طويلة عليها أطباق حساء مقلوبة رأسًا على عقب، ومصباح داخله شعلة مكشوفة مثيرة للعجب يغذيها غاز الأستيلين، وما إن جلسنا أمام الطاولة الباردة حتى بدأ المصباح يخبو على الفور. تلك الغرفة في الواقع شبيهة بسائر جزيرة سردينيا، فهي باردة كحجارة الصوان، فقد غطى الجليد الأرض برمتها خارجًا، أما في الداخل فلا يوجد أي نوع من الدفء على الإطلاق، فالأرضيات والجدران هنا حجرية شبيهة بالزنزانات. ولقد بدا الجو في الخارج موحشًا ساكنًا كجثة هامدة ويصعب التنقل فيه بسبب تراكم الثلوج.

انطفأ المصباح تمامًا وصرخت كيوبي، فأبرزت المرأة السمراء رأسها علينا عبر فجوة في الحائط، فرأينا خلفها ألسنة لهب الطهي وشخصيتين شيطانيتين تحركان قدور الطعام. بعد ذلك أقبلت علينا المرأة السمراء وهزت المصباح جيدًا والذي بدا مثل مزهرية خزفية قديمة للغاية مخصصة لرف الموقد وأشعلت أحشائه فبدأ ينير من جديد، ثم أحضرت لنا المرأة وعاءًا من حساء الكرنب المدخن وفيه قطع من المعكرونة؛ فهل سنحظى بالعصير يا ترى؟ سألتها أن تجلب لنا بعضًا منه، وآه كم منحنا شعورًا بالراحة، لكن هذا الإحساس لم يدم طويلًا لأن المصباح انطفأ مرة أخرى، فجاءت المرأة السمراء فهزته وأخذت تحاول إشعاله، لكنه قد بدا وكأنه يقول: "لن أضيئ لأجلك". فضربتة ضربة ثانية. 119 ثم أقبل مدير الفندق بشمعة ودبوس، وهو رجل صقلي ودود له شارب متدل، فوخز المصباح التعيس بقوة وهزه وقام بتدوير بعض البراغي الصغيرة حتى اشتعل اللهب. كنا متوترين بعض الشيء، فسألنا مدير الفندق من أين جئنا وأسئلة أخرى من هذا القبيل، وما إن سمع الإجابة حتى استفسر ووميض الحماسة يشع من عينيه إن كنا اشتراكيين أم لا. أها! كان يعتزم الإشادة بنا كمواطنين ورفاق، ظنًا منه أننا زوجان من العملاء البلشفيين، كان بوسعي رؤية ذلك فيه، ولهذا فقد همّ لمعانقتنا. ولكن كيوبي تنازلت عن هذا الشرف، أما أنا فاكنتيت بابتسامة خفيفة وهزرت رأسي له بالنفي. إنه لأمر مؤسف أن نسلب الناس أو هامهم المثيرة.

صاحت كيوبي: "آه! الاشتراكية منتشرة في كل مكان". أجاب الصقلي المتحفظ: "مم، ربما، ربما". فعرفت كيوبي أي طريق تسلكه معه في الحديث، وأضافت: "القليل منها فقط، وليس كثيرًا، فقد أمسى وجودها مفرطًا في وقتنا الحاضر".

راحت عينا مضيفنا تومض إزاء هذا الخطاب الذي تعامل مع العقيدة المقدسة وكأنها رشة ملح

في المرق، معتقداً أنّ كيوبي تسعى إلى تضليله وذر الرماد في العيون، وبأنه فتن تمامًا من قبل زوجين غامضين، فانسحب مبتعدًا. وما كاد يبتعد ذاهبًا حتى ارتفعت شعلة المصباح على أوجها وبدأت بالصفير، فجفأت كيوبي ورجعت للخلف، وفجأة برزت شعلة أخرى وبدأت تدور بعنف حول أسفل الفتيل المشتعل، كأسد جعل من ذيله سوطًا يجلد به من يشاء، **120** ليسود الغرفة جوًّا من التوتر، صرخت كيوبي مرة أخرى، فقدم المضيف بابتسامة حاذقة ودبوس، متظاهرًا بنزعة للخير ليروض تلك الوحشية. رحنا نتساءل ما أنواع الطعام المتوافرة لديهم؟ وهل هي جيدة وصحية؟ تم إعداد قطعة من لحم الخنزير المقلي لأجلي، وبيض مسلوقة لكيوبي، وأثناء تناولنا غذاءنا المتأخر حلّ وقت الترفيه لهذه الليلة؛ فقد دخل ثلاثة من موظفي المحطة، اثنان يضعان قبعتي شرطة قرمزيّ اللون، وآخر يعتمر قبعة لونها أسود مطعمة بخيوط ذهبية، فجلسوا وقد علا صوت صخبهم معتمرين قبعاتهم، وكأن ستارًا شفافًا يفصلنا عنهم. كانوا في ريعان الشباب، وبدا الذي يرتدي القبعة السوداء هزيرًا وترتسم عليه نظرة ساخرة. أما أحد اللذين يعتمران القبعتين القرمزيتين فبان صغير الجسد متورد اللون، وقتيًا للغاية مع شارب صغير، أطلقنا عليه اسم مايالينو، أي الخنزير الأسود الصغير المرح، فقد كان ممثليّ الجسد، ويتغذى جيدًا ومرحًا. أما الثالث فمنتفخٌ إلى حد ما وشاحب ويضع نظارة. وجميعهم لم يعيروا وجودنا أدنى اهتمام، مُلمّحين أنهم لا ينوون خلع قبعاتهم، حتى وإن كانوا جالسين على مائدة العشاء مع وجود سيدة غريبة في المكان. راحوا يتبادلون المزاح الثقيل مع بعضهم، وكأننا لا زلنا على الجانب الآخر من الحاجز غير المرئي لهم. لكنني صمتت على أي حال على هتك هذه الستارة غير المرئية، فقلت لهم مساء الخير، لقد كان الطقس باردًا للغاية. تمتعت أفواههم بالبرد مساء الخير، نعم إنه منعش. لن يقول إيطالي إنَّ الطقس بارد، فالأمر بالنسبة له لا يتعدى أكثر من كونه منعشًا، لكنهم فهموا تلميح الطقس البارد كإشارة لقبعاتهم، فخيم عليهم صمت مطبق، حتى دخلت المرأة السمراء وبيدها وعاء الحساء، وحينها تعالت أصواتهم، وخصوصًا مايالينو سائلين عما هو موجود لتناوله؛ فأجابتهم: "شرائح لحم الخنزير أو البقر". **121** ظهر الامتعاض على وجوههم. ثم تابعت قائلة: "أو قطع من لحم الخنزير المسلوق". فتنهدوا، وانفرجت وجوههم وابتهجوا قائلين: "شرائح لحم البقر إدا". ثم راحوا يتناولون حساءهم بشهية ونهم وبهجة لم يسبق لها مثيل؛ وراحوا يمسكون ملاعقهم برشقات طويلة مستمتعة للغاية. أما مايالينو فقد كان كنوتة موسيقية حادة، فقد ارتشف الحساء بفمه بسرعة مصدرًا صوتًا مرتعشًا متذبذبًا، لم توقفه عن العزف سوى قطع من الملفوف، مما جعل المصباح يهتاج مرة أخرى، أما ذاك الذي يرتدي القبعة السوداء فقد كان صوته جهوريًا كنفخ البوق، ويتناول الحساء بملعقته على نحو جيد ومتواصل، وذاك الذي يرتدي النظارات بدا صوته منخفض التردد، حيث تناول جرعات مفاجئة كعمق المحيط. كانت المجموعة تنقاد على صوت رجفة مايالينو الطويلة، ثم وعلى نحو مباغت ومن باب التنويع،

أمال ملعقته بيده ومضغ ملء فمه من الخبز، وابتلعها وهو يتمطّق بلسانه. عندما كنا صغاراً اعتدنا أن نسمي ذلك بـ"التصفيق" فكنّت أصرخ بغضب على أختي: "أمي، إنها تصفق!". أما الكلمة الألمانية لذلك فهي شماتزين. وهكذا صفق مايالينو كزوج من الصنجات⁹، بينما الشخص الجهير كالقوق والآخر صاحب الصوت العميق تبعاه باستمرار، ثم انسجموا بصوت رنين ثلاثي سريع وحينها صدح صوت مايالينو الحاد بسرعة وتألّق. على أي حال ووفقاً لهذا المعدل لم يدم الحساء طويلاً، فقد وصل لحم البقر وشرائح لحم الخنزير، وباتت الأصوات التي يصدرها الثلاثي عبارة عن ثلاثي يقرع صنجات نحاسية وخشبية. وحينها نظر مايالينو من حوله منتصراً، فقد فاق الجميع. **122** لم أغفل عن رؤية خبز الريف الخشن الأسمر إلى حد ما بتلك القشرة القاسية للغاية، وكأنه صخرة كبيرة تجثم فوق كل منديل مائدة مُندّى، فمزق مايالينو صخرته أشلاء، ودمدم متحدثاً إلى صاحب القبعة السوداء الذي حظي بثلاث لفائف خبز لها ثلاث زوايا عجيبة مصنوع من الطحين والنشاء الأبيض، فبدى مختلاً بخبزه الأبيض. وفجأة استدار صاحب القبعة السوداء نحوي، وراح يطرح أسئلة بنبرة مقتضبة ساخرة، من أين قدمنا، وإلى أين نعتزم الذهاب، وما غايتنا بذلك؟ فأجابته كيوبي: "أنا أحب سردينيا". فسألها بسخرية: "لماذا؟". فحاولت أن تجد إجابة شافية، وتابعت بدوري: "نعم، أنا أشعر بالسرور مع الساردينين أكثر من الصقليين". فسأل مرة أخرى بذات النبرة الساخرة "لماذا؟". فأجبت: "لأنهم أكثر انفتاحاً وصدقاً". فأطرق رأسه. وهنا شاركنا مايالينو الحديث قائلاً: "أتعلمون أنّ مدير الفندق صقلي؟". وهو يحشو كتلة كبيرة من الخبز في فمه، ومحولاً عينين لا مباليتين مرحتين صوب خنزير صغير أسود ممتلئ الجسم في الخلف، إلا أنّ ذلك لم يغيّر حديثنا كثيراً، فقد قال لي صاحب القبعة السوداء بنبرة مهددة: "هل زرت كالياري يوماً؟". **123** "أجل! أوه إنّ كالياري تشعرني بالغبطة، يا لجمالها!". صاحت كيوبي، التي كانت تهّم بالنهوض وبجعبتها زجاجة من الزبدة السائلة لتتناولها مع الجزر الأبيض: "أجل، كيف أصفها لك! كالياري جميلة للغاية!". أرفف صاحب القبعة السوداء قائلاً: "إنها مدينة محافظة". من الواضح أنه فخور بها. استفسرت كيوبي: "وهل مانداس بتلك الروعة أيضاً؟". فرد بسخرية شديدة: "من أي ناحية تعنين أنها رائعة؟". فقالت: "هل فيها ما يستحق رؤيته؟". تحدث مايالينو بإيجاز: "الدجاج". لقد اتخذوا جميعهم موقفاً عدائياً بمجرد أن سأل شخص إن كانت مانداس جميلة. استفسرت كيوبي: "ما الذي يفعله الناس هنا؟". فتعالت أصواتهم جميعاً في الوقت نفسه: "لا شيء تقريباً، في مانداس لا يوجد ما تفعله، حيث يأوي الناس إلى فراشهم عندما يحل الظلام كالدجاج، ويسير المرء إلى آخر الطريق كخنزير لا ضالة له، في مانداس يفوق فهم الماعز إدراك قاطنيها، في مانداس يحتاج المرء للاشترابية...". لو كانت مانداس من لحم ودم لعجزت عن تحمل دقيقة أخرى من هؤلاء المتأمرين الثلاثة. فقلت حينها: "إذاً لا بد وأنكم تشعرون بالضجر الشديد هنا؟".

"أجل".

كانت تلك الإجابة صريحة أكثر من أي رد أو رأي. فقلتُ: "هل تحبذ أن تكون في كالياري؟". "نعم". خيم صمت شديد مشوب بجو من التهكم، حيث تبادل الثلاثة النظرات بينهم وألقوا نكتة لاذعة عن مانداس، ثم استدار صاحب القبعة السوداء نحوي: "هل تستطيع فهم الساردينية؟". فأجبتُه: "نوعاً ما، أكثر من الصقلية على أي حال". فردَّ: "لكن الساردينية أكثر صعوبة من الصقلية، فهي مليئة بالكلمات الغير معروفة تماماً للإيطاليين". فقلتُ: "بالتأكيد، ولكنها لغة محكية على نحو واسع، وبكلمات واضحة، أما الصقلية فتلفظ وجميع الكلمات محشورة ببعضها، فلن تعثر على كلمة واضحة على الإطلاق"، فشرع بالنظر نحوي وكأنني دجال. لكنني نطقت بالصدق، فلقد وجدت اللغة الساردينية سلسلة سهلة الفهم تماماً. وفي واقع الأمر، فهي مسألة تقارب بشري أكثر من كونها صوتاً، فالسارديني يبدو منفتحاً ورجولياً وصريحاً. **125** أما الصقلي فتقيل الظل ومراوغ، وكأنه لا يرغب بالحديث مباشرة في وجهك. إنه روح قديمة حساسة تغطي عليها الثقافة، ولديه نواح عديدة لفكره، فلا رأي ثابت له على الإطلاق. تشعرُ أنَّ عدة عقول تعشعش في رأسه، وهو بالكاد يعي ذلك، فلكي يُسلم بوجود أي من هذه العقول، عليه ببساطة أن يحتال على نفسه وعلى من يشاركه الحديث. أما السارديني فلا يزال يتمتع بعقلية واحدة صريحة. فأنا على سبيل المثال، لا أنفك اصطدم بذلك الاعتقاد الصريح الصارخ عن الاشتراكية، وعلى النقيض يمتلك الصقلي عقلية عفا عليها الزمن لا تساعد على استيعاب الاشتراكية برمتها، إنه قديم الطراز ومخادع للغاية ومن المحال اعتباره متطوراً ليرقى إلى أي مُعتقد، ودائماً ما يظهر وكأنه سينفجر كمفرقة ألعاب نارية، وسينفث دخانه الكثيف بشكل لاذع ومرتاب ليغطي حتى على نيرانه، ولا يملك المرء إلا التعاطف معه عندما يستذكر الماضي، مع أنه في مجرى الحياة اليومية لا يطاق.

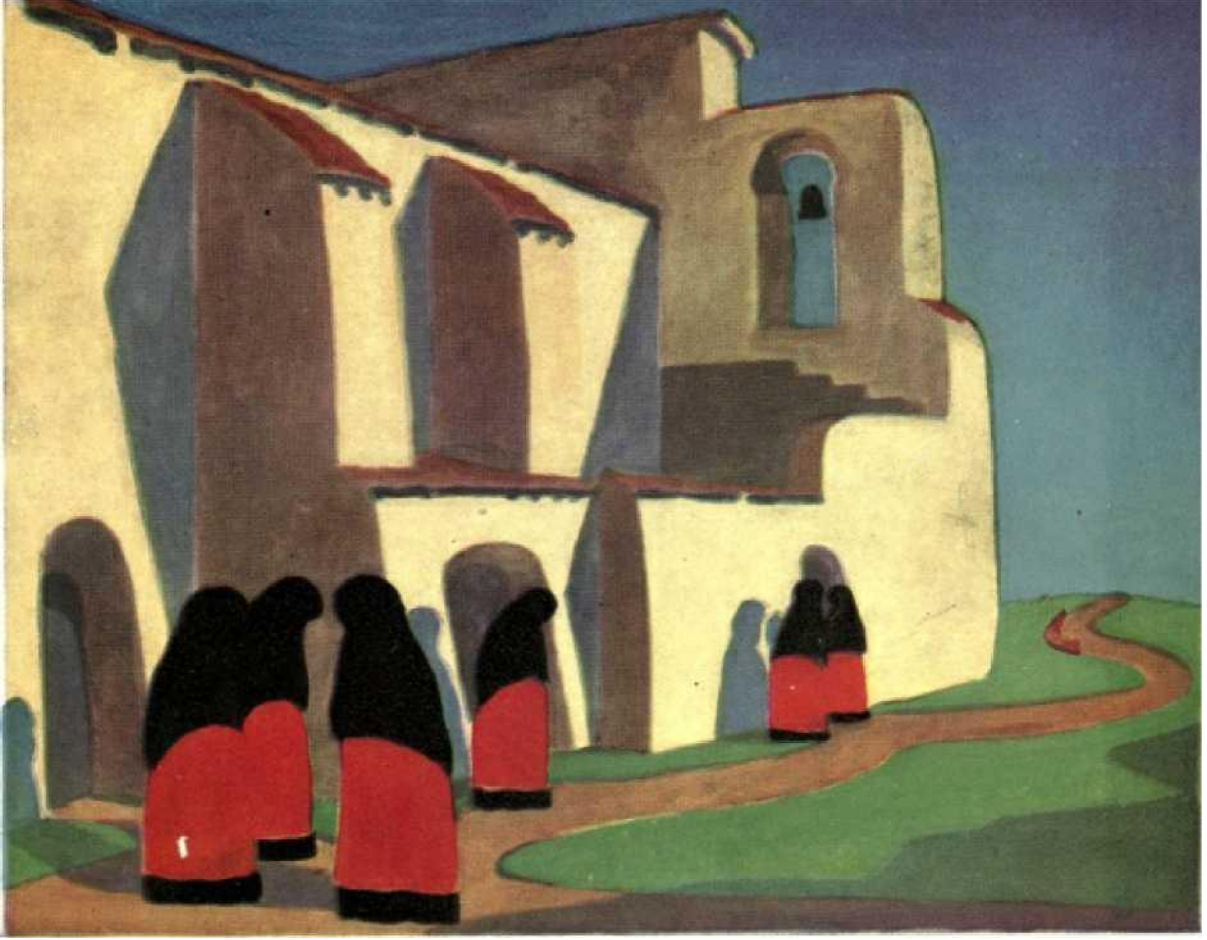
خاطبتُ صاحب القبعة السوداء الذي بدى متعجباً بخبزه: "أين تجد مثل هذا الخبز الأبيض؟". "إنه مُعدُّ في منزلي". وحينها سألت عن الخبز الصقلي إن كان أكثر بياضاً من هذا الخبز الأشبه بالصخر المصنوع في مانداس. "نعم إنه أكثر بياضاً بقليل". وحينها تجهمت وجوههم تارة أخرى، حين سمعوا هذه اللفتة الموجهة لهذا الخبز؛ فالخبز قيمة كبيرة لدى الإيطالي فهو بلا شك مهم لحياته، إذ أنه عملياً يعيش على الخبز، وبدلاً من التركيز على مذاقه، أصبح الآن وكحال كل العالم يعتني بمظهره، لقد تمسك بفكرة أنَّ الخبز ينبغي أن يكون أبيض اللون، وهكذا ففي كل مرة يتخيل له وجود ظل داكن على الرغيف، تسقط روحه في ظلمة حالكة، رغم أنه ليس مخطئاً كلياً، لكنني شخصياً لم أعد أفضل الخبز الأبيض بعد الآن، **126** وأحب أن يتم إعداد خبزي

الأسمر من دقيق نقي غير مخلوط، أما فلاحو صقلية فإنهم يحتفظون بقمحهم الخاص ليصنعوا منه خبزهم الأسمر الطبيعي؛ ولكم يدهشك كيف يبدو منظر رغيهم جذابًا ونظيفًا وطازجًا، تعبق رائحته العطرة في الجو فيذكرك بذلك الخبز المنزلي الذي اعتاد الناس عليه أيام الحرب، بينما تجد أرغفة الأنظمة الاجتماعية الثورية ذات الإمدادات الغذائية التنظيمية قاسية وخشنة إلى حد ما وعسيرة البلع أو المضغ على الحنك، فيشعر المرء بالتعب جراء تناولها. أشك في قرارة نفسي من خلطها بطحين الذرة، لكنني لست واثقًا. وأخيرًا لن يخفى على أحد هذا الاختلاف الهائل في نوعية الخبز من مدينة لثانية، ومن منظومة اجتماعية إلى أخرى، فما يسمى بالتوزيع العادل المتساوي هو مجرد كلام فارغ؛ إذ تجد في أحد الأمكنة وفرة من الخبز الجيد اللذيذ، وبمكان آخر بالكاد تحصل عليه ووجوده شحيح دائمًا وهو ذو نوعية رديئة بعد أن أضيفت له تلك الأشياء القاسية عسيرة البلع، فبات الفقراء يعانون بمرارة شديدة من قلة الخبز، فهم يعتمدون بمعيشتهم على هذا الغذاء، وقد أشيع بينهم أن عدم المساواة والظلم بالتوزيع سببه المافيا الكبرى (الكامورا)، والتي ليست في أيامنا هذه سوى تضافر بين القوى المتربحة التي يبغضها المعوزون، أما بالنسبة لي فلا علم لي بذلك الصدد، فكل ما أعرفه أن مدينة واحدة على سبيل المثال كالبندقية لديها إمداد لانهاية له من الخبز الناصع والسكر والتبغ والملح، بينما تقبع فلورنسا بحالة هيجان مستمر من السخط لشح هذه الموارد التي تحتكرها الحكومة جميعها وفقًا لذلك التوزيع.

تمنينا لأصدقائنا الثلاثة من السكة الحديدية ليلة هائلة، ومضينا إلى سريرنا. ولم يمر على وجودنا في الغرفة سوى دقيقة أو اثنتين حتى قرعت امرأة سمراء الباب قائلة: "مساء الخير، هذا رغيف من الخبز الأبيض لأجلكم، أرسله معي صاحب القبة السوداء". تأثرنا بذلك حقًا، فمثل هذا الكرم البسيط الراقى اختفى من العالم تقريبًا، **127** لقد كان خبرًا صغيرًا غريبًا بثلاث زوايا، وقاسٍ تقريبًا كبسكويت السفن، مصنوع من دقيق النشاء، لم يكن خبرًا بمعنى الكلمة على الإطلاق.

يا للهول! إنها ليلة باردة، والبطانيات ثقيلة ومسطحة، ولكن بوسع المرء أن يحظى بنوم هائل حتى الفجر. وعند الساعة صباحًا كان النهار باردًا صافيًا، إلا أن الشمس لم تُلْقِ أشعتها بعد. اتجهت إلى نافذة الغرفة ووقفت أمامها محدقًا إلى الخارج، وبالكاد استطعت تصديق ما رأيته عياني، حين شاهدت مناظرَ عديدة شبيهة بانكلترا أو مناطق كثيفة في مقاطعة كورنوال الانكليزية، أو مرتفعات ديربيشاير، حيث وقع بصري على مرعى صغير خلف المحطة نما فيه العشب بدا كخرابة تقريبًا، فيه خروfan يرعيان العشب، وكذلك تناثرت فيه العديد من الأكواخ بشكل بانس، ما أشبهها بكورنوال! وبعد ذلك ظهر طريق البلدة الخارجي العريض ممتدًا بعيدًا بين تخوم العشب والجدران الواطئة المرصوفة بالحجارة، ليصل إلى مزرعة مبنية من الحجارة الرمادية توزعت بينها أجمات صغيرة من الأشجار، وقرية صخرية جرداء تلوح في الأفق البعيد. وأخيرًا بزغت الشمس بقرصها المستدير الأصفر، مداعبة بأشعتها الريف الكئيب فرد

عليها بوميض أزرق خجول، وهنا بدت منحدرات الهضبة الخضراء المتدنية مقسمة إلى حقول، بتلك الجدران الحجرية الخفيضة والأقنية. وهناك حظيرة حجرية وقفت لوحدها وسط هذا السكون، أو لربما التصقت بها بعض الأشجار العارية التي راحت الريح تصفر بين أغصانها. وحصانان غطاها شعر كثيف ليقيهما قسوة الشتاء يرعيان عشب الأرض الوعرة، وصبي قادم على طول الطريق السريع العريض الذي يحفه العشب، يحمل بيده زوجًا من علب الحليب، تسوقه الريح للداخل وكأنه قادم من العدم. يال شبه كل هذا بمقاطعة كورنول! أو جزء من إيرلندا، حتى إنَّ ذاك الحنين القديم للأراضي السلتيّة¹⁰ بدأ يزهر داخلي. آه من الجدران الحجرية القديمة التي تفصل الحقول، بلونها الشاحب البازلتي الذي تغير لونه! آه من ذاك العشب الداكن الكئيب، وهذه السماء الصافية! ومن تلك الخيول البائسة في صباح شتوي! غريب هو المنظر السلتي، **128** إنه يحرك المشاعر لأبعد الحدود ويموج بالأحاسيس أكثر من ذلك الألق الإيطالي واليوناني الجميل. يخالج المرء إحساس بأنَّ العالم كان على هذا النحو قبل أن ترفع ستائر التاريخ. يال هذا الجو السلتي العاري الكئيب، ولكن لعله ليس سلتيًّا أبدًا بل إيبريًّا. ليس هناك ما يبعث فينا المزيد من عدم الرضا أكثر من فكرة ما هو سلتي وما هو ليس سلتيًّا. رغم أنني لا أعتقد بوجود السلتيين كعرق، وكذلك الأمر بالنسبة للإيبريين!.



تونارا

ما أجمل أن يخرج المرء إلى طريق متجمد ويرى العشب مزرقاً تحت الظلال يطوقه صقيع أشيب، وأعشاب أخرى ترنو حانية لأشعة الشمس الصفراء فتحتضنها وتذيب ما عليها بطريقة عين فترتعش من البرد. كم هو فائن هذا الهواء البارد المزرق، حيث الأشياء تقف منتصبة في البعيد الذي لفته البرد. وفي وسط هذا الجو القارس رحت أتأمل وروداً أدهشتني، فلقد ظلت متفتحة زاهية المنظر رغم مرور فصلين من الشتاء الجنوبي دون أن تذبل أو يخبو جمالها وقد لفتها كآبة مع لمسة من الصقيع في هذا الصباح الرنان، ففاضت روعي بنشوة من الحب والأمل. تعتريني الآن سعادة غامرة، وأنا أسير وحيداً على هذا الطريق الذي خلا من أي شيء، حيث تتقاذفني المشاعر والأحاسيس. أحث الخطى في هذه القنوات العشبية الضحلة، تحت الجدران الحجرية السائبة، لتسوقني قدماي إلى رابية عشبية صغيرة، نحو ذاك الحد الصغير الذي بني عليه الجدار، فأقطع الدرب ماراً فوق فضلات الأبقار المتجمدة. وكأن كل شيء مألوف لقدمي، وباتتا تحسان بما حولهما، لأغدو جامحاً وكأنني حللت معضلة، وحينها أدركت أنني أمقت تلك

الحجارة الجيرية والعيش فيها أو حتى أن تطأ قدمي الرخام الفاخر أو أي شيء من تلك الحجارة الكلسية. إنها صخور جامدة لا حياة فيها وقد ألهبت قدمي، حتى الحجارة الرملية أفضل بكثير منها، أما حجارة الغرانيت! فهي المفضلة لدي. أشعر أنها تنبض بالحياة تحتي، وكأن بها بريفاً عميقاً ينتمي لها وحدها. أحب استدارتها، ولكني لا أحب الجفاف الخشن للحجارة الجيرية، الذي يغدو حارقاً وذائباً تحت الشمس. 129 بعد أن وصلت إلى بئر عميق في بقعة عشبية تخللت المساحة الواسعة للطريق، عدت أدراجي، عبر الريف المرتفع الأجرد المشمس، متجهاً صوب المحطة الوردية وأبنيتها الخارجية الملحقة بها، فمررت بقاطرة تنفث سحبها البيضاء في ضوء النهار الوليد. وبعيداً إلى اليسار اصطفت منازل صغيرة بجانب بعضها، وكأنها صف من مساكن عمال السكة الحديدية، كم هو منظر غريب لكنه مألوف لدي. أما تخوم المحطة فقد عمت فيها الفوضى وبدأت كخرابة قديمة إلى حد ما، فتبادر إلى ذهني في تلك اللحظة طيف مضيفنا الصقلي.

قدمت لنا المرأة السمراء القهوة، وحليب ماعز مركزاً غنياً، وخبزاً. وبعد ذلك انطلقت وكيوبي مرة أخرى على طول الطريق إلى القرية، ملأت الغبطة كيوبي أيضاً، وراحت تعب الهواء النقي داخل صدرها، وكأنها تتحسس الفضاء الرحب من حولها، تاركة لأطرافها حرية الحركة. هذا المكان يأخذك بعيداً عن إيطاليا وصقلية، حيث يبدو كل ما فيه كلاسيكياً وراسخاً. القرية بحد ذاتها مجرد درب طويل معتم متعرج، تحيطه ظلال المنازل والمتاجر ومحلات الحدادة. أكاد أجزم أنها كورنوال، ولكنها ليست هي تماماً. هناك شيء ما، لا أدري ما هو، يُذكرني بالوهج المحترق الصارخ للصيف، وبذلك الحميمية التي تتسلل متسلقة الورود وأشجار الليلك والمتاجر الريفية وأكوام القش؛ وهي لا توحى لك بأنه منظر إنكليزي، فهذا أصعب وأكثر عزلة ووحدة وكآبة. ها هو رجل عجوز يرتدي زياً أبيض وأسود يخرج من حظيرة متهالكة لكوخ ريفي، وجزار يحمل ردفاً كبيراً من اللحم، بينما راحت النساء يحملن بنا بنظرات عابرة متحفظة أكثر من كونها نظرات إيطالية متمحصة 130 وهكذا واصلنا مسيرنا، إلى أسفل الشارع المرصوف بالحصى والممتد على طول القرية بأكملها، لنغادر القرية من الجانب الآخر لها بعد وصولنا إلى الكوخ الأخير، لنجد أنفسنا مرة أخرى بمواجهة الريف المفتوح، تحملنا أقدامنا فوق منحدر لطيف لرابية تعانق حدودها الأفق البعيد. استمر المشهد على حاله، تلال متماوجة وطيبة، أبت أن تزدان بأشعة شمس كانون الثاني الذهبية فبدأ لونها قاتماً. تلمح عيناك تلك الأسوار الحجرية، الحقول، والأراضي الزراعية الرمادية، ورجلاً يحرق أرضه بأناء يساعده بذلك مهر وبقرة بلون أحمر داكن، بينما يواصل الطريق مسيره خاوياً عبر البعيد. وحينها فقط، يقفز إلى مقلتيك بعنف مشهد غير مألوف، مقبرة مطوقة تمتد في العراء على سفح الرابية الوديعة، مغلقة من كل النواحي، متراسة للغاية، بأسوار عالية. وقد رُصف الوجه الداخلي لجدار السياج بألواح الرخام، وكأنها أدراج لُحود مغلقة تشع بياضاً، فيبدو الجدار كخزانة الأدراج أو كوى لطيور الحمام ولكن لإيواء

الموتى. تناثرت أجمات صغيرة من أشجار السرو القاتمة الريشية بين القبور المسطحة للسياح. المقابر في الجنوب مسورة ومعزولة بإحكام شديد. فالموتى كما هو الحال توارى أجسادهم بهذه المرابض سريعاً، فلا ترى القبور منتشرة على وجه الثرى في الريف، فهم مكبوتون في ثنايا ضيقة، محاطة بأشجار السرو التي تجد الخصب في العظام. كانت هذه إحدى الملاحظات الغربية للغاية بذاك المشهد، بيد أن الغرابة تعم كل شيء هناك، لينتابك ذلك الشعور الذي لم تألفه قبلاً، وكأن الأعماق قد أمست قاحلة جرداء، تأتيك من الشرق والجنوب، تلفحها أشعة الشمس فيتآكل القلب من الجفاف.

صرخت كيوبي: "لقد أحببت هذا الريف!". فسألتها: "هل بوسعك العيش هنا؟" أرادت أن تجيب بنعم لكنها لم تجرؤ. **131** عدنا أدراجنا على غير هدى، فقد أرادت كيوبي شراء إحدى حقائب السرج. وحين استفسرت منها عن سبب ذلك قالت لتحتفظ بالأشياء بداخلها. أوه! لكن أثناء مرورنا بالمحلات التجارية أعجبتنا إحداها فدخلنا وعايناها. إنها تبدو الأفضل، ومصنوعة على أتم وجه، غير أنها بسيطة للغاية، فعلى شرائطها البيضاء المتصالبة، لا وجود لتلك الأزهار الجميلة الملونة، الوردية منها والخضراء والأرجوانية، بألوان سردينيا الثلاثة المفضلة، ولا تلمح تلك الوحوش الرائعة الشبيهة بالغريفيين، وعلى ذلك فلن تفي بالغرض، وكان ثمنها خمسة وأربعين فرنكاً. لم يتبق شيء نفعله في مانداس، لذلك سنستقل قطار الصباح ونمضي إلى المحطة النهائية، إلى سورغونو. وهكذا سنعبّر المنحدرات المنخفضة لعقدة سردينيا المركزية العظمى، حيث تلتقي الجبال التي تدعى جينارجينتو. حينها انتابنا إحساس بأن سورغونو ستكون جميلة. وعندما عدنا إلى المحطة قمنا بإعداد الشاي على موقد كحولي، وملأنا الحافظة الحرارية وحزمنا حقيبة الظهر وحقيبة الأغراض اليدوية. ثم خرجنا لنستجم بالشمس على رصيف المحطة. ذهبت كيوبي لتشكر صاحب القبة السوداء على الخبز الأبيض، بينما مضيتُ لأسدد الفاتورة وأطلب طعاماً لرحلتنا. التقطت المرأة السمراء من قدر أسود ضخم موضوع في الفناء قطعاً كبيرة متنوعة من لحم الخنزير الرديء المسلوق، وأعطتني قطعتين منها، ساخنة مع الخبز والملح. كان ذلك هو وجبة غدائنا. دفعت الفاتورة التي بلغت أربعة وعشرين فرنكاً متضمنة كل شيء (يقول المرء فرنكاً أو ليرة بصرف النظر عن ذلك في إيطاليا). وفي تلك اللحظة وصل القطار من كالياري، واندفع الرجال من على متنه إلى داخل المطعم، مطالبين بالحساء بصخب عارم، فصرخت المرأة السمراء قائلة: "جاهز! جاهز!". ومضت للقدر الأسود. **132**

- 1 - حقيبة السرج: زوج من الحقائق يرتديها المسافرين على الكتف لتتدلى من الأمام والخلف أي على الصدر والظهر.
- 2- المزلقان: أو التقاطع بين خط سكة حديد وطريق هو معبر لعبور المشاة أو السيارات وهو ما يكون سطحًا في المستوى نفسه.
- 3- القُطْلَب أو قاتل أبيه هو جنس شجيري صغير دائم الخضرة ينتمي إلى الفصيلة الخنجية. موطن بعض أنواعه الأصلي حوض البحر الأبيض المتوسط وجنوب غرب آسيا وبعضها الآخر أمريكا الشمالية. ثماره مأكولة ولكن الكميات الكبيرة منها تسبب إزعاجات معوية.
- 4- الأس جنس نباتي من الفصيلة الآسية يضم عدة أنواع أهمها الأس الشائع الذي يؤخذ منه حب الأس.
- 5- كورنوال: مقاطعة إنكليزية ساحلية جنوب غرب إنكلترا. تقع إلى الغرب من نهر تامار وديفون. المركز الإداري والمدينة الوحيدة في المقاطعة هي مدينة ترورو. يوجد فيها طريقان رئيسيان يصلانها إلى بقية بريطانيا العظمى: A38 الذي يعبر نهر تامار نحو بليموث على جسر تامار، وA30 نحو لوندستون في الجنوب.
- 6- الخاكي: أو الكاكي هو درجة من اللون البني الفاتح مع مسحة صفراء. تستخدم العديد من الجيوش في جميع أنحاء العالم الكاكي كلون للأزياء العسكرية، بما في ذلك المموهة.
- 7- القُطْلُ: هم مجموعة من الشعوب الهندية الأوربية عاشت في مناطق واسعة من أوروبا والأناضول، وتمتاز باستعمالها للغات القلطية وبعناصر ثقافية أخرى متشابهة. من بين الشعوب القلطية القديمة: الغاليون، والغيلون، والغلاطيون، والجليقيون.
- 8- شمع البارافين: مادة صلبة ناعمة عديمة اللون، مشتقة من النفط أو الفحم أو الصخر الزيتي، تتكون من مزيج من جزيئات الهيدروكربون التي تحتوي على ما بين عشرين وأربعين ذرة كربون. شمع البارافين هو مادة صلبة في درجة حرارة الغرفة ويبدأ في الذوبان عندما تصل درجة الحرارة أعلى من 37 درجة مئوية، وله نقطة غليان أعلى من 370 درجة مئوية.
- 9- الصنُّج: آلة موسيقية إيقاعية، معدنية مستديرة مسطحة ومنها عدة أنواع: صنج صيني صنج اصطدام صنج مزدوج الصنج اليدوي.
- 10- السلت: أو القُطْلُ هم مجموعة من الشعوب الهندية الأوربية عاشت في مناطق واسعة من أوروبا والأناضول، وتمتاز باستعمالها للغات القلطية وبعناصر ثقافية أخرى متشابهة. من بين الشعوب القلطية القديمة: الغاليون، والغيلون، والغلاطيون، والجليقيون.

الفصل الخامس

إلى سورغونو

كانت القطارات المتنوعة مأكثة عند شبكة الطرق جنباً إلى جنب تتبادل أحاديث طويلة قبل أن يتحرك قطارنا أخيراً خارجاً من المحطة. إنَّ الانطلاق في الصباح المشرق صوب قلب ساردينيا رائع حقاً، جالسَيْن في أحضان قطارنا الصغير الذي بدا مألوفاً للغاية، وقد فضلنا البقاء في الدرجة الثالثة لتجنب التعرض للمعاملة السيئة من موظفي السكة الحديدية في مانداس. كان الريف مفتوحاً رحباً بادئ الأمر، وكل ما أتيح للبصر رؤيته هو امتداد مستمر من نتوءات صخرية طويلة لتلال ذات جوانب شديدة الانحدار، إلا أنها غير مرتفعة. وهكذا رحنا نتأمل الريف عبر نافذة قطارنا الصغير أثناء مروره في الطريق الذي يتوسد التلة والوادي الصغير، وفي تلك الأثناء لاحظنا وجود بلدة صغيرة في البعيد منا تقع فوق منحدر منخفض، ولكن نظراً لمظهرها المحصن والمتراص بدت كأنها بلدة تجثم فوق هضاب إنكليزية يكسوها العشب الأخضر، وفجأة انحنى رجل مخرجاً نفسه من النافذة وممسكاً بقطعة قماش بيضاء كإشارة إلى شخص ما في البلدة النائية التي كان على وشك الوصول إليها، فأخذت الرياح تحركها بقوة، وقد بدت البلدة من تلك المسافة البعيدة صغير الحجم وتقع وحيدة في غور عميق وبالكاد يمكن رؤيتها بوضوح أثناء استمرار القطار بالتقدم منطلقاً نحو الأمام. ومع ذلك فمناظرها ظريفٌ إلى حد ما. ما زلنا نتقدم بمسار متصاعد ويدور بشكل حلقات كبيرة بذات الوقت، ولهذا فمتى ما نظر المرء خارج النافذة من حينٍ لآخر يشاهد قطاراً صغيراً يعدو أمامه في مسار منحرف، مصدراً نفثاً كبيراً من البخار، لكن ما أثار انتباهنا هو أننا نشاهد مقصورتنا الصغيرة مندفعة بالتفاف لولبي بعيداً أمامنا، فقطارنا طويل للغاية **133** وجميع عربات الشحن في المقدمة باستثناء مقصورتَي المسافرين هاتين اللتين تم ربطهما مع القطار من الخلف، وهذا ما جعل مقصورتنا تجري بصخب نحو الأفق، لتبدو مثل كلب يهرول أمامنا ثم ينحرف مبتعداً عنا، بينما نحن بدورنا نتبع الطرف الخلفي لهذه السلسلة الرفيعة من المقطورات، لقد فوجئت من قدرة هذه المقصورة الصغيرة على اجتياز مثل هذ المنحدرات الحادة المتعاقبة، حيث أظهرت بالفعل شجاعة فائقة بصعودها تلك الأفاق، يا لها من سكة حديدية غريبة حقاً! وكم أود معرفة صانعها! فهي تصعد التلال مندفعة وتنحدر إلى أسفل الوديان وتلتف حول المنحنيات دون أدنى اكتراث، إنها تُناقض ما تفعله السكك الحديدية الكبيرة الحقيقية، والتي تشخر داخل شقوق المسارات الجبلية العميقة مطلقة ضوضاء صاخبة خلال مرورها داخل الأنفاق؛ فهي تصعد التلة مثل كلب صغير لاهث يتلفت حوله لينطلق باتجاه آخر ويجرنا وراءه دون اكتراث، وهذا أكثر متعة من السكك الخاضعة لنظام الأنفاق

وشقوق المسارات الجبلية، أخبرني بعض الناس أنَّ سردينيا تستخرج الفحم الحجري من أرضها، وهو كافٍ تمامًا لسد احتياجاتها، إلا أنه لئِن جَدًّا ولا يصلح استعماله لأجل الآلات البخارية. لقد رأيت أكوامًا منه، وهو عبارة عن مادة خام باهتة اللون ضئيلة الحجم متسخة المظهر، وهناك شاحنة محملة منه وأخرى بالحبوب.

لقد كنا نُترك كالغِراس عند كل محطة بشكل مُخزٍ، أما القاطرات فقد طُبعت على جدرانها الخارجية أسماء ذهبية، وتظل متجولة بتثاقل على طول السكك الجانبية لتنفث بخارها بجانب مختلف القاطرات الأخرى. أما بالنسبة لنا فكنا نجلس في كل محطة لننشغل بمراقبة كيفية التخلص من بعض القاطرات وربط أخرى وكأنها أغنام موسومة بختم تجاري، حيث يتم جرّها من أطرافها ثم وصِلت بقطارنا وانجاز جميع تلك الخطوات يستغرق وقتًا طويلًا بالفعل. **134**

إنَّ جميع المحطات التي مررنا بها حتى الآن قد غطيت نوافذها بشباك معدنية، مما يعني انتشار بعوض الملاريا في هذه المناطق، يرتفع معدل الإصابات من هذه الحشرة إلى مستويات عالية في سردينيا، فما يُؤلِّد تلك الآفة ويساهم في تكاثرها دون شك، الوديان المرتفعة الضحلة التي ترخر بالمستنقعات ذات المياه الراكدة مع شمسها الصيفية الشديدة، لكن الأمر ليس بالمستفحل إلى هذا الحد كما استطعتُ تبينه، فالمرحلة الخطرة تكمن في شهري أغسطس وسبتمبر فقط، أما السكان المحليون فيرفضون الاعتراف بانتشار بعوض الملاريا في منطقتهم متعذرين بوجود القليل فقط، وبأنك حالما تدنو من الأشجار فسيختفي تمامًا، غير أنَّ الأراضي الزاخرة بالمستنقعات تمتد لعدة أميال ولا وجود للأشجار فيها مطلقًا. ولكن بلى! هناك غابات بالفعل، إنها غابات جينارجينتو¹ وهي قائمة على أرض مرتفعة مما يجعلها خالية من بعوض الملاريا!. واصلت المقصورة الصغيرة التحرك بسرعة وخفة نحو الأعلى في مسار على شكل منعطفات حلقيّة وكأنها تكاد تقضم ذيلها، لتغوص بعد ذلك فجأة في الأفق البعيد وتتوارى عن الأنظار، وحينها تبدل المنظر تمامًا، حيث بدأت الغابة الشهيرة تظهر شيئًا فشيئًا، في البداية لم نشاهد سوى امتداد كثيف لأشجار البندق، لتتلوها أرض فيها بعض الماشية السوداء التي تحاول اختلاس النظر إلينا من بين شجيرات الأس الخضراء وشجيرات القُلب المنخفضة الصغيرة التي تجمعت مع بعضها وتعانقت مشكلة أجما، فضلًا عن وجود قرويين غليظي البنية راحا يحدقان بالقطار، وكانا يرتديان غلالة سوداء مصنوعة من جلد الغنم ومغطاة بالصوف من الخارج، ويعتمران قبعتين جوربتي الشكل. وقد أخذنا يسترقان النظر إلينا من بين الشجيرات مثلما تفعل تلك الماشية تمامًا. إنَّ ارتفاع شجيرات الأس هنا يكافئ طول الإنسان، لدرجة أنَّ البشر والماشية يختفون تمامًا داخلها، أما أشجار البندق فهي أعلى بقليل ويصعب التوغل بينها. **135** وفي بعض

الأحيان، يلمح المرء من مسافة فلاحًا على شكل طيف أبيض وأسود، يركب دابته وحيدًا في مكان أكثر اتساعًا. أه كم أحب غريزة الإنسان المتغطرة التي تجعل الكائن الحي مميزًا عن المشهد وراءه، وأمقت في الوقت ذاته القماش الكاكي مموه اللون الذي يجعل الشخص يبدو كالأرنب، فمُنظر فلاح يرتدي ثوبًا ذا لون متموج ما بين الأبيض والأسود ويمتطي صهوة حصان صغير الحجم يظهر من مسافة بين أوراق الأشجار هو من يطلق وميض الهيمنة على هذه المناظر الطبيعية. هذا الفخر الذي تزهو به البشرية مثير للضحك حقًا! لأنَّ معظم الرجال وبكل أسف ما زالوا مكبلين بهذا الرداء ذي اللون الكاكي، ومن الصعب تمييزهم عن الأرانب، يا له من أمر مخزٍ! حيث يبدو الإيطاليون كالأرانب وبشكل غريب حين يرتدون هذا الزي الأخضر الرمادي، تمامًا كما يبدو الرجال في بلادي أشبه بالكلاب الصغيرة عندما يلبسون أزياء مصنوعة من قماش الكاكي بلون الرمال، وحين يسيرون على الأرض فإنهم يجرون أقدامهم بطريقة دنيئة ومخزية إلى حد ما، بالله عليكم أعيّدوا لنا الألوان الذهبية والقرمزية واتركوا كل شخص يفعل ما يناسبه.

أثناء مواصلتنا التقدم بدأ المشهد يتغير حقًا، فقد أخذت سفوح التلال تميل بشكل أكثر حدة ووضوحًا. وبعد حين برز أمامنا رجل يحرق الأرض مع بقرتين صغيرتين حمراوين على منحدر صخري حاد كالسقف المائل تتدلى منه الأشجار، وقد انحنى الفلاح على محراث خشبي صغير وشرع بهز خطوط الحراثة. أما الثيران فرفعت رؤوسها نحو السماء بحركة تشبه الثعبان وممزوجة بالغرابة والتضرع، وتخطو خطوات صغيرة بأقدامها الضعيفة، متحركة بشكل مائل عبر سفح المنحدر، بين الصخور وجذور الأشجار، لتتقدم بخطوات صغيرة واهية ومتشنجة، وترجع قرونها للخلف، ثم ترفع خطومهما تارة أخرى بشكل أفعواني نحو السماء، وحينها يقوم الفلاح بتدوير وزلق محراثه الخشبي صوب خط حراثة آخر من الأرض، إنَّ تعلقها وتدليها من هذا المنحدر الوعر الشديد مثير للعجب! **136** لو شاهد كادح إنكليزي هذا المنظر فستندفع عيناه خارج رأسه. يوجد جدول صغير، وهو في الحقيقة خصلة من شلال تنساب نحو ممر ضيق، وبدا مجراه متسعًا قليلًا، يسوق الناظر نحو تجمع عجيب لأشجار حور جرداء تنتصب بعيدًا في أدناه، حين يحدق المرء بها يتخيل له أنها أشباح، بسبب الوميض الطيفي الفسفوري الذي يشع منها ليتسلل إلى داخل ظلمة الوادي قرب جدول المياه، وفي بعض الأحيان لا يظهر وميض تلك الأشجار بلون فسفوري بل يبدو كوهج رمادي شاحب مطعم باللون الذهبي يغطي فروعها العارية وأغصانها المتوردة من البرد والتي لا حصر لها، وهي تتألق بغرابة، ولو كنت رسامًا لأبدعت يداي لوحة رائعة لهذا الجمال الفتان، فهي تبدو ككائنات لها أجساد ووعي وروح، وقد جعلت من الظلمة رداءً توارى به سوءاتها. يا إلهي ها هي شجرة جرداء أخرى في غاية الروعة تمنيت

رسمها أيضًا، إنها شجرة تين فضية مشعة مشوبة بلون بنفسجي، وقد توهج ضياؤها البارد المتشابك، ليغدو شبيهًا ببعض تلك المخلوقات الحساسة المعقدة التي خرجت من الصخور، إنّ منظر شجرة تين عارية تتلألأ على أرض الشتاء القاتمة لهو مشهد يستحق التأمل، وكأنها ورود شقائق النعمان البحرية متشابكة مع بعضها، آه لو كان بمقدور هذه الشجرة أن تتكلم! وتجيب عن تساؤلاتي الكثيرة لتبوح لي بخفايا أسرارها!

أصبحت جوانب الوادي شديدة الانحدار، لتتحول تقريبًا إلى ممرات ضيقة مكسوة بالأشجار، ليست بالغابات كما تخيلتها، بل مجرد أشجار بلوط صغيرة إلى حد ما ذات أغصان قصيرة وثخينة قد تبعثرت هنا وهناك، بالإضافة إلى بعض أشجار الكستناء رشيقة القوام بفروعها الطويلة التي تشبه السياط، تناثرت جميعها على سفوح تلال شديدة الانحدار تبرز صخورها من أعماق الأرض. أخذ القطار يلتف على نحو خطير في منتصف الطريق أثناء صعوده، **137** لينطلق فجأة فوق جسر ويصل إلى محطة جديدة بشكل مباغت تمامًا وغير متوقع أبدًا، وما زاد على ذلك هو تدافع الرجال لدخول القطار حيث كانت المحطة متصلة بالسكة الحديدية الرئيسية عبر مركز لحافلات النقل.

ربما يكون هؤلاء الرجال عمال مناجم أو بحارة أو مزارعين، فجميعهم يمتلكون أكياسًا كبيرة وبعضهم يحمل حقائب سرج جميلة مزينة بأزهار وردية يسировون بها عبر الظلام، ولفت انتباهي بينهم رجل مسن يرتدي الزي الأبيض والأسود الكامل لكنه متسخ جدًا ومحاك من عدة قطع، أما الآخرون فيلبسون بناطيل بنية اللون ذات مؤخرات ضيقة وصدریات لها أكمام، وبعضهم يرتدي سترة من جلد الغنم غير أنّ جميعهم يعتصرون قبعات جوربية طويلة، كيف سيتمكن المسافرون من تنفس الهواء وسط رائحة الصوف والماعز وهؤلاء الرجال! فهذه الرائحة الكريهة تملأ المكان.

راح هؤلاء الرجال يتبادلون الأحاديث بحيوية بالغة تفيض بها وجوههم القادمة من العصور الوسطى، إنها وجوه مأكرة لا تتخلّى أبدًا عن دفاعاتها ولو للحظة مثل حيوان الغرير أو ابن عرس، ولا توجد أي روابط أخوة أو بساطة حضارية بينهم، كل رجل فيهم يحرص على حماية نفسه، لأنه على يقين بأنّ الشيطان يكمن قريبه، فلم يسبق لهم أن عرفوا أبدًا يسوع ما بعد عصر النهضة، وهو أمر مفاجئ إلى حد ما، إنهم ليسوا بالشكاكين أو المضطربين، بل على نقیض ذلك تمامًا، حيث يمتلكون حضورًا صاخبًا قويًا وحازمًا، ومجردون من ذلك الاعتقاد الذي يناشد أعماق المرء بأن يتحلّى بالخصال الصالحة، وهذه هي سمة عصرنا، فهم لا يتوقعون الطيبة من الناس بل حتى لا يرغبون بها، إنهم يذكرونني بالكلاب نصف البرية التي يمكن ترويضها لتحب

وتطيع ولكنها رغم ذلك لا ترغب أن يتم التعامل معها أو أن تلمس رؤوسها **138** أو تلتف أيادي العناق حولها، وحين يتبادلون الأحاديث يمكن للمرء أن يسمع تقريباً هديرًا نصف متوحش.

لقد اعتلت رؤوسهم قبعات جوربية طويلة بدت عليهم كعُزْفٍ سحلية مرفوع، وهي ترفعه عادة خلال فترة التزاوج، ويحرصون على تحريكها فوق رؤوسهم لتستقر في النهاية بين أيديهم. وفي هذه الأثناء برز بينهم رفيق بدين، إنه شاب ذو عينان بنيتان مكرتان، وله لحية حديثة النشأة، وقد قام بثني قبعته الجوربية ثلاث طيات لتتكشف عن جبين وسيم شجاع، ثم قام صديقنا بجر قبعته فوق أذنه اليسرى. وهناك أيضًا رفيق آخر جميل الطلعة له حنك ذو أسنان كبيرة، وقد رفع قبعته للخلف وتركها تتدلى لمسافة طويلة أسفل ظهره، ثم حركها إلى الأمام فوق أنفه، وجعلها ككتوتين بارزين مثل أدني الثعلب فوق صدغيه. إن مدى التعبير الذي يمكن لهذه القبعات أن تتخذه رائع للغاية. يقول هؤلاء الرجال أن لا أحد يستطيع ارتداء هذه القبعات إلا من ولد ووجدها تغطي رأسه. يبدو أنها مجرد أكياس طويلة يبلغ طولها ما يقارب الياردة الواحدة، مصنوعة من نسيج صوفي مرن.

في تلك الأثناء اقترب قاطع التذاكر منهم ليصدر لهم تذاكرهم، فأخرج كل واحد منهم لفافة أوراق نقدية. عجيب أمرهم! فحتى ذلك الرجل القميء المليء بالعث الذي يجلس قبالي أخرج رزمة من الأوراق النقدية من فئة العشر فرنكات، لا أحد يبدو أن لديه أقل من مائة فرنك في الوقت الحاضر. راحوا يصرخون ويتجادلون مع قاطع التذاكر. حياتهم قاسية حقًا، بل هي شديدة القسوة! يرتدي الرجل الوسيم صدرية مفتوحة ذات أكمام، وقد أرخى أزرار قميصه، لتدرك فجأة أنك تنظر إلى شعر صدره، هذا الرجل يشبه الماعز الأسود دون شك. **139** بمقدور المرء أن يشعر بوجود فجوة كبيرة بيننا وبين هؤلاء القوم، فهم لا يملكون أدنى فكرة عن النبي عيسى أو عن وعينا بوجود خالق لهذا الكون، فكل شخص منهم متفوق حول نفسه وجل ما يتمحور عليه فكره هو تأمين متطلباته الشخصية كحيوانات البرية تمامًا، وإذا جُذِبوا لأشياء تنتمي لخارج نطاق محيطهم فإنهم يحدقون بها بنظرات الشك والسخرية أو يعمدون إلى شمها بفضول، أما الأخلاق التي تدعو إلى (تمنٍّ لجارك ما تحبه لنفسك) فلم تتقبلها نفوسهم على الإطلاق، ولا حتى أقل قدر منها. ومن الممكن أن يحملوا محبة لجيرانهم، غير أنها محبة مشوبة بالكآبة والعنف دون أي حدود، ومن الأرجح أن يتلاشى هذا الحب بغتة، فالجار بالنسبة لهم هو شيء عرضي وثنائي، وحياتهم تقتصر على أنفسهم فقط دون الاحتكاك بالناس الآخرين، ليساور المرء شعور لأول مرة بنمط الحياة القديم للعصور الوسطى، والذي يتسم بالانغلاق على نفسه دون الاهتمام بالعالم الخارجي، ويعيشون حياة مليئة بالأكاذيب واللهو والصراخ والنوم، وتعديل قبعاتهم الجوربية الطويلة التي يحبذون التركيز فقط على ارتدائها فهي تعتبر جزءًا من ذاتهم، وهذا ما يدل على العناد والمثابرة العنيفة والقوية. إن الوعي العالمي لن يستطيع اقتحام حياتهم، وقد تفردوا بنمط

من الثياب الخاصة بهم التي يختلف مظهرها عن الأزياء المعروفة لدى سائر البشر، ولهذا فهم متشبثون بواقعهم المظلم والقاسي بكل قوة وعزيمة وثبات وليذهب العالم الكبير إلى جحيمه المستنير، فهم يفضلون جحيمهم كما هو، قيعان من الجهل. ولا يسع المرء إلا أن يتساءل عما إذا كانت سردينيا ستقوى على المقاومة دون أن تلتفت لكل هذا، فهل ستُحطم موجات التنوير الأخيرة والوحدة العالمية صخورهم العاتية وتجرف هذه القبعات الجوربية؟ أم أن مد التنوير ووحدة العالم قد تفهقرا منذ زمن بسرعة؟ **140** من المؤكد هناك رد فعل، بعيداً عن العالمية القديمة، يقبع في الخلف بمنأى عن الأممىة والنزعة الدولية، فروسيا على سبيل المثال بشيوعيتها الدولية تتصرف في الوقت ذاته بعنف ومتفوقة على نفسها أمام أي تواصل عالمي، لترتد فزعة للخلف وتتحول إلى بلد شرس عنيف من المحال الوصول إليه. أي حركة ستمنى بالانتصار يا ترى؟ الحركة التي تنادي بالانفتاح على العمالة الدولية أم الحركة التي تدعو إلى العزلة القومية؟ وهل سنندمج في تجانس بروليتاري⁴ رمادي واحد؟ أم أننا سندخل مرة أخرى في تقلبات نحو مجتمعات أكثر أو أقل عزلة ومنفصلة ومتحدية؟

ربما كلاهما، فستعمل حركة العمال الدولية أخيراً على اقتحام التيار نحو اللاقومية والاستيعاب العالمي، ولكن عند أي تصادم مفاجئ، سيهرع العالم صوب كيانات منفصلة متشددة. جاءت تلك اللحظة عندما قررت فيها أمريكا، ذلك الكيان المتطرف باستيعاب العالم وتزعم القطب العالمي الوحيد، وقد أصبحنا الآن على يقين بأننا مقبلون على عهد إمبراطورية أمريكية. أما بالنسبة لي فيسعدني أن حقبة المحبة والتماثل قد ولت، يا لها من قطبية عالمية متجانسة مكروهة، وكذلك حين يمقت الرجال أزياءهم التقليدية العالمية ويمزقونها **141** ويصرون على ارتداء ملابس جديدة من أجل التميز والتمييز الوحشي عن بقية العالم الزاحف؛ وذلك عندما تعمد أمريكا إلى رفس القبعة اللبادية المستديرة والياقة وربطة البيونة إلى طي النسيان وتنتقل إلى زيتها الوطني الخاص، وحين يرفض الرجال بشراسة ارتداء زي متشابه بشكل مبالغ فيه ويلجأون إلى جماعة ناشطة أو فروق قومية.

لقد انتهى زمن المحبة والتماثل، ولهذا فيجب أن يزول العالم كله بعد ذلك، فالمد الآخر قد بدأ، وسيضع جميع الرجال قبعاتهم عند مستوى جديد الآن، وسيتنازعوا ويتصارعوا لأجل الانفصال والتمييز الحاد. لقد أفل نجم يوم السلام والوحدة، وحان موعد يوم المعركة العظيمة التعددية وبات في متناول اليد. ولهذا سارعوا الآن وانفذونا من التجانس البروليتاري والتماهي الكاكي. أه كم أحب الرجال الذين يسكنون جبال سردينيا فهم أشداء لا يقهرون مطلقاً، ولأجل قبعاتهم الجوربية وغبائهم الحيواني المشرق اللامع. يا للمصيبة إذا لم تنجح الموجة الأخيرة من التماثل في إزالة قمم القبعات الرائعة تلك وقذفها بعيداً.

نحن نكافح الآن بين توتنتهام جينارجينتو، لا توجد قمة واحدة في هذا المكان، ولا أي جبل يماثل جبل إتنا في سردينيا، فقطارنا بات الآن يسير في طريق شاق، يتحرك مهتزاً ومرتجاً كمحراث يقلب التراب، حيث يتوازن على منحدرات حادة من تلال توتنتهام والرياح تعصف حوله، فضلاً عن أن هذه المنحدرات الحادة مكسوة بالأشجار، هذه هي غابات جينارجينتو، إنها ليست بالغابات تماماً، بل مجرد رشقات قليلة من أشجار البلوط والكستناء والفلين فوق منحدرات التلال الحادة. **142** أه كم أذهلتني أشجار الفلين! إنها أشجار نحيلة عجبية كأشجار البلوط، وقد نُزعت عنها خضرتها فأصبحت جرداء ترتجف تحت فروعها، منتصبه بلونها البني المخضب بالحمرة، فبدت مميزة بشكل غريب بين أقرانها الذين غطتهم لمسة من شحوب رمادي مزرق. وكلما وقعت عيناى على تلك الأشجار، أتذكر السكان الأصليين لبحار الجنوب بأجسادهم العارية التي لوحتها الشمس فصبغتها بلون بني متقد يميز هؤلاء المتوحشين العراة. ها هي أشجار الفلين التي سُلبت منها حلتها الخضراء، بعضها تخرى عن كامل خضرته، بينما تنسبت بعضها بالقليل من أوراق الصيف، ومنها ما تورد خجلاً واستحياءاً من تعري جذوعها وفروعها السفلية، بينما كشفت أخريات عن اليسير فقط من سيقانها. يبدو أن الأمور تسير على ما يرام ظهيرة هذا اليوم، حيث مررنا بفلاح يرتدي زيه الأبيض الأسود برفقة زوجة شابة جميلة زارها ثوب بلون الزهر الأحمر حسناً وبهاءً، مع منزر رائع غاصت أطرافه في العشب الأخضر، وقد ارتدت صداراً صغيراً بلون أرجواني فوق صدرية بيضاء فضفاضة، وأخذاً يتبادلان أطراف الحديث ورائنا. عادة ما يريح الفلاحون العاملون أجسادهم بقلولة الظهيرة، التي كانت رائعة هذا اليوم. لقد مضى على تناولنا اللحم وقت طويل، أما الآن فانتبهنا من تناول رغيف الخبز الذي قُدم لنا كهدية وشربنا ما بقي لدينا من الشاي. وفجأة نظرنا خارج النافذة، فترأت لنا كتلة هضبة جينارجينتو تمتد خلفنا، إنها قمة كثيفة تغطيها طبقات عميقة من الثلوج، بدت رائعة خلف تلك النتوءات الجبلية الطويلة شديدة الانحدار التي جذبت انتباهنا، إلا أن كتلة الجبل الأبيض غابت عنا لنصف ساعة، ليبرز أمامنا وعلى نحو غير متوقع جانب من الجبل العظيم الذي غطته الثلوج. كم هي مختلفة عن جبل إتنا، هذه الأعجوبة الصقلية المنعزلة المعتدة بذاتها! فهي أكثر إنسانية وإدراكاً للعقل، مع صدر عميق **143** وأطراف هائلة، وجسد جبلي جبار. ما أشبهها بالفلاحين!

المحطات بعيدة عن بعضها، يحتاج الوصول من إحداها إلى الأخرى ساعة كاملة. أه كم يُرهق المرء خلال هذه الرحلات، فهي تستغرق فترات طويلة. أخذت عيوننا تجول عبر الوادي عليها تبصر المحطة التالية، إنها على مرمى حجر منا، ولكن للأسف لا يسع القطار الصغير أن يطير

أو يثب إليها. وهكذا انعطف خط السكة الحديدية عائداً نحو الخلف أكثر فأكثر متجهًا صوب هضبة جينارجينتو، عبر درب صخري طويل، يمتد إلى رأس الوادي البائس. ليسير القطار على طول الحافة بدقة بالغة، ثم طفق مسرعًا نحو الأسفل متبعًا مساره مرة أخرى بمرح. شاهدنا رجلًا يرنو إلينا ونحن نقوم بدورتنا، قد شق طريقه هابطًا للأسفل واجتاز الوادي بخمس دقائق فقط. وكذلك لمحت عيوننا الفلاحين مرتدين زيهم التقليدي، وحتى النساء في الحقول فعلمن الأمر عينه. إنَّ الحقول الصغيرة المنبسطة في الوديان شبه مأهولة بالسكان؛ فجميع وديان هضبة جينارجينتو يقطنها نصف ساكنيها فقط، ولكن بشكل أكثر من البراري الموجودة في أقصى الجنوب. تجاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر، وأخذ البرد يغزو كل بقعة رحلت أشعة الشمس عنها. وبقيت لنا أخيرًا محطة واحدة قبل أن نصل المحطة النهائية. وهنا استيقظ القرويون من غفوتهم وعلقوا الأكياس المنتفخة على أكتافهم، ثم ترحلوا من القطار. لاحت لنا بلدة تونارا بعيدة في الأعلى، وشاهدنا فلاحنا العجوز المتجههم بزيه الأبيض الأسود وهو يرد التحية على امرأتين جاءتا للقياء مع بناتهن القصيرات الجميلات بثيابهن الوردية والخضراء التي تنبض بالحيوية. وها هم القرويون الرجال وقد ارتدوا زيهم الأبيض الأسود، والبعض الآخر فضل اللون البني المحمر، مع بناطيل ضيقة غطت أرجلهم المكتنزة، أما النساء فكن يلبسن الزي الأبيض والوردي، بينما حملت المهور حقائب السرج، وسلك جميعهم الدرب إلى أعلى طريق الهضبة فبدو كصورة ظليلة خالصة للغاية، متجهين صوب **144** قرية تونارا النائية الجائمة تحت الشمس الساطعة. يا لها من قرية كبيرة مشرقة، وكأنها مدينة قدس جديدة. توقف القطار وحول مساره كالمعتاد برفقة عرباته إلى سكة ثانية. تبادر إلى مسامعنا صوت خرير الماء ينساب في الوادي، ولاحظنا وجود أكداش من الفلين والفحم في المحطة. انتبهنا لوجود فتاة بلهاء ترتدي تنورة فضفاضة كبيرة مصنوعة بالكامل من رقع ملونة، راحت تنظف وتجز العشب، ويبدو أنَّ صدريتها الصغيرة ليست بأفضل حالٍ أيضًا، وتظهر عليها علامات باهتة تدل على أنها كانت في يوم ما ذات لون بنفسجي جميل وزر كشة سوداء. بات الوادي وجروفه شديدة الانحدار مكشوفًا من حولنا، وإذا برأع مسنٍ يقود قطيعًا من أغنام الميرينو المرهفة عبره. تحرك قطارنا في نهاية المطاف، ولم تعد تفصلنا عن وجهتنا سوى ساعة من الزمن. وبينما أخذ قطارنا يتقدم عبر المنحدرات التي غطتها أشجار الفلين البنية أعاق مسيره قطيعٌ من الأغنام، فنظر قرويان كانا في عربتنا للخارج، وأطلقا أكثر زعقات مستهجنة غير طبيعية وحادة النبر، وأجزم بعدم قدرة أي كائن عادي على إصدارها أبدًا، فميزها القطيع وتشتت على الفور، لتبدأ بعد عشر دقائق موجة أخرى من الزعيق صوب ثلاثة من الماشية الصغيرة. لا أعرف إن كان القرويان يفعلان ذلك من باب الشغف، إلا أنه أكثر ضجيج رعاة وحشي ولا إنساني قد تنأى إلى مسامعي على الإطلاق. إنها ظهيرة الأحد والساعة الآن هي الرابعة. بدا الريف موحشًا ومقفرًا، وقد أصبح القطار فارغًا تقريبًا، بيد أنه

برغم ذلك فهناك عمل لم ينجز بعد، **145** تستشعره في الأجواء. يال هذه المنحدرات الحادة الملتوية المشجرة، لمحات تشد عيني صوب هضبة جينارجينتو، أشجار الفلين العارية كالزنوج، رائحة الفلاحين، وعربة القطار الخشبية المُرّهقة، التي أصابنا السأم منها! فقد أمضينا فيها سبع ساعات تقريباً، لنقطع مسافة ستين ميلاً فقط، لكننا كدنا نبلغ مرادنا. انظر، ها هي سورغونو تجثم كطائر على عشه بكل جمال بين المنحدرات المشجرة أمامنا. أه من تلك البلدة الصغيرة الساحرة، ومن هذه المحطة النهائية وعقدة الطرق الداخلية، عسى أن نلقى فيك نزلاً لطيفاً وصحبة طيبة، فربما سنمضي يوماً أو اثنين في سورغونو. وهنا أطلق القطار تنهيدة أخيرة وجر جر نفسه ليتوقف أخيراً في محطة نهائية صغيرة، وفي هذه الأثناء اقترب مني رجل مسن لف نفسه بقطع قماشية مهترئة قديمة أخذت ترفرف عليه في مهب الريح، فسألني إن كنت أرغب بالذهاب إلى نزل ألبيرغو، فأجبت موافقاً وتركته يأخذ حقيبة ظهري. يال سورغونو الجميلة! نزلنا إلى آخر درب صغير موحل تحيط به أسيجة من الشجيرات، يؤدي إلى طريق القرية الرئيسي، فبدا المكان أشبه بقرية صغيرة ما في الريف الإنكليزي الغربي أو ريف هاردي، لتقع عيناك على فسحة بين أشجار البلوط الفتية، ومنحدرات كبيرة مزدانة بأشجار البلوط، وعلى اليمين علا صوت أنين ناعورة صدئة لنشر الأخشاب، وعلى الشمال تقع بلدة بيضاء قريبة، تتوسطها كنيسة يعلوها برج من العهد الباروكي، ليصبح الدرب الصغير الموحل الذي سلكناه جزءاً من هذا المنظر. بعد ثلاث دقائق وصلنا إلى الطريق الرئيسي لينتهي بنا المطاف عند مبنى كبير ذي لون وردي ينتصب ساكناً أمام الدرب المؤدي للمحطة، وقد كتبت عليه بأحرف ضخمة "ريستورانت ريسفيغليو"، وتمت كتابة حرف النون بشكل معكوس، فأصبحت كلمة ريسفيغليو تعني "إذا سمحت"، أي "ابقظني إذا سمحت". وعند مدخل ريسفيغليو تملص المرفرف العجوز منا. **146** وحينها خاطبته مستعيناً بكتيب السفر الذي بحوزتي: "لحظة من فضلك، أين نزل ألبيرغو دي ايطاليا؟". فأجابني: "لم يعد له وجود". هذه الإجابة التي تتكرر كثيراً في أيامنا هذه باتت مدعاة للقلق إلى حد كبير. فقلت: "حسناً إداً، ألا يوجد فندق آخر؟". "لا، لا يوجد سواه". وهكذا حُسم الأمر فإما نزل ريسفيغليو أو لا شيء. دخلنا إليه، ومضينا عبر بار كبير كئيب، حيث صُفّت زجاجات لا حصر لها وراء مشرب من الصفيح. وهنا صرخ المرفرف منادياً، لكن مضيفنا لم يظهر إلا بعد مضي وقت طويل، كان شاباً صغيراً بعض الشيء يشبه الأسكيمو، ولكنه أكبر حجماً إلى حد ما، يرتدي حلة سوداء كنيية، وصداراً بلا أكمام يذكرك بفوطاة العشاء، وبقع نبيذ لا حصر لها على الجهة الأمامية لقميصه، فكرهته على الفور بسبب مظهره القذر الذي بدا به، بقبعة ممزقة ووجه طويل غير مغسول. سألته: "ألدك غرفة نوم؟" "نعم". وقادنا إلى آخر ممر قذر، وصعدنا درجات خشبية جوفاء بدت قذرة أيضاً، قادتنا إلى رواق متسخ فارغ يصدر صوتاً كالطبل، ومنه وصلنا غرفة نومنا. حسناً إنها تحتوي على سرير كبير، رقيق ومسطح مع لحاف

أبيض رمادي، 147 يشبه ضريحًا كبيرًا رديئًا مرصعًا بألواح الرخام في فراغ الغرفة البائس. هناك كرسي متداع وضعت فوقه أكثر شمعة نحيلة مزرية رأيتها في حياتي. ومغسلة صحن محطمة محاطة بإطار سلكي، أما بالنسبة لما تبقى؛ ففسحة من الأرضية الخشبية تبدو متسخة إلى حد الاسوداد، ومساحة واسعة من الجدار ارتسمت عليها آثار دموية لبعوض ميت. كان شباك الغرفة يطل على ساحة إسطبل خارجي مع قن للطيور بجانب إطار النافذة تمامًا؛ فترى الريش والقش القذر يتطاير عند النافذة. أما الأرض فتغص بفضلات الدجاج. ويوجد حمار وثوران يمضغان التبن في زريبة على الجهة المقابلة، ورجل ممثلي الجسد في منتصف الفناء يضع خنزيرًا أسود كثيف الشعر تحت الشمس التي أوشكت على الغياب. ولقد امتلأ المكان بروائح متنوعة دون شك. وضع المضيف حقيبة الظهر وحقيبة اللوازم اليدوية الخاصة بنا على الأرضية البغيضة، والتي كرهت أن ألمسها حتى بحذائي، وأخذت ألقاب ملاءات السرير وأتمعن بالبقع التي خلفها أناس آخرون. فسألت متذمرًا: "ألا توجد غرفة أخرى؟" فأجاب المضيف الهزيل نافيًا بجبهته القصيرة وقميصه القذر، وانصرف متجههم الوجه. أعطيت المسن المرفرف إكراميته فتوارى وهرب، ثم قمت أنا وملكة النحل كيوبي بتنشق الهواء. قلتها والغضب قد أعمانى: "خنزير كرية مثير للاشمئزاز!". كنت لأسامحه عن أي شيء، باستثناء قميصه القذر ونتاجه شخصيته.

148 تجولنا في أرجاء النزل، ورأينا غرف نوم أخرى متنوعة، كلها سيئة باستثناء واحدة منها كانت جيدة حقًا، وبدأت أنها شاغرة. لاحظنا في هذا النزل أن جميع الأبواب مفتوحة، والمكان مهجور تمامًا، لكن الشيء الوحيد المؤكد هو الأمانة، لا بد وأنه مكان موثوق للغاية؛ فكل إنسان أو حيوان بوسعه أن يدخل إليه ويسير فيه كيفما شاء، دون أن يعيره أحد أدنى اهتمام. بعد ذلك نزلنا إلى الطابق السفلي، وهو عبارة عن حانة عمومية مفتوحة، بدت كجزء من الطريق. وهناك شاهدنا سائس بغال قد ترك بغاله عند أحد أركان النزل، وذهب ليحتسي الخمرة على طاولة المشرب. هذا النزل الشهير يقع بآخر القرية، فقررنا الخروج للتنزه قليلًا ومشينا على طول الطريق بين المنازل، وقادتنا أقدامنا إلى أسفل التلة، يا لها من حفرة كئيبة! إنها ظهيرة يوم سبت بارد بائس لا حياة فيه بهذه القرية المضجرة، الوضيعة إلى حد ما، فلا شيء يقال عنها، ولا محال تجارية فيها على الإطلاق، ثم وصلنا إلى كنيسة كئيبة ومجموعة من المنازل التي تقبض الصدر، وتابعننا مسيرنا عبر القرية تمامًا، حتى انتهى بنا المطاف في فسحة مفتوحة بمنصفها، حيث توقفت سيارة كبيرة رمادية اللون بدا على سائقها التعب والسأم. فدنوت منه وسألتها: "إلى أين تمضي هذه الحافلة؟". "إنها ذاهبة إلى السكة الحديدية الرئيسة". 149 "متى؟". "في السابعة والنصف صباحًا". "فقط عند هذا الموعد؟". "أجل". فقلت: "الحمد لله أنه يمكننا الخروج من هنا بطريقة ما". أتمنا المشي نحو الأمام، لنخرج من وراء القرية، ولا زلنا على الطريق الرئيسي المنحدر الكبير، والذي تم إصلاحه بحجارة مخلخلة رُقَّت بها. هذا لا يبشر بالخير، بالإضافة إلى

أننا أصبحنا بمنأى عن أشعة الشمس، والمكان على ارتفاع كبير، والجو بارد للغاية، فعدنا أدراجنا لتتسلق دربنا بسرعة نحو أعلى التلة التي تتألق وسط الشمس.

صعدنا طريقاً صغيراً متفرعاً عن الطريق الرئيسي، مارين بمجموعة من المنازل البائسة، فأدى بنا إلى درب مختصر صغير شديد الانحدار يقع بين منحدرات ترابية، وقبل أن ندرك موطن أقدامنا وإذ بنا وسط دورة مياه عمومية. في هذه القرى وكما علمتُ، لا توجد مرافق صحية من أي نوع أبداً، فعند قضاء الحاجة يلجأ القرويون إلى أحد الطرق الفرعية، إنها عادة ايطالية قديمة. **150** حاولنا الخروج منها بأي ثمن! ولذلك اندفعنا متسلقين المنحدرات الترابية الحادة وصولاً إلى حقل قش في الأعلى، وفي هذه الأثناء تملكني غضب عارم. أرخى المساء أستاره، بينما راحت شمس الأصيل الغاربة ترسل آخر خيوطها، وعندما نظرنا إلى الأسفل شاهدنا تجمعات لنبات العشار الباسق⁵ منتشرة في هذه القرية الكريهة، أما حولنا فبدا المنظر جميلاً لتلال ووديان تغطيها الأشجار، وقد لفتها زرقة الصقيع. كانت الرياح شديدة مشوبة ببعض البرودة، ولم يبق على أفول الشمس إلا القليل، ونحن على ارتفاع ألفين وخمسمئة قدم عن سطح البحر، لن أنكر أن المنظر كان أخاذاً، بتلك المنحدرات التي ازدانت بأشجار البلوط، وهذا الشجن الغريب، وذلك الشعور النائي بالوحدة وسط المساء، بيد أنني كنت منفعلاً للغاية ولم أبال بالاستمتاع به. تسلقنا للأعلى بجنون علنا نصيب شيئاً من الدفء، بينما تلاشى قرص الشمس عن ناظرينا في الحال، ليخيم ظل أزرق ثلجي ثقيلاً على كل شيء. بدأت أعمدة من الدخان الأزرق تتصاعد من القرية، وبدأت أشبه بذاك الشفق جنوب إنكلترا، ولكن ومع كل أسف علينا أن نترك هذا المنظر البديع ونعود أدراجنا، فهل يتوجب علي أن أصاب بالبوؤس من ذاك الطريق المختصر النتن؟ محال، فالغضب يعتريني إلى أقصى حد وبشكل غير معقول تماماً، ولكن هذا هو الحال. تقدمتُ وكيوبي إلى أسفل منحدر عبر الغابة، ومررنا فوق حقل محروث، على طول مسار خلفته عربة، وهكذا وصولاً إلى الطريق الرئيسي الكبير فوق القرية والنزل. **151** ما زال الجو بارداً، والظلام يشتد شيئاً فشيئاً ليتكشف غسق الليل، وعند وصولنا إلى أسفل الطريق الرئيسي صادفنا رجالاً متوحشين ثيابهم قديمة مهترئة ويمتطون مهورهم، وبعضهم من ارتدى زيه كاملاً وآخرون لم يفعلوا، كما مررنا بأربع بقرات واسعة العيون تتقدم إلى أسفل التل حول الركن، وثلاثة خراف مورينو مرفهة جميلة، راحت تحرق بنا بعيونها البارزة الفضولية، تبعها رجل مسن للغاية يمسك عصا، ثم جاء فلاح قوي العريكة يحمل عموداً خشبياً طويلاً، وقطيع ماعز يقظ متفرق بدا وكأنه عائد منتصراً من الحرب، بقرونه وشعره الطويل وقد علا رنين أجراسه. وبقينا نسير حتى وصلنا إلى نزل ريسفيغليو. وحين دخلنا وجدنا رجالاً يأخذون رشقات من العصير، غير أنني انقضضتُ على صاحب الصدر المرقط مرة أخرى قائلاً: "هل أستطيع الحصول على الحليب؟". "كلا، ربما خلال ساعة سيغدو متوافراً. وربما لا". "أهناك شيء يؤكل لديك؟". "لا، سنقدم

الطعام في السابعة والنصف". "هل أوقدتم النار؟". "كلا، الطاهي لم يفعل بعد". لا شيء بالإمكان القيام به سوى الذهاب إلى غرفة النوم الكريهة تلك أو المشي على الطريق الرئيسي، فاستدردنا صوب الطريق السريع تارةً أخرى، **152** فشاهدنا الحيوانات واقفةً في أرجائه وسط هواء الغابة الثقيل مطرقة

رؤوسها ومسلمة أمرها، منتظرة أصحابها الرجال لكي يعودوا إليها بعد أن يفرغوا من مشروباتهم، مما دفعنا إلى المشي بهوادة نحو أعلى التلة، وحينها مررنا بحقل على يميننا فشاهدنا قطيعاً من خراف المارينو³ يتحرك بشكل ضبابي مضطرب متسلقاً الممرات الجبلية في المنحدر الترابي للطريق الوعر ليصيح صدى أجراسها الصغيرة التي لا حصر لها مع صوت خرير المياه الباردة. وفجأة شاهدت في عتمة الغسق شخصاً ما لا روح فيه بدأ يتحرك على حين غرة في الحقل؛ كان راعياً عجوزاً ذا ثياب ممزقة متسخة للغاية يمتزج فيها اللون الأبيض والأسود، وقد وقف منتصباً كالحجر هناك عند نهاية الحقل، ولا أحد يعلم كم من الوقت قد أمضى بلا حراك ومنتكناً على عصاه، ثم أخذ يعرج أثناء لحاقه خروف بئس رقيق وفضولي. كان اللون الأحمر يتلاشى من جهة الغرب البعيدة. وعند وصولنا إلى إحدى زوايا أخذنا نصعد التلة ببطء وضجر، فكندا أن نواجه ثوراً رمادياً يسير وحيداً، حيث أقبل إلينا أثناء نزوله من التلة بإيقاع بطيء منتظم وكأنه أحد الآلهة، غير أن الثور أمال رأسه واستدار من حولنا. ثم تابعتنا طريقنا حتى وصل بنا إلى مكان لم نتمكن من تحديده، ثم تبين لنا أنه مخزن للفلين، وفي ضوء الغسق تراءت لنا أكداش من لحاء الفلين كأنها جلود مجمدة. قالت كيوبي بحزم: "إنني عائدة الآن". ثم استدارت. كان اللون الأحمر الأخير للشفق يلفظ أنفاسه من وراء التلال المكسوة بالأشجار النحيلة والضائعة في عتمة الداخل، وسحابة من الدخان الأزرق نصف الساطع راحت تطفو فوق القرية التي لفتها الظلمة والغموض، والطريق السريع ينحدر أسفل التل عند أقدامنا وبدأ شاحباً أزرق اللون، أما كيوبي فهي غاضبة مني بسبب السخط والغيط الذي يسيطر علي: **153** "لماذا أنت ساخط جداً! يبدو أن الغضب أفقدك فضائل نفسك! لماذا ترى الأمر من المنظور الأخلاقي؟ إنك ترهب ذلك الرجل في النزل بسبب الطريقة التي تتحدث بها إليه، يا له من أمر مستنكر! لماذا لا تتقبل الحياة بخيرها وشرها؟ هذه هي الحياة"، إلا أن ما تفوهت به محال، فغضبي قائم جداً والسماء وحدها من تعرف السبب، لكنني أظن أن من أوقد نيرانه هي مدينة سورغونو؛ فلقد تخيلتها في السابق مكاناً بمنتهى الروعة، وما كان للغضب أن يملك قلبي لو أنني لم أرسم تلك التخيلات في ذهني، فطوبى لمن لا يكثر الآمال ويحسن الظن بالخيال والتوقعات ويُفلت من براثن نكسة الخذلان. في الحقيقة لقد لعنت هؤلاء السكان الأصليين الفاسدين، وذلك المضيف ذا الصدر القذر الذي تجرأ على الاستمرار في مثل هكذا نزل، وأولئك القرويين القذرين الذين يدفعهم انحطاطهم للفرصة بأجسادهم البشرية الدنيئة وبكل قبح في هذا الوادي المرتفع، وكل

إشادتي بالقبعات الجوربية الطويلة هل تذكرونها؟ لقد تلاشت الآن من فمي تمامًا بل وشتمت كل من ارتداها، وحتى كيوبي لم تسلم من شتيمتي أيضًا بسبب إلحاحها الأنثوي.

دخلنا إلى صالة النزل لنرتاح قليلاً، فشاهدنا شمعة بائسة تذرف دموع النور من شعلتها، ورجالاً متجهمين يتسامرون في أمسية السبت وكأنهم في منزلهم، أما في الخارج فهناك ماشية ترقد على الطريق وسط الهواء البارد في يأس تام.

"هل وصل الحليب؟". "كلا، ليس بعد". 154 "ومتى سيتم إحضاره؟". في الواقع هو لا يعرف موعد وصوله. "حسنًا، ما الذي يمكن لنا أن نفعله؟ هل توجد لديكم غرفة أو مكان لنجلس فيه؟". "أجل، هناك مكان شاغر الآن".

حمل الشمعة العطرية الوحيدة بيده وذهبنا معه تاركين الرجال وسط الظلمة، فقادنا إلى ممر ترابي مظلم وعر، مرصوف بحجارة مفككة ولوح خشبي غير متجانس، يبدو للناظر أنه قد شُيِّد تحت الأرض.

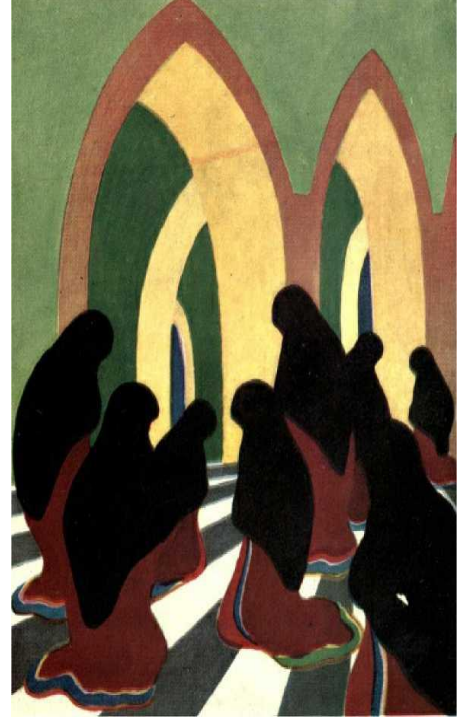
كان الظلام الحالك يسود أرجاء الغرفة، لتكسر هيئته على حين غرة شعلة نار كبيرة متأججة بزغت من حطب جذور البلوط، يا لها من نار وافرة متقدة لامعة، أخمدت غضبي الشديد في تلك اللحظة.

تركنا المضيف عند الباب وغادر حاملاً شمعته، كان الظلام الدامس يخيم على الغرفة، لولا اندفاع حزمة من بواكير السنة الذهب في المدخنة فبدت أشبه بالورود اليانعة، فأتاح لنا ضيائها رؤية الحجرة، التي بانّت علينا مثل زنزانة فارغة تمامًا، بأرضية ترابية غير مستوية، لها جدران جافة مرتفعة مكشوفة وقاتمة، تتوسطها نافذة عالية يساوي حجمها عرض الكف، وقد كانت الحجرة خاوية من أي أثاث على الإطلاق، باستثناء مقعد خشبي صغير بارتفاع قدم واحد، قبالة النار، بالإضافة إلى العديد من الحصائر يدوية الصنع 155 تم لفها وإسنادها على الجدران، وكذلك يوجد كرسي أمام النار علقت عليه مناديل مبللة. وبصرف النظر عن كل هذا، فالحجرة ليست سوى زنزانة عالية مظلمة ومكشوفة.

بيد أنها جافة تمامًا وبها مدخنة مفتوحة ونار متقدة رائعة تنساب كشلال إلا أنه يتدفق صعودًا نحو الأعلى، من وسط جذوع خشنة لكومة جذور بلوط جافة. اندفعت بعجالة ووضعت الكرسي ومناديله المبللة على جانب واحد، ثم جلسنا على المقعد المنخفض وسط الظلام ورحنا

نتأمل تموج النار الوافرة وهي تتمايل تتراقص أمامنا داخل فوهة المدخنة المكشوفة، فما عدنا نبالي بالزنزانة وظلامها أمام هذا الجمال المنير. يقول المثل الإيطالي: (يمكن للمرء أن يعيش بلا طعام ولكن من المحال أن يستغني عن النار)، فكانت تلك النار بالنسبة لنا كالذهب المصوغ حديثاً، فجلسنا أمامها مبتعدين قليلاً عنها جنباً إلى جنب على مقعد خشبي منخفض، ووضعنا أقدامنا فوق الأرض الترابية الغير مستوية، وشعرنا بضوء اللهب يتماوج على وجوهنا، وكأننا نستحم في جدول ساخن تتوهج منه حرارة النار، فأراح الدفء نفوسنا ودفعني لأن أغفر للمضيف قدر الصدر كل أفعاله وغمرتني السعادة وكأنني قد أتيت إلى مملكة. جلسنا بمفردنا لمدة نصف ساعة، نبتسم أمام السنة اللهب، وتستحم وجوهنا في وهجها. ومن حين لآخر كنت أسمع وقع خطوات في الممر الذي يشبه النفق بالخارج، وكأنها تسير هناك منذ الأزل، ولكن لم يأتِ أي أحد إلينا مطلقاً، ولاحظنا أيضاً البخار المتصاعد بشكل خافت من مناديل المائدة البغيضة، فلا وجود لأي شيء غيرها في هذه القاعة. 156 وفجأة وعلى ضوء شمعة مرتجفة، لاح لنا رجل مسن ملتحي يرتدي سروالاً ذهبي اللون، ويحمل شيئاً مذهلاً على رمح طويل جداً. وضع الشمعة على حافة رف الموقد، وجثم بجانب النار يصف جذور البلوط فوق بعضها، وراح يحرق بغرابة في النار دون أن يرتد إليه طرفه، ثم رفع ذلك الشيء الموضوع على رمح أمام وجوهنا، يا إلهي! إنه جديّ جاء لشوائه، لكنه كان مفتوحاً للخارج، وقد جعل مسطحاً تماماً وعرز فيه رمح، فبدا كمروحة منبسطة على ساق حديدية. يا له من منظر غريب حقاً، ولا بد أنه استغرق جهداً ووقتاً لإنجازه بهذا الشكل. لاحظنا أن الجدي بأكمله موضوع هناك دون أن يُنزع عنه جلده، وقد لوي رأسه على كتفه، بأذنيه القصيرتين الثخينتين المقصوصتين، وعينيه، وأسنانه، مع شعر قليل يبرز من خياشيمه. وقد ثنيت قدماه بشكل غريب، كحيوان وضع برائته الأمامية فوق رأسه المحني، أما رجلاه الخلفيتان فقد لويتا للأعلى بشكل لا يوصف. وقد ثبت كل ذلك بشكل مسطح على قضيب معدني حديدي، وهكذا بدا كنموذج مسطح كامل. ذكرني هذا المنظر بشدة بتلك الحيوانات المشوهة نحيلة الأطراف الأشبه بالكلاب التي تظهر في زخارف أحياء لومبارد القديمة قبيحة وملتفة على ذاتها بشكل يثير الفضول، كما أن هذه المخلوقات المشوهة الملتوية تظهر في الرسوم السلطانية أيضاً. لوح الرجل العجوز بالجدي وكأنه لافتة، بينما قام بتهيئة النار، ثم عرز رأس السيخ المعدني على أحد جوانب جدار الموقد، وجثا بنفسه عند حافته، في شبه الظل الذي ارتسم على الجهة

الأخرى من بيت النار ممسكًا بالطرف الأبعد من السيخ المعدني الطويل.



سور غونو

وهكذا تم نشر الجدي كلوح زجاجي عازل للحرارة، ويمكنه تدويره كيفما شاء، 157 لكن الفتحة قبالة حجرة النيران المدخنة لم تكن جيدة بما يكفي، واستمر رأس السيخ الحديدي بالانزلاق، ليهوي الجدي في النار؛ فراح العجوز يدمدم محاولاً تثبيته مرة أخرى، ثم قام بنصب الجدي الذي يشبه الراية مستغرقاً وقتاً طويلاً، بينما همّ بإحضار حجارة كبيرة من ركن مظلم، وقام بتسوية هذه الحجارة بحيث تستقر نقطة ارتكاز السيخ المعدني عليها، ثم نأى بنفسه ليجلس على الجانب الآخر من الموقد، عند حافة بيت النار التي ترامت فيها الظلال، محدقاً بعينين سوداوين مشدودتين لا تخلوان من الغرابة ووجه متبلد الملامح تمامًا، ومراقباً ألسنة اللهب والجدي ويده ممسكة بنهاية مقبض السيخ المعدني. سألناه إن كان الجدي من أجل وجبة العشاء فأجاب أنه كذلك. وهل سيكون جيدًا! فأجاب بنعم. لكنه نظر باستياء إلى أثر من الرماد على الجدي مكان انزلاقه، إذ يعد أمرًا مشرفًا ألا يلامس اللحم الرماد. وهل يقومون بشواء كل لحومهم بهذه الطريقة؟ فأجاب بنعم. أليس من الصعب وضع الجدي هكذا على سيخ حديدي؟ فأجاب بأن الأمر ليس سهلاً ونظر إلى المفصل عن كثب، ثم تحسس إحدى الرجلين الأماميتين، ليتأكد بأنها ليست مثبتة بالشكل الصحيح. كان يتحدث بصوت رقيق للغاية، يصعب سماعه وبصورة جانبية غير موجهة لنا بشكل مباشر، إلا أن أسلوبه كان لطيفاً، رقيقاً، مدمدمًا، متحفظًا وحساسًا. سألنا من

أين جننا وإلى أين ماضون، بتلك الدمدمة الرقيقة دائماً، ومن أي دولة نحن، أنحن فرنسيان؟ ثم واصل بقوله إنَّ هناك حرباً لكنه يعتقد أنها انتهت. كانت هناك حرب لأنَّ النمساويين أرادوا دخول إيطاليا مرة أخرى، لكنَّ الفرنسيين والإنكليز جاؤوا للمساعدة، والتحق بالركب الكثير من الساردينين، ولكن دعونا نأمل أنَّ كل هذا قد انتهى. وهو يعتقد أنَّ 158 الكثير من شباب سورغونو قد لاقوا حتفهم فيها، وأمل أنَّ تكون قد انتهت. مد يده نحو الشمعة وأمعن النظر بالجدي. من الواضح أنَّ لديه خبرة كبيرة في الشواء، فقد أمسك الشمعة وراح يحرق لفترة طويلة بجهة اللحم التي تصلبها النار، وكأنه سيتلو نذور الصلاة، ثم دفع سيخه إلى النار مرة أخرى، وبدأ الأمر كما لو أنَّ الزمان السحيق بنفسه كان يشوي وجبة أخرى، بينما جلسْتُ ممسكاً بالشمعة. وهنا ظهرت امرأة شابة، بعد سماعها أصواتنا، كان رأسها مغطى بشال، وقد أسدلت أحد جوانبه على فمها فلم تُظهر إلا عينيها وأنفها، فاعتقدت كيوبي أنها تشكو من وجع في أسنانها، لكنها ضحكت ونفت ذلك. في الحقيقة هذه هي الطريقة التي يتم بها وضع غطاء الرأس في سردينيا، وحتى من قبل الجنسين. إنه شيء أشبه بلف البرنس العربي⁷، ويبدو أنَّ الغرض من ذلك أن تتم تغطية الفم والذقن بشكل سميك، وكذلك الأذنين والحاجب، ليبقى الأنف والعينان فقط مكشوفين، ويقال إنَّ ذلك يمنع الإصابة بالمalaria. أما الرجال فيعصبون هذه الشالات حول رؤوسهم بالطريقة نفسها، ويبدو لي أنهم يرغبون بإبقاء رؤوسهم دافئة مظلمة ومخفية؛ ليشعروا بالأمان داخلها. كانت الفتاة ترتدي زي العمل اليومي، وهو عبارة عن تنورة بنية داكنة فضفاضة، وصِدار أبيض واسع، ومشد خصر ضيق أرسل للأعلى بشكل لا يخلو من الكياسة، تاركاً تدريجات متصلة تحت الصدر كأوراق طويلة منتصبة. 159 بدا جميلاً، بيد أنه متسخ كلياً. لم ينقصها الجمال هي أيضاً، لكن أسلوبها فظ وغير ممتع على الإطلاق. راحت تعبت بالمناديل المبللة، وطرحت علينا الكثير من الأسئلة المتنوعة، ثم وجهت حديثها إلى الرجل العجوز بلطف نوعاً ما، والذي بالكاد أجاب عليها، لتغادر مرة أخرى. النساء هنا معتدات بأنفسهن بطريقة متحاذقة ومفعمة بالحياة. عندما رحلتُ سألتُ الرجل المسن إن كانت ابنته، فرد بفظاظة شديدة وبدمدمة رقيقة: "لا، فهي تأتي من قرية تبعد بضعة أميال". أدركت أنَّ الرجل المسن لا صلة له بالنزل، بل هو ساعي بريد. وربما أكون قد أسأتُ الفهم، لكنه غير راغب بالحديث عن النزل والقائمين عليه، يبدو أنَّ هناك أمراً غريباً. وراح يسأل مرة أخرى عن وجهتنا التالية، مخبراً إياي أنه توجد الآن حافلتان، إحداها جديدة يمر طريقها عبر الجبال إلى نورو، وأنَّ الذهاب إلى نورو أفضل بكثير من التوجه إلى أباسانتا. الواضح أنَّ نورو هي المدينة التي تعتبرها هذه القرى بمثابة العاصمة. استمر شواء الجدي ببطء شديد، فاللحم ليس على مقربة من النار أبداً، ومن وقت لآخر يقوم الشواء المسن بتنسيق الجذور المتقدمة في فجوة المدخنة، ثم يرمي المزيد من عروق الأشجار، لتصبح محمومة أكثر. بعد ذلك قلب السيخ الطويل، ولازلتُ ممسكاً بالشمعة. وفي هذه الأثناء دخل أناس آخرون

ليلقوا نظرة علينا، 160 لكنهم راحوا يحومون خلفنا في الظلمة، فلم أستطع تبيينهم بشكل واضح على الإطلاق، فجالوا الحجرة الأشبه بزناينة والكآبة تملأ وجوههم، وراحوا يراقبوننا. تقدم أحدهم، وكان جندياً شاباً بديئاً يرتدي زياً عسكرياً، فأوسعت له مكاناً على المقعد بجانبني، لكنه أشار بيده متجاهلاً الاهتمام، ثم ابتعد مجدداً. أسند الرجل المسن الشواء ثم اختفى هو أيضاً لبعض الوقت. ارتعش وهج الشمعة النحيلة، وخبت جذوة النار لتتألق بلون أحمر. وبعد وقت قصير عاود الشواء المسن الظهور وبيده حربة جديدة أقصر وأقل سمكاً، وقد غرزت فيها كتلة كبيرة من دهن الخنزير النيء، فدفَع بها إلى النار المحمرة، لتصطلي وتدخن وتعصر الدهن. تساءلت عن سبب فعله ذلك، فأخبرني أنه يرغب أن تضطرم فيها النار، لكن ذلك لم يحدث، فراح يبحث في الموقد عن قطع الأغصان التي اندلعت فيها النار، وقام بغرز أعقابها في الدهن، لتصبح كبرتقالة غرست فيها براعم القرنفل⁸، ثم أعاد وضعها على النار مرة أخرى، فاشتعلت فيها النار أخيراً، وأمست كشعلة متقدة يتحدر منها للأسفل رذاذ من الدهن المشتعل، فارتسمت على وجهه الآن امارات الرضا، فحمل شعلة الدهن مع مشاعلها الصفراء فوق الجدي الذي سفعته النار بلون بني، بعد أن وُضِعَ بشكل أفقي لأجل هذا الحدث، فتساقطت القطرات الملتهبة مكللة الجدي المشوي بأكمله، حتى أصبح اللحم لامعاً واكتسب لوناً بنيّاً داكناً، فأعادته إلى النار مرة أخرى، محتفظاً بالدهون التي راحت تتناقص، مشتعلة بلون أزرق فوقه طوال الوقت في الأثير الذي يعلوه. خلال سير هذه العملية دخل رجل وألقى علينا تحية المساء بصوت عالٍ، فأجبناه بالمثل، ومن الواضح أن شيئاً غريباً قد لفت انتباهه 161 فقد جاء وانحنى وراح يحدق بي من تحت حافة قبعتي، وفعل الأمر نفسه مع كيوبي، فقد كنا لا نزال نرتدي القبعات والمعاطف كحال الجميع، ثم وقف فجأة ولمس قبعته قائلاً: "سكوسي—معذرة". فأجبت: "نينتي—لا عليك". وهو ما كان يقوله المرء عادة، فخاطب الشواء المسن الجاثم قرب النار بوضع كلمات مرحة، والذي مرة أخرى بالكاد أجاب. فقال: "وصلت الحافلة من أوريستانو، فتبادلت أطراف الحديث مع بعض الركاب". لقد أحضر هذا الرجل معه جَوْاً جديداً منعشاً، لم يبد أن الشواء قد أحبه. على أي حال أفسحت مكاناً له على المقعد المنخفض، ليلاقي اهتمامي قبولاً هذه المرة. وبجلوسه على الحافة البعيدة للمقعد، انعكس ضوء النار عليه، فرأيت رجلاً قوي البنية في مقتبل العمر، يرتدي مخملاً بنيّاً غامقاً، بشارب صغير أشقر، وعيون زرقاء متألئة ونظرة منتشية، فاعتقدت أنه قد يكون تاجرًا محلياً أو مزارعاً. قام بطرح بعض الأسئلة، بتلك الطريقة المألوفة الصاخبة، ثم خرج تارة أخرى وعاد ليظهر حاملاً في يده سيخ شواء حديدي صغير وعوداً ربيعاً، وباليد الأخرى مفصلي جدي والقليل من النقانق، فأدخل المفاصل في عوده المعدني، غير أن شواءنا لا يزال يمسك بالجدي المنبسط قبالة النار الحمراء التي خبا لهيبها، بينما احترقت شعلة الدهن كلها، فدفَع ما تبقى منها في فم النار، تلتها لحظة اندلاع اللهب، ثم عادت النار للونها الأحمر المتقد مرة أخرى،

وبدا جدينا قبالتها كيد داكنة كبيرة. قال الوافد الجديد والذي سادعوه بالمتجول: "إيه، لقد تم الأمر، واستوى الجدي، إنه جاهز الآن". لكن الشواء هز رأسه ببطء ولم يجب، فجلس حيناً طويلاً كأنه الدهر بجانب حافة الموقد، ووجهه متورد كاللهب، وعيناه الداكنتان لا تزالان مسلوبتين بالنار **162** وتحملان رغبة مقدسة للشواء. قال المتجول: "نا نا نا! دع جسداً آخر يشم رائحة النار". ومع قطع لحمه التي غُرزت على سيخه الحديدي بشكل عشوائي، حاول أن يقحمها تحت الجدي الذي تم اختياره للشواء ويضعها فوق النار، لكن الرجل المسن طلب بتمتمة خافتة انتظار النار حتى تصبح جاهزة، غير أن المتجول لم يأبه به وقام بإقحام ما بيده بكل فظاظة وبحس دعابة ظريف، وقال مناكداً أن الجدي قد طهي تماماً، فقلتُ: "نعم، لقد استوى دون أدنى شك". فالساعة كانت عند الثامنة إلا ربعاً، وهنا دمدم كاهن الشواء المسن وأخرج سكيناً من جيبه، وضغط النصل رويداً رويداً عميقاً في اللحم، يبدو أنه يتحسس اللحم من الداخل، فهز رأسه قائلاً بأنه لم يجهز بعد، ولبت عند طرف السيخ الحديدي مدة طويلة، فقال المتجول: "بحق الله"، إلا أنه لم يتمكن من شوي لحمه! وحاول أن يحشر سيخه بالقرب من الفحم، وبقيامه بذلك سقطت قطعه في الرماد، فتعالت ضحكات المتفرجين في الخلف، فدفعها بيده خارجاً ومسحها قائلاً: "لا مشكلة، لم يُفقد شيء". ثم التفت نحوي وسألني الأسئلة المعتادة من أين وإلى أين. فأجبتُ عليها لكنه عاد وسألني: "ألسن المانياً؟". فقلتُ: "لا بل إنكليزي". فنظر إليّ عدة مرات بحنكة، وكأنه أراد أن يستدل على شيء، **163** ثم استفسر عن مكان اقامتنا، فأجبته: "صقلية". وبشكل وثيق الصلة بالموضوع تابع قائلاً: "ما سبب قدومكم إلى سردينيا؟". "للمتعة ولرؤية الجزيرة". أجاب وهو يتأملني قليلاً بنظرة مشككة غير مصدقة على الإطلاق: "آه، من أجل المتعة!". كان يوجد في هذه الأثناء العديد من الرجال في الغرفة، إلا أنهم يقفون في الخلف بشكل غير ظاهرين. تحدث المتجول وألقى دعابة على الملأ، فضحك الرجال المتوارون إلى حد ما وبطريقة لا تخلو من العدائية. وفي النهاية قرر الشواء المسن أن الجدي قد بات جاهزاً، فرفعه عن النار وتفحصه جيداً معتمداً على ضوء شمعة يحملها، ليتأكد أن شواءه أكثر من رائع ويبدو جيداً للغاية، محمراً، مقرمشاً، ساخناً ولذيذاً، ولم يطاله حرق بأي مكان. وهنا دقت الساعة الثامنة، فقال المتجول: "لقد شوي تماماً! إنه جاهز الآن! هيا امض به بعيداً! اذهب"، ودفع الرجل المسن القائم على الشواء بيده. وأخيراً وافق المسن العجوز على المغادرة، حاملاً الجدي معه كلافقة. صرخت كيوبي: "يبدو شهياً للغاية! وأنا جائعة جداً". قال المتجول: "ها ها! إن رؤية اللحم الشهى يجعل المرء جائعاً يا سنيورة، والآن حان دوري، هيه، تعال يا جينو" لوح المتجول بيده **164** فتقدم رجل وسيم الطلعة لكنه قذر، له شاربان أسودان وبدا خجولاً إلى حد ما، كان يرتدي ثياب جندي، بذلك اللون الرمادي الطبيعي، إنه رجل ضخم قوي ووسيم له عينان داكنتان، ويملك طباعاً خجولة وديعة كالبحر المتوسط. خاطبه المتجول وهو يضغط سيخ اللحم الطويل في يده: "هاك، خذها،

بات هذا من شأنك الآن، فقم بطهي العشاء، وبكل براعة وكأنك امرأة، بينما سأحتفظ بالنفاق وأشويها". جلس من دعي بالمرأة عند طرف الموقد، حيث كان يمكث الشواء المسن، بينما راحت يده السمراء المتوترة تكوم ما تبقى من الفحم مع بعضه. تقاصرت ألسنة اللهب، وأخذت جذوة النار تخبو، فعمد الرجل الوسيم لتسويتها كي يتمكن من شوي اللحم، حمل سيخ اللحم بتهاون فوق الكتلة الحمراء، فسقطت منه قطعة واحدة، فضحك الرجال، إلا أن الرجل الأسمر الوسيم تدارك الأمر قائلاً: "لم يضع شيء". وقام بإدخالها في السيخ مرة أخرى ودفعها إلى النار، بيد أنه في أثناء ذلك راح ينظر للأعلى من تحت رموشه القاتمة صوب المتجول وإلينا. بدأ المتجول يتحدث بشكل متواصل، واستدار نحوي ممسكاً بحفنة من النفاق: "هذا يجعلها أكثر لذة". أجبته: "أوه نعم، نفاق لذیذة". "هل تأكل لحم الجدي؟ هل تأكل في نزل؟". "أجل". **165** "لا، ابقَ وتناول معي الطعام، سنأكل سوية، فالنفاق رائعة، ولحم الجدي سيصبح جاهزاً قريباً، فالنار ممتنة". أضحكني كلامه فلم أفهمه جيداً فلا بد أنه كان مخموراً قليلاً. ثم التفت إلى كيوبي وقال: "يا سنيورة". لكنها لم تحبه لأنه فظ، ولم تعره أدناً صاغية قدر ما استطاعت. فألحَّ عليها: "يا سنيورة، هل تفهمين ما أقول؟". فأجابت: "أجل". أردف قائلاً: "يا سنيورة، أنا أبيع أشياء كثيرة للنساء" فسألت كيوبي في دهشة: "وماذا تبيعهن؟". فأجاب: "القديسين". فصرخت وقد اعترتها دهشة أكبر: "القديسون!". فقال بوقار ثمل: "أجل، قديسون"، فاستدارت وقد لفتها الحيرة نحو الرفقة في الخلف، وهنا تقدم الجندي السمين للأمام وهو رئيس الشرطة، وشرح بسخرية: "كما يبيع الأمشاط أيضاً وقطع الصابون والمرايا الصغيرة". **166** ردد المتجول مقولته مرة أخرى: "القديسون! وأيضاً الأطفال الصغار، فأينما حللت يقبلون نحوي راكضين، ويندهون يا أبي، يا أبي!". لاقى كل هذا الكلام نوعاً من السخرية الصامتة من التجمع الغير مرئي في الخلفية. كانت الشمعة تنوي محترقة، ونارها تخمد كذلك، وعبثاً حاول الرجل الوسيم الأسمر أن يقومها، وبالوقت ذاته طال انتظارنا ونفذ صبر كيوبي توقفاً للطعام، فنهضت غاضبة وراحت تتعثر في الممر المظلم وهي تصرخ: "ألم يحن وقت تناولنا الطعام بعد؟"، فقال رجل في الخلف: "إيه، صبراً، صبراً يا سنيورة، فإعداد الطعام يستغرق وقتاً في هذا المنزل". وهنا نظر الرجل الوسيم الأسمر للأعلى نحو المتجول وخاطبه مازحاً: "هل ستطهو النفاق بأصابعك؟". فلم يولِه أحد أي اهتمام. ثرثر المتجول بلهجته المحلية، ساخرًا منا ومن وجودنا في هذا النزل، لكني لم أعره بالاً، فقال: "سنيورة، هل تفهمين الساردينية؟" **167** فردت محتدة قليلاً: "أنا أفهم الإيطالية، والقليل من الساردينية، وأعرف أنك تحاول أن تسخرَ منا، وتثير الضحكات من حولنا". فقهقه بثقة كبيرة: "آه ياسنيورة، لدينا لغة لن تتمكني من فهمها، ولا حتى كلمة منها، لا يستطيع أحد هنا فهمها سواي وذلك الشخص" وأشار إلى الرجل الأسمر. "سيحتاج الجميع مترجماً، الكل بلا استثناء". وهنا قلتُ: "ماذا سنحتاج؟"، فكرر كلامه بحماسة زائفة مخمورة، فاتضح لي ما يرمي إليه،

فأجبتة: "لماذا؟ ما هي لهجتك؟" "إنها الساسارية، فأنا من ساساري⁶، ولو تكلمتُ بلهجتي لفهم القوم القليل منها، أما إن تحدثت بهذه اللغة فسيحتاجوا مترجمًا". فقلتُ: "أي لغة هي إذًا؟" **168** فاتكأ علي ضاحكًا: "إنها اللغة التي نستخدمها عندما تشتري منا النساء الأغراض، ولا نريد لهم أن يعرفوا ما نقول، أنا وهو". "أوه، عرفت مقصدك، فلدينا تلك اللغة في انكلترا وتدعى لغة لصوص اللاتين". فباغتتنا ضحكات الرجال في الخلف، وكنت سعيدًا لقلب النكتة على المتجول، فأطرق رأسه وهو ينظر بطرف عينه من الأسفل، ولكن حين رأي أضحك دون خبث مال صوبي وهمس لي بصوت خافت: "ما قصتك إذًا، ما وراءك؟". صرخت غير مدرك لمقصده: "كيف؟ ماذا؟". "ما نوع أعمالك؟". قلت وأنا لا أزال غير مستوعب: "ماذا تقصد بقصتي؟". فأفضى بإجابة صريحة وحقودة إلى حد ما: "ماذا تباع؟ أي البضائع تعرضها؟". "أنا لا أبيع شيئًا". وضحكت معتقدًا أنه يجرنا إلى نوع من أباطيل المتجولين أو رحالي التجارة **169** قالها بتملق ماكر وكأنه يحاول سحب سر من داخلي: "أتبيع القماش أم شيئًا آخر". "لكني لا أبيع شيئًا على الإطلاق، أبدًا"، وأسهمت قائلاً: "لقد جئنا إلى سردينيا لرؤية أزياء الفلاحين". اعتقدت أن وقع إجابتي مُرضٍ. لكنه رد قائلاً: "آه، الأزياء!". من الواضح أنه يظنني شخصًا غامضًا، واستدار ليتبادل الكلمات مع صديقه الأسمر، الذي كان لا يزال يغرز اللحم في الجمر رابضًا جانب حجارة الموقد. كانت الغرفة مظلمة تمامًا، وصديقه يجيبه بدوره محاولاً أن يبدو ظريفًا أيضًا، بيد أن شخصية المتجول كانت هي الطاغية! بل وأكثر من ذلك حتى، فقد أصبح وقحًا للغاية مع كيوبي. **170** صمت الجميع لوهلة، ثم تابع المتجول: "غداً هو عيد القديس أنطونيو في تونارا، سنذهب غداً إلى تونارا، إلى أين ستمضون؟". فقلتُ "إلى أباسانتا". "آه أباسانتا! عليك أن تأتي إلى تونارا، ففيها تجارة منتعشة وهناك زبائن. تعال برفقتنا وسنقوم بأعمال تجارية سوية". ضحكْتُ دون أن أجيب. لكنه عاد وألحَّ: "تعال، ستحب تونارا! إنها مكان رائع، وهناك نزل ستحظى فيه بطعام ونوم هانئ. أخبرك بذلك، لأن عشرة فرنكات ليست بالمشكلة. أليس كذلك؟ ما رأيك؟". هزرتُ رأسي ضاحكًا دون أن أجيب، وفي الحقيقة كنت لأرغب بالذهاب إلى تونارا برفقته وصديقه والقيام بتجارة سريعة، لو أنني فقط عرفتُ ماهية هذه التجارة. سألني: "هل أنت تنام في الطابق العلوي؟" فأومأت رأسي له. **171** ثم سحب أحد الحصائر المصنوعة منزليًا من على الحائط وقال: "هذا هو سريري". لكنني لم آخذ على محمل الجد أي شيء تفوه به. فاستفسرت منه: "هل يقومون بصنع مثل هذه في سورغونو؟". "نعم، فهم يتخذونها في سورغونو كأسرة، كما ترى! حيث تلف حافتها قليلًا فتصبح لديك وسادة". ووضع خده على الجنب. قلتُ: "ليس تمامًا". فجاء وجلس بجانبني مرة أخرى، فتشتت ذهني. كانت كيوبي تستشيط غضبًا بسبب العشاء، فلا بد أن الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف، ولحم الجدي المثالي سيكون قد برد وتلف. خفنت نيران الموقد والشمع، فخرج شخص طلبًا لشمعة جديدة، ولكن من الواضح

أنه لا توجد وسيلة لإعادة تجديد النار. مازال الرجل الأسمر جاثماً قرب حجارة الموقد، ووهج النار الأحمر الباهت ينعكس على وجهه الوسيم، محاولاً بكل صبر شواء الجدي وإقحامه في الجمر، كانت ثيابه كاكية اللون تغطي أطرافه القوية الثقيلة، غير أنَّ يده التي تمسك السيخ بدت سمراء ورقيقة وحساسة، يا لها من يد متوسطة حقيقية! أما المتجول فقد كان أشبه بالشماليين بشعره الأشقر ووجهه المستدير، ناضجاً وعدوانياً ينبض حيوية. هناك في الخلفية أربعة أو خمسة رجال آخرين، لم أستطع تمييز أحد منهم باستثناء جندي قوي البنية، لعله رئيس الشرطة. **172** وبينما كانت كيوبي مستاءة من الغضب الذي اعتراني من قبل ثم انطفأت وطأته أخيراً، ظهرت الفتاة التي تلف نفسها بالشال وأعلنت "هل أنتم جاهزون!"، فهتف الجميع: "مستعدون وجاهزون". وثبت كيوبي من المقعد المنخفض الموجود أمام النار قائلة: "لقد حان الوقت إذًا، أين سنأكل؟ هل يوجد غرفة أخرى؟". أجاب رئيس الشرطة: "أجل يا سنيورة". وهكذا اندفعنا خارج هذه الحجرة الشبيهة بزنازة أدفاها لهيب النار تاركين خلفنا المتجول ورفيقه ورجلين آخرين وسائقي البغال، وقد لاحظت أنَّ انتقالنا إلى غرفة أخرى قد أزعج المتجول، فهو الشخصية القوية المهيمنة على جميع الحاضرين إلى حد بعيد، ويتمتع بذكاء لا يستهان به. ولهذا فهو يكره أن يتم تجاهل وجوده عندما كان محط أنظار الجميع طوال المساء، أما بالنسبة لي فقد شعرت أنه توأّم لروحي في تلك الليلة، إلا أنَّ القدر الذي أوجد برزخاً غامضاً بين عالم الخير وعالم الشر قد فصلنا عن بعض، ووضع فجوة تمنع التقاءنا، فالفارق بيننا لا يوصف، فهو يمتلك بعض السمات الدنيئة، وإنه مدرك لذلك تمامًا، ولكنني أحب روح الذئب الوحيد أكثر من الخراف المجتمعة، **173** لا سيما إن كانوا يشعرون أنهم لقطاء في قرارة أنفسهم. من المؤسف أن تصبح الروح الشرسة للذئب الوحيد منبوذة دائماً، ولكن هذا هو المصير المقدر له في غالب الأحيان، بأن يتحول إلى مجرد وغد شقي. خلاصة القول، إنني مشتاق لصديقي المتجول، برغم معرفتي بمدى سلبية التفكير فيه، فمن المحال أن يلتقي طريقانا، ولكنني برغم ذلك أشعر بالحنين إليه. *****

وجدنا أنفسنا في غرفة طعام فيها مائدة بيضاء طويلة وأطباق حساء مقلوبة، وكأنها ضريح بارد مضاء بمصباح الأسيتيلين. كان برفقتنا ثلاثة رجال، رئيس الشرطة وشاب أسمر له شارب أسود صغير يرتدي معطف جندي قصيراً مبطنًا بالصوف، وشاب آخر ذو عينيّن زرقاوين ارتسمت هالة الإجهاد حولهما، يكسو جسده معطف أزرق داكن أنيق للغاية. وبذلك الأثناء أقبلت الفتاة ذات الشال تحمل معها وعاء من حساء يحتوي على الكرنب والقرنبيط وأشياء أخرى. خدمنا أنفسنا بأنفسنا، وقد بدأ رئيس الشرطة البدين بطرح أسئلته المعتادة، إلى أين نعتزم الذهاب ومن هذا القبيل.

سألت عن الحافلات، فأخبرني الشاب الصالح ذو العيون المتعبة بأنه سائق الحافلة، وقد جاء من أوريستانو سالكاً الطريق الرئيسي في ذلك اليوم، وهي مسافة تبلغ حوالي أربعين ميلاً، وسوف

يوصل السفر في صباح اليوم التالي فوق الجبال إلى نورورو لاجتياز ذات المسافة تارةً أخرى، أما مرافقه مفتش التذاكر فهو الشاب الأسمر ذو الشارب الأسود الصغير والعيون اليونانية الواسعة، كان هذا مسارهما، من أوريستانو إلى نورورو، 174 مسارًا يبلغ تسعين ميلًا أو أكثر. إنه يسافر على هذا الحال بشكل يومي، فلا عجب أن يبدو مرهقًا ومتعب الأعصاب، إلا أنَّ تحكمه بالحافلة منحه كرامة وفخرًا وجدية مشوبة بلمسة حزينة. إنهم الوحيدون في أيامنا هذه الذين يبدوون مثاليين، هؤلاء الذين يجذبون المقابض الحديدية ويتحكمون بالآلة، راحوا يكررون مقولة الشواء المسن: "إنَّ الذهاب إلى نورورو أجمل بكثير من أباسانتا". ولهذا فقد قررنا الانطلاق عند الساعة التاسعة والنصف صباحًا صوب نورورو.

يجب أن تُجهز للسائق ومرافقه غرف نوم نظيفة ومرتبّة في كل ليلة يقضوها بنزل ريسفيغليو، فسألتهما: "هل الطعام يصل متأخرًا كل مرة؟ وكل شيء سيء على الدوام كحال هذا اليوم؟". فأجابوا مستهزئين بسخرية متhekمة بنزل ريسفيغليو: "دائمًا، إن لم يكن أسوأ". قال السائق: "من الممكن أن تمضي عمرك كله في هذا النزل جالسًا منتظرًا حتى تتحول إلى قالب بارد إن لم تشرب بعض العصائر كحال الأشخاص الموجودين هناك". وحرك رأسه نحو الحجرة الشبيهة بالزنزانة. فاستفسرت: "ومن هؤلاء؟".

أجاب السائق: "إنَّ الرجل الذي تفرد بكل الحديث هو تاجر متجول، بائع رحال، إنه بائع متجول يبيع القديسين والصغار! أما الآخر فهو رفيقه الذي يساعده في حمل حقيبة الظهر". إنه يتكلم عن صديقي المتجول 175 تابع السائق حديثه: "إنهما يذهبان هنا وهناك سوية. أوه، ذاك المتجول هو شخصية معروفة في كل أنحاء البلد". "وأين سينامان؟". "هناك في الحجرة حيث تخدم ألسنة الذهب، سيقوما ببسط الحصائر ويستلقيا وأرجلهما نحو الموقد، لأنَّ كل ما سيدفعاه هو ثلاث أو أربع بنسات، ولديهما ميزة بطهي طعامهما الخاص بهن، ونزل ريسفيغليو يوفر لهما حطب النار، والسقف والحصيرة فقط لا غير، والشراب بالطبع". أوه ما من داعٍ للتعاطف مع المتجول ورفيقه، فهما لا يفتقران لشيء، فليهما كل ما يحتاجانه، وكذلك المال بوفرة. إنهما يعيشان لتناول الشراب وحسب، وذلك جل ما يتمنياه، وها قد حصلنا عليه. وحتى إن غزا البرد غرفتهما خلال الليل فلن يشعرا به حتى وإن لم يمتلكا بطانيات على الإطلاق، فكل ما عليهما فعله هو الانتظار حتى الصباح واحتساء كأس كبير من الشراب، فهو الموقد والمنزل بالنسبة لهما. لقد تفاجأت بالازدراء والتسامح والتفكير العميق لهؤلاء الرجال الثلاثة في غرفة الطعام أثناء حديثهم عن الآخرين في الحجرة، يا له من ازدراء مشوب بالمرارة! فالسائق كان يعارض تناول الكحول، ومن الجلي أنه ييغض شربه، وبرغم أننا جميعًا قد تجرنا خمرة الظلمة الباردة التي لا حياة فيها، لكن شعور

هؤلاء الشباب الثلاثة تجاه الثمل الحقيقي كان يتسم بالعمق والعدائية، مع نوع من الكراهية اللاذعة هي أقرب ما تكون سمة للشماليين من كونها إيطالية، وها قد تجعدت شفاههم ببغض حقيقي للمتجول، على جرأته وعدوانيته الوقحة 176 بالنسبة للنزل، نعم بنظرهم سيئ للغاية، رغم أنه كان جيدًا حقًا بعهدة ملاكه السابقين. أما الآن، فقام الثلاثة بهز أكتافهم اشمئزازًا واستهزاءً به. صاحب الصدر القذر والفتاة ذات الشال ليسا ملاكا له، فهما مجرد مشرفين عليه، وهنا تكورت الشفاه بسخرية، فالمالك رجل شاب يقطن قرية ما، وقبل أسبوع أو اثنين خلال فترة أعياد الميلاد، كان هناك مجموعة من الرجال جلسوا على هذه الطاولة تمامًا، عندما جاء المالك ثملًا وهو يصرخ: "هيا اخرجوا، اخرجوا! جميعكم! كل واحد منكم! فأنا المالك هنا، وعندما أُرغب بتنظيف بيتي فلن أتوانى عن ذلك". استجاب له جميع الرجال، أما من لم يطع فقد تلقى ضربة على رأسه بزجاجة، وهكذا انصرف جميع الرجال. قال سائق الحافلة: "ولكني أخبرته أنني عندما دفعت نقودًا مقابل سرير في كنت أعترم النوم فيه، وليس لي طردني هو أو أي شخص آخر، وهكذا هدأت أنفاسه". خيم صمت عابر على الجميع بعد هذه القصة، من الواضح أن هناك ما هو أكثر من ذلك لم تُخبر به، وخصوصًا أن رئيس الشرطة قد التزم الصمت، فهو رجل بدين وليس من ذلك النوع الشجاع للغاية رغم لطافته. 177 قال مفتش التذاكر ذو الملامح المنمنمة والحجم الضئيل والوجه الداكن اليوناني: "حسنًا، عليك يا أخي ألا تغضب منهم، صحيح أن النزل سيئ للغاية، لكنهم ليسوا أكثر من مساكين وجهلة! فلا تؤاخذهم بل أشفق عليهم". أومأ الرجلان الآخران برأسيهما موافقين على ذلك، ورددا: "هؤلاء جاهلون، عديمو الخبرة، فلا تغضب". ها هي الروح الإيطالية العصرية تتجلى بشفقة لا حدود لها على جاهل، إن ذلك يعد تهاونًا لا أكثر، فالإشفاق يزيد الجاهل جهلًا، ويجعل الحياة اليومية في نزل ريسفيغليو ضربًا من المستحيل، فلو أن شخصًا رمى زجاجة بجانب رأس صاحب الصدر القذر، وخطف الشال من رأس السيدة الشابة الوقحة، وقذفها في الهواء إلى أسفل النفق معنًا إياها، لحظينا ببعض الاهتمام، ولربما سيحترمون أنفسهم قليلًا. ولكن كلا، لا رافة على هؤلاء الجاهلين الكسالى، فهم يهدمون الحياة ويلتهمونها مثل الحشرات الطفيلية. إنهم ليسوا بحاجة للشفقة مطلقًا، بل إلى النخر هم وأمثالهم الذين لا حصر لهم. ظهرت صاحبة الشال تحمل طبقًا من لحم الجدي، ولا داع للقول، أن الجاهلين قد احتفظوا بأفضل أجزائه لأنفسهم، وما وصل لأيدينا هو خمس قطع من الشواء البارد، واحدة لكل منا. أما حصتي فقد كانت مشطًا كبيرًا من الأضلاع يتخللها نسيج رقيق من اللحم، بقدر أونصة ربما. كان ذلك كل ما حصلنا عليه، بعد مشاهدتنا لجميع مراحل عملية الشواء، بالإضافة إلى وجود صحن من القرنبيط المسلوق القاسي، تناولناه مع رغيف من الخبز الخشن، علنا نسكت به جوعنا، 178 تلت ذلك برتقالة صفراء. في أيامنا هذه ببساطة، ما عاد المرء ينال غذاء كافيًا؛ ففي الفنادق الجيدة والسيئة منها، تُقدم للشخص حصص زهيدة غير مغذية

من الطعام، لا تسمن ولا تغني من جوع. بدأ سائق الحافلة يتحدث عن الساردينين، فهو الوحيد الذي تحلى بروح جدية: "آه من الساردينين، إنهم جهلاء ميؤوس منهم، فهم لا يعرفون كيف يُضربون عن العمل، فلو عرضت عليهم عشر فرنكات كأجرة يومية مقطوعة فلن يقبلوا بها أبدًا، بل سيطلبون اثني عشر فرنكًا، وإذا ذهبت إليهم في اليوم التالي وعرضت عليهم أربع فرنكات كأجر لنصف يوم، فستراهم يوافقون ويأخذونها". إنَّ سائق الحافلة هذا يتحدث عن عمال المناجم في منطقة إغليسياس، وبدا متهمًا للغاية بشأن ذلك. لاحظت أنَّ الأسلوب الطاعي على هؤلاء الشبان الثلاثة، هو نغمة السخرية المتشككة الشائعة بين شباب اليوم في جميع أنحاء العالم، فكل ما لديهم هو القليل من الحماسة البائسة تجاه الاشتراكية والإضرابات. رحنا نتحدث عن الأرض، وقد قالوا إنَّ الحرب دمرت سردينيا بسبب قطعان الماشية، أما اليوم فهُجرت الأرض، ولم يبق سوى القليل من الأراضي الصالحة للزراعة، وهي في طريقها لتصبح بورًا. 179 سألتهم: "لماذا؟ ما سبب ذلك؟". أجاب السائق: "لأنَّ ملاك الأراضي لن ينفقوا أي رأس مال، لقد احتجزوا رأس المال فماتت الأرض؛ حيث أدركوا أنَّ إهمال الأراضي الزراعية لتصبح بورًا هو الأرخص بالنسبة لهم، وارتأوا أنَّ تربية بضعة رؤوس من الماشية، أفضل من دفع أجور باهظة لزراعة الذرة، والحصول بالمقابل على أرباح قليلة". تدخل رئيس الشرطة بالنقاش: "أجل، ناهيك أنَّ الفلاحين لا يرغبون العمل في الأرض، إنهم يكرهونها وسيفعلوا أي شيء ليفروا منها، فهم يريدون أجورًا منتظمة، وساعات عمل قليلة، وليذهب ما تبقى إلى الجحيم، ولذلك سيرحلوا إلى فرنسا ليعملوا كعمال حفريات بالمئات، أو يتدفقوا إلى روما ليطوقوا مكاتب تشغيل العمال، فيقوموا بأعمال حفريات حكومية مصطنعة مقابل خمس فرنكات مزرية في اليوم، بينما يتقاضى عامل تبديل المقطورات على السكك الحديدية ثمانية عشر فرنكًا على الأقل في اليوم. سيقبلوا بأي شيء عوضًا عن العمل في الأرض". رد سائق الحافلة: "صحيح، وما الذي تفعله الحكومة بالمقابل!". "إنهم يقطعون الطرق إلى أجزاء لأجل إيجاد عمل للعاطلين، ليجددوها بكل أنحاء البلاد. بينما في سردينيا، حيث هناك حاجة ملحة للجسور والطرق، لا يفعلون شيئًا مطلقًا! هذا هو واقع الأمر". كان سائق الحافلة بتلك الظلال الداكنة تحت عينيه يمثل الجانب الذكي من المحادثة، أما رئيس الشرطة فهو متسامح ويتماشى مع كل الآراء برغم إبدائه الدائم لبعض الاهتمام، في حين بدا قاطع التذاكر الصغير بمظهره اليوناني غير مكترث أبدًا. 180 وبينما كان النقاش محتدًا دخل مرتحل آخر متأخرًا، واتخذ مقعدًا له عند نهاية الطاولة، فأحضرت له صاحبة الشال الحساء وقطعة صغيرة هزيلة من الجدي، فرمقها بازدراء، وأخرج من حقيبته قطعة كبيرة من لحم الخنزير المشوي، وخبرًا، وزيتونًا أسود، وشرع بعد ذلك بتناول وجبة لائقة.



فوني

لاحظ سائق الحافلة ورفيقه أننا لا نملك سجانر، فقدموا لنا بعضاً من سجانرهما المحببة لماركة مقدونيا، قال السائق: "تذوقوها إنها لذيذة، بل الأكثر روعة، وجميع الأجانب يرغبونها". في الحقيقة أعتقد أنها تُصدر إلى المانيا الآن، وهي جيدة للغاية، عندما تحوي بداخلها تبغاً أصلياً، فهي بالعادة عبارة عن أنابيب جوفاء من الورق، تتوهج بجانب أنف المرء حتى تنطفئ. طلبنا تناول العصير فلم يبال أي أحد بطلبنا، ولهذا ذهب الرجل ضئيل الحجم داكن العينين وأحضره بنفسه، وكم كان مذاقه سيئاً عفنًا. وبعد جلوس طويل وأحاديث كثيرة تعبنا فنهضنا للذهاب إلى النوم، إذ علينا أن نتقابل جميعاً في الصباح. كم كانت هذه الغرفة شديدة البرودة يحيط بها الصقيع من كل مكان، ولدى مغادرتنا ألقينا نظرة سريعة على الحجرة الشهيرة، حيث استلقى شخص على الأرض هناك لوحده وسط الظلام الدامس، ولا تزال بضع جمرات تتوهج متقدة، أما الرجال الآخرون فهم في الحانة دون شك. **181** أه، ها قد عدنا إلى غرفة النوم القذرة، فقامت كيوبي

بلف رأسها بوشاح أبيض نظيف وكبير، لتجنب أي احتكاك بالوسادة الكريهة، أما السرير فقد كان باردًا قاسيًا ومسطحًا، عليه بطانيتان صلبتان باردتان، بيد أننا كنا متعبين للغاية، وبينما هممنا إلى النوم انطلق صوت غناء غريب حاد من الأسفل وبشكل غير مألوف تمامًا، مع نغمة صوتية تكررت كالعواء! وكأنها صوت كلب يتألم بغضب، استمر هذا الغناء الغريب الشنيع، حيث بدأ أولاً بصوت واحد لينضم إليه آخر ثم أصبحوا ثلاثة، وما إن غفت أعيننا حتى استيقظنا مرة أخرى على صوت وقع الأقدام الثقيلة في الممر خارجًا، والذي كان أجوف رنًا كالطبل، وحينذاك راح ديك يصيح في ساحة النزل الجهنمية خارجًا، واستمر طوال الليل. نعم، أخذ هذا الطائر الممسوس يصرخ طوال كل ساعات الليل الباردة الحالكة بنحيبه الشيطاني، حتى طلع الصباح أخيرًا، فنهضت وأخذت أغسل جانبًا من جسدي بحذر شديد في الحوض المكسور، وجففت ذلك الجانب بوشاح قطني بدا فوق الكرسي كمنشفة، بينما اكتفت كيوبي بمنديل جاف. ثم مضينا إلى الطابق السفلي أملًا في الحصول على الحليب الذي طلبناه الليلة الماضية، إلا أننا لم نلمح أي شخص يلبي طلبنا في هذا الصباح الصافي البارد المكسو بالصقيع، وما من أحد كذلك في الصالة، فرحنا نتعثر طريقنا إلى أسفل ممر النفق المظلم، وبدت الحجرة وكأن لم تطأها قدم إنسان قط؛ مظلمة للغاية، والحُصْر مسندة على الحائط، أما الموقد فقد بات لونه رماديًا مع حفنة من الرماد الذي خبا منذ وقت طويل، فبدت أشبه بزناينة، لتلمح عيناك غرفة الطعام وذات المائدة الطويلة بذلك الغطاء الأزلي 182 ومناديلنا، التي لاتزال رطبة وملقاة حيث أزحناها جانبًا. وهكذا عدنا من جديد إلى الصالة، فوجدنا في هذه المرة رجلًا يشرب الشاي وقميصه القذر يتصدر المشهد، لم يرتد قبعته، فتبين لنا وبشكل لافت للنظر أنه لم يمتلك جيبًا على الإطلاق، بل شعر أسود مسترسل منبسط فقط ينحدر على حاجبيه، مخفيًا جبهته تمامًا. فدنوت منه وسألته: "أهناك بعض القهوة؟". "كلا، لا يوجد". "لماذا؟". "لأنهم لم يتمكنوا من إحضار السكر". ثم ضحك الفلاح وهو يحتسي الشراب قائلاً: "ها ها ها! والقهوة يلزمها سكر!". فرددت: "إنها تُعدُّ بدون إضافة أي شيء. حسناً، هل يوجد حليب؟". "لا". "ألا يوجد حليب أبداً؟". "لا". 183 "لما لا؟". "لم يحضره أحد". ثم أردف الفلاح: "أجل، أجل، يوجد حليب إن رغبوا إحضاره، لكنهم يتغافلون عن ذلك".

بدأ الغضب العارم الذي تملكني البارحة يتصاعد فجأة مرة أخرى، حتى بات يخنقني تمامًا، يوجد شيء ما لدى هذا الشاب الأسود الغليظ دهني الشعر يفقدني أعصابي.

قلتُ وأنا منغمس بالأسلوب الخطابي الإيطالي: "لماذا؟ لماذا تمتلك نزلاً؟ لماذا كتبت كلمة مطعم بالأحرف الكبيرة، في حين ليس لديك شيء لتقدمه للناس، ولا تتوي أن تقدم أي شيء؟! أي وقاحة لديك لكي تستقبل المسافرين؟! ماذا تعني بتسمية هذا المكان نزلاً؟! هيا قل ما المقصود

بذلك؟ ماذا يعني أن يكتب مطعم ريسفيغليو بالأحرف العريضة؟". أخرجت كل ما في جعبتي دون أن ألنقط أنفاسي، وبات سخطي يخنقني الآن، أما صاحب القميص فلم يتفوه بكلمة، بل اكتفى بالضحك، فطلبْتُ الفاتورة وكانت حوالي خمسة وعشرين فرنكًا، التقطْتُ كل بنس منها وأعطيتها له، فقالت كيوبي: "ألن تترك إكرامية على الإطلاق؟". 184 أجبت وأنا معقود اللسان: "إكرامية! لا". وهكذا صعدنا إلى الطابق العلوي وأعدنا الشاي لملء قارورة الترمس، ثم شققت طريقي خارج نزل ريسفيغليو معلقًا الحقيبة على كتفي.

إنها صبيحة يوم الأحد، وطريق القرية المتجمد شبه الخالي أفضى بنا نزولًا إلى ساحة أوسع حيث يقف الباص، سألتُ مجموعة من الأولاد الصغار: "أهذه الحافلة متجهة إلى نورو؟". فضحكوا باستهزاء، إلا أنَّ الغضب الشديد الذي لاح على وجهي فجأة كبهم على الفور، فأجاب أحدهم بنعم وهم يولون بعيدًا، وهكذا صعدنا إلى الحافلة ووضعتُ حقيبتي الظهر والأغراض في قسم الدرجة الأولى الموجود بالمقدمة، حيث سنتمكن من الرؤية بشكل أفضل. كان هناك رجال يقفون في الأرجاء حول الحافلة، وقد وضعوا أيديهم في جيوبهم، وهم ممن لم يرتدون زيًا محددًا، باستثناء البعض الذين ارتدوا الزي الأبيض والأسود، إلا أنَّ جميعهم اعتمر القبعات الجوربية، وقمصانًا فضفاضة بيضاء اللون، وقد بدت صداراتهم أشبه بتلك التي يرتديها الرجال في الحفلات الساهرة، كم كان الاختلاف كبيرًا بين هذه القمصان البيضاء الناعمة المتألثة، والقميص القذر لصاحب نزل ريسفيغليو، فهؤلاء الرجال المتسكعون الهامدون الذين ارتدوا قمصانًا بيضاء نظيفون كالثلج في صباح هذا الأحد، وكل منهم قد أشعل غليونه في هذا 185 الهواء المتجمد بشكل غير ودي. تنطلق الحافلة في التاسعة والنصف، بينما دق برج الأجراس معلنا أنَّ الساعة الآن هي التاسعة، فقررنا أن نتمشى قليلًا، وأثناء ذلك مرت بنا فتاتان أو ثلاثة ينزلن الشارع بزي يوم الأحد البني الضارب للأرجواني، بينما كنا نصعد الطريق، عبر الهواء النقي البارد الذي عج برنين الأجراس، لنعثر على الزقاق، ومن هذا المكان المرتفع استمتعنا بالمنظر الجميل الذي يزين الصباح القارس! فالقرية بأكملها تقبع في كنف ظل مزرق، وقد بدت التلال بأشجار بلوطها الشاحبة كأطياف مزرق، لتتراءى لك من البعيد شمس متوهجة مكسوة بالصقيع، وقد ارتسمت إشراقتها كجوهره رائعة، على التلال الساحرة لهذه المنطقة الداخلية البرية التي حفتها الأشجار. لتحيط بك عجائب من الجمال النقي الحقيقي، وهؤلاء الناس. وبعودتنا للقرية عثرنا على متجر صغير فابتعنا البسكويت والسجائر، والتقينا بأصدقائنا رجال الحافلة، فبدا على محياهم الخجل هذا الصباح، وهم بانتظارنا وجاهزون للانطلاق، وهكذا دخلنا إلى الحافلة والسعادة تغمرنا لمغادرتنا سورغونو. هناك شيء واحد أرغب بقوله، لا بد أنَّ المكان حول الحافلة آمن للغاية، فالناس يتركون حقائبهم في الأرجاء دون قلق. انطلقت الحافلة لأعلى الطريق، غير أنها توقفت للأسف عند نزل ريسفيغليو، 186 حيث مضى مفتش التذاكر ضئيل الجسد إلى آخر الممر

نحو المحطة، أما السائق فذهب ليشرب الشاي مع الرفاق. انتبهنا لوجود حشد كبير حول المداخل الكثيرة للنزل، وحفنة قليلة من الناس صعدوا إلى الدرجة الثانية خلفنا، فرحنا ننتظر ونتلفت حولنا، ثم صعد فلاح مسن يرتدي زياً فضفاضاً أبيض وأسود، ويبتسم بطريقة ساذجة راضية، صعد وراءه شاب بوجه نضر يرتدي بدلة وتحدث إليه: "أنت الآن في البوسطة". فحدق الرجل المسن من حوله بابتسامة متسائلة ساذجة خالية من المشاعر، تابع الشاب كلامه بطريقة متسامحة: "يشعر المرء أنه على ما يرام هنا، أليس كذلك؟". لكن الرجل العجوز كان متحمساً جداً فلم يجب، وظل يحدق هنا وهناك، ثم تذكر فجأة أن بحوزته رزمة فبحث عنها بهلع، إلا أن الشاب ذا الوجه المشرق التقطها من الأرض وسلمها له قائلاً: "آه كل شيء على ما يرام". ها هو مفتش التذاكر الضئيل بمعطفه العسكري القصير المفعم بالحيوية والمبطن بفرو الخراف، يخطو بخفة إلى آخر الممر المختصر الصغير ويبيده حقيبة البريد. ثم صعد السائق إلى مقعده الواقع أمامي، وقد لف كوفية حول رقبتة وسحب قبعته إلى أسفل أذنيه، وضغط على بوق السيارة، فمد فلاحنا العجوز عنقه للأمام لينظر كيف يفعل ذلك. 187 وهكذا مع ارتجاج واندفاع سريعة، بدأنا صعود التلة. قال الفلاح فرحاً: "إيه، ما كان ذلك؟". فرد الشاب ذو الوجه المشرق: "إننا ننطلق". "ننطلق! ألم ننطلق من قبل؟". فضحك ذو الوجه المشرق بسرور: "كلا، هل تعتقد أننا تحركنا بمجرد صعودك الحافلة؟". أجاب الرجل المسن ببساطة: "نعم، بما أن الباب قد أغلق". فنظر الشاب إلينا ليلقي منا تجاوباً مرحاً.

188

هوامش

١- جينارجينتو: كتلة صخرية كبيرة في وسط جنوب سردينيا، إيطاليا، وتشمل مقاطعتي نوورو وأولياسترا. ويشمل أعلى القمم في الجزيرة، مثل بونتا لا مارمورا ومونتي سبادا وبونتا إيربا إيرديس وبرونكو سبينا وبونتا باولينو. المجموعة تشكل جزءاً من حديقة جينارجينتو الوطنية.

2- الغلالة أو التونيك: نوع من الملابس المختلفة في الطول، فهي تبدأ من الأكتاف حتى مكان ما بين الأرداف والكاحل. وقد شاع ارتداء الغلالة في روما القديمة بين الرجال والنساء، والتي منشؤها أساساً الملابس الإغريقية.

3- خروف المارينو: أحد سلالات الغنم لإنتاج الصوف. أصل هذا النوع من إسبانيا، لكن النوع الحديث منه تم تربيته في أستراليا. ويعتبر صوف المارينو أحد أنعم وأفضل الصوف. بول مارينو هو نوع هجين بدون قرون أما الخروف الذي يملك قرون تكون طويلة وملتفة وتنمو بجانب الرأس.

4- البروليتاريا: هو مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر ويقصد الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري.

5- العشار الباسق: أو العشر نوع نباتي ينتمي إلى جنس العشار من الفصيلة الدفلية، يصل ارتفاعها إلى مترين أو ثلاثة وأحيانا إلى 5 أمتار، تفريعها قاعدي، النبات لونه أخضر رمادي. الساق مغطاة بقلف فليني أبيض غائر التشقق، عند خدش الساق ينساب سائل حليبي لزج.

6- ساساري: ثاني أكبر مدينة في جزيرة سردينيا الإيطالية وعاصمة مقاطعة ساساري تقع في الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة عدد سكانها 128.674 نسمة، وساساري واحدة من أعرق المدن في سردينيا ولعلها تضم أفضل مجموعة من الفن السارديني.

7- البرنوس: أو البرنس أو السلهم، هو عبارة عن معطف طويل من الصوف يضم غطاء رأس مدبباً وليس به أكمام، وينتشر استعماله في منطقة الشمال الأفريقي، فهو جزء من اللباس التقليدي الجزائري واللباس التقليدي التونسي كما يستخدم على نطاق واسع في المغرب وليبيا.

8- البوماندر: أو ناشر العطر، عبارة عن كرة تحتوي بداخلها العطور كالعنبر أو المسك، وقد يستخدم البرتقال أو التفاح المرصع بالقرنفل، كحماية ضد العدوى بأوقات الوباء أو مجرد مادة مفيدة لتعديل الروائح الكريهة.

الفصل السادس

إلى نوورو

إنَّ هذه البوسطات المنتشرة في عموم إيطاليا ممتازة بالفعل، فهي تسير في الطرق شديدة الانحدار والدائرية بكل سهولة وبشكل طبيعي، وكذلك التي نركبها الآن مريحة للغاية. لطالما أبهرتني الطرق في إيطاليا، فهي تمتد بلا هوادة ويأسر مثير للغرابة فوق أكثر المناطق وعورة، ففي إنكلترا يتم تصنيف أي طريق من هذا القبيل أو يمتد بين الجبال على الأقل بأنه أخطر من غيره بثلاثة أضعاف وتلصق عليه لافتة تشير إلى ذلك، ويذيع صيته في جميع أنحاء البلاد كمكان يستحيل الصعود إليه. أما في إيطاليا، فلا يوجد مثل هذا القبيل، فالحافلة تتقدم صعودًا وهبوطًا

وتتأرجح في الأرجاء ببرود أعصاب تام. يبدو أنَّ البنائين لم يبذلوا أي جهد أثناء تشييدهم لتلك الطرق، بطبيعة الحال هي جيدة جدًا لدرجة يصعب ملاحظة ماهية الإيماءات الرائعة التي تمثلها، أما الآن فغالبًا ما يبدو سطحها سيئًا بشكل لا يطاق، وسيؤول مصير معظم هذه الطرق إلى الخراب دون شك بعد إهمال لمدة عشرة أعوام، وذلك لأنَّ تشييدها قد تطأب شق الصخور المتدلّية وجرف جوانب التلال، لكن الحق يقال؛ فمن الرائع أنَّ الإيطاليين نجحوا بالتوغل في جميع مناطقهم التي يتعذر الوصول إليها، وهي كثيرة للغاية، من خلال إنشاء طرق سريعة مذهلة كهذه، والكيفية التي تحافظ فيها هذه البوسطات على شبكة نقل مثالية عبر تلك الطرق، فهذه الأرض الوعرة التي تحيطها جروف صخرية شديدة الانحدار لاتزال تُشق فيها الطرق بكل مكان. يبدو أنَّ الإيطاليين يمتلكون شغفًا بالطرق السريعة وشبكات الطرق الثابتة، وهذا ما يدل على أنَّ لديهم موهبة رومانية حقيقية اليوم، حيث أنَّ الطرق تبدو حديثة، **189** بالإضافة إلى أنَّ السكك الحديدية تخترق الصخور لأميال وأميال، دون أن يفكر أحد بذلك؛ فإن تم إنشاء خط سكة حديدية في إنكلترا مشابه لخط السكة الحديدية الساحلي الممتد من كالابريا وصولًا إلى ريغيو فسيجعل قلوبنا تطير فرحًا من هول الدهشة، أما هنا فيعتبر أمرًا عاديًا. فضلًا عن إعجابي الشديد في الوقت ذاته بقيادتهم للحافلات الكبيرة أو السيارات على حد سواء، بل يبدو الأمر سهلًا للغاية بالنسبة لهم، وكأنَّ الرجل هو جزء من السيارة. لا يوجد لديهم هذا الشعور البغيض وعدم الارتياح الذي يعيش داخل قلوب الناس في الشمال، فتسير السيارة بسلاسة ككائن حي يتسم بالعقلانية.

جميع القرويين هنا يملكهم شغف كبير إزاء الطرق السريعة، ويرغبون أن تتسع مساحة أراضيهم أكثر فأكثر، ويصبحوا قادرين على الخروج في أي لحظة يشاؤون للانطلاق بعيدًا وبسرعة كبيرة لا تُضاهى، فهم يبغضون العزلة الإيطالية السائدة قديمًا. هناك قرية تفصلها مسافة ميلين عن الطريق السريع، ورغم أنها تجثم عاليًا كعش نسر على قمم الجبال، إلا أنها لاتزال تسعى وتتفرح أوصالها لتلامس الطريق العظيم، وتجاهد دون كلل أو ملل علَّها تعانق نقطة تقاطع الحافلة التي تمر كل يوم مع السكة الحديدية؛ ولذلك فقد نزع الهدوء من قلب الأرض وفقدت سكينتها، فأصبحت محمولة بغضب عارم هائج لا يهدأ ولا يخبو طوال الوقت. بالإضافة إلى كل ذلك، عادة ما يكون الطريق الدائم لكل سكة حديدية في حالة يرثى لها وبحاجة ماسة إلى الترميم، فجميع الطرق في حالة مروعة ولا يبدو أنَّ شيئًا قد تم انجازه على أكمل وجه، فهل سيغدو عصرنا الميكانيكي مع هذا الإهمال مقبلاً على فترة ازدهار قصيرة للغاية يا ترى؟ وهل سيؤول الانفتاح الاقتصادي الرائع وأعجوبة توسيع مساحة الأراضي إلى الانهيار عمًا قريب؟ وهل سنعود إلى واقع استحالة الوصول إلى الأماكن البعيدة مرة أخرى؟ **190** من يعرف! بالنسبة لي فأنا أتمنى ذلك حقًا.

سارت بنا البوسطة مندفعة بمسار متعرج نحو أعلى التلة، مخترقة الظلال الباردة الثابتة تارة وبقع الأنوار التي رسمتها الشمس هنا وهناك تارة أخرى، ولقد لفت نظري الجليد الرقيق المشرق يملأ فتحات الأخاديد، والصقيع الرمادي الداكن يتلألأ بكثافة على سطح العشب، يا إلهي! أنا عاجز عن وصف المنظر الأخاذ للعشب وأجمات الأشجار وهي تنن مثقلة بالصقيع الذي هيمن على هالتها البرية الساحرة، أما سفوح التلال شديدة الانحدار فأخذت ترمي بما تحمله أشجارها الكثيفة المثقلة بالفاكهة، غير أنها احتفظت لنفسها ببعض من ثمار التوت. أما سيقان الأعشاب الطويلة فقد أضناها الصقيع ببرده القارس فراحت تذبل وتتلاشى. حتى الوادي أمسى غارقاً في الظلمة هناك بالأسفل، فبدأ وسطها أشبه بمجرى ضيق من الأشجار الكثيفة الممتدة بلا هدى أو عنوان، وحينها أدركت أنني عاشق قد وقع في شباك الهوى بمشهد الشتاء بحلته السمراء المصفرة المظلمة باللون الأزرق، وقد منحه سكونه التام هيبة عظيمة بعد أن أمسى أشيب الشعر جراء تساقط الثلوج. لا أقوى على نسيان منظر أشجار البلوط الياضعة التي أصرت على التمسك بأوراقها البنية، ومن المؤكد أنها أفضل حالاً بعد أن مرر الصقيع عليها لمساته الرقيقة.

وهنا يبدأ المرء في إدراك أن إيطاليا الحقيقية ممعنة في القدم وكيف سيطر الإنسان عليها وجعلها ذاوية ذابلة، أما إنكلترا فهي أشد وحشية وهمجية وعزلة بكثير في أجزائها الريفية، أما هنا في إيطاليا فقد قام الإنسان منذ قرون غابرة بترويض جانب الجبل الذي يصعب شقه محولاً إياه إلى مصاطب، بعد أن اقتلع منه الصخور. وكذلك راح يرعى بأغنامه وسط الغابات القاحلة فقطع أغصانها وحولها إلى فحم مشتعل، وقد اجتاز مرحلة انتقاله إلى المدنية في حوض المكان الأكثر وحشية وثبات. هذا هو الشيء الجذاب للغاية في الأماكن النائية، فأبروزي على سبيل المثال تمتاز بحياة بدائية وثنية جداً، وهي بعيدة عن المدنية بشكل غريب وتشغل الهمجية حيزاً جيداً منها، بيد أنها في النهاية تمثل أحد أنماط حياة البشر، فبات الريف الذي يمتلك أكبر قدر من الهمجية نصف متحضر وخاضعاً للإنسان، لقد أصبح كل شيء جلياً ومفهوماً الآن. 191 وأينما حل المرء في إيطاليا فإنه إما أن يدرك طبيعة الحاضر أو يستشعر تأثيرات العصور الوسطى عليه، أو الآلهة الغامضة البعيدة التي تسكن أعماق البحر المتوسط منذ القدم. إن كل مكان منها يتفرد بطراز من الوعي خاص به، أنشأه الناس الذين عاشوا فيه وعبروا عنه بأسلوبهم، وهو متكامل بالفعل وعلى أكمل وجه؛ قد يتجسد تعبيرهم للوعي عبر لوحة فنية مثل بروسيربين¹ أو بان، أو من خلال الآلهة المكفنة المثيرة للغرابة للحضارة الإيتروسكانية أو الصقليين القدامى، ولا شيء أقل من ذلك. لقد تم إضفاء الطابع الإنساني على الأرض شيئاً فشيئاً، وعلينا نحن أرباب الوعي المنسوج أن نتحمل نتائج هذا التطبيع الإنساني، ولهذا فالذهاب إلى إيطاليا والتوغل فيها

هو بمثابة عمل رائع لإعادة اكتشاف الذات، من خلال العودة إلى الماضي عبر طرق الزمن القديمة، لتستيقظ فينا أوتار غريبة ورائعة، وتهتز تارة أخرى بعد مئات السنين من النسيان التام، فتراودنا أخيراً مشاعر قاحلة جدباء، لقد تطور كل شيء وعلى مرأى الجميع!.

حين استفتقت في صباح يوم هذا الأحد شاهدت الصقيع بين أجمات أشجار ساردينا المتشابكة الموحشة، فعادت السعادة لتغمر روحي. كان كل هذا مجهولاً تماماً ولم يكتب له الظهور من قبل، فلم تُختزل الحياة في إيطاليا بعملية اكتشاف الماضي فقط، بل تمثلت وبشدة بطبيعتها الأخاذة أيضاً. لقد أعادتني إيطاليا في الذاكرة إلى الوراء لأعرف أشياء كثيرة عن نفسي كنت أجهلها قبلاً، وأبرزت لي أشياء كثيرة أضعتها فيما مضى، مثل تمثال الإله أوزيريس المرمم، ولكن أثناء سفري في البوسطة بهذا الصباح أدركت أنّ هناك توجهاً بالنظر صوب المستقبل والتقدم للأمام، بصرف النظر عن رحلة اكتشاف الماضي، التي توجب على المرء القيام بها قبل أن يصل إلى مرحلة الكمال. هناك أراضٍ غير مستصلحة لا علم لأحد بها **192** حيث لم يفقد الملح مذاقه فيها بعد، ولكن يتوجب على المرء بلوغ الكمال التام في الماضي العظيم قبل أي شيء.

يحتاج المرء خلال السفر لتناول الطعام، فعمدنا إلى تناول بعض البسكويت، أما الفلاح المسن ذو الملابس البيضاء الفضفاضة والصدر الأسود فراح يتبسم متعجباً بوجهه ذاك الذي تعلوه قبعة جوربية قديمة، برغم أنه ذاهب إلى تونارا فقط التي لا تبعد أكثر من سبعة أو ثمانية أميال تقريباً، ثم أخرج من صرته بيضة مسلوقة وهم بتقشيرها بنفسه، وبتبذير لا مبالٍ نزع جزءاً من بياضها مع القشر، فخاطبه الشاب ذو الوجه المشرق وهو أحد سكان مدينة نوورو قائلاً: "انتبه، لقد أضعتها كلها". أجاب الفلاح المسن ملوحاً بيده المستهترّة: "ها!". إنّ جل ما اهتم به هذا العجوز هو مقدار ما أهدر منذ أن بدأ برحلة سفره تلك، وركوبه البوسطة لأول مرة في حياته. أخبرنا الشاب أنّ لديه نوعاً من الأعمال في مدينة سورغونو مما دفعه للتنقل المتواصل، أما الفلاح فكان ينجز عملاً ما لأجله، أو أحضر له شيئاً من تونارا. يا له من شاب لطيف يمتلك عينين لامعتين، حتى إنه جلس بهدوء تام طوال الرحلة التي استمرت لثمانى ساعات دون أن يفعل أي شيء.

لقد أخبرنا الشاب أنّ الطرائد ما زالت موجودة بين هذه التلال؛ كالخنازير البرية التي تم اصطيادها في عمليات الصيد الكبيرة، فضلاً عن العديد من الأرانب البرية. ولقد روى لنا موقفاً طريفاً وغريباً حدث أمامه ذات يوم، حيث شاهد أرنباً قد جذبته نور مصابيح السيارة الساطع، وراح يركض ويجري إلى الأمام مسابقاً السيارة وأمال أذنيه نحو الخلف، وقد أصر أن يحافظ على وجوده في المقدمة متوسطاً وهج السيارة الأمامي **193** وظل يطير مثل المجنون، وحين وصلنا عند التلة زاد من سرعته ثم توارى مختفياً بين أحضان الظلام.

نزلنا في وادٍ عميق ضيق ساقنا صوب مفترق طرق ينتصب عند أحد جانبيه كشك مؤقت لبيع الطعام، ثم بدأنا نصعد بشكل حاد شيئاً فشيئاً حتى وصلنا إلى تونارا، وهي القرية التي شاهدناها البارحة تتوسط الشمس، وقد كنا ندنو منها من الخلف، وما إن انحرفنا عن ضوء الشمس حتى اتخذ الطريق منحني طويلاً نحو سلسلة من تلال مفتوحة محاطة بالوديان، وهناك في المقدمة رأينا بريقاً يتماوج فيه اللونان القرمزي والأبيض بحركة بطيئة، ثم بدا لنا أنه موكب بعيد يتألف من مجموعة نساء ارتدين ثياباً قرمزية، بالإضافة إلى خيال طويل يتحرك بعيداً عنا، في صباح يوم الأحد. كان الموكب يمر على طول سلسلة التلال المضاءة بأشعة الشمس الصفراء التي تقع فوق وادٍ عميق مجوف، إنه موكب مقتصر على نساء يرتدين ثياباً مزدانة بألوان براقة قرمزية اللون وبيضاء وسوداء، يتحركن ببطء على مسافة منا تحت مباني القرية ذات اللونين الرمادي والأصفر والتي اعتلت قمة التلال، يقصدون كنيسة قديمة منعزلة، ويحثون الخطى فوق هذا الطريق المرتفع الضيق الواقع بين قمتين والأشبه بجسر نسجته خيوط الشمس.

هل سنشاهد المزيد يا ترى؟ استدارت الحافلة مرة أخرى واندفعت على طول الطريق المستوي ثم انحرفت عن اتجاهها فجأة، وعندما تقدمنا نحو الأسفل بقليل شاهدنا الموكب قادمًا، فتوقفت الحافلة تمامًا فمددنا رؤوسنا خارج النوافذ لنجد الكنيسة القديمة منتصبة فوقنا بين الصخور وقطع العشب المنبسط وهي تدق أجراسها، فانتبهنا لوجود منازل حجرية قديمة خربة في الأعلى عند المقدمة. تابعنا المسير لينتهي بنا الطريق برفق إلى ختامه، 194 أمام قريتين تقع إحداها فوق حافة الأخرى، وقد انتصبنا على قمة السفح الجنوبي شديد الانحدار. وإذا التفتنا نحو الأسفل من النافذة فستبصر عيناك الوادي الجنوبي يجثم بعيداً هناك تعلوه نفثة بيضاء من دخان قاطرة بخارية.

أخذ موكب النساء ينشد بعض الترانيم ببطء على مسافة قريبة منا، متخذاً انحناءة في مسيره نحو الأعلى أثناء تقدمه اتجاهنا بخطوات متهادية فوق الطريق الأبيض الذي يتوسط العشب. ما زال الصباح قائماً حتى هذا الوقت، فأثرنا التوقف جميعاً فوق سلسلة التلال التي تطل على العالم بأسره، متأملين أعماق الصمت الجاثمة أدناها من الجهة اليمنى، ثم عمد الرجال إلى الغناء بنغمة أحادية الصوت غريبة مختصرة ومتقطعة، لتتبعها أصوات هسهسة خافتة وسريعة جادت بها أفواه النساء كرد عليهم، ثم تعالى غناء الرجال مرة أخرى! إنَّ معظم من ارتدى الزي الأبيض هم من الرجال فقط، أما من كان يقود الهاتف فهو كاهن يرتدي جلبابه وبرفقه صبيان، وقد تجمهرت خلفه مجموعة صغيرة من الرجال طوال القامة حاسري الرؤوس ولوّحت الشمس جلودهم، ارتدوا جميعاً سراويل قصيرة مخملية ذهبية اللون؛ هم حفنة من فلاحي الجبال راكعين

أمام صورة كبيرة للقديس أنتوني بادوفا رُسمت بالحجم الطبيعي لجسده. توجد خلفهم مجموعة أخرى من الرجال يرتدون زيًا موحدًا، يتكون من سراويل مصنوعة من الكتان الأبيض تتدلى على نطاق واسع وفضفاض تقريبًا إلى الكاحلين، وبدلاً من أن تدس داخل لفائف الساق² السوداء، فقد بدت ناصعة البياض تحت كشكشات التنورة الخلفية. وسترات سوداء مزينة بشرائط مزخرفة تم قصها إلى مستوى منخفض لتبدو أشبه ببذلة سهرة. وقد جثمت القبعات الجوربية على رؤوسهم بطريقة مختلفة. راحوا يرددون الترانيم بنغمات خافتة هادئة ملحنة بأنغام موسيقية تصدر من أجوافهم، تبعها إيقاع متناغم خفيف من النساء. ثم بدأ الموكب يزحف ببطء نحو الأمام جُزأً بتزامن مع الترنيمة. رفعت الصورة العظيمة للقديس أنتوني بادوفا بطريقة متمزجة. وفجأة تباعد الرجال عن بعضهم ليشكلوا فراغًا صغيرًا، ثم تقدمت النساء وأقمن أنفسهن ببراعة داخله، بحيث كل سيدتين تقفان بمحاذاة بعضهما بشكل متزاحم لدرجة أن كعوب أقدامها تتقارب بشدة، ليشرعن بغناء عفوي كل في دوره، فبدا منظرهن خلابةً في ذلك الزي الرائع الجميل الذي ارتدينه. **195** لاحظنا وجود فتيات صغيرات في المقدمة يتبعن مباشرة الرجال طوال القامة بزيهم القروي الأبيض والأسود. إنهن بنات صغيرات يرتدين زيًا تقليديًا محتشمًا ذا لون قرمزي وأبيض وأخضر، وتنانير قرمزية طويلة تصل إلى أقدامهن، مزينة بشرائط أخضر في أسفلها، مع مآزر بيضاء بحواف ذات ألوان خضراء زاهية ومختلطة. بالإضافة إلى سترات صغيرة قرمزية وأرجوانية، وسترة مفتوحة فوق قمصان بيضاء، وأغطية رأس سوداء مطوية على ذقونهن الصغيرة، فبدا الوجه مؤطرًا باللون الأسود، باستثناء الشفاه التي تركت واضحة. لقد أثارت هؤلاء الفتيات الصغيرات دهشتي بزيهن المتألق وغطاء الرأس الأسود! إنهن يقفن بكبرياء وثبات مثل أميرات فيلاسكيز! أما الفتيات الأكبر سنًا فقد تبعن موكبًا قريبًا تبعتهن الفتيات الأكبر سنًا ولحقت بهن النساء الناضجات. أخذت التنانير القرمزية الطويلة تلمع بشرائطها الخضراء متأرجحة بهدوء وسط هذا التجمع المتماسك للألوان، ناهيك عن المآزر البيضاء المتألئة بشرائطها الخضراء الممتزجة اللامعة. أما عند الحلق، فقد تم ربط القمصان البيضاء بزينة من الزركشات الذهبية، حيث تم وضع كرتين مزركشتين على الصدر. وتلك أكمام بيضاء المنتفخة تحت السترة المفتوحة بحوافها الأرجوانية والقرمزية المخضرة. أخذت الوجوه التي أحاطت بها الملابس الداكنة بالكامل تقترب منا رويدًا رويدًا، وقد استمرت شفاههم بترديد الترانيم وانشغلت عيونهم بمراقبتنا في الوقت ذاته. وهكذا أقبل نحونا ذلك الموكب الملون متمايلًا برفق. اهتزت الثياب الناعمة بلونها القرمزي وأزهارها الحمراء الفاتحة متلاحمة مع بعضها، وبدت الأشرطة والعصائب بلونها الأخضر الزمردي وكأنها تومض عبر اللون الأحمر والأبيض اللامع. أما العيون الداكنة فراحت تحرق بنا بصعوبة وفضول مستعر من تحت السنود³ الأسود، بينما ظلت الشفاه تتحرك تلقائيًا لتشدو الترانيم. اختارت حافظتنا الجانب الداخلي من الطريق أثناء مسيرها،

فتوجب على الموكب أن يدور حولها ليتقدم صوب الأفق، حيث يقع الوادي العظيم في أسفله. **196** انشغل الكاهن بالتحديق بنا، فاحتكت لوحة القديس أنطونيوس القبيح قليلاً أثناء مرورها بمؤخرة البوسطة الرمادية الكبيرة. كان الفلاحون الذين يرتدون سراويل قديمة ذهبية مغسولة بنعومة، يتعرقون تحت وطأة ثقل وزن لوحة القديس أنطونيوس التي كانوا يحملونها، غير أنهم واصلوا الغناء بشفاه مفتوحة، وسراويلهم البيضاء الفضفاضة تتمايل خلال مشيهم، وقد وضعوا أيديهم وراء ظهورهم، ثم استداروا مرة أخرى لينظروا إلينا، بأيادهم الكبيرة القاسية المطوية خلف تنورة مزركشة بالكشكشات. وكذلك النساء كن يتأرجحن بتثاقل في مشيتهن، فتتراقص معهن الأشرطة الخضراء والقرمزية، ويستدرن بين الفينة والأخرى للنظر إلينا. ثم تجاوز الموكب حافلتنا مواصلاً طريقه للأعلى، منحنيًا بقوة أمام الأفق متجهًا صوب الكنيسة القديمة. وقد بدا اللون القرمزي المخضب بالحمرة القانية لمؤخرة الموكب فاقعًا جدًّا، ويمكن للمرء أن يلحظ بشكل دقيق السترات النسائية المقصوفة بشكل معين، بلونها الأحمر الشبيه بورود نباتات الخشخاش، والمؤطرة باللون البنفسجي الفاتح والأخضر ولون القميص الأبيض الذي يظهر عند الوسط تمامًا، أما الأكمام الطويلة فكانت منفوخة بالكامل، وأغطية الرأس السوداء قد تدلّت إلى حد ما. كانت التنانير المطوية تتأرجح ببطء، وبرز الشريط العريض ذو اللون الأخضر بسبب حركتها. في الواقع هذا هو الحال الذي توجب أن تكون عليه تلك المجموعة الأنيقة المتراسة الأشبه بياقوتة خضراء، وذلك بأن تؤدي حركة أفقية رائعة ذهابًا وإيابًا بزيها القرمزي الأنيق، فتمنح فخامة متزنة لتلك الحركة القروية، مع ألوان بديعة للغاية يمتزج فيها اللون الأحمر القاني مع الأخضر البراق. لم تكن جميع الأزياء متشابهة تمامًا، فبعضها يمتلك لونًا أخضر غامقًا وأخرى فاتحة اللون. وهناك سترات نسائية بلا أكمام لها لون أحمر داكن، وأخرى تمتلك مآزر هي أشد رداءة من غيرها، وتفنقر مثل هذه الأشرطة الرائعة في الأسفل. ومن الواضح أن بعض الحاضرين أكبر سنًا من غيرهم، ولربما قد بلغوا الثلاثين عامًا، حيث ما زالوا يتمتعون بالمثالية والرزانة، **197** وقد كرسوا أنفسهم ليوم الأحد وأيام الغفران فقط، باستثناء عدد قليل منهم ارتدوا زياً أغمق ضارباً للحمرة أكثر من القرمزي الأصلي. هذا التمايز في درجة اللون أدى إلى إبراز جمال الحشد النسائي المتنوع.

حين وصل الموكب إلى الكنيسة الصغيرة الرمادية البائسة الموجودة على قمة التلال فوقنا مباشرة، تسنى لحافلتنا أن تنحدر بسرعة نحو نقطة توقف على جانب الطريق الواقعة في الأسفل، بينما كنا نعاود الصعود فوق مسار الصخور الصغير المؤدي إلى الكنيسة، وحين وصلنا إلى مدخل الكنيسة الجانبي وجدناها ممتلئة تمامًا، ولكننا شاهدنا الفتيات الصغيرات راكعات على

الألواح الحجرية⁴ المسطحة المكشوفة، وخلفهن تجمعت سائر النساء راكعات على مآزرهن، وأكف أيديهن مثنية على بعضها. كانت الكنيسة مكتظة بهؤلاء الناس حتى المدخل الأبعد لها، حيث أشرقت الشمس بأنوارها الصفراء، على مدخل الطرف الغربي الأكثر اتساعاً. وسط ظل هذه الكنيسة المكشوفة والمطلية بالكلس الأبيض، بدت كل هؤلاء النساء راكعات بألوانهن وأغطية رأسهن السوداء وكأنهن فراش كثيف من الورود، عليه غطاء أسود وأحمر قانٍ، وقد ركن جميعهن على حجر الرصيف الصليب المكشوف. توجد أمام الفتيات الصغيرات ذوات الزي الأحمر القاني ساحة تجمّع فيها الرجال بسرّاويلهم الناعمة الذهبية، ورؤوسهم المستديرة الداكنة، راكعين في خشوع وبشكل مربك، ومعهم فلاحون ملتحمون رؤوسهم رمادية اللون وقد ارتدوا صدارت سوداء غريبة الشكل. وأمامهم يقف الكاهن في ثيابه البيضاء وبشكل جلي، حيث بدأ بإلقاء خطبته بكل صدق وحماسة أمام الملائكة. وبجانب مذبح الكنيسة كان يجلس تمثال أنطونيوس اللشبوني⁵ الكبير ذو المكانة المهمة وهو يحتضن طفلاً، حيث بدا عصرياً بسيطاً بعباءته السوداء، ومنظره مع هذا الطفل يشبه السيدة العذراء إلى حد ما. قال الكاهن: "الآن، يُظهر لك القديس أنطونيوس المبارك كيف يمكنك أن تكون مسيحياً، ولهذا فعليك اتباع تعاليمه".

غير أنّ كلمة مسيحي التي يتم التحدث بها بنبرة كهنوتية غريبة تثير أعصابي، يا لها من موعظة عقيمة جذباء. راحت النساء يراقبنني وكيوبي عن كثب أثناء وجودنا عند المدخل، وأكف أيديهن مثنية على بعضها. فقلت لكيوبي: "هيا بنا لنبتعد وندعهم يستمعون".

وهكذا غادرنا الكنيسة لنتركها مزدحمة بضيوها الراكعين، ونزلنا عبر المنازل الخربة نحو البوسطة، التي كانت تقف على ما يشبه مكاناً مستوياً، وهو عبارة عن مصطبة ممهدة تضم عدداً قليلاً من الأشجار، تقف صامتة بسكون فوق الوادي، 199 بيد أنه مكان رائع حقاً، فعادة ما يُقدر مستوى الحياة وفقاً لمستوى سطح البحر، ولكن هنا في قلب سردينيا، فيكون مستوى الحياة مرتفعاً مثل هضبة تزينت بضياء الشمس الذهبي، أما مستوى سطح البحر فهو بمكان ما بعيداً عنها، في الأسفل وسط الظلام، إنه لا يعني لها أي شيء على الإطلاق. إنّ مستوى الحياة شاهق الارتفاع يعانق الشمس ويتدق حلاوة دفئها، وهو يسكن بين الصخور في الوقت ذاته. نظرنا من النافذة إلى أسفل الوادي البعيد المشجر وإلى نفثة البخار حيث أتينا بالأمس، كان هناك منزل قديم منخفض في هذه الساحة التي تحلق النسور فوقها. آه كم أتوق للعيش في تلك القرية

الحقيقية، أو بالأحرى هما قريتان متصلتان ببعضهما كحلقة الأذن ومشكاتها، حيث تتدلى للأمام والخلف، لتبرز بنتوء قرب قمة السفح الحرجي الطويل المنحدر، الذي لا ينتهي أبدًا ليبقى متقدمًا نحو أعماق بعيدة في الظل.

بالأمس وعلى هذا المنحدر جاء الفلاح العجوز وبرففته ابنتاه الرائعتان ومُهر يحمل على ظهره حزمة.

لا بد أن يكون المتجول وزوجته في مكان ما داخل هذه القرى النفيسة النائثة الموجودة أمامنا، أتمنى لو أستطيع رؤية مقعدهما الخشبي الذي يعرضان عليه بضاعتها وأشرب العصير معهما.

تحدثت كيوبي إلى السائق قائلة: "يال جمال هذا الموكب!". فأجاب بحزن: "آه أجل، هذا موكب قادم من منطقة تونارا، يعرض أجمل أزياء ساردينيا". **200** ها هي حافلتنا تنطلق الآن مرة أخرى دون الفلاح العجوز، وها نحن ذا نستعيد المسير على طريقنا، وخلال ذلك شاهدنا امرأة تقود مهرًا صغيرًا أمام الكنيسة، وتسير بخطوات طويلة جعلت تنورتها الكستنائية تتأرجح مثل المروحة، وهي تجر حبل الرسن. يبدو أنهم يرتدون الزي الأحمر القاني يوم الأحد فقط، أما خلال أيام الأسبوع يتم اختيار اللون الكستنائي أو البني الأرجواني أو الصبغة البنية لنبات الفوة.

أخذت الحافلة تنزلق بسرعة وسهولة أسفل التل متجهة صوب الوادي. تحتوي الوديان البرية الضيقة في هذا المكان على مجموعة من الأشجار، ومن بينها أشجار الفلين ذات السيقان البنية. وعلى الجانب الآخر يوجد فلاح يرتدي الزي الأبيض والأسود، يعمل بمفرده في مصطبة صغيرة تقع على أحد المنحدرات، إنه شخصية صغيرة منعزلة عن العالم بأسره مثل طائر عقق بعيد. يُفضل هؤلاء الناس البقاء منعزلين عن غيرهم، وهذا ما يفسر رؤية أحدهم كمخلوق غريب يهيم وحيدًا وسط البراري، غير أن هذا الواقع مغاير تمامًا لصقلية وإيطاليا، حيث لا يمكن للناس ببساطة العيش بمفردهم مطلقًا، فلا بد أن يجتمع منهم شخصان أو ثلاثة على الأقل. لكنه صباح الأحد وأن تلمح عينك عاملاً يشق طريقه إلى عمله هو أمر استثنائي، حيث كنا نمر طول الطريق بالعديد من المشاة كرجال يرتدون جلود الغنم السوداء، وأولاد يرتدون ثيابًا بالية خضراء، إنهم ينتقلون من قرية إلى أخرى عبر الوديان البرية، فصباح يوم الأحد يمنح شعورًا بالحرية والرغبة بالتجول كما هو الحال في الريف الإنجليزي. كان الفلاح العجوز يعمل بمفرده فقط، بالإضافة إلى وجود راعي منشغل بمراقبة قطيعه من الماعز ذي الشعر الأبيض الطويل.

يال جمال هذه المعزات، فهي سريعة للغاية وراحت تركض وتقفز كظلال بيضاء على طول الطريق أمامنا، **201** ثم تنطلق إلى أسفل الوادي، حتى إنني رأيت إحداها فوق غصن من شجر البلوط، حيث أخذت تلوك الأوراق الخضراء بكل هدوء، ثم رفعت نفسها عاليًا بواسطة ساقها

الخلفتين الطويلتين للغاية، لتضع أقدامها النحيلة أقصى ما يمكن على فرع علوي ممتد للأمام.

كلما وصلنا إلى قرية نفق و نترجل عن الحافلة، ليتوارى مفتش التذاكر ضئيل الحجم مختفياً في مكتب البريد لأجل جلب الحقيبة البريدية، وهي عادة ما تكون مسألة تستلزم وقتاً تحتوي على ثلاثة رسائل. وحينها انتبهنا لوجود مجموعة من الناس محتشدة حول مكتب البريد، وقد ارتدى الكثير منهم ثياباً خشنة رثة، وبدوا فقراء غير جذابين، وربما هم فاسدون إلى حد ما. يبدو أنّ الموهبة الإيطالية للتواصل السريع مع العالم هي موهبة سديدة بعد كل شيء، لكنني لاحظت وجود نظرة مشبعة بالكراهية تقريباً على وجوه الناس الذين يقطنون هذه القرى المعزولة التي بدأت منذ الأزل بعيداً عن أي مركز للحياة. هذا ما يذكرنا بأنّ الحافلة هي ابتكار رائع، فرغم أنها تعمل على هذا الخط منذ خمسة أسابيع فقط، إلا أنني أتساءل عن عدد الأشهر التي تستطيع الاستمرار فيها بالعمل.

أنا واثق أنها لن تغطي نفقة تشغيلها فتكلفة تذاكر الدرجة الأولى حوالي سبعة وعشرين فرنكاً لكل منا على ما أعتقد، أما الدرجة الثانية فتبلغ حوالي ثلاثة أرباع الأولى، رغم أنّ الحافلة لم تحتو في بعض أجزاء الرحلة إلا عدداً قليلاً من الركاب، فالمسافة كبيرة جداً وعدد سكان هذه القرى ضئيل للغاية، وحتى إن استبد بهم الشغف بالخروج من قراهم، وهو أمر يمتلك جميع الناس الآن، فليس بمقدور الحافلة مع ذلك أن تكسب أكثر من متوسط مئتين إلى ثلاثمئة فرنك في اليوم، 202 حيث يتوجب عليها صرف مرتبات لرجلين، بالإضافة إلى تكلفة البنزين الباهظة، والتردي والتلف الناتج عن الاستعمال، ولن تستطيع تحمل قيمة كل هذه المصاريف.

سألت السائق عن مقدار الأجر الذي يتقاضاه لكنه أبى أن يطلعني عليه، غير أنه أخبرني أنّ الشركة تكفلت بمصاريف الطعام والسكن له ولزميله في محطات استراحة المسافرين، وقد ذكر أنّ عدد المسافرين قليل بشدة في يوم الأحد، وهو أمر يصعب تصديقه؛ فقد ذكر بتذمر وغرور أنه حمل ذات مرة خمسين شخصاً على طول الطريق من تونارا إلى نوورو، وقال إنّ حافلته تحمل معها البريد، ولهذا تدفع له الحكومة دعماً يصل إلى آلاف الليرات سنوياً، وهو رقم جيد. يبدو أنّ الحكومة هي الخاسرة الوحيدة كعادتها. هناك المئات، إن لم يكن الآلاف من هذه البوسطات التي تسير بين المقاطعات النائية في إيطاليا وصقلية أما ساردينيا فلها شبكة من الأنظمة، إنها رائعة وربما تمثل ضرورة مطلقة لهؤلاء السكان المتوترين الذين يصعب تهدئتهم ويعجز أحدهم ببساطة أن يبقى بمكان واحد، حيث يجد بعضهم الراحة والسكينة في الدوران عبر الأوتوفي أو كما يدعى نظام الحافلات. يتم تشغيل الأوتوفي عبر شركات خاصة مدعومة فقط من قبل الحكومة.

أثناء انطلاق حافلتنا بعجالة خلال الصباح تراءى لنا من البعيد قرية كبيرة تجثم على قمة مرتفعات صخرية شاهقة، وقد امتازت بمنظر ساحر شبيه للمدن الصغيرة الناشئة في قمم الجبال والتي تبصرها من مسافة كبيرة، 203 إنها تذكرني دائماً برواي الطفولية لمدينة القدس، وهي تمتد عالياً لتعانق الأثير، متألئة بأبنيتها التي شُيدت على شكل مكعبات حادة.

إنَّ الاختلاف بين القرى المرتفعة المتفاخرة وذات الجو الذي ينعش القلب وقرى الوادي المنخفضة مثير للفضول؛ فالقرى التي تتوج العالم تمتلك هواءً نقيًا مشرقًا مثل تونارا، أما التي ترقد في الأسفل فيكسوها الظل، ويسودها شعور قاتم كئيب، ويعيش فيها أناس سكنت البغضاء في قلوبهم كحال سورغونو وغيرها من الأماكن التي توقفنا فيها. قد يكون هذا الحكم خاطئًا تمامًا، ولكن هذا الانطباع الذي تخلل أحاسيسي.

نحن الآن متواجدون في أعلى مكان مررنا به خلال رحلتنا، حيث شاهدنا رجالاً يرتدون جلود الأغنام أو يغطون وجوههم بالشال لتبرز عيونهم منها فقط. وحين ألقينا نظرة خاطفة إلى الورا شاهدنا الوادي يمتد ويشطر ثلوج هضبة جينارجينتو مرة أخرى، حيث رمت الثلوج بعباءتها البيضاء على أكتافها العريضة، إنها القلب النابض لساردينيا. انطلقت الحافلة ثم توقفت أخيرًا عند وادٍ مرتفع بجانب مجرى مائي، حيث انضم الدرب القادم من بلدة فوني إلى طريقنا، حيث توقفنا بانتظار مرور شاب يركب دراجته الهوائية. رغبت بالذهاب إلى فوني بعد أن علمت أنها أعلى قرية في ساردينيا.

تابعنا المسير وظهرت أمامنا أبراج جافوي منتصبة على القمة العريضة، ثم وصلنا إلى موقف في منتصف الطريق، وهو مكان تتلاقى فيه الحافلات أثناء سفرها ذهابًا وإيابًا، وتوجب علينا البقاء فيه لساعة كاملة لأجل تناول الطعام، بعد ذلك أكملت حافلتنا سفرها حتى أنهت الطريق الملتف ودخلت في القرية أخيرًا، وإذ بالنساء يُقبلن نحو باب الحافلة بحثًا عن أقربائهن، مرتديات زياً ذا لون بني غامق، أما الرجال فكانوا يحثون الخطى مسرعين صوب نقطة توقفنا 204 وهم ينفثون دخان غليوناتهم. ثم شاهدنا حافلة أخرى احتشد حولها مجموعة قليلة من الناس، ثم همنا للنزول من الحافلة أخيرًا.

لقد نال التعب والجوع منا، فوجدنا أنفسنا أمام باب نزل ما ودخلنا بسرعة، فوجدناه مكانًا نظيفًا وقد جلس في الصالة مجموعة من الرجال راحوا يتحدثون بمرح، ثم ظهر أمامنا باب جانبي يؤدي إلى حجرة استراحة مشتركة، وكم كانت ساحرة للغاية! يوجد فيها مدخنة حجرية واسعة جدًا بيضاء ونظيفة، لها تقوس خفيف في أعلاها، وقد اشتعلت نارها بواسطة حزمة حطب طويلة مقطعة بكل أناقة ومعلقة بشكل أفقي. بدت شعلة النار شفافة ونقية، أمامها كراسٍ صغيرة منخفضة وغريبة، وضعت لأجل أن نجلس عليها، ويبدو أن هذا النوع من الكراسي المضحكة خاصة بتلك المنطقة.

كانت أرضية هذه الغرفة مرصوفة بالحصى الدائري بشكل مرتب وجميل، وقد غُلقت مراوح نحاسية رائعة على الجدران، راحت تتلألأ أمام طلائها الأبيض. وتحت النافذة الأفقية الطويلة التي تطل على الشارع هناك بلاطة حجرية تنتصب فوقها مشاعل لأجل نيران الفحم الصغيرة. كان منحني قوس المدخنة عريضًا ومسطحًا قليلًا، أما المنحني فوق النافذة فهو أشد عرضًا، وبذلك التسطیح الرقيق نفسه، وقد ارتفع السقف الأبيض بشكل مقبب بدقة. لقد بدت الغرفة خلابة الجمال حقًا ببريقها النحاسي، وامتداد الأرضية المكسوة بالحصى ذات اللون الوردي الداكن، ومساحتها الواسعة، وعدد قليل من حزم الحطب اللامعة النظيفة. جلسنا ودفأنا أنفسنا، وقد تم استقبالنا والترحيب بنا من قبل مضيضة بدينة وابنتها ذات الوجه البشوش، حيث ارتدت كل منهما فستاتًا بني اللون بالإضافة إلى قميص أبيض فضفاض. كان الناس يدخلون ويخرجون عبر أبواب شتى، أما المنازل فقد تم بناؤها دون إعداد تخطيط محكم وأنشئت الغرف بشكل عشوائي هنا وهناك. فجأة أقبلت فتاة غنوج من داخل الظلام ووقفت لتتظر إلى النار، ثم التفت نحوي **205** مبتسمة بزيها الذي يعبر عن اعتزازها بنفسها.

كنا نتصور جوعًا، فسألنا: "ما الطعام الذي لديكم؟ وهل هو جاهز للأكل؟". فأجابت الفتاة اللطيفة ذات الخدود المشدودة: "يوجد عندنا لحم الخنزير البري، وهو على وشك أن يغدو جاهزًا". وقد اشتمنا رائحة طهي هذا الخنزير البري التي تعبق في الهواء. وهكذا استمرت الفتاة في المشي بهوادة ذهابًا وإيابًا تحمل بيدها طبقًا ومنديل مائدة، ثم قَدِمَ الطعام أخيرًا. لقد مررنا بمكان داخلي مظلم، وهو الجزء الوحيد الخالي من النوافذ، حيث بنيت حوله الغرف التي تم إنشاؤها بشكل عشوائي، حتى وصلنا إلى حجرة مرصوفة بالحصى مظلمة وكبيرة فيها منضدة بيضاء وأطباق مقلوبة عليها. كان البرد شديدًا لدرجة لا تطاق، كانت النافذة تطل صوب الشمال على المناظر الطبيعية الشتوية للمرتفعات والحقول والجدران الحجرية والصخور. يا إلهي! إن هواء الغرفة بارد وساكن.

وجدنا أنفسنا فجأة وسط حفلة هادئة، تتألف من سائق الحافلة الثانية ورفيقه، مسافر ملتج من الحافلة الثانية مع ابنته، مواطن ذو وجه لامع من نوورو، سائق حافلتنا، ونحن بالطبع. أما مفتش التذاكر ضئيل الحجم لحافلتنا فلم يحضر، اتضح لي فيما بعد أنه لم يستطع دفع ثمن هذه الوجبة التي لم تكن مدرجة ضمن أجره.

تساور مواطن نوورو مع سائقنا الذي بدا التعب حول عينيه، ثم طلب من الفتاة المضيفة أن تفتح علبة سردين، ولكن تم فتحها على الطاولة بسكين جيب كبير يخص مفتش تذاكر الحافلة الثانية. بدا شخصاً متهوراً غريباً ومثيراً، لقد أعجبني كثيراً، 206 غير أنني شعرت بالرعب من الطريقة التي شق بها علبة السردين بمطواته. على أي حال استطعنا أن نأكل ونشرب أخيراً، حيث تم إحضار الحساء في وعاء كبير، وكان يغلي من شدة سخونته، إنه حساء لحم لذيذ وبسيط دون خضروات، وممتع ووافر ويبعث الحيوية في النفس! فشربناه بنهم وأكلنا معه الخبز البارد المحبب.

ثم وصل لحم الخنزير أخيراً، ولكن يا للأسف! تبين أنه مجرد وعاء يحتوي على كتل من اللحم المسلوق المقطّع الداكن، الذي صنع منه المرق، كان جافاً تماماً ويفتقر للدهون، ولو لم يتم إخباري مسبقاً لاحترت كثيراً في تحديد نوعية هذا اللحم، يبدو أن هذا الخنزير البري حظي باهتمام طفيف فقط من الطاهي، وهو أمر محزن جداً، غير أننا وبرغم كل شيء لم نمانع أكل قطع اللحم الجاف الساخن هذا مع الخبز، بل سُعدنا بالحصول عليها، فلقد أشبع بطوننا على الأقل، وجُلب معه وعاء من الزيتون الأخضر المر إلى حد ما ليستعمل كمنكّه. بعد ذلك أحضر مواطن نوورو العصير من عنده وأصر أن يقدمه للجميع عوضاً عن العصير الرديء الموضوع على هذه المائدة، فشربناه واستمتعنا به.

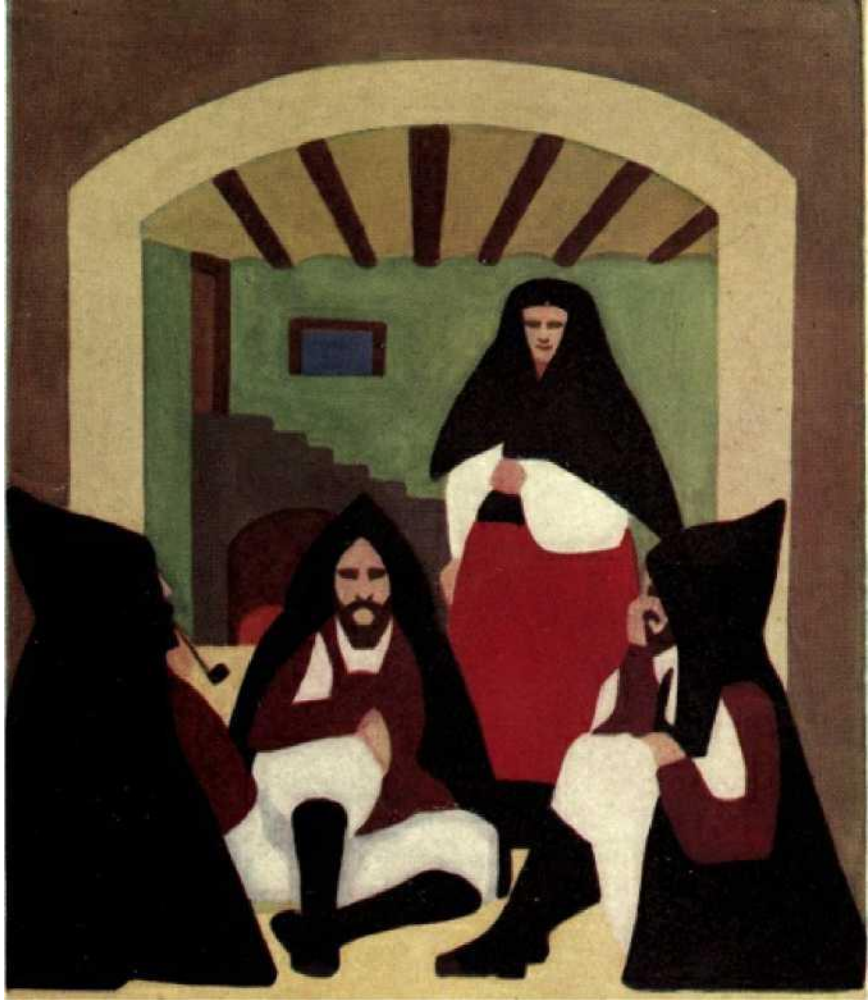
لكن مفتش تذاكر الحافلة الثانية أبى تناول وجبة النزل، فأخرج عوضاً عنها قطعة كبيرة من الخبز المحلي الجيد ونصف حمل مشوي على الأقل وصحن زيتون كبيراً، ووضعه على المائدة ملوحاً بسكينه وشوكته بإيماءات مثيرة 207 صوب كل ضيف، مصرّاً على أن يأخذ كل واحد منا قطعة كبيرة. وهكذا تعاوننا جميعاً على تقسيم لحم الضأن المشوي البارد الجيد للغاية فيما بيننا، ولم نغفل كذلك عن الزيتون، ثم جلس مفتش تذاكر الحافلة لتناول الطعام معنا أيضاً، حيث أبقينا له مقداراً كبيراً من اللحم. رباه! كم كان هؤلاء الرجال كرماء ويحملون الأصالة في داخلهم إنه لأمر استثنائي، حيث أخذ يلوح بسكينه وشوكته، وترتسم على وجهه ملامح أليمة إذا لاحظ أن أيّاً من الحاضرين قد أخذ قطعة صغيرة من لحم الحمل، وظل يُلح علينا بتناول المزيد. إنّ اللباقة في جوهر هؤلاء الرجال، فهي تكمن في قلوبهم بشكل مثالي، وهم يتسمون بالرجولة والبساطة إلى أبعد حد، وكذلك تعاملوا مع كيوبي ببساطة رقيقة وقوية بذات الوقت، لا يسع المرء

إلا أن يكون ممتناً لهم، ولم يبدر عنهم أي من تلك الكياسة البغيضة التي عادة ما تكون مكروهة عند الأشخاص المثقفين، لم تصدر عنهم أي غايات سيئة ولم يُبدوا أي احترام بغيض أو تملق ذكوري، وظهر عليهم الهدوء واللفظ والأحاسيس المرهفة صوب الدفق الطبيعي للحياة ودون تكلف على الإطلاق. لقد أحببت هؤلاء الرجال الذين يتعاملون مع المرأة بلطف وهدوء وبساطة دون أي رغبة في التفاخر والكبرياء أو ترك انطباع ما، فالرجولة ما زالت تسكن قلوبهم، ليسوا بالأشخاص المتواضعين أو ممن أمرضهم الغرور. يا إلهي! إن وجودك وسط أناس لا يقضون مضجعتك بأخلاق التفاخر والكبرياء لهو نعمة كبيرة بحق، لقد جلسنا أمام تلك الطاولة بهدوء وبشكل طبيعي وكأننا لوحدنا، وأخذنا نتبادل أطراف الحديث معهم ونستمع إليهم بكل متعة وسرور، هذا ما حدث تمامًا، وحين تخوننا الرغبة بالحديث فإنهم لا يقفون عند ذلك مطلقاً ويتركوننا على راحتنا، وهذا ما أدعوه بالأخلاق الحميدة. سيراهم أناس الطبقة الوسطى الذين يتسمون بالتباهي كرجال غير مألوفين بالنسبة لهم، إلا أنني أعتبر أن هؤلاء الناس هم الأشخاص الوحيدون الذين اتصفوا بالتهذيب من بين جميع من قابلتهم، فهم لم يتعمدوا التفاخر أو البساطة بأي شكل من الأشكال، فهم مدركون أن الإنسان يُخلق وحيداً ويموت وحيداً، **208** وروحه وحيدة في حد ذاتها، وجميع صفاته الأخرى هي مجرد أوهام لا أكثر، وقد أسبغت عليهم هذه القناعة الغريبة الأخيرة طابع البساطة.

حين انتهينا من احتساء قهوتنا وهمنا بالخروج وجدت مفتش تذاكر حافلتنا جالساً على كرسي صغير بجوار النار، فأحسست ببعض الشفقة عليه، وظننت أنني إذا قدمت له قهوتي فسأتمكن من إدخال البهجة إلى قلبه، لكنني أدركت بعد ذلك أنه راغب بالجلوس معنا على المائدة، غير أن أجره المحدود لم يسمح له بإنفاق المال. بلغت فاتورة العشاء الخاصة بي وكيوبي حوالي خمسة عشر فرنكاً.

عدنا إلى حافلتنا المكتظة براكبيها مرة أخرى، جلست أمامي فتاة قروية ترتدي زي نوورو، ومكث بجانبني رجل ذو لحية داكنة في منتصف العمر تكسو جسده بدلة مخملية بنية اللون وقد راح يحدق بالفتاة القروية، ومن الواضح أنه زوجها. لم أرته له أبداً، فيبدو أنه من النوع الغيور كثير الانتقاد، أما بالنسبة لها فقد بدت وسيمة إلا أنها وعلى الأرجح تحمل بعض الخصال الشيطانية داخلها. وهناك امرأتان قرويتان بهيئة الطلعة مختالتان، ترتديان زي المدينة والأوشحة السوداء الحريريّة على رأسيهما. وفجأة اندلع شجار عنيف وراحت ثلاث فتيات قرويات مفعمات بالحيوية يتدافعن أمامنا وهن يضحكن على نحو جامح. بعد أن انتهت وداعات الفراق العاصفة سارت حافلتنا من جافوي على سهل واسع يقع بين حقول الجبل المهجورة والصخور، انطلقنا

لمسافة ميل أو نحو ذلك ثم توقفنا لتتدخل الفتيات القرويات الثلاث من الحافلة، أحسب أنهن حصلن على رحلة قصيرة كمتعة ليوم الأحد، 209 وانطلقن برفقة نساء أخريات حاسرات الرأس يرتدين الزي الرسمي، على طول طريق خالٍ تحفه حقول باردة وصخور مسطحة نائنة. راحت الفتاة التي جلست قبالي تتفرد ملامحي، أظن أنها لم تتجاوز العشرين عامًا من عمرها، لكن تشابكات الخطوط التي ارتسمت حول عينيها توحى بأنها في الخامسة والثلاثين، هي زوجة للرجل صاحب الثياب المخملية، ببنيته الغليظة وتلك الشعرات البيضاء التي تناثرت على لحيته السوداء الخشنة، وعينيهِ البنيتين الصغيرتين اللتين يخفيهما حاجبان عابسان، فضلًا عن مزاجه العصبي سريع الغضب. ظلت عيناه تحدقان بها طوال الوقت، ربما لأن زواجهما حديث العهد. جلست الفتاة بنظرة فاترة جامدة، مسندة ظهرها إلى محرك الحافلة، متجاهلة اهتمامه المتواصل.



جافوي

وقد عقدت شعرها للخلف ووضعت شالاً يغطي رأسها وجبهتها العريضة بشكل مسبوك. أما

حاجباها الداكنان فقد رُسم برقة فوق عينيها الرماديتين الشفافيتين الكبيرتين اللتان تخفيان نظرة عدائية عنيدة حبيسة في داخلها. غير أنَّ ذلك الرسم بدا متعنَّتا فريداً مرفوعاً للأعلى، وقد أكمل جمال وجهها أنف مستقيم صغير وفم منمنم محكم الإطباق. يبدو أنَّ عينيها الناعستين قد استيقظتا حديثاً من النوم، إلا أنها كانت ترمقني أحياناً بنظرة استفزازية فضولية، لمعرفة ما هو حالي في قفص الزوجية، وراحت تتصارع بجرأة إلى حد ما مع أسرارها الجديدة، وتتعتت بمعارضتها للسلطة الذكورية، ومع ذلك فهي أسيرة لحقيقة لا مهرب منها وهي أنَّ هذا الشخص هو رجل أما هي فمجرد أنثى رقيقة. ذلك الزوج المتسلط بثيابه المخملية التي اتسمت بنعومة ولون باهت كالذهب، لكنها وبطريقة ما جعلته يبدو قبيحاً وسوقياً 210 ظل يراقبها بنظرات يملؤها الغضب والخوف، وبدا وكأن الدخان يتصاعد من لحيته الخشنة.

أما هي فقد جلست بزيها الأنيق، الذي يتألف من قميص فضفاض له كشكشات في أسفله، وثُبتت عند الحلق كرتان ذهبيتان مزركشتان، وهزاف⁶ محبوبك ضيق غامق اللون، مثبت عند الوسط، تارگًا طرازًا جميلاً لصدر أبيض وتنورة كستنائية غامقة. وعندما اندفعت الحافلة على طول الطريق، شحب وجهها إلى حد ما، مع نظرة مشمئزة عنيدة لامرأة تعارض زوجها، وظلت ترشقه لوقت طويل ببضع كلمات لم تلتقطها أذناي، وبدا جبينها صارماً أكثر، بينما أخذت رموشها تنسدل من حين لآخر فوق عينيها واسعتين يقطبتين عنيدتين غادرتين نوعاً ما. لا بد وأنها امرأة يصعب التعامل معها؛ فقد جلست وركبتها تلامس ركبتي، لترتج بهما كلما تأرجحت الحافلة.

مررنا بقرية على الطريق، حيث بات المنظر شاسعاً مفتوحاً على مداه أكثر، لتتوقف الحافلة عند باب نزل، ويترجل منها الرجل ذو الثياب المخملية والفتاة. بدا الجو بارداً، لكن لم تمض دقيقة حتى نزلت أيضاً، وهنا جاءني مفتش التذاكر وتساءل بقلق إن كانت كيوبي تشكو من شيء، فأجابت كيوبي نافية: "لا، لماذا؟". فأجاب أنَّ هناك سيدة أصابتها حركة الحافلة بالدوار. رباه! إنها تلك الفتاة ذاتها.

هناك حشد وطابور كبير عند هذا النزل. ثم جُذب انتباهنا إلى الغرفة الثانية المعتمدة والخالية من الأثاث، حيث جلس رجل في الزاوية يعزف على الأكورديون، بينما راح الشبان الذين ارتدوا بناطيل ضيقة يرقصون، 211 ثم دخلوا في مصارعة عنيفة، ليرتطموا هنا وهناك بين الآخرين، وسط الزعقات والصياح، بينما راح الرجال بالزّي الأبيض والأسود، رثي الهيئة، بتلك السراويل البيضاء العريضة التي تركت معلقة فوق أحذية الساقين الطويلة؛ يتحركون على غير هدى. لقد اتسموا جميعاً بالشغب، فأدركنا أنَّ المطاف انتهى بنا في نزل مزر تارة أخرى، غير أنه يضج بالحياة الذكورية العنيفة الفظة.

قال مواطن نوورو هناك كعك وعصير جيد للغاية علينا أن نجربه، ورغم أنني لم أرغب بذلك، لكنه أصر. ولهذا شربنا القليل منه، إلا أن وجه السماء تغير فجأة واصطبغ بلون رمادي تخللته ندف من الغيوم في فترة ما بعد الظهر، فبات الجو باردًا للغاية وقارسًا، ولم يعد لتناول الكعك والعصير أي متعة، فبدأ باردًا لا طعم له وسط هذا الطقس. حين انتهينا أبى مواطن نوورو إلا أن يدفع الحساب، وسيدعني أدفع عندما يأتي إلى انكلترا كما قال. تلك الضيافة والكرم السارديني الشهير، لاتزال متأصلة عنده ورجال الحافلة أيضًا.

عندما دار محرك الحافلة مرة أخرى، أخبرت كيوبي الفتاة القروية التي اعتلت وجهها تلك النظرة النزقة، أن تتبادل الأماكن معي وتجلس بقربها مواجهة للمحرك، فاستجابت الشابة مع ذلك التطمين الصارم إلى حد ما والمعهود عند هذا النوع من النساء، لكنها ترجلت عند المحطة التالية لبعض الوقت، وحين صعدت جعلت المفتش يجلس معنا في المقصورة، بينما أخذت مكانها في المقدمة بين السائق ومواطن نوورو. وهو ما كانت تنتشده طوال الوقت، والآن بات وضعها على أحسن حال، فأسندت ظهرها إلى زوجها صاحب الثياب المخملية، وجلست بين شابين غربيين بشكل لصيق، لتجد فيهما عزاء لها. 212 ألقى صاحب الثياب المخملية نظرة على ظهرها، فصغرت عيناه وراح الشرر يتطاير منهما، وأنفه يتلوى بعصبية. تغيرت الأزياء مرة أخرى، ليظهر اللون القرمزي مجددًا، لكن دون تلك المساحة الخضراء، التي حل محلها لون بنفسجي وردي، فزاد النساء في أحد تلك الأمكنة الباردة المتحجرة والمتواضعة ألقًا. لقد كنَّ يرتدين تلك التنانير المزينة بورود إبرة الراعي، إلا أن ستراتهن التي تفنقر للأكمام قد حيكت وكأنها مطوية بشكل غريب عند الخصر، ومحاطة بأزهار وردية، بحافة عريضة تخللتها خطوط من اللونين البنفسجي والأرجواني. وأثناء مضيهم بين تلك المنازل المظلمة المرعبة، تحت سقف السماء الباردة الصامتة، انصهرن داخل وهج الألوان القرمزية الوردية المنبثق من ثيابهن، فبدأ المنظر مذهلًا للغاية، مع تلك الثقة بالنفس الصارمة لهؤلاء النساء، وهن يتقدمن على طول الطريق بألق تام. على أي حال، لا أحبذ أن أتحدث عن أي واحدة منهن أكثر من ذلك.

ازدادت حدة البرد الذي يلف جميع الأماكن، بينما اعتلينا تلة على حافة القرية، لتبصر أعيننا سلسلة طويلة من العربات، يجر كل منها زوج من الثيران، محملة بأكياس ضخمة، جعلتها تبدو متقوسة أثناء صعودها بظهيرة يوم أحد بارد شاحب. ولدى رؤيتنا، توقف الموكب عند منحني الطريق، فبدأت الثيران والعربات الوطيفة والأكياس الممتلئة شاحبة، تحت الضوء الخافت، يقود كل منها رجل طويل يرتدي قميصًا بأكمام، يسير على خطى قافلة تقف على جانب التل، ليبدو

كطيف مرسوم في لوحات غوستاف دوريه⁷. تقدمت حافلتنا للأمام، بمحاذاة الرجل الممسك بدعامة العربة، وتسمرت بعض الثيران في مكانها كالحجارة، وأمال البعض الآخر منها قرونها. **213** سألت كيوبي صاحب الرداء المخملي عن حملتهم، فصمت لبعض الوقت ثم أجاب بأنها حبوب الحكومة يجري توزيعها على البلديات لأجل الخبز في ظهيرة يوم الأحد.

آه إنها الذرة الحكومية! يال هذه المشكلة التي تمثلها تلك الأكياس! ازداد اتساع الريف أكثر مع انخفاضنا، إلا أنه عاد أجرد لا أشجار فيه، وبرزت الصخور في الأودية العريضة المجوفة، حيث مر رجال يمتطون مهورهم بشكل بائس عبر المسافات المترامية، بينما انتظر آخرون يحملون صررًا عند تقاطعات الطرق ليستقلوا الحافلة. أخذنا نقترّب من نوورو، وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، بلفحة من البرد ونور شمس خافت. بدا المنظر الطبيعي عاريًا تنترامي فيه الصخور، عريضًا ومختلّفًا عما سبق. وصلنا إلى وادٍ حيث يمتد الخط الفرعي إلى نوورو، لتتراءى لناظري فجأة كبائن سكة الحديد الوردية، وحيدة على طول جوف الوادي. وبانعطافة حادة نحو اليمين، أصبحنا نسير بصمت فوق الأراضي البرية التي بدت كمنحدرات، لتظهر البلدة وراء ذلك، متجمعة بيوتها في البعيد، نحو الأسفل قليلًا، عند حافة منحدر طويل، مع جبال اشراّبت قممها على حين غرة من حوله. ها هي وقد امتدت هناك، وكأنها شامخة عند حافة العالم، حيث ترتفع الجبال من خلفها بكآبة.

وهكذا توقفنا عند الدازيو، أي مبنى جمارك البلدة الصغير، حيث توجب على صاحب الثياب المخملية دفع المال لهم لأجل بعض لحم وجبن جلبهما معه. وبعد ذلك اتجهنا إلى الشارع الرئيسي البارد في نوورو، وما إن مشينا فيه مسافة حتى ظهر أمامنا منزل مميز أنيق، أوه إنه منزل الروائية **214** غراتسيا ديليدا⁸، وهناك لمحت عيناى صالون الحلاقة "دي ليدا". الحمد لله، أوشكت رحلتنا على الوصول إلى نهايتها، فلقد بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر، فتوقفت الحافلة قريبًا من نزل نجمة ايطاليا على ما أعتقد، فدخلنا عبر بابه المفتوح، فوجدنا الصالة خاوية لا أحد فيها، وكالمعتاد لدينا مطلق الحرية بالوصول لأي مكان فيه كشهادة أخرى على الأمانة في سردينيا. نظرنا بفضول عبر مدخل نحو جهة اليسار، تتخلله غرفة صغيرة غير منظمة، لتستقر أعيننا على غرفة مظلمة كبيرة في الخلف، وقفت فيها امرأة مسنة ذات شعر أبيض ووجه عاجي طويل شاحب وعيون زرقاء ذابلة، عند طاولة كي ثياب كبيرة بيضاء، فرفعت رأسها وحدقت بنظرة متسائلة عبر كآبة المكان الداخلي.

فقلتُ: "أهناك غرفة يا سيدتي؟". فلم تجبني وندهت في الظلام لشخص ما، ثم تقدمت نحو الممر وراحت تنتظر إلينا أنا وكيوبي من الأعلى للأسفل، وسألتُ بنبرة متحدية: "هل أنتما زوج

وزوجة؟". أجبت: "نعم، وكيف عسانا ألا نكون كذلك". وهنا أقبلت خادمة صغيرة في الثالثة عشر من عمرها لكنها قوية وذات مظهر رشيق. **215**

خاطبتها السيدة العجوز: "رافقيهما إلى الغرفة رقم سبعة". واستدارت عائدة إلى ظلمتها، لتقبض على مكواة الحديد بتجههم.

صعدنا سُلَمين من الدرجات الحجرية الباردة، لبيت درج ضيق مثبت للعزيمة بسياجه الحديدي البارد، وصولاً إلى رواقات تتفتح على بعضها بشكل كئيب، وغير منظمة إلى حد ما. إن هذه المساكن تمنحك انطباعاً، بأنها لم تُبنَ بشكل سليم، وكأنَّ السجناء كانوا مكتظين فيها منذ أمد بعيد، إنها أشبه بحظيرة خنازير، ودونما أمل بأن يتم تنظيف أي شيء فيها أو إصلاحه؛ لتترك هناك كئيبة وفوضوية.

قامت ثومبلينا، تلك الخادمة الصغيرة، بفتح باب الغرفة رقم سبعة بثقة وتفاخر، فهتفنا بسرور: "ما أروعها!". فقد بدت لنا فخمة، بسريريها الأبيضين المزودين بحشية سميكة مناسبة، وطاولة، وخزانة ذات أدراج، وحصيرين على الأرضية المكسوة بالبلاط، ولوحات زيتية خلابة على الحائط، ومغسلتين رائعتين اصطفنا بجانب بعضهما، ليبدو كل شيء نظيفاً وجذاباً بشكل مثالي. فتساءلنا مستغربين ما الذي يحدث! شعرنا بوقع لطيف لذلك في أنفسنا.

فتحنا ردفات النوافذ المشبكة، ونظرنا للأسفل نحو الشارع الوحيد، فبدأ كنهر يعج بالحياة الصاخبة، وجُذب انتباهنا لفرقة تعزف أنغاماً بشكل فظيع نوعاً ما، في الشارع الذي راح يهتز على وقع رقصات أعداد لا حصر لها لأناس يرتدون أقنعة، بزيهم الكرنفالي، مع فتيات شابلات يتمشين وقد عقدن ذراعاً حول ذراع ليشاركوا بالاحتفال. وقد شَعَت وجوههم فرحاً ومرحاً! **216** لاحظنا أنَّ لابسِي الأقنعة جميعهم من النساء تقريباً، والشارع كان يعج بهم، وهو ما ظنناه بادئ الأمر، ثم تبين لنا بعد النظر عن كثب، أنَّ معظم النساء لسن سوى شبانٍ مقنعين يتنكرون بأزياء نسائية، لقد وضعوا على وجوههم أقنعة دومينو⁹ صغيرة مصنوعة من قماش أسود أو أخضر أو أبيض تنسدل نزولاً حتى الفم، وهي أفضل بكثير من الطراز القديم للأقنعة التي تغطي نصف الوجه مع رباط الدانتيل المكشكش، مع خرطوم فظيع أبيض ملتصق بالمقدمة، يبدو بشكل مريع أشبه بمناقير الطيور الميتة، كالأقنعة القديمة بمدينة البندقية، والتي أعتقد أنها مرعبة بكل بساطة. أما "الوجوه" الأكثر حداثة فهي مقبلة لا أكثر، بينما تتسم أنصاف الأقنعة الوردية الصغيرة بالبساطة، مع حد من قماش أسود أو أخضر أو أبيض، لتضفي مظهرًا تنكريًا مثاليًا.

يا لها من لعبة رائعة تتيح لك أن تميز ما بين النساء الحقيقيات والشبان المتنكرين بزي النساء. بعضهم يسهل كشفه، حيث قاموا بحشو صدورهم ووضع أرداف مستعارة، وارتدوا قبعات وفساتين متنوعة، وراحوا يتبخترون على طول الطريق بخطوات راقصة، كدمى صغيرة تتدلى من خيط مطاطي. أمالوا رؤوسهم على جنب وتركوا أيديهم تتدلى للأسفل، وتراقصوا بحماسة ليربكوا الشابات الحقيقيات، وفي بعض الأحيان كانوا يتلقون ضربة قوية على رؤوسهم، عندما تصدر منهم ايماءات وحشية عنيفة، تجعل الشابات الحقيقيات يتشاجرن بعنف. لقد اتسموا بالحيوية والسذاجة، إلا أنَّ بعضهم يصعب كشفه بسهولة؛ فكل شكل بالإمكان تصوره عن "المرأة" موجود هناك، ولكن بأكتاف عريضة وأقدام أكبر نوعًا ما. أما الشكل الأكثر شيوعًا فهو زي نصف القروية، مع صدر ممثلي للغاية، وتنورة فضفاضة جدًا، وطريقة واضحة في المشي. تتكرر أحد المقنعين بهيئة أرملة **217** ترتدي ثوب حداد وتنحني على ذراع ابنة قوية، وبدا ثانٍ كعجوز شمطاء تلف نفسها بغطاء سرير محبوك. وهناك شاب شقي مفعم بالحيوية ارتدى تنورة قديمة وبلوزة ومنزراً مع مقشّة، وراح يكنس الشارع بعنف وكّدٍ ساخر من طرف لآخر، أمام اثنتين من فتيات البلدة يرتدين معاطف الفرو، وتمشيان بزهو على طول الطريق. ثم بدأ يكنس الطريق أمامها بتواضع شديد، متراجعا للخلف ومستمرًا بكنسه وقد احدودب ظهره، بينما أخذت القتاتان تسيران باختيال وأنفين مرفوعين للأعلى. فقام بانحناءته العظيمة أمامهما، لكنهما اجتازاه متبخترتين دون اكتراث، وحينها قفز بوثة جريئة وبدأ يكنس وراءهما بنوبة جنون هستيرية، وكأنه يمسح آثارهما، فراح يكنس بجنون وعلى غير هدى بمقشّته حتى إنه كنس أقدامهما، فصاحتا محمّلتين بسخط، إلا أنَّ الكناس أعمى البصيرة لم ينتبه لما فعله، واستمر يجرف ويكنس فوخز أقدامهما الحريرية الرقيقة مرة أخرى؛ وهنا احمر وجهاهما بغضب، وقفزتا بقوة كقط يثب فوق طوب ساخن، ثم هربتا للأمام وقد بدا عليهما الانزعاج. قوّس الشاب ظهره بعد رحيلهما، وعاد ليكنس الشارع بهدوء وبراعة. ها هو زوج من العشاق يذكرك بفترة تعود لخمسین سنة خلت، الشابة ترتدي نصف كرينولين¹⁰ وقلنسوة نافرة ووشاحًا، متعلقة بذراع حبيبها وتجاوزانا على استحياء بابتسامة متكلفة، لكنني استغرقت وقتًا طويلاً لأتيقن أنَّ الفتاة ليست سوى شاب. ثم لمحت عيناها امرأة عجوزًا ترتدي ثوب نوم طويلاً وتتجول هنا وهناك، وقد مدت شمعتها وراحت تحق في الشارع وكأنها تبحث عن لصوص، كانت تقترب من الشابات الحقيقيات وتضع شمعتها على مقربة من وجوههنّ وتحملق بهنّ بشدة، وكأنها تشتبه بشيء فيهم، فيحمرن خجلًا ويدرن وجوههنّ بعيدًا باحتجاج تلفه الحيرة. ثم راحت المرأة العجوز تتفحص بطريقة مخيفة للغاية وجه فتاة ممشوقة القوام، بزيتها الوردية المزخرفة، مع مسحة من **218** وكأنه حزمة من نباتات إبرة الراعي بألوانها الحمراء والوردية المزهرة، مع مسحة من البياض، أسبغت عليها هيئة فتاة قروية أصيلة، لكن الفتاة أدركت أنَّ العجوز هي شاب متنكر

بعد أن استفزها تمامًا، وبنوبة من الذعر راحت تضربه بقبضتها بشراسة، فهرب منها مسرعًا وهو يركض بشكل هزلي في لباس نومه الأبيض الطويل. لم يخل الشارع من بعض الفساتين الجميلة حقًا، كالديباج القديم الأنيق، والشالات المتألقة، تومض جميعها باللون البنفسجي والفضي، أو بألوان داكنة متقطعة بحدود عميقة من الفضة البيضاء وذهب زهرة الربيع، فبدت زاهية للغاية. أعتقد أن اثنتين ممن ارتدوها كانتا امرأتين حقيقتين، لكن كيوبي نفت ذلك. هناك امرأة ترتدي عباءة فيكتورية من الحرير الأخضر السميك مع شال مبقع باللون الكريمي، لفته بشكل متقاطع حولها، وقد ساورنا الشك بشأنها. ولفت نظرنا أختان حزینتان كزنبقتين حنتا رأسيهما، ترتديان ثيابًا بيضاء، ولكن بأرجل كبيرة. أما المشهد التالي فقد بدا تنكرًا ناجحًا للغاية لأنسة طويلة، ترتدي تنورة ضيقة من الساتان الأسود وقبعة نسائية مع ريشات كبيرة، راحت تختال بمشيتها وتسير على أطراف أصابعها ثم تلقي نظرة عبر كتفها دون أن تبعد مرفقيها عن جسدها وكأنها رسم كاريكاتوري رائع. وبالأخص تلك الحركة المتدلية المتماوجة الغريبة لمنطقة الأرداف المستعارة، فهي حركة خاصة جدًا بالنساء العصريات، إلا أنها كانت متلائمة مع شيء من المبالغة الذكورية وهو ما أبهجنني، حتى أنها أسرتني في البداية.

وقفنا في الهواء الطلق لشباكننا، واتكأنا على درابزين الشرفة الصغيرة، ناظرين للأسفل صوب هذا الدفق من الحياة، بينما كان يقابلنا مباشرة منزل الكيمائي؛ حيث تطل نافذتنا على أفضل غرفة نوم لديه، فيها سرير أبيض كبير مزدوج وستائر من الموسلين. وعلى الشرفة جلست بنات الكيمائي، وبدون أنيقات للغاية بأحذية ذات كعب عال وشعر أسود منفوش سرح ليتدلى على الجانبين. أوه يال أناقتهن! 219 رمقتنا أعينهن قليلًا، فبادلناهن النظرات لكن دونما اهتمام، بينما كان نهر الحياة لايزال يتدفق أسفل منا.

الطقس بارد للغاية، واليوم قد أزفت ساعات رحيله، بينما أخذ البرد يتسلل إلى أجسادنا. قررنا الذهاب للشارع والبحث عن مقهى نجلس فيه، مشينا بجوار الحائط بشكل غير ملحوظ قدر الإمكان، فالشارع يخلو من أي رصيف. وبدا أن هؤلاء المقنعين لطيفين للغاية وغريبي الأطوار ومرحين، ولا يوجد أي أثر للعنف على الإطلاق، والآن أصبحنا على ذات الصعيد معهم؛ فقد ارتدى أحد الشباب بلوزة بيضاء رفيعة، وزوجًا من الألبسة الداخلية القطنية العريضة المطرزة بزخرفة بالقرب من الكاحل وجوارب بيضاء، وراح يسير بشكل ساذج وبدا جميلًا إلى حد ما، بيد أن كيوبي انتفضت فزعة، ليس بسبب اللباس الداخلي، ولكن لطوله الفظيع الذي يمتد أسفل الركبة. هناك شاب آخر لف نفسه بملاءة، والله وحده يعلم إن كان يستطيع الخروج منها. أما آخر فقد تورط بتشابك معقد لنسيج محبوبك أبيض يوضع على الكراسي عادة، ومجرد التفكير فيه

مزج للغاية، لم أحبه على الإطلاق، إذ بدا كسمكة عالقة في شبكة صيد، لكنه سار بقوة في الأرجاء.

وهكذا وصلنا إلى نهاية الشارع، حيث توجد فرجة واسعة مقفرة، وقفت فيها فرقة صغيرة تصدح بعيدًا بصوت مزعج، بالإضافة إلى حشد كثيف من الناس. وفوق مكان منحدر في الأعلى تمامًا، تشكلت دائرة صغيرة من الشباب والرجال والمقنعين حول فتاة أو اثنتين يرقصون. كانوا متراسين مع بعضهم **220** ويؤدون نوعًا من رقص الفالس الانفعالي. لماذا بدت عليهم كل هذه الحدية؟ ربما لأنهم كانوا متراسين للغاية مع بعضهم، كأسمك كثيرة داخل أنية زجاجية تنزل إحداها فوق الأخرى. وفي أثناء ذلك لمحت أعيننا مقهى في هذا الحيز الصغير الذي لا يمكن وصفه كساعة على الإطلاق، وقد جلس الشباب فيه وراحوا يرتشفون القليل من المشروبات، فعرفت أن لا طائل من طلب أي شيء باستثناء المشروبات الباردة أو القهوة السوداء، وهو ما لم نكن نرغبه، فلم ندخله وتابعنا المسير للأمام، صعودًا على شارع القرية المنحدر. سرعان ما يبلغ المرء حدود هذه البلدات، فوجدنا أنفسنا فجأة نتجول في العراء المفتوح. يا للروعة! ها هي عائلة من الفلاحين على الحافة النائية في الأعلى توقد نارًا ضخمة، كبرج برتقالي اللون، متمواج باللهب، بينما راح صبية صغار أشقياء يرمون إليها بالمزيد من القمامة. أما جميع من تبقى فهم في المدينة، فما بال هؤلاء القوم عند أطراف البلدة يضرمون هذه النار بمفردهم؟! وصلنا إلى المنازل المتطرفة، ونظرنا عبر الجدار الحجري الذي يحف الطريق إلى ذاك الوادي العميق الأجوف المثير للاهتمام في الأسفل. وبعيدًا على الجانب الآخر، انتصب جبل طغى عليه اللون الأزرق، له شكل شديد التحدر ولكنه مخروطي قصير. وها هي الأراضي المرتفعة تزهو عاليًا، يلها الغسق ولون أزرق داكن، حيث مكثت هناك في مكان لا تطاله الشمس الغاربة مع لمسة من اللون القرمزي. كان منظرًا طبيعيًا جامحًا غير مألوف. بدت التلال وكأنها لم تطأها قدم إنسان بتلك الزرقة القاتمة، وذلك الجموح العذري، أما مهد الوادي الأجوف فقد كان مزروعًا فبدأ كبساط جداري مزدان بالألوان والصور بعيدًا في الأسفل. وبرزت هناك لمسة من حياة ريفية نائية، لكن دون أي شيء مميز فيها، ولا حتى تلك القلاع التي تنتثر في ساحات إيطاليا وصقلية. هنا سردينيا ولا شيء فيها سوى تلك التلال النائية الراسية، التي تنتصب بحزن بمعزل عن الحياة. **221** توقفنا وقررنا أن نعود أدراجنا، وإذ بالظلام يسدل أستاره رويدًا رويدًا، والفرقة الصغيرة على وشك الإقلاع عن ضجيج أدواتها النحاسية، لكن الحشد لازال بصخبه، والمقنعون يرقصون ويتميلون دون كلل أو ملل. آه لتلك الطاقة القديمة الرائعة لأيام قد خلت، قبل أن يصبح الرجال مفرطين بالانتباه لتصرفاتهم. أما اليوم فلا زالوا يفاجئونك بأفعالهم. لم نجد أي مقهى يستحق الجلوس فيه، وعدنا إلى النزل، وسألنا إن كانت توجد نار بأي مكان، لكن عبثًا، فصعدنا إلى غرفتنا، لتلمح أعيننا ضوءًا من منزل الكيميائي قبالتنا، وبوسع المرء أن يرى غرفة بناته

على نحو جلي. وبينما كان ضوء الغسق يلف الشارع استمر المقنعون بالرقص، والشباب مبتهجون بتنكرهم بزي النساء، لكنهم باتوا أكثر فظاظة بقليل الآن. وهناك في البعيد راحت الشمس تلقي آخر خيوطها لتصبغ أسطح المنازل بلون أرجواني محمر، تاركة بردًا قارسًا يتسلل إلى الأجواء.

ما من شيء بالإمكان فعله سوى الاستلقاء في السرير، بينما قامت كيوبي بإعداد القليل من الشاي على المصباح الكحولي، فجلسنا على السرير ورحنا نرتشفه، ثم غطينا أنفسنا واستلقينا بلا حراك طلبًا للدفء، أما في الخارج فقد تواصل ضجيج الشارع بلا هوادة. أمسى الظلام دامسًا، فعكست الأضواء نورها إلى الغرفة. لزال صوت الأكورديون يصدح عبر خشونة العديد من الأصوات والحركة في الشارع، وفجأة علت أصوات قوية جزلة، لرجال ينشدون أغنية الجندي: "عندما نعود إلى منزلنا...". فنهضنا للنظر، ورأينا تحت الأنوار الكهربائية للشارع أن نهر الناس لزال يتدفق، ولكن قلت أعداد المقنعين، 222 وخلال ذلك لاحظنا شابين مقنعين يقرعان على باب مغلق ثقيل بصخب شديد، واستمروا بالقرع حتي فتح شق من الباب في نهاية المطاف، فاندفعا محاولين الولوج داخله، ولكن دون جدوى، فقد أغلق فور رؤيتهما؛ فشعرا بالإحباط لينزلا إلى الشارع إثر ذلك. كانت البلدة مكتظة بالرجال، حيث قدم إليها العديد من الفلاحين من مناطق نائية، وقد ملأوا الآن جميع الشوارع بزيهم الأبيض والأسود. عدنا إلى السرير الدافئ مرة أخرى هربا من البرد، وهنا سمعنا طرقة على الباب، تبعها صوت عالٍ ملأ ظلام الغرفة: "أنا ثومبيلينا". قالت كيوبي: "نحن هنا!". فاندفعت ثومبيلينا لتغلق أبواب النوافذ والنافذة الثنائية، ثم وقفت عند رأس سريري وأضاءت النور، وراحت تنظر صوبي وكأني أرنب على العشب، ثم قذفت علبة من الماء على حوض غسيل الصحون، فتطاير الماء البارد كالتلج، اللعنة! وبعد ذلك، شقت طريقها للخروج من الغرفة مرة أخرى بحجمها الصغير وحيويتها المتفجرة، تاركة إيانا وسط النور الساطع، بعد أعلمتنا أن الساعة الآن قد تجاوزت السادسة بقليل والعشاء سيكون عند السابعة والنصف. وهكذا استلقينا في السرير بدفء وسلام، ولكن الجوع أنهكنا وجعلنا ننتظر السابعة والنصف بفارغ الصبر. وعندما لم يعد بوسع كيوبي التحمل أكثر انتفضت واقفة، برغم أن ساعة برج الأجراس قد دقت السابعة قبل بضع دقائق فقط. 223 واندفعت للطابق السفلي لتستطلع الأمر، ثم عادت خلال لحظة لتخبرني أن الناس يتناولون الطعام بنهم في غرفة العشاء الطويلة، وفي اللحظة التالية كنا في الطابق السفلي أيضًا. وجدنا الغرفة مضاءة بشكل ساطع حيث، جلس متناولو العشاء أمام العديد من الطاولات البيضاء، ومعظمهم من الرجال، كان المشهد يشبه المدينة تمامًا؛ حيث سيطر على الجميع مزاج بهيج، بينما راحت كيوبي ترمي عينًا على الرجال قبالتها وهم يتناولون الدجاج والسلطة، والآمال تحذوها بالتهام وجبة مماثلة. عندما وصل الحساء، أعلنت الفتاة أنه لا يوجد سوى بسيتكا، ويعني القليل من لحم البقر المقلي، وهذا ما حصلنا عليه،

القليل من لحم البقر المقلي مع بضع حبات بطاطا وعدد ضئيل من القرنبيط، لم تكن تلك الوجبة كافية حقًا لسد جوع طفل في الثانية عشر من عمره، ولكن لا حيلة لنا سوى قبولها. وكتحلية قديم القليل من برتقال اليوسفي يتدحرج على طبق. أدركنا أن متناولي العشاء أشخاص لا يطاقون. ندهت للفتاة وسألتها: "هل يوجد لديكم جبن؟". "كلا، لا يوجد"، فقمنا بمضغ الخبز فقط لنسد به جوعنا. ثم جاء ثلاثة فلاحين بزيهم الأبيض والأسود، وقد بدت عليهم الغرابة بخطواتهم البطيئة المتأنية كرجال مسنين، حيث اختاروا طاولة بعيدة، وجلسوا أمامها دون أن يخلعوا قبعاتهم الجوربية، وقد أحاطت بهم فجوة من العزلة، إنها العزلة المميزة غابرة القدم لتلال سردينيا تتشبث بهم، ويسكن قلوبهم شيء من القسوة والثبات.

أما الرجال الذين يجلسون في نهاية الغرفة فهم موظفون على معرفة ببعضهم. وكذلك يوجد كلب ضخم حقًا، 224 له خطم كبير للغاية، يتنقل بخطى متثاقلة من طاولة لأخرى، ويرمقنا بأعين كبيرة حزينة كحجر التوباز¹¹ الكريم. دخل مفتش التذاكر وسائق الحافلة عندما شارفت وجبة العشاء على نهايتها، وقد ظهر عليهما الجوع والبرد والتعب. كانا يقيمان بهذا النزل، ولكن لم تتح لهما الفرصة لتناول أي شيء منذ مرق الخنزير في جافوي. انقضا على وجبتيهما وأكلاها خلال وقت قصير. ثم سألا الفتاة: "ألا يوجد شيء آخر؟". "لا شيء!". لكنهما ما زالا يشعران ببعض الجوع، فطلب كل منهما بيضتين مقليتين. أما أنا فدعوتهما لتناول القهوة والعصير معنا، فلبيا دعوتي عندما انتهيا من تناول البيض. وضع مسؤولو النزل الشاي والعصير المجاني على الجانب الآخر من الغرفة. جلس رجل ممتلئ الجسد قبالتنا مباشرة بعينيه الزرقاوين اللطيفتين ورأسه جميل الشكل، وقد ارتدى ثياب يوم الأحد كأني شخص آخر. تهادى الكلب نحوه وجلس على الأرض أمامه كتمثال، فراح الرجل البدين يداعبه، وأخذ قطعة من الخبز وأمسكها أمام أنف الكلب، فحاول أخذها، لكن الرجل أرجع الكلب الضخم للوراء بإشارة نهي من إصبعه، وأخبره ألا ينتزع الخبز، ثم حدثه ببعض الكلمات، لكن الكلب حاول بلطف مرة أخرى أن يختطف ما بيد الرجل، لكنه أعاد الكرة واحتفظ بالخبز، فجفل الكلب وعاد للوراء مطلقًا صرخة حادة حزينة وكأن لسان حاله يقول: "لماذا تعذبني!". خاطبه الرجل: "لا ينبغي أن تنتزع الخبز، تعال إلى هنا، هيا تعال!". 225 ثم رفع كسرة الخبز فاقترب الكلب، قال الرجل: "والآن، سأضع هذا الخبز على أنفك، وأنت لن تتحرك، واحد، ها!!". لكن الكلب لم يأبه به وسارع محاولاً انتزاع الخبز، فصرخ الرجل ودفعه مبعداً إياه، فارتد الكلب للوراء وأصدر تارة أخرى صيحة محتجة. انجذب جميع من الغرفة لهذا المشهد وراحوا يراقبون مبتسمين، فالكل لم يفهم مراد الرجل على الإطلاق، وتقدم نحوه مرة أخرى مضطرباً، فأمسك الرجل الخبز مقرباً إياه من خطم الكلب،

ورفع إصبعه محذرًا، فأخفض الكلب الشرس رأسه بحزن، وعينه على الخبز تتقاذفه مشاعر متنوعة. قال الرجل: "والآن! سأكمل العد حتى ثلاثة، واحد - اثنان--". لكن الكلب لم يعد يطق صبرًا، فأفلت الرجل الخبز من يده بحركة سريعة مفاجئة، وصاح بأعلى صوته: "ثلاثة!". فابتلع الكلب قطعة الخبز برضى الخاضع، بينما تظاهر الرجل أن كل شيء جرى بشكل صحيح عند كلمة "ثلاثة". وهكذا أعاد الكرة من جديد: "هيا تعال، هيا تعال!". فعاد الكلب مترددًا بعد أن تراجع مبتعدًا بالخبز، مذلًا رأسه للأمام، ومخفضًا قائمته الخلفيتين بارتياح كعادة الكلاب، ثم تقدم نحو كتلة الخبز الذهبية الجديدة، بينما راح الرجل يلقي خطابًا مملًا على مسامع الكلب: "اجلس هناك وانظر إلى هذا الخبز، بينما أعدُّ للثلاثة، واحد...". **226** إلا أن الكلب لم يستطع تحمل هذه الأرقام، مع ذلك البطء الفظيع بنطقها، فانتزع الخبز باستماتة، فصرخ الرجل وخسر الخبز الذي ابتلعه الكلب واستدار ليزحف مبتعدًا. ثم بدأ الأمر من جديد: "تعال إلى هنا! ألم أخبرك أنني سأعد حتى الثلاثة، ليس واحد، بل ثلاثة". لفظ المقاطع الأخيرة بصوت عالٍ حتى إنه دوى في الغرفة كلها، فقابله الكلب بعواء حزين من الحماسة، فأفلت الخبز من فمه، ثم راح يتحسس حتى وجده وهرب. احمر وجه الرجل منفعلًا، ولمعت عيناه، فخاطب جميع الحاضرين: "امتلكت كلبًا ذات يوم، وكنت أضع كسرة الخبز أمام فمه، وينظر نحوي بذات الطريقة أيضًا، وحين أضع الخبز أمام أنفه لا يتحرك مطلقًا حتى أنطق بالرقم ثلاثة! كان كلبًا مدربًا". ثم هز الرجل الأربعيني رأسه ونده للكلب: "هيا، تعال إلى هنا!". ثم ربت على ركبته السمينة، فزحف الكلب للأمام فأمسك الرجل قطعة خبز أخرى وصرخ بصوت مرتفع: **227** "الجندي يذهب للحرب! فيفسد طعامه وينام على الأرض. واحد، اثنان، ثلاثة!". ففتح الكلب فمه بحيرة تامة، وترك الخبز ينزل إلى أسفل حنجرته، وهز ذيله بتعاسة جياشة، فقال الرجل: "آه، أنت تتعلم الآن!". انحنى الرجل الأربعيني الوسيم قوي البنية للأمام، وقد تورد وجهه، وبرزت الأوردة على رقبته، فتحدث إلى الكلب وراح الكلب يقلده بحركاته، حتى روضه وأصبح الكلب مطيعًا له تمامًا. **228** وهكذا أعاد ذات الهراء: "استمع إلي الآن، الجندي يذهب للحرب! فيفسد طعامه وينام على الأرض، ويأكل بشكل سيء وينام على الأرض. واحد، اثنان، ثلاثة". هذه الأبيات معروفة لكل إيطالي، وقد غنيت بأسلوب رقيم، لتحوز على استحسان الجميع بل بدوا كطفل يستمتع لشيء محبوب له، حيث لامست القافية قلب كل شخص منهم، وانتظروا بحماسة بدء العد واحد-اثنان-ثلاثة! ودائمًا ما كانت آخر كلمتين تمزقهما صرخة فيها حزن عميق، لن أنسى أبدًا قوة لفظ هذه المقاطع. حين نطق الرجل بكلمة ثلاثة! قدم الكلب عرضًا رديئًا، فلقد التهم الخبز مرتبًا وحسب. وهكذا استمرت هذه اللعبة لساعة كاملة جذبت جميع من في الغرفة إليها. أخبرنا أصدقاؤنا أن الرجل كان يعمل كمفتش للتذاكر، **229** لكنهم أحبه وقالوا إنه رجل طيب، ولكن ربما شعروا بالضيق قليلًا، لرؤيته مخمورًا وسماعه يصرخ بطريقة فاضحة للغاية.

تبادلنا أطراف الحديث معهم بحزن وأسى نوعاً ما، فالشباب في أيامنا هذه وخاصة أولئك اللطفاء منهم مثل سائقنا يتسمون بالحزن والجدية، فلقد نظر المفتش ضئيل الحجم إلينا بعينين واسعتين بنيتين، تغلغل الألم فيهما، وهكذا خيم الحزن علينا. في الصباح سيعودوا أدرجهم إلى سورغونو، عبر الطريق القديم، أما نحن فماضون إلى ميناء تيرانوفا، لكننا وعدناهم أن نرجع الصيف المقبل، عندما يصبح الطقس أدفاً. وحينها علينا أن نلتقي جميعنا مرة أخرى. قال السائق بحزن "من يدري، لربما تجدنا لانزال نسير على الخط نفسه!". **230**

هوامش

- 1- بروسيربين: لوحة زيتية على قماش للفنان الشاعر الإنجليزي دانتي غابرييل روسيتي، وقد رسمت عام 1874.
- 2- لفافة الساق: لباس يتم ارتداؤه لتغطية أو حماية الكاحل وأسفل الساق.
- 3- السنود: تعد الشبكة المتينة لشعر المرأة أو السنود نوعاً تقليدياً من غطاء الرأس الأنثوي المصمم لحمل الشعر في قماش أو كيس من الغزل. في الشكل الأكثر شيوعاً، يشبه غطاء الرأس غطاء مغلقاً يوضع على الجزء الخلفي من الرأس. وهي شبيهة بشبكة الشعر، لكن السنود غالباً ما يكون مرخياً، شبكه خشنة أكثر، وخيوط غزل أثخن بشكل ملحوظ.
- 4- اللوح الحجري: عبارة عن حجر مسطح عام، يتم قطعه أحياناً بشكل مستطيل أو مربع عادي. وعادة ما يستخدم لرصف الممرات والباحات والأرضيات والأسوار والأسقف. يمكن استخدامه للنصب التذكارية وشواهد القبور والواجهات وغيرها من الإنشاءات.
- 5- أنطونيو اللشبيوني: أنطونيو من لشبونة هو من قديسي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ولد عام 1195 في لشبونة وتوفي بتاريخ 13 يونيو عام 1231 في مدينة بادوفا الإيطالية. وعلى الرغم من أن أنطونيو برتغالي الجنسية إلا أنه عاش معظم أيام حياته الرهبانية في إيطاليا. 6- الهزاف: ثوب قصير يشبه السترة بأكمام قصيرة أو طويلة، وعادة ما يكون محبوكاً من الصوف، وبشكل عام، يغطي مساحة أقل من الجسم عن السترة.
- 7- غوستاف دوريه: فنان فرنسي ورسام هزلي وكاريكاتير ونحات. اشتهر بإنتاجه الغزير للنقوش الخشبية، خاصة تلك التي توضح الكتب الكلاسيكية.
- 8- غراتسيا ديليدا: أديبة إيطالية من مواليد جزيرة سردينيا. هاجرت إلى روما في أوائل القرن العشرين حصلت على جائزة نوبل للأدب سنة 1926. وهي ثاني امرأة تحصل على الجائزة. كانت أعمالها شديدة الارتباط بموطنها الأصلي سردينيا.
- 9- أقنعة الدومينو: قناع صغير دائري غالباً لا يغطي سوى المنطقة المحيطة بالعينين والمسافة بينهما. شهدت الأقنعة انتشاراً خاصاً منذ القرن الثامن عشر، عندما أصبحت كملابس تقليدية خاصة بمظاهر محلية من الكرنفال، خصوصاً كرنفال البندقية.
- 10- الكرينولين: هيكل قاسٍ يُلبس تحت التنورة ليعطيها شكلاً منتفخاً، وقد كان دارج الاستعمال في أوروبا. كانت نوعية النسيج المستخدم في تركيب الكرينولين في الماضي شديدة القسوة، فكان يصنع من شعر الحصان والقطن أو الكتان.

11- التوباز: حجرٌ نفيس يتكون من الألومنيوم والسليكون، والأكسجين والفلور. وألوانه مُختلفة، منها اللون الذهبي المائل إلى اللون البرتقالي الغامق، والأصفر، والبني.

الفصل السابع

إلى تيرانوفا والباخرة

استيقظنا باكراً في ذلك اليوم ليستقبلنا صباح جميل ذو سماء زرقاء صافية للغاية، وقد داعبت بهجته الطريفة فؤاد صاحبة النزل العجوز فأمسى مزاجها ودوداً جداً. لقد هيأنا أنفسنا مسبقاً للرحيل! برغم أننا لم نُمضِ وقتاً طويلاً في نوورو، فلما هذه العجلة يا ترى؟ عجباً! ألم تترك أثر محبة لها في قلوبنا؟

في الحقيقة لقد أعجبنا هذه المدينة بالفعل، وقد اعتزمنا العودة إليها في فصل الصيف حين يغدو الطقس أكثر دفئاً، أخبرتنا صاحبة النزل أنّ الفنانين أيضاً عادةً ما يعمدون إلى زيارتها في فصل الصيف، وقد وصفتها بالمدينة الرائعة الجذابة، وهي كذلك حقاً. لقد كانت صاحبة النزل سيدة مسنة صالحة ولطيفة إلى أبعد حد، حين التقيت بها أول مرة وهي تكوي الملابس ظننت أنها عجوز شمطاء بغیضة، ولكن تبين لي لاحقاً عكس ذلك تماماً. لقد قدمت لنا قهوة لذيذة بالإضافة إلى الحليب والخبز، فقبلناها بامتنان ثم خرجنا متجهين نحو البلدة، ليعانقنا نسيم الصباح العليل الذي يعيش في أحضان هذه البلدة الريفية القديمة، إنها على حالها ولم تتغير منذ الأزل، وقد ساد بين الناس شعور العمل البغيض على مضض بعد أن أفلت شمس يوم الأحد، فما من شخص راغب بالشراء أو التعامل بأي شيء، فُتحت أبواب الأسواق قديمة الطراز، وقلما تجد في نوورو واجهات العرض التي يصفُ عليها الباعة عادةً منتجاتهم، مما يجبر المرء على الذهاب إلى داخل هذه المتاجر الأشبه بالكهوف المظلمة لرؤية بضاعتهم، لقد لاحظنا وجود لفائف من القماش

القرمزي الفاخر لملابس النساء نُصبت بالقرب من مداخل دكاكين تجار الأقمشة، ثم مررنا من جانب واجهة محل كبيرة لأحد الخياطين، تجلس خلفها أربع نساء يدرزن القماش ويخطنه وينظرن في الوقت ذاته إلى الشارع عبر هذه الواجهة، **231** بعيون مستاءة وتواقة لحرية عطلة الأحد، وكذلك انتبهنا إلى مجموعة من الرجال المتذمرين بعضهم يرتدي الثياب البيضاء والسوداء وقد تنحّوا جانبًا عند زوايا الشارع وكأنهم يتجنبون بعناد تيار العمل؛ فما زال طعم الحرية عالقًا على شفاههم بعد قضاء يوم العطلة، ولن يتم ربطهم باللجام وجرهم بسهولة إلى مضمار الكد والتعب، دائمًا ما أتعاطف مع هؤلاء الرجال البائسين المتجهمين إلى حد ما، الذين يصرون على قضاء يوم راحة آخر بعيدًا عن طاحونة العمل التي تسحق أجسادهم، لتظهر شرارة من روح لاتزال صامدة بوجه عالمنا الذي أفرط في تسخير الإنسان.

لا شيء يستحق رؤيته في نوورو، فالمشاهد مصدر إزعاج وليس أكثر، وأحمد الله على عدم وجود ما يشير إلى صلة بأعمال الرسام بيروجينو¹ أو المؤلفة بيزان² بهذا المكان الذي أعرف القليل عنه، وأنا في الواقع سعيد لعدم امتلاك البلدة ما تعرضه أمام الناس، فكم سيجنبنا ذلك الكثير من الأعمال الجريئة والمتكلفة! هذا هو الوجه الحقيقي للحياة، وليس ذاك المكتظ بالمتاحف والمعارض. يمكن للمرء أن يتجول على طول الشارع الضيق الهادئ بصبيحة يوم الإثنين ليشاهد النساء وهنّ منهنمكات ببعض الثروة سويّة، وعجوزًا تحمل سلة خبز على رأسها، بالإضافة إلى رؤية أشخاص تخلفوا عن الالتحاق بأعمالهم بعد أن باتوا نافرين منها ومكرهين على القيام بها، وتيار الصناعة برمته محجم عن النشاط. هذه هي الحياة وهذا مجراها، لقد سئمت من التحديق بالأشياء حتى الرسام بيروجينو بحد ذاته، إلا أنّ ما ألهب أحاسيسي في هذا المكان هو طبق الكارباتشي³ والرسام بوتتشيلي⁴ فقط، غير أنني قد اكتفيت الآن، ولكن بمقدوري دائمًا النظر إلى ذاك الفلاح القروي المسن ذي اللحية الرمادية بسرّوالة الأبيض الترابي والكشكشات السوداء المحيطة بخصره، لم يرتدّ معطفًا أو أي ثياب زائدة، وقد اكتفى بالتجول على طول الجانب المحاذي لعربته الصغيرة التي يجرها أحد الثيران. **232** ذكرنا منظر المرأة التي تحمل سلة الخبز برغبتنا بالحصول على بعض الطعام، فطفقنا نبحث عن الخبز، لكننا لم نجد شيئًا، فعادّة ما ينفد كله في صباح الإثنين، لا بد لنا أن نعثر عليه في المخبز، وأين يقع يا ترى؟ إنه في أعلى الطريق ثم إلى آخر الممر. لقد ظننت رائحة الخبز لا بد أن تداعب أنوفنا، ولكن قُدر لنا أن نعود أدراجنا خائبين. لقد نصحنا أصدقائنا بشراء التذاكر باكرًا تحسبًا من ازدحام الحافلة، ولهذا قمنا بابتياح المعجنات أمس بالإضافة إلى الكعك الصغير وشرائح النقانق المحلية، وبرغم ذلك ما زلنا بلا خبز، فذهبت وسألت مضيفتنا المسنة عنه.

أجابت السيدة: "لا يوجد خبز طازج، لم يصل بعد". "لا يهم أعطني الخبز القديم". فذهبت وفتشت في الدرج ثم عادت وأشارت إلى أسفل الشارع: "آه يا عزيزي! لقد تناولت النساء كل شيء! ولكن ربما تجده على الجانب الآخر هناك، يمكنهم إعطائك بعضًا منه". فطلبت منهم إلا أنهم امتنعوا عن ذلك.

دفعت الفاتورة التي بلغت حوالي ثمانية وعشرين فرنكًا على ما أعتقد، وخرجت للبحث عن الحافلة، وحينها تقدمت نحو كوة صغيرة مظلمة فمحنوني شرائط التذاكر الطويلة للدرجة الأولى في الرحلة المتجهة إلى تيرانوفا، وقد بلغت التكلفة لراكبين سبعة فرنكًا. أما كيوبي فما زالت بذات الوقت تسير كما اتفقنا على طول الشارع بحثًا عن الخبز ولكن عبثًا. **233** خاطبنا سائق الحافلة الجديد بعجالة: "أنا مستعد للانطلاق حالما تكونان جاهزين". بدا شابًا شاحب الوجه بمظهر متجهم وعينين بنيتين وشعر بني مصفف. صعدنا إلى داخل الحافلة وأخذنا نلوح مودعين أصدقاءنا القدامى، حيث كانت حافلتهم جاهزة للانطلاق في الاتجاه المعاكس. أثناء تجاوزنا الساحة رأيتُ صاحب الثياب المخملية يقف هناك بمفرده، ولا يزال مقطبًا حاجبيه عبوسًا بسخط لم يخمد. أنا واثق من امتلاكه المال، فلماذا في الدرجة الأولى والبارحة خلاف ذلك! أنا متأكد أنَّ تلك المرأة قد تزوجته لأنه ابن مدينة موسر.

انطلقت رحلتنا الأخيرة في ساردينيا، وبدا الصباح خلالها جميلًا مبهجًا ذا سماء صافية زرقاء وكأنه يستمد هذا الجمال من أجراس السلام وكؤوس الورود خلاصة الألوان، أما في أسفل جهة اليمين فيمكث الوادي الأجوف العميق المكسو بغطاء أخضر من الأراضي الزراعية، وإذا نظرت للأعلى صوب ضوء النهار فستجد تلال لم تطأها قدم إنسان، وبدت مرتفعة شاهقة، فضلًا عن منحدرات قاحلة خالية من الأشجار.

إنَّ ما أزعج رحلتنا هو عدم وجود زجاج في النافذة اليسرى للحافلة، فأخذت الرياح الباردة تزفر وتزمر داخلها ليصبح الجو قارسًا للغاية، فاستلقيت على المقعد الأمامي بينما حشرت كيوبي نفسها في الزاوية، ورحنا نراقب تقاطيع الطريق تمر بسرعة من تحتنا. يال مهارة هذا السائق الجديد! إنه يمتلك أنفًا طويلًا منمشًا وعينين بنيتين قاتمتين، لقد كان بارعًا في التحكم بناقل حركة السيارة وسرعتها، إلا أنه رجل ميت بالنسبة للعالم، وقد أحاطت به الكآبة فبدأ أشبه بالأمير هاملت الشاب في مسرحية شكسبير، والفرق بينهما أنه يقود حافلة. كانت إجاباته على تساؤلات مرافقه مقتضبة، أو يكتفي بالصمت دون أي رد. إنه شخص كفؤ وجدير بالثقة، **234** يؤدي عمله بصمت وإتقان مع تجههم يسود وجهه، فيبدو وكأنه يقود حافلته على حافة الهلاك، وهو لطيف في

الأصل. حتى الروايات قد أغرمت بهذا النوع من الرجال؛ كالسيد روشيستر⁵ الشاب الميكانيكي ذي الشعر البني، الذي أضاع وَهْمَ جين⁶.

ربما ليس عدلاً أن نراقبه عن كثب من الخلف.

أما مرافقه فبدا مرحاً قليلاً، وقد اعتمر إحدى القبعات العسكرية الأنيقة التي عادة ما تكون قممها الرخوة مائلة إلى الجنب أو منحنية للخلف. وارتدى بنطالاً مخصصاً لركوب الخيل مصنوعاً من القماش الكاكي الإيطالي ولفائف حول الساقين. أخذ ينفث دخان سيجارته بمرح صاخب وبرفق مثير للغرابة بذات الوقت، ثم ناول سيجارة أخرى للسائق فقبلها منه، وأشعل له الولاة بينما تأرجحت الحافلة.

ما إن نزلنا على الطريق المسطح قليلاً، المتعرج من نوورو، حتى بدا المشهد مختلفاً عن الأمس تماماً، فسرعان ما راحت المستنقعات تنتشر على كلا الجانبين، وسط صحراء صخرية لا أشجار فيها أو حتى أجسام ملتفة على بعضها، لا بد أنها شديدة السخونة في فصل الصيف! يمكن للمرء أن يستوضح عن ذلك من كتب غراتسيا ديليدا⁷.

مررنا بجانب مهر صغير، يجر عربة متهاكة بدولابين، ويمشي بحزن على جانب الطريق. تباطأت حافلتنا وانزلت بهودة مارة به، ثم انطلقت في الطريق المتعرج مرة أخرى، **235** والذي عاد ملتفاً على نفسه بشكل حاد كثعبان أدمته الجراح. اندفع السائق بالحافلة على المنعطفات ثم راح يتهادى برفق في مسيره كالملاك، وبعد ذلك أسرع تارة أخرى نحو المنعطف التالي الذي كان على شكل قوس. فجأة وجدنا أنفسنا وسط مساحات واسعة مقفرة إلى حد ما، في وادي يزخر بالمستنقعات، مع صخور منخفضة بعيداً إلى اليسار، ومنحدرات حادة صخرية كثيفة على اليمين. كنا نشاهد من حين لآخر مجموعات من الرجال المرتدين الزي الأبيض والأسود وهم يعملون في مساحات من الأراضي المهجورة، وعادة ما ترافقهم امرأة ترتدي الزي الأحمر تقود حماراً يحمل سلالاً كبيرة على طول الأراضي المقفرة. أشرقت الشمس بشكل رائع يسلب الألباب فازدادت سخونة الطقس، ثم تغير المشهد تماماً، فبدت هذه المنحدرات متوزعة في الناحيتين الشرقية والجنوبية المطلة على البحر، محمولة كالشمس وهائجة كالأمواج.

أول محطة توقفنا عندها كانت تقع في المكان الذي يبدأ فيه الممر الوعر المقفر بنزول التلال متجهاً نحو طريقنا، حيث يوجد منزل مهجور ينكفي بنفسه عند الزاوية. وعلى جانب الطريق تقف عربة قديمة متهاكة يجرها مهر بني اللون. قام المرافق النشيط بفرز البريد، ثم شرع

الصبي صاحب العربة المتهالكة إلى التوقيع على السجل بينما وقفنا جميعًا في الطريق، وقد تطلب الأمر منا أيضًا بعض الانتظار لرجل كان يجلب طردًا آخر. وهكذا تم استلام الحقيبة البريدية والطرود من العربة المتهالكة وتخزينها والتوقيع عليها. ثم سارت بنا الحافلة وراحت تصعد تارة وتهبط تارة أخرى علنا نصيب شيئًا من الدفء، وقد بدا المشهد حولنا مقفرًا ومفتوحًا من جميع الجهات.

ضغط السائق على بوق الحافلة بشدة، ما زلت مندهشًا من طريقة دخولنا الحافلة، متراحمين وكأننا ننتاجر ولكن بمودة واحترام! انطلقنا بعيدًا متجهين صوب البحر، يمكن للمرء أن يشعر بوهج غريب يشع وسط منتصف الطريق المؤدي إلى الأعلى، إنَّ كثافة الضوء هذه في السماء تنتج **236** حين تغدو الشمس مقابلة لسطح البحر تمامًا.

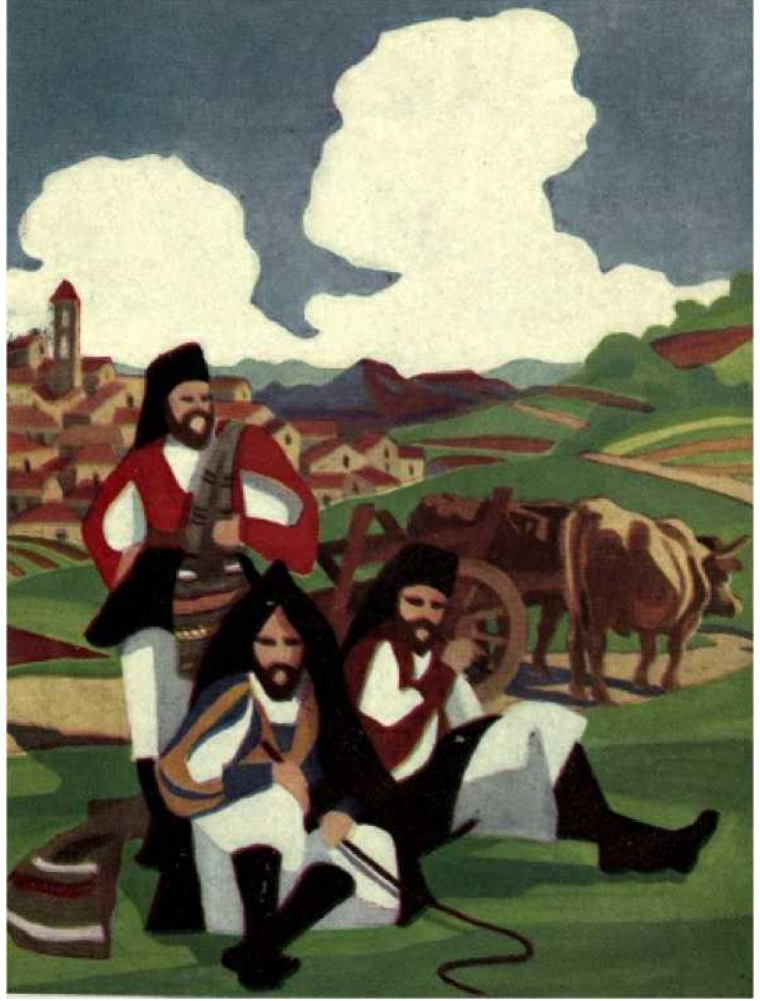
بعيدًا في المقدمة تسير ثلاث فتيات على طول جانب الطريق السريع الأبيض، يحملن سلاسلًا كبيرة ويرتدين زيًا بنيًا، متجهات نحو قرية تقع أعلى منحدر طفيف. وما إن سمعن صوت حافلتنا حتى استدرن وأخذن يتحركن على الفور بارتباك أحمق كدجاجات يتجولن على غير هدى، فاجتزن الطريق منطلقات باتجاهنا، سرعات أكثر من عدو الأرانب، الواحدة تلو الأخرى، ليصلن إلى مسار جانبي عميق، شبيه بحفرة ذات زوايا قائمة على الطريق. وبينما كنا نتقدم للأمام ربضن على الأرض ورحن يتلصصن علينا بنظرات يملؤها الخوف، كمخلوقات تمد رؤوسها من داخل جحورها، فحياهن المرافق بصيحة. ثم أسرعنا بمسيرنا صوب القرية التي تقع على القمة المنخفضة.

كانت هذه القرية عبارة عن مكان صغير صخري ذي أرض متعرجة يقطنه أناس فقراء. تابعنا التقدم حتى قرر السائق أن يتوقف تمامًا في بقعة ما، وهناك وجدنا مجموعة من الفقراء، بينهم نساء يرتدين الزي البني الغامق مع سترات قصيرة ذات طراز مختلف مرة أخرى، بالإضافة إلى مشد للخصر منخفض ورائع إلى حد ما، تم تشكيله بشكل غريب؛ ويبدو أنه مصنوع من الديباج المدهش المتقن، ولكنه يبدو متسخًا الآن. وفجأة نشبت مشادة تسبب بها رجل يريد أن يصعد إلى الحافلة مع خنزيرين أسودين صغيرين، كل واحد ملفوف في كيس صغير، وقد بدا وجهه وأذناه أشبه بزهرة من باقة ورود مغلفة، حيث قيل للرجل إنه يتحتم عليه دفع أجرة كل خنزير كراكب مستقل. يا له من أمر مثير للعجب بحق! لقد علق الخنزيرين كل واحد في يد، **237** ففتح ذلك الخنزيران الصغيران فميهما الأسودين وراحا يصرخان وكأنهما واعيان ليعتذرا عن اللغط والجلبة التان تسببا بهما. إنَّ المرافق شخص متعنت، فهو لا يترك حتى الفأر يمر دون أن يدفع ثمن تذكرة حاله كحال أي مسافر عادي، أما صاحب الخنزيرين فقد تراجع بذهول

واستياء، ووضع خنزيرًا تحت كل ذراع. وحينها بادر شاب لسؤاله بسخرية: "كم دفعت مقابل البراغيث التي تحملها؟".

هناك امرأة جالسة تخطط غلالة⁸ جندي لتصنع منها سترة صغيرة لأجل ولدها، وهكذا تم تحويل عتاد الحرب إلى سترة للطفولة، خيطة بهدوء تحت الشمس. وكذلك توجد مجموعة من الفتيات الوقحات السمان ذوات الخدود الممتلئة قد انشغلن بالحديث والقهقهة مع بعضهن. قام صاحب الخنازير، بحرق اعتلاه الصمت، بتعليق خنزيريه وكأنهما قارورتان، على جانبي سرج حمار تمسك رسنه فتاة ارتسمت ابتسامة على ثغرها لكنها تحمل الضغينة أيضًا؛ فقد أزعجها المرافق كثيرًا بطلبه تلك الأسعار لأجل الخنزيرين اللذين راحا ينظران إلى الخارج من موضعها الجديد، ويصرخان احتجاجًا ضد الإنسانية التي لا تطاق. تحدث السائق بصوت هادئ وانفعالي بذات الوقت: "هيا بنا! هيا بنا!". فصعد المرافق إلى الحافلة واندفعنا مرة أخرى نحو الضياء الشديد المنبعث من جهة البحر.

انطلقنا للأمام صوب أوروبي، وهي بلدة صغيرة مهملة خربة غارقة بنور الشمس، ترحلنا عن الحافلة في ساحتها، فشاهدنا واجهة كبيرة مزيفة لكنيسة تعود للعصر الباروكي، تقع فوق ركام واسع متعرج من الدرجات، 238 أما على الجانب منها فتري مزيجًا رائعًا من القطع المستديرة مع خليط آخر من الأسقف القرميدية المستديرة، والمديبة في الوسط تمامًا. لا بد أنها كانت ديرًا أو شيئًا من هذا القبيل، ولكن من الواضح أن ما يصفونه بلوحة فنية أبدعتها يد رسام هو ذلك الوجه الباروكي الباهت الضخم المتمثل بالكنيسة، في الجزء العلوي من المنحدر، حيث يقع مبنى قائم غريب للغاية على جانبه، فضلًا عن العديد من الأسقف المستديرة المكسوة بالقرميد الداكن، فبدت أشبه بقبعات مدبية على ارتفاعات متفاوتة. لقد اتسمت المساحة كلها بطابع إسباني غريب مهمل وقاحل، لكن مع ضخامة ووقار متهالك، وجمود يعيد المرء إلى العصور الوسطى، عندما كانت الحياة عنيفة. وأوروبي ميناء ومكان مهم بلا ريب، ومن الأرجح أنها كانت تمتلك أساقفة خاصين بها.



نوورو

ألقت الشمس أشعتها الساخنة وسط تلك الساحة الواسعة بواجهتها الكبيرة الباهتة، منتصبة فوق قمة جانب واحد من المنحدر الصخري، والأقواس والفناء الكبير المظلم والسلام الخارجية لبعض المباني المجهولة البعيدة عن بعضها، والطريق القادم من الأراضي الداخلية صوب أسفل التلة، لينحدر إلى المستنقعات البحرية. إنَّ ذلك يمنح المرء انطباعًا بوجود قوة ما قد فرضت سطوتها على ذلك المكان، ومنحت هذا المركز وحدة معمارية وروعة، والذي أصبح الآن منسيًا وضائعًا. بلدة أورو سي رائعة حقًا، لكن سكانها من ذوي المراس الصعب؛ فقد ذهبنا إلى متجر بدائي جدًا وطلبنا الخبز. فسألنا البائع القروي الفظ: "هل تريدون الخبز فقط؟". "أجل من فضلك". **239** فأجاب: "لا يوجد لدي أي منه". "أين يمكننا الحصول عليه إذًا؟". "لن تحظى به أبدًا". "حقًا؟!". لم نستطع ذلك بالفعل، فالناس في هذا المكان يغدقون عليك بفيض من التجهم والكآبة عوضًا عن المحبة والمودة.

علمنا بوجود حافلة كبيرة أخرى جاهزة للانطلاق إلى بلدة تورتولي التي تقع بعيداً إلى الجنوب على الساحل الشرقي، حيث تتقاطع في مانداس السكك الحديدية القادمة من سورغونو و تورتولي. توقفت الحافتان بالقرب من بعضهما وتبادل سائقاها الأحاديث، ثم نزلنا وقمنا بجولة حول البلدة الهامدة الساكنة، بل هي قرية أكثر من كونها بلدة، وفجأة أخذ السائق يضرب بوق السيارة بشكل حازم، فصعدنا متزاحمين إلى متنها.

تم تخزين البريد. وفي تلك الأثناء أقبل رجل من السكان المحليين، يرتدي ملابس سوداء فضفاضة، راكضاً ويتصبب عرقاً حاملاً حقيبة خمرية اللون، وطلب منا انتظار صهره، الذي كان على بعد عشرات الأمتار. جلس السائق في مقعده وراح يرقب الاتجاه الذي سيقبل منه الصهر، لقد قطب حاجبيه بانزعاج وأنفه الطويل الحاد لا يبشر بالكثير من الصبر، طفق يضرب بوق الحافلة بشدة، ولكن عبثاً فالصهر لم يظهر بعد، وإذ به يقول فجأة: "لن أنتظر أكثر من ذلك". 240 فاعترض المرافق معنفاً إياه: "انتظر دقيقة واحدة فحسب، لن يتسبب لنا ذلك بأي ضرر". فظل السائق صامتاً دون أي تعليق، وجلس بسكون شديد كالتمثال، بيد أن عيونه السوداء استمرت بالنظر بحدة نحو الطريق الخالي.

وبعد برهة تتم بشفاهه وانحنى إلى الأمام بشكل كئيب نحو مقبض الانطلاق: "إيه حسناً". صرخ المرافق: "صبراً، صبراً، لماذا لا تنتظر لحظة؟". إلا أن نداءً مباغتاً قاطع هذا الجدل منبعثاً من الرجل الذي يرتدي الزي الأسود الفضفاض، حيث راح يقفز ويهتف مناشداً إيانا بعناء وألم على الطريق، وبجانبه حقيبته الخمرية منتصبه على التراب: "كرمي لله! لا تذهبا أتوسل إليكما! يجب عليه اللحاق بالقارب والوصول إلى روما غداً. فقط ثانية أخرى. سيكون هنا، لن يتأخر!".

امتعض السائق العنيد، وحرر المقبض ونظر حوله بعيون داكنة متوهجة، ولكن لا أحد على مرمى البصر. كان هناك مجموعة من السكان المحليين كالحى الوجوه يرقبون ما يجري بكل برود، برقت عينا السائق القاتمة بعد أن تبين له أن الأفق أمامه خالي تماماً، ثم تبدلت ملامح وجهه برمشة عين! ليغلب على محياه طابع السلام الملائكي أثناء رفع قدمه عن المكابح. كانت حافلتنا الكبيرة تقف على طريق منحدر، ولهذا وبشكل مكرر بدأت تنحني إلى الأمام وتتسلل متقدمة رويداً رويداً. جلس المرافق بجانب السائق وصاح قائلاً: "آه! يا لعنادك!". 241 فنده الرجل ذو الرداء الفضفاض وهو ينظر للحافلة تزيد من سرعتها وتتلاشى مبتعدة نحو الأمام: "أرجوكم! حباً لله!". فرفع يديه وضمهما وصرخ بعواء جامح: "يا لحظك العاثر يا بابين!". لكن رجاءاته ضاعت سدى، فلقد تركناه خلفنا مع مجموعة الحاضرين ومضيئنا دون تردد، وأخذنا

نتقدم نزولاً خارج الساحة، بينما حمل الرجل ذو الرداء الفضفاض حقيبته وظل يركض قلقاً حزيناً بجانبنا. ثم اجتازنا الساحة دون أن يقوم السائق بتشغيل المحرك، وكنا نتدحرج ببساطة على المنحدر اللطيف بمشيئة الله، حتى اختفينا في شارع المخرج المظلم متجهين نحو البحر الذي لا يزال غير مرئي لنا.

وفجأة صدحت صرخة عالية: "أوه، آه!".

راح الرجل ذو الرداء الفضفاض يلهث قائلاً: "إنه هنا! إنه هنا! انتظروا! توقفوا رجاءً!". ثم أتبع قائلاً مخاطباً صهره: "بابين! لقد ذهبت الحافلة، إنها تبتعد!".

حضر بابين أخيراً والذي كان رجلاً في منتصف العمر يرتدي أيضاً ثوباً فضفاضاً أسود اللون، تكسو وجهه لحية غير مشذبة ويحمل صرة في يده، وقد أخذ يهرول تجاهنا بأرجله الممتلئة. كان وجهه يتصبب عرقاً وبدا بريء المظهر خالياً من أي تعابير، باستثناء ابتسامة ساخرة طفيفة يتخللها بعض البغض والارتياح بذات الوقت، فضغط السائق على المكابح وأوقف الحافلة في منتصف الشارع، وهناك امرأة أخذت تترنح ممسكة صدرها من شدة التعب ووقفت استعداداً للحظة الوداع.

قال السائق باقتضاب وهو ينظر عبر كتفه بحقد: "هيا بنا!". ورفع قدمه عن المكابح على الفور. **242** فقامت المرأة البدينة بدفع بابين إلى داخل الحافلة وهي تلهث مودعة إياه، واستلم منها الحقيبة الخمرية وتراجع مترنحاً للخلف، ثم انطلقت الحافلة بعنف وهمجية إلى خارج أورو سي.

في غضون لحظة تقريباً، غادرنا البلدة ونحن نسير على طريقها المنحدر، والذي يجري تحته نهر يلتف ويتلوى عبر المستنقعات وصولاً إلى البحر، حيث راحت أمواج صغيرة بيضاء تتناثر على شاطئ منبسط معزول يبعد عنا ربع ميل. أخذ النهر يجري بسرعة بين الحجارة ثم أحزمة من القصب العالي، بطول رجل صلب ينتصب شامخاً بأوج قوته وشبابه. كانت هذه القصبات الفارعة ممتدة حتى تخوم البحر المتهادي الذي يعانق الأفق، حيث ينطلق منه وهج أبيض لامع، ياله من ضوء هائل يمتد فوق البحر الأبيض المتوسط المنخفض.

نزلت حافلتنا بسرعة إلى مستوى النهر، وراحت تسير فوق الجسر. بعد ذلك ظهرت أمامنا تلة مرتفعة أخرى تحول بيننا وبين البحر، وهي تشبه الجدار إلى حد ما، لها قمة أفقية مسطحة تماماً وموازية لحافة البحر، إنها نوع من الهضبة الطويلة الضيقة. وخلال لحظة واحدة أصبحنا نسير داخل تجويف واسع من مجرى النهر، أما أورو سي فقد باتت خلفنا منتصبة على الجرف. بعيداً نحو اليمين التقت المستنقعات النهرية المنبسطة بقصبها اليابس الكثيف مع البحر المسطح

المشرق، وهكذا تعانقت مياه النهر والبحر والتحمتا سوية، فتراقصت أمواج صغيرة خجولة مع مجرى النهر. أما إلى يسارنا فهناك جمال عظيم، حيث بدا النهر ممتدًا نحو الأعلى ليدخل في مزرعة مليئة بأشجار لوز ساحرة تناثرت الأزهار على أغصانها. يا لها من أشجار خلابة بهية! فلونها القرنفلي الفضي يلمع بفخامة شديدة، **243** وقد تجلى مظهر قاماتها الطويلة المثالية على سطح النهر الموازي للبحر بشكل غريب. كانت أشجار اللوز المزهرة تبرز أسفل بلدة أورو سي رمادية اللون على مقربة من الطريق فوق المنحدر الصاعد أمامنا، حيث أمكننا رؤية براعمها المتفرقة، وقد بدت مختالة بجمالها الفتان ومقامها الرفيع في ذلك الغور، فألقت عليها الشمس خيوطًا ذهبية رائعة. أما البحر فكان له حضور ساحر مهيب، وقد أخذ يرمي بوهج أبيض لامع في جميع الأرجاء. وكم أصبحت هذه الأشجار مضاءة متألفة بعد أن راحت السماء تشع عليها بوميض وردي اللون. وبالكاد يمكن للمرء أن يرى جذوعها الصلبة وسط هذا الوادي الغريب الذي كنا قد اجتزنه حينها، واندفعنا إلى أعلى الطريق الكبير الذي شق بشكل مستقيم ليميل على طول جانب تلة البحر.

وهكذا انعطفت الحافلة نحو الجنوب لتتطلق صاعدة في طريق التلة الجانبي المائل وتعتلي سطح البحر الشامخ هذا. وهكذا برزنا من التلة ليلفت انتباهنا مشهد أمواج البحر الأبيض المتوسط وهي تضرب الصخور السوداء بمكان منخفض ليس بالبعيد جدًا على يميننا. وفجأة تحول الاتجاه صوب الشمال، فوجدنا أنفسنا نسير في طريق أبيض مستقيم لا اعوجاج فيه ولا نهاية له، وممتد بين قطع من الأراضي البرية المليئة بالأشجار الكثيفة والمستنقعات، أما البحر فيقع على مسافة قريبة منا بزرقته الشديدة الوضاء، حيث طغى نورها على صفاء المياه بحد ذاتها. يوجد في الجهة اليسرى الغور الواسع للوادي، حيث بدت أشجار اللوز كسحب تراقصها الرياح، وقد عكست السماء البهية على الأرض لونها الوردي بعد أن لوحتها الشمس، وخلفها احتشدت المنازل الرمادية البائسة لبلدة أورو سي فوق المرتفع شديد الانحدار. آه يا أورو سي الرائعة! بطبيعتك الساحرة التي احتضنت أشجار اللوز ونهر القصب المشع بضياء يداعب نبضات القلوب، وقد أصبح البحر الأزرق جازًا ودودًا ومؤنسًا لك. كل شيء ضاع في زمان قد مضى منذ أمد بعيد، إلا أنك ستبقي خالدة وسط الطبيعة وفي حكايات الأجيال كالأساطير. من الصعب التصديق بأنك حقيقية، ويبدو أن الحياة قد هجرتك منذ مدة طويلة، **244** فحولتك الذاكرة إلى بريق نقي، فأمسيت ضائعة كلؤلؤة مفقودة على الساحل الشرقي لجزيرة سردينيا. ومع كل ذلك، لن يخلو الأمر من وجود عدد قليل من السكان رديئي الطباع، الذين لن يمنحوك حتى كسرة خبز. ومن المرجح أن الماريا منتشرة بشكل كبير هنا، ولهذا فإن بقاءنا لمدة شهر كامل لهو خطر جدًا. بيد أن صباح ذلك اليوم من شهر يناير بدا رائعًا للغاية، فضيأه السرمدي يعود بك إلى العصور الوسطى حين اتصف الرجال بالتسلط والعنف والتجهم والسوداوية تحيط بهم من كل مكان.

يذكرني ذلك بشطر من بيت شعر مشهور: "إنَّ الخوف من الموت يربكني ويهز أركانِي". يمتد الطريق على طول البحر وفوقه، ويتأرجح بلطف صعودًا وهبوطًا، ليصل إلى نتوء تلال يتعدى البحر في مسافة. لا توجد في هذا المكان أراضٍ مرتفعة على الإطلاق، وها هو الوادي وقد أصبح وراءنا الآن، وأحاطت بنا المستنقعات، فضلًا عن وجود مستنقعات مقفرة غير مأهولة ولا تصلح للسكن تكتسح برفق الجهة اليسرى منا، لكنها تنتهي حيث تنخفض الأرض وتنحدر صوب البحر عند الجهة اليمنى. لا يوجد ما يشير إلى الحياة على مد النظر أو حتى مجرد سفينة تتوسط هذا البحر الأزرق الشاحب، أما السماء فبدت شديدة الصفاء بلونها الأزرق وضيائها الأخاذ، وقد راح نسر كبير يحوم فوق هذه المستنقعات والصخور. لقد كانت أرضًا ضارية تنتثر الصخور في أرجائها، ذات شجيرات داكنة، مكشوفة للسماء، ومهجورة لتغدو أسيرة للبحر والشمس.

لا أحد سوانا في هذه الحافلة، فأتاح المرافق لنا مقعدين، لكنه في الواقع أربكنا بذلك. كان شابًا في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر، وبدا مرتبًا وأنيقًا للغاية، بقبعته العسكرية الفخمة 245 ومظهره الذي بدا مثاليًا للغاية في الملابس العسكرية. عيناه القاتمتان أوحى بأسئلة لا حصر لها، وكان أسلوبه في التواصل مفاجئًا مستمرًا ومربكًا. لقد سألنا بالفعل عن وجهتنا، ومكان إقامتنا، ومن أين أتينا، وما هي جنسيتنا، وهل أنا رسام. وهكذا بات على معرفة تامة بنا، من ناحية أخرى حاولنا تجنبه إلى حد ما. بعد ذلك قمنا بتناول معجنات نوورو الهشة ذات اللون الباهت، وهي مجرد فطائر فشارية لا بأس بها، فلا شيء داخلها سوى نسمة من الهواء، بالإضافة إلى شرائح سحوق شديدة النكهة، ثم شربنا الشاي. لقد كنا بغاية الجوع حتى إنَّ وقت الظهيرة قد مر علينا دون تناول أي شيء. تألقت الشمس وسط السماء بصورة رائعة للغاية، وقد اندفعنا بسرعة كبيرة، على طول طريق المستنقعات فوق البحر مباشرة.

عاد المرافق ليجلس معنا ويشاركنا الحديث، ثم ركز النظر إلينا بعينيه القاتمتين المتوسلتين المثابرتين، ومكث أمانًا متربّعًا، وبدأ في طرح أسئلة محرجة بصوت فضولي قوي، غير أننا لاقينا صعوبة في سماع حديثه لأنَّ الحافلة قد أصدرت ضوضاء عالية أثناء اندفاعها الشديد، فتوجب علينا الصراخ بلغتنا الإيطالية الركيكة فتسبب ذلك بالحرص لنا جميعًا. برغم العبارة المكتوبة بأنَّ التدخين ممنوع إلا أنه أخرج سكارتين وأصر علينا أن ندخن، فلا مفر من التسليم لذلك، وراح يشير لنا إلى ملامح المنظر الطبيعي في الخارج، ولكن لا شيء يرقى للتعليق عليه، باستثناء التلة الممتدة من المستنقع وصولًا إلى البحر، التي شكلت رأسًا بحريًا. لقد أخبرنا بوجود منزل بعيد تحت المنحدرات لخفر السواحل، ولا شيء آخر. 246 ثم

التفت محدقًا بنا ليمطرنّا بأسئلته مرة أخرى، فاستفسر إن كنت مواطنًا انكليزيًا وكيوبي ألمانية الجنسية، فأجبناه بأنه محق. بعد ذلك عمد إلى سرد قصة قديمة لنا، عن كيفية ظهور الأمم وزوالها وها نحن مرة أخرى ندخل في صراع ثقافات مثل بونش وجودي⁸.

في الحقيقة لم يكن لدى إيطاليا أي خلاف مع ألمانيا مطلقًا، بل تربط البلدين صداقة حميمة، ولكن بمجرد اندلاع الحرب توجب على إيطاليا المشاركة فيها، فلقد كانت ألمانيا على وشك هزيمة فرنسا واحتلال أراضيها، ومن المؤكد أنها ستزحف إلى إيطاليا لتغزوها، ولهذا من الأفضل الانضمام إلى الحرب وأخذ الحيلة أثناء انشغال العدو بغزو بلد آخر. إنهم ساذجون تمامًا حيال ذلك، هذا ما أفضل قوله. لقد أخبرنا المرافق بأنه كان جنديًا، وخدم لثمانى سنوات في سلاح الفرسان الإيطالي. أجل، لقد ظل فارسًا طوال الحرب. ولكن لا خلاف له مع ألمانيا. إنَّ للحرب مرارة ودماء وآلام، وقد ولى زمانها، ولهذا لا تأتي على ذكرها أبدًا. ثم أسبغ بالحديث عن فرنسا بعد أن انحنى للأمام أثناء جلوسه على مقعده ودفع بوجهه لمسافة قريبة منا: "فرنسا، آه من هذا البلد!". وهنا ألقت عيناه الداكنتان المحتجتان فجأة نظرة غاضبة مجنونة تمامًا: "إنَّ كل رجل في إيطاليا يتشوق إلى القضاء على فرنسا، وإذا نشبت حرب جديدة فسيقفز كل إيطالي ويتناول السلاح، حتى المسنين منهم. أجل، لا بد أن تتدلع الحرب مع فرنسا، إنها قادمة، وستحدث يومًا ما دون شك، إنَّ كل إيطالي ينتظر هذه اللحظة، فلقد أُجبر على الخدمة في الجبهة الفرنسية لعامين، يال هؤلاء الفرنسيين! إنهم متعطرسون للغاية، وقاحتهم لا تطاق أبدًا، ويعتقدون بأنهم أسياد العالم، 247 ولا يخالجهم أدنى شعور أنهم أقل من ذلك، ولكن ماهي حقيقتهم؟ إنهم قردة، بل حتى القردة أفضل منهم، ولكن دع الحرب تنشب، وستضعهم إيطاليا في محلهم الحقيقي، وستلقن هؤلاء الذين يظنون بأنهم أسياد العالم درسًا لن ينسوه أبدًا، وإيطاليا تواقة للحرب وكذلك جميع من فيها، مع فرنسا فقط ولا أحد غيرها، فإيطاليا محبة للجميع باستثناء فرنسا تلك".

أفسحنا له المجال ليتحدث ويصرخ كما يشاء حتى أفرغ كل ما بجعبته من كلمات، إنه يمتلك شغفًا وطاقة مذهلة بحق، وكأن شيطانًا قد مسّه، لا يسعني إلا أن أتعجب وأتساءل، كيف لهذه المشاعر المخيفة أن تنبثق من أجواف النفوس المتوسلة الحزينة حين تخذشها الإهانة؟! فمن الواضح أنَّ هذا الشخص تعرض للقسوة والذل وقد اشتعل الغضب في قلبه، ولكن أيها الشاب العزيز، لا ينبغي لك أن تتحدث بصوت عالٍ بالإنابة عن جميع الإيطاليين وحتى المسنين منهم، فكل ما يشغل بال غالبية الرجال الإيطاليين هو أن يشعلوا سجنائهم بدلًا من أن يصوبوا بنادقهم، ويفضلون تدخين سيجارة سلام أبدي دائم، على أن ينفقوا بالرأي مع صديقنا. وبرغم ذلك فقد ظل الغضب مستعرًا في وجهه خلال انطلاقنا على طول الساحل، إلا أنه وبعد فترة من الصمت عاد لحزنه تارةً أخرى، ونظر إلينا من جديد بتلك العيون البنية المتوسلة، لماذا هذا التوسل في

مقلتيه يا ترى؟ عجزت عن تفسير سببه، حتى هو لم يُدرك ذلك، ربما هي رغبة نابغة من ذاته، التي تتوق لامتطاء صهوة حصان والعودة إلى الالتحاق بفوج سلاح الفرسان، حتى وإن كان ذلك عن طريق إشعال الحرب. ولكن لا، فقد اتضح لي ما يريده! **248**

سألني الرجل: "متى أنتم ذاهبون الى لندن؟ وهل هناك الكثير من السيارات فيها؟ وهل هي متوافرة في أمريكا أيضًا؟ وهل يحتاجون أيد عاملة في أمريكا؟". أجبته: "كلا، فليدهم بطالة هناك، وسوف يوقفون الهجرة في أبريل، أو يخفضونها على الأقل". سأل بحدّة: "لماذا؟". "لأنّ مشكلة البطالة مستفحلة لديهم". وهنا علّقت كيوبي قائلة: "هناك ملايين الأوروبيين الذين يرغبون بالهجرة إلى الولايات المتحدة"، فأصبحت عيناه قاتمتين واستفسر باهتمام: "هل سيتم تعميم حظر الهجرة على جميع دول أوروبا؟". "نعم، فالحكومة الإيطالية لن تمنح المهاجرين المزيد من جوازات السفر لأمريكا". "يا إلهي! لا يمنحون جوازات سفر؟ إذا لا يمكن للمرء الذهاب؟". فأجبته: "أجل، لا يمكنك الذهاب".

أثارت لهفته وعيناه المتوسلتان عاطفة كيوبي، فسألته عن سبب رغبته بالهجرة، فأجاب بوجهه الحزين والكئيب بأنه يود الخروج من إيطاليا والرحيل بعيدًا عنها، بعد أن سكن الغضب والشغف فؤاده.

يقع منزل هذا المرافق في قرية تبعد أميالًا قليلة عنا على امتداد هذا الساحل، ونكاد نصلها، يملك فيها عقارًا وأرضًا لكنه لا يرغب بزراعتها أو إزعاج نفسه بها، فهو يكره الأرض والعناية بالكروم، ويعجز عن ارغام نفسه حتى على مجرد المحاولة. ما الذي يريده إذا؟ **249** يتمنى مغادرة إيطاليا والسفر إلى الخارج ليعمل كسائق هناك، وقد ارتسمت في عينيه مرّة أخرى نظرة متضرعة. إنه يأمل أن يعمل سائقًا لرجل نبيل، لكنه مختص بقيادة الحافلات، سيعمل أي شيء في إنجلترا على أية حال. ها قد لفظ ما بداخله بوضوح، فقلت له: "أجل، ولكن البطالة منتشرة في إنكلترا أيضًا"، فحدق بي بنظرته اليائسة المتوسلة. يا إلهي! إنه شاب مليء بالحيوية والطاقة، وتوّاق لتكريس نفسه لأجل المسير على درب هذا الأمل، أو الانفجار غضبًا في نوبة مجنونة ضد الفرنسيين. ما يخيفني هو إيمانه وثقته بطيبة قلبي، أما بالنسبة للسيارات، فأنا لا أملك خبرةً بها على الإطلاق، فكيف عساي أن أوظفه كسائق؟

خمد الجدل أخيرًا وهدأنا جميعًا، فقفز المرافق إلى الخلف وعاد لمقعده بجانب السائق. ما زال الطريق مستقيمًا، يتأرجح عبر المستنقعات بجانب البحر. انحنى المرافق باتجاه السائق الصامت

متوتر الأعصاب، وتوسل إليه بأن يسمح له بتولي القيادة، وبعد وقت طويل، تنحى السائق جانباً مُلبّيّاً طلبه، فأصبحنا خلال لحظة بين يدي صديقنا المرافق، لم تكن قيادته بالماهرة، ومن الواضح أنه ما زال يتعلم، ولا يمكن للحافلة أن تستمر في وضع مستقر وسط أخايد هذا الطريق البري المقفر، لكنه قام بإطفاء المحرك عندما انزلقنا من أعلى التلة، واختلط عليه الأمر كثيراً في ذروة المنحدر عندما حاول أن يغير ناقل الحركة، أما السائق فبدأ قلقاً وراح يراقب بكل يقظة وصمت، ثم مد يده وأدار المقبض، ولهذا فلا شيء يدعو للخوف فهو لن يسمح بوقوع أي خطأ. 250 في الواقع أود أن أثق به، حيث سيقود الحافلة إلى أسفل التجويف العميق للغاية ليصعد بنا الجانب الآخر، بيد أن هذا المرافق المتوسل ما زال ممسكاً بالمقود، ويتقدم بتردد وحيرة، وهكذا حتى وصلنا إلى أسفل التلة، وحينها انحنى الطريق فجأة، فراح قلبي يخفق بشدة، فأنا واثق أنه يعجز عن اجتيازها، إلا أن يد السائق الثابتة المنمشة أمسكت المقود فانحرفت الحافلة وتخطت تلك الانعطافة بسلام، وهنا بادر المرافق بتسليم الحافلة للسائق ليستأنف قيادتها والسيطرة عليها.

لكن المرافق بات الآن يشعر كأنه واحد منا، فعاد إلى مؤخرة الحافلة ليتبادل معنا الأحاديث، وعندما تزيد حدة الكلام ويغدو صاخباً للغاية، يجلس ببساطة وينظر إلينا بعينين بنيتين متوسلتين. تجاوزنا أميالاً عديدة على هذا الطريق الساحلي ولم تظهر أي قرية بعد. مررنا بمركز حراسة وجنود مستقلين حول الطريق، ولكننا لم نصل إلى أي مكان مناسب للتوقف فيه أبداً. لا شيء حولنا خلال تقدمنا في هذا الطريق سوى أراضٍ مقفرة غير مأهولة. أصبنا بالدوار من شدة التعب والجوع والسفر المضني، رباه! متى سنصل إلى سنيسكولا يا ترى؟! سألت المرافق: "هل سنتناول غداءنا في الظهيرة هناك؟". فأجاب: "أوه، بكل تأكيد، يوجد نزل في سنيسكولا يمكننا أن نأكل فيه ما يحلو لنا". لا بد لنا أن ننزل من الحافلة ونتناول الطعام، فلقد تجاوزت الساعة الواحدة وما زال الضوء الساطع والعزلة المقفرة تحيط بنا. 251 وبعد ساعات قليلة عرفنا أن سنيسكولا تقع خلف هذه التلة أماننا، وعلى الشاطئ هناك في الأسفل توجد حماماتها الكبريتية المشهورة، حيث يأتي العديد من السياح لزيارتها في فصل الصيف، وذلك ما جعلنا نضع آمالاً كبيرة عليها، تبعد البلدة عن البحر مسافة ميلين، فيضطر السياح المستجمون لركوب الحمير لأجل الوصول إليه. أخذنا نقترّب من هذا المكان الجميل رويداً رويداً، وفجأة مررنا بحقول زراعية تحيط بها أسيجة حجرية، حتى مساحات المستنقعات كانت مسيجة. شاهدنا حقلاً صغيراً

له جدار حجري تناثر الخسروات على تربته، وهناك أيضًا مسار أبيض غريب يمر عبر المستنقع وصولاً إلى ساحل البحر المهجور. لقد أصبحنا قريبين جدًا.

حين نظرنا إلى الحافة المنحدرة للتلة المنخفضة وجدنا قرية فيها تجمع لمنازل رمادية اللون ويتوسطها بُرجان، ها قد وصلنا الآن، ارتجت حافلتنا عندما سارت فوق الحصى، ثم توقفت على جانب الشارع، هذه هي سنيسكولا، وسنتناول الطعام أخيرًا. نزلنا من الحافلة المنهكة، فطلب المرافق من أحد الرجال أن يدلنا على النزل، فدمدم الرجل رافضًا ذلك، فقم تكليف أحد الصبية عوضًا عنه. لا أستطيع أن أتحدث بالكثير عن سنيسكولا، إنها مجرد مكان ضيق صخري بسيط حار في الشمس وبارد في الظل. وصلنا إلى النزل خلال دقيقة أو دقيقتين، فصادفنا شابًا بديئًا يترجل لتوه عن صهوة حصانه البني ويثبته بحلقة جانب الباب.

لم يكن النزل مبشرًا بالراحة، الغرفة الباردة المعتادة القائمة المطلة على شارع مظلم، والمنضدة الطويلة ذاتها ولكن هذه المرة مع مفرش طاولة ملطخ بشكل سيء. **252** وهناك سيدتان شابتان قرويتان مسؤولتان عن النزل، ترتديان زيًا بنيًا قذرًا نوعًا ما، وحجابًا أبيض ملفوفًا على رأس كل منهما. الفتاة الأصغر هي القائمة على الخدمة، وبدت وقحة مغرورة للغاية ومتسلطة تحسب نفسها ملكة، رفعت أنفها عاليًا في الهواء، وأظهرت استعدادها للسخرية من أي أمر. إنَّ الاعتياد على السلوك الحازم المغرور لهؤلاء الأنسات الشابات يستغرق وقتًا بالفعل، فإن دست على طرف ثوب إحداهن فعليك أن تتحمل وقاحتها، هذا السلوك هو نوع من الهمجية والدفاع الفظ، وإنه بلا شك شائع بين نساء ساردينيا يدعوهن لتقوية عزيمتهن والاستعداد لضرب أي شخص يفكر بالاعتداء عليهن. أما ملكة الطين هذه فكل المصائب من رأسها. لقد راحت تلتكز الطاولة بقدمها، ملقية بقطع الخبز على غطاء القماش الكريه وكأنها تعني بذلك، خذه بتفضل مني عليك، مع ابتسامة خافتة على وجهها. لم تقصد بذلك إهانتنا بل إنها فظاظة وليس أكثر، ولكن حين يُرهق المرء من التعب والجوع فلن يملك إلا التغاضي... لسنا الوحيدين الذين ينشدون الطعام، فهناك الرجل صاحب المهر وبرفقتة عامل أو عتال أو ربما يكون موظف رسوم جمركية، بالإضافة إلى سائق حافلتنا. قامت الشابة بدفع الخبز والأطباق والملاعق والأكواب إلينا، بينما جلسنا حول الطاولة القذرة بارتباك غريب، متأملين الصورة البشعة لجلالة ملك إيطاليا، حتى وصل أخيرًا الحساء الذي لا مفر منه فبدأ الجميع بشفطه بنهم، ولقد تفوق الشاب الذكي الريفي عليهم جميعًا بذلك. حيث تدفق الحساء إلى أعلى فمه بضجيج رشف طويل، **253** وقد اشتد الصوت عندما وجدت أجزاء من الملفوف ومأكولات أخرى طريقها إلى حلقه.

قام الجميع بنفس الفعل الأنف الذكر الذي قام به الشاب، ولم يلقوا بالأل بملكة الطين بملكة وخاطبوا باقتضاب وعدم احترام، وتم التخلص من جوارها المشحون بالعنجهية تمامًا، إلا أنها ظلت تتباهى مختالة أمامهم. أما بالنسبة للمائدة فهناك لحم تم سلقه لأجل الحساء، وحينها أدركنا أن الطعام سيكون رديئًا لا يطاق. ويتوجب علي أن أتناول وبطيب خاطر قطعة لحم أشبه بقدم ملفوفة بجورب صوفي قديم، ولن تحضر ملكة الطين شيئًا آخر مطلقًا مهما انتظرنا. أنا راغب بشريحة لحم بقر، ولكن لا جدوى من طلبها أو أي شريحة أخرى، فلن تجدها حتى عند الجزار في يوم الاثنين.

انتاب التعب كلاً من السائق وصاحب المهر والعتال بعد أن تناولوا قطع اللحم المسلوق. أما الشاب الذكي فطلب طبقاً من البيض المقلي بالزبدة، فحذونا حذوه على الفور. تناول الشاب بيضته الأولى فوجدها دافئة ومائعة، فانقض على الوجبة بشوكتة وغرزها في بيضة أخرى، ثم قربها من فمه وقام بشفطها بعنف وأناة، ورفع ما تبقى للأعلى ومصه دفعة واحدة، وكأنه مشروب رفيع ولزج، كان استعراضاً حقيقياً بالفعل. وما إن فرغ حتى انكب على الخبز وراح يمضغه بصوت مرتفع. لا شيء آخر على المائدة سوى بعض البرتقال الرديء، الذي كان يعد أمراً جيداً بالنسبة لهذا العشاء. لم يضعوا أي جبن، ولكن ملكة الطين التي باتت ودودة حقاً، انهمكت بمحادثة باللهجة المحلية مع الشباب الموجودين، وهو أمر لم أعره أي اهتمام، بيد أن سائقنا الشاب ترجم لنا فحواها **254** بأنهم يمتلكون بعض الجبن الفاسد ولذلك لا يعتزمون تقديمه لنا. لكن صاحب المهر أقحم نفسه بحديثنا وأخبرنا أنهم لن يقدموا لنا إلا أفضل ما لديهم، لقد قالها بكل صدق بعد أن تناول هذه الوجبة. أثار فضولي حقاً واحترت إن كنت سأطلب الجبن أم لا، غير أنني رغبت به في النهاية وتذوقته فلم أجده شيئاً للغاية بعد كل شيء.

بلغت تكلفة هذه الوجبة خمسة عشر فرنكاً لكل شخصين.

عدنا إلى الحافلة مارين برجال تملؤهم الفظاظا كانوا واقفين في الأرجاء، حيث أخبرونا أن وجود الغرباء غير محبذ في أي مكان بالوقت الحاضر، وكل شخص في هذا البلد ينظر إليهم لأول مرة ستنولد الضغينة في قلبه، وربما تتلاشى بعد التعارف أو لا. عند حلول الظهيرة اشتدت حرارة الطقس، كحال شهر يونيو في إنكلترا. وبات على متن حافلتنا العديد من الركاب الآخرين، أحدهم قس داكن العينين طويل الأنف تبرز أسنانه كلما تحدث. ولهذا لم يعد هناك متسع كبير في الحافلة، فتم تخزين البضائع على الرف الصغير.

ومع ازدياد حدة الشمس ووجود ستة أو سبعة مسافرين أصبح المكان خانقاً جداً، ففتحت كيوبي النافذة بجوارها، غير أن الكاهن ذا الصوت المرتفع اعترض على ذلك متذرعاً بأن تيار الهواء

مؤذٍ للغاية وأغلق النافذة مرة أخرى، كان شخصًا اجتماعيًا عالي الصوت عصبي المزاج ومعروفًا من قبل جميع الركاب، ويا للهول! كل شيء قد يتسبب في أذيته، حتى تيار الهواء. **255** وقد وافقه جميع الرجال القادمين من بلدة سينسكولا، مؤيدين رأيه تمامًا. اتجه المرافق إلى ركاب الدرجة الثانية القادمين من روتوندو لأخذ التذاكر، وكان هناك تزامم شديد وصراخ وحسابات النقود. ثم نزل المرافق من الحافلة وبيده البريد، فترجل الكاهن أيضًا ليشرب الشاي مع بقية الرجال، أما السائق فقد ظل متيسبًا في مقعده دون حراك، حتى حان موعد الرحيل ففرع البوق بإصرار، فعاد الرجال وصعدوا ولكن يبدو أن الكاهن عصبي المزاج لم يحضر بعد وسنغادر دونه، وهكذا انطلق السائق بالحافلة بكل خبث، وإذ بالكاهن يركض وراءنا بثوبه المرفرف ويمسح شفتيه.

توقفت الحافلة فصعد الكاهن وجلس في مقعده وهو يقهقه فبرزت أسنانه الطويلة، وقال إنه انشغل بشرب الشاي وتقوية معدته، فالسفر بمعدة غير مستقرة له ضرر كبير، وراح يسأل الحاضرين بإصرار: "أوليس أمرًا مضرًا". "إنه كذلك بالطبع".

استأنف المرافق أخذ التذاكر، وأثناء ذلك وقع معطفه العسكري المبطن بجلد الغنم على رأس كيوبي، فأسف لذلك كثيرًا، وطواه على شكل وسادة ووضعها على مقعد كيوبي، كم هو شخص لطيف! فلقد حبذ أن يكرس نفسه للاهتمام بنا.

جلس بجانبني في المقعد المقابل لكيوبي، وعرض علينا عصير الليمون فقبلناه منه، فنظر إلى كيوبي وابتسم بشوق وحماس واستأنف محادثاته، **256** ثم قدم لنا السجائر وأصر على أن نأخذها. ألقى الكاهن ذو الأسنان الطويلة بصره جانبًا صوب كيوبي، ليراها وقد أشعلت سيجارتها، وإذ به يخرج سيجارًا طويلًا، ويقضم طرفه ثم يبيصقه. لقد غرّضت عليه السجائر أيضًا، لكنه أبى ظنًا منه أن السجائر ضارة، والورق الذي تُلّف به سيء للغاية ويدمر الصحة. فمن الأفضل تدخين غليون أو سيجار. وهكذا فقد أشعل سيجاره الطويل وراح يبيصق باستمرار على الأرض. جلس بجانبني رجل مفعم بالحيوية، وسيم إلى حد ما، بيد أنه كان أحمق، فما إن سمع حديثي مع كيوبي حتى التفت للكاهن وقال له بكل ثقة: "يوجد ألمان هنا، ألقى نظرة اليهما، المرأة تدخن. إنهما زوجان تم اعتقالهما هنا، وبوسع سردينيا الاستغناء عنهما الآن". لقد كانت سردينيا مقرًا لاعتقال الألمان المقيمين في إيطاليا عندما اندلعت شرارة الحرب، وبحسب ما تتناقله ألسن الناس، فقد أطلق سراحهم وتركوا أحرارًا وسعداء للغاية، وتمت معاملتهم على أحسن وجه؛ فقد كان الساردينيون كرماء معهم كما يفعل أي شعب أصيل. في هذه الأثناء صدرت من أحمقنا المفعم بالحيوية ضحكة مكبوتة تردد صداها عبر الحافلة، وبدأ غير مدرك تمامًا أننا قد فهمنا كلامه. لم يقل شيئًا مسيئًا، لكن هذا النوع من الابتهاج بضحك مكتوم عند بعض الأشخاص يزعجني حقًا،

فهم يعتقدون أنهم وضعوك بموقف ضعيف. ومع ذلك فقد لزمت الصمت لأسمع ما يتحدثون به، فلم تلتقط أدناي سوى الكلام عن أمور تافهة حول مغادرة جميع الألمان تقريباً الآن، وحريرتهم بالتنقل والسفر، وعودتهم إلى ساردينيا لأنهم أحبوا أكثر من ألمانيا. أوه صحيح، جميعهم يتمنى الرجوع إلى ساردينيا الجميلة، حيث أيقنوا أنهم كانوا يعيشون فيها بأحسن حال، وبهذا فقد أدركوا ضالتهم المنشودة. 257 فقد وجدوا في ساردينيا الكثير من المزايا وكل ما لا يخطر بالبال، فسكانها أناس كريمو الأخلاق. من الجيد أن يقول المرء كلمة لائقة بحق نفسه من حين لآخر. أما بالنسبة لألمانيا، فالحياة فيها متدنية جداً ومتعبة، حيث يصل ثمن الكيلو الواحد من الخبز إلى خمسة فرنكات.

توقفت حافلتنا مرة أخرى، وترجل الراكبون منها، فلفحتهم أشعة الشمس الحارقة، فاعترض الكاهن بسبب عدم ركن الحافلة عند الزاوية هذه المرة، معتبراً ذلك أمراً غير لائق دون شك. اكفهر وجه سائق الحافلة وبان عليه النزق والتعب، فلقد بلغت الثالثة، ولم يظهر رجل البريد القادم إلينا من إحدى القرى حتى الآن، ولهذا فعلينا انتظاره. إلا أن صبر السائق قد نفذ فقال: "أنا ماض في طريقي! لن أنتظر أكثر".

أجاب المرافق: "انتظر دقيقة فقط". ثم مضى في الأرجاء ليلقي نظرة، لكن الحافلة انطلقت فجأة بتمایل شديد، فعاد المرافق مسرعاً وتعلق على مسند القدمين، لقد كان على وشك أن يُترك بالفعل، فاختلست السائق نظرة سريعة من حوله بسخرية ليتأكد من صعود مرافقه، وأكملت الحافلة سيرها مسرعة. فهز المرافق رأسه مستنكراً.

قالت كيوبي "إنّ هذا السائق نزق بعض الشيء، لقد فقد أعصابه قليلاً!".

صاح مرافقنا الشاب الوسيم وهو ينحني للأمام ويومئ بتلك العيون المتضرعة التي تنم عن تسامح لا حدود له: "آه، يال الشاب المسكين! كم أشعر بالأسى عليه، إنّ الأشخاص مثله يعانون كثيراً من ويلات أنفسهم، فكيف للمرء 258 أن يغضب منهم! علينا أن نتعاطف معه".

لن تسمع بلغة تظهر التعاطف بقدر الإيطالية، ولن تعرف السعادة طريقاً إلى قلوبهم أبداً ما لم يتعاطفوا برأفة مع أحدهم، أما أنا فشعرت أنه قد رُميت مع سائق مسكين يجب أن يُشفق عليه لأنه عصبي، وهو ما لم يحسن من مزاجي.

على أي حال، جلس المرافق فجأة في المقعد المواجه لي بين الكاهن وكيوبي، وقلب دفتر مذكراته الرسمي، وراح يكتب على الجهة الخلفية بكل حرص، بخط إيطالي منمق، ثم اقتطع الورقة،

وبنظرة حماسية مشرقة اعتلت وجهه سلمني إياها قائلاً: "أود أن تجد لي وظيفة كسائق عندما تعود إلى انكلترا!".

فأجبت: "إذا استطعت، لكن ذلك ليس بالأمر السهل".

فلو ما برأسه نحوي بأكبر قدر من الثقة التي يتخللها الحماس، وبات واثقاً تماماً الآن أن مشكلته قد حُلت على أكمل وجه.

أما على الورقة فقد كتب اسمه وعنوانه، مع تمنياته الطيبة لنا برحلة هائلة. **259**

طويث الورقة ووضعها في جيب صدري، فساورني إحساس بضيق بسيط من المسؤولية الجديدة التي أوكلت بي، فلقد كان رفيقاً عزيزاً تعلق عينيه نظرة واثقة مشرقة. لقد كانت هذه الورقة ختاماً ناجحاً لسعيه في مطلبه، بينما سادت لحظة من الصمت. ثم استدار المرافق ليأخذ التذكرة من يد رجل بدين يشعرك النظر اليه بالطمأنينة، كان قد صعد إلى الحافلة عند آخر موقف، فتجرت محادثة مقتضبة سريعة.

سأل الرجل الأحمق جميل الطلعة بجواري، مميلاً رأسه اتجاهنا: "من أين هم؟". فأجابه صديقنا المرافق بارتياح شديد: "لوندرا". كان هؤلاء الإيطاليون في كثير من الأحيان يتحادثون في ما بينهم أن لندن هي أعظم مدينة في العالم، وهو ما باحت به الآن كلمة لوندرا. وعليك أن ترى النظرة الفارغة التي اعتلت وجه الرجل الأحمق الوسيم الضخم، لدى سماعه أننا مواطنون في أعظم مدينة بالعالم. سأل بذهول: "وهل يفهمون الإيطالية؟".

أجاب المرافق بازدياء: "بالتأكيد! يتقنوها جيداً؟". فتح فاه بدهشة لبضع لحظات: "أوه!". وحينها ارتسمت ابتسامة من نوع آخر على وجهه، وراح يختلس النظر إلينا من الجانب بعينه البنيتين اللامعتين، وبات في تشوق كبير **260** لإجراء محادثة مع مواطنين ينتميان إلى لندن معشوقة العالم. وتلاشت نظرتة التي تشوبها الوقاحة تماماً، ليحل محلها إعجاب شديد، فهل يطاق هذا؟ قبل قليل، كان يتحدث عني بنبرة لا تخفى من الوقاحة والتعالي. والآن لازلت بالمقعد نفسه، لكنه راح ينظر إلى وجهي بود وكأنه رأى هالة من القداسة تحت قبعتي الرمادية. وقد جرى كل ذلك خلال عشر دقائق، والسبب أنه عرف أنني إنكليزي ولست ألمانيًا، ولربما أصبحت معلماً تاريخياً أو تحفة فنية بالنسبة له. إنه تبصر بسيط للغاية عني الآن! وبات بوسعي الآن أن أنال منه بحدة أكبر، فتمنيت أن أقول له إنني ألماني حتى النخاع، لأرى الأحمق يغير ابتسامته المتكلفة مرة أخرى. وهنا علا صوت الكاهن بأنه قد سبق له الذهاب إلى أمريكا. وبالتالي فهو لا يخشى العبور من سردينيا إلى تشيفيتافيك⁹، لأنه عبر المحيط الأطلسي العظيم. على ما يبدو أن جميع السكان المحليين قد سمعوا نعيق الغراب هذا من قبل، ولذلك راح يبصق على الأرض بكثرة. وعندئذ

سأله الجار الجديد السمين إذا كان صحيحًا أنَّ الكنيسة الكاثوليكية قد أصبحت الآن هي الكنيسة الأولى في الولايات المتحدة؟ فأجاب الكاهن أنه لا شك بذلك أبدًا. **261**

أخذت فترة ما بعد الظهر الحارة تتقهقر، وبدأ الطريق الساحلي مأهولًا بالسكان أكثر، إلا أننا لم نبصر فعليًا أي قري، وبدأ المشهد مقفرًا إلى حد ما، لنتوقف من حين لآخر عند دكان بقالة بائس، وفي بعض الأحيان نمر بالسكان الأصليين وهم يمتطون خيولهم، وتارة نرى معرضًا للخيل، حيث تربي تلك الدواب القوية الصلبة، لتنتقل بسرعة للوراء بعيدًا عن رعب حافلتنا الكبيرة، غير أنَّ ممتطيها من الرجال كانوا يجلسون عليها راسخين بكل ثبات، وبذلك البأس الذكوري السارديني. ضحك جميع الركاب حين شاهدوا مهرًا يدور حول نفسه مرتبًا خائفًا وسط الطريق الرئيسي الوحيد الذي تحفه الأعشاب.

تقدم المرافق خطوة للأمام وجلس قريبًا منا، وبدأ كاليمامة التي عثرت أخيرًا على غصن زيتون لتعشش فيه، فقد كنا بالنسبة له غصن الزيتون في هذا العالم الخبيث. وللأسف شعرت بأني غير جدير بثقته، لكنه جلس بالقرب منا بكل هدوء الآن، مثل طفل ضائع وجد ضالته. بدأت فترة الظهر تنقضي، بينما اندفعت الحافلة بسرعة كبيرة، وفجأة شاهدنا النتوء الكبير لجزيرة تافولارا¹⁰ يبرز أمامنا، تلك الكتلة الرائعة من الصخور، والتي أذهلتني بمظهرها الرائع المهييب، حيث بدت كالرأس البحري؛ فهي متصلة مع اليابسة على ما يبدو، حيث ترقد هناك على حافة البحر، في عالم الظهر الضائع. غريب كيف أنَّ هذا البلد الساحلي منفصل عن عالمنا المعاصر. وبينما اندفعنا على طول الطريق، لاحظت لنا البواخر تمخر عباب البحر، اثنتان منها تبحران جنوبًا، وسفينة شراعية واحدة قادمة من إيطاليا، **262** وسرعان ما بدت البواخر وكأنها عالمنا المألوف. ولكن ما زال هذا البلد الساحلي مهجورًا منسيًا وليس ضمن حساباتنا؛ كل ما في الأمر أنَّ عالمنا لا يشمل. أه كم ينال الإرهاق من المرء جراء هذه الرحلات الطويلة! كان من الأجدر بنا ألا نأتي إلى تافولارا، بيد أننا فعلنا، وبتنا على مقربة منها، لتبصر أعيننا الشاطئ بأمواله التي راحت تتراكم وراء بعضها دونما شيء يعكر صفوها، ونشهد دخول المياه المتجمعة بين الكتلة الصخرية والشاطئ، بينما راح الطريق الآن ينحدر إلى مستوى سطح البحر، ولم نعد ببعيدين كثيرًا عن تيرانوفا¹¹. ومع ذلك ما زال كل شيء يبدو مهجورًا، ولا يمت لهذا العالم بصلة. راحت الشمس تلملم أشعتها، لتودعنا بغروب يشع حمرةً وكبرياء، أما في الحافلة فقد خيم الصمت على الجميع، بعد أن أخدمهم نوم السفر الباهت. اندفعنا على طول الطريق المنبسط، نحو أسفل السهل الآن، بينما راح الغسق يتجمع بكثافة فوق الأرض، وتراءى لنا منحى الطريق السريع منبسطًا فوق السهل؛ يا للروعة! إنه رأس المرفأ، فشاهدنا ميناءً ساحرًا تلفه اليابسة،

وتبرز منه صواري السفن وأرض مظلمة تحيط الحوض المتلألئ، حتى إننا رأينا باخرة راسية عند حافة الضفة الطويلة الرفيعة لليابسة، لهذا الميناء الضحل اللامع الواسع، وكأنها قد تحطمت هناك، إنها باخرتنا، وقد بدت تحت الوهج القوي لغروب الشمس، كسفينة بخارية راسية في خليج تحيط به اليابسة، بعيدًا عند خليج سبيتسبرغن، نحو القطب الشمالي. ياله من خليج مهيب غامض تلفه الزرقة، وتائه عن الجنس البشري. 263 جاء المرافق وأخبرنا أنه يتوجب علينا الجلوس في الحافلة ريثما يتم الانتهاء من أعمال البريد، ثم التحرك نحو الفندق لتناول الطعام، ليصطحبنا بعدها في حافلة المدينة حتى القارب. يجب أن نصعد على متن المركب في الثامنة، بينما الساعة الآن تتجاوز الخامسة بقليل. وهكذا جلسنا بلا حراك، بينما انطلقت الحافلة وانعطف الطريق، ليتغير منظر الميناء الغريب الذي تطوقه اليابسة، رغم أن الصواري العارية للسفن المجتمعة كباقة لاتزال تنخز وهج الشمس في الأعلى، أما الباخرة فترسو بعيدًا خارجه، وكأنها قد تحطمت على ضفة رملية لأرض مظلمة غامضة تحفها تلال ناتئة من حولها، بألوانها الزرقاء الداكنة الشتوية، وقد اصطبغت بوهج ذهبي تركه أفول شمس النهار، بينما شع الخليج الذي بدا ضحلاً كمرأة. اندفعت حافلتنا للداخل، مرورًا بالسكة الحديدية، وعلى طول الطريق الممهد المظلم، صوب المدينة الضائعة المنبسطة بمنازلها المظلمة التي ترامت على رأس خليج دائري، فبدت كمستوطنة أكثر من كونها بلدة، إنها تيرانوفا باوسانياس. وبعد أن تخبطت حافلتنا وصرصرت أسفل شارع كئيب غير مألوف يبدو مقفرًا توقفنا بارتجاجة عند مدخل مكتب البريد، فوجدنا هناك صبية صغارًا وبعض العمال، يصيحون لأجل حمل الأمتعة. خرج الجميع وانطلقوا نحو البحر، بينما حمل الصبية الأمتعة.

أما نحن فبقينا جالسَيْن في مقاعدنا إلى أن نفذ صبري، ولم أعد أطيق البقاء في الحافلة دقيقة أخرى، وكذلك لم أرغب أن يرافقنا صديقنا الجديد نحو الباخرة أبدًا، 264 ولذلك اندفعت فجأة للخارج ولحقت بي كيوبي؛ فلقد شعرتُ هي أيضًا بالارتياح للتخلص من المرافق، برغم تعاطفها الكبير معه. حقًا إن هروب المرء من رقة قلبه هو أقسى بكثير من أن يكون متحجر الفؤاد. تهافت علينا الصبية ليروا إن كان لدينا المزيد من الأمتعة. فسألنهم: "كيف بوسعنا الذهاب إلى الباخرة؟ هل علينا أن نمشي؟". فلقد ظننت أن السبيل إليها ربما عبر قارب صغير. فأجابني صبي شقي وقح: "تذهب سيرًا على الأقدام، أو بعربة أو الطائرة". "وكم تبعد؟". "عشر دقائق". "هل يسعنا الصعود على ظهر المركب في الحال؟". "نعم بالتأكيد". ولهذا وبرغم احتجاج كيوبي، قمت بتسليم الحقبة إلى صبي لعين ليرشدنا، فلقد أرادت أن نبقي بمفردنا، غير أنني لم أكن على دراية بالطريق، وقلقت من أن نتوه فيه.

طلبتُ من سائق حافلتنا عصبي المزاج غير المبالي، أن يخبر المرافق أنَّ ما فوضني به لن يغيب عن بالي، ودققتُ على جيب صداري، حيث كانت الورقة موضوعة فوق قلبي. وعدني بإجابة مقتضبة، ثم مضينا على الفور لنهرب من هذه الصداقة الوطيدة. طلبت من الصبي أن يقودنا إلى مكتب التلغراف، وهو بعيد للغاية عن مكتب البريد، فحمل حقيبة الظهر، وطلب بصخب حقيبة كيوبي، وسار للأمام. يبلغ عمر هذا الصبي عشرة أعوام، 265 لكن وجهه الشاحب الذي تتخلله الوسامة يوحي بأنه ابن أربعين. كان يرتدي سترة عسكرية قصيرة تصل بمحاذاة ركبتيه، ويمشي دون حذاء، لكنه نشيط وسريع البديهة. وهكذا انحدرنا إلى ممر، ثم صعدنا درجًا حتى وصلنا إلى مكتب يوحى بأنه قد خُصص لتسجيل الولادات والوفيات، لكن الصبي قال إنه مكتب التلغراف، ولا علامة على وجود أحد. اختلست النظر عبر بوابة صغيرة فرأيت من البعيد رجلًا بدينًا جالسًا يكتب، بينما كشفت الأضواء الخافتة عن تلك المساحات الرسمية الكبيرة الفارغة في المكان. كان الموظف يجلس بلا حراك، فأغلقتُ مصراع الباب بقوة وطلبتُ برقية فارغة، غير أنه منهمك بعمله للغاية، فأثر أن يتركنا ننتظر، فالتفت إلى الصبي الصغير وخاطبته بصوت عالٍ: "هل هذا هو مكتب التلغراف؟". فأجاب: "أجل يا سيدي". وهكذا توجب على الموظف البدين أن ينتبه إلينا.

وبعد تأخير كبير، انطلقنا في طريقنا مرةً أخرى. أما الحافلة فقد اختفت والحمد لله، ليبدو الشارع غير الحضاري خاليًا من الأصدقاء، فاستدردنا نحو واجهة الميناء. كان الظلام قد أرخى ستاره الآن، وعندها رأيتُ سكة حديدية قريبة للغاية، ومجموعة من الصواري المظلمة، بينما لاحت بضع أضواء من الباخرة، بعيدًا في الأسفل عند حافة لسان بحري طويل، نائية قرب منتصف الميناء. وهكذا تابعنا المسير، بينما راح الصبي بأقدامه العارية يلعب على بعد بضعة أمتار منا، يلاحق اللسان البحري الذي كان عريضًا بما يكفي ليتسع لهذا الطريق والسكة الحديدية. 266 ثم مررنا بمنزل ينتصب بصمت على يميننا، ويبدو أنه قد بني فوق ركام في الميناء، فلمحنا بعيدًا في الأسفل أمامه باخرتنا تميل قليلًا وتومض بأضواء خافتة؛ بينما راح قطار صغير ينقل الشاحنات بين العنابر المنخفضة بجانبها. اشتد سواد الليل القاتم، فتلاأت نجوم السماء العظيمة، وسطع نجم كوكبة الجبار في أثير الليل فومض وراءه نجم الشعري اليمانية. اتجهنا إلى آخر الشريط المظلم الممتد بين المياه الساكنة البرّاقة. كان الميناء ممهدًا كسطح من البلور ويلعب كالمرآة، بينما طوقته التلال بالكامل. أما الأرض المظلمة فقد بدت نائنة ومنبسطة من البعيد، حتى تعانق البحر، لتترك المرء حائرًا عاجزًا عن تحديد اتجاه البحر. أخذ الظلام يطوف حول اليابسة زاحفًا كالأشباح، بينما لاذت التلال النائية بصمت مهيب وهي تحرس المياه. ربما كانت

تلك الكتلة الهائلة التي تتراعى في البعيد هي ترافولارا مجددًا؛ إنها أشبه بجبل جليدي يحرس خليجًا قطبيًا تحيطه اليايسة، حيث ترسو السفن أمامها بلا حياة.



تيرانوفا

لحق بنا الصبي الصغير دون كلل أو ملل، حتى باتت البلدة وراءنا، وشعت بعض الأنوار الخافتة وسط عتمتها المشوشة عبر المياه عند رأس الخليج. ها قد أصبحت صواري السفن والمستوطنة بمنأى عنا، بينما تابع الصبي سيره بخطوات متواصلة، ليستدير بين الفينة والأخرى ويمد يده النحيلة المتلهفة صوب حقيبة المستلزمات، راغبًا بحملها خاصة عندما شاهد بعض الرجال يتقدمون إلى آخر السكة الحديدية، فهو يعتبر الأمر إهانة لمروءته إذا ترك كيوبي تحملها، وهكذا سار راضيًا حتى وصلنا أخيرًا إلى العنابر المنخفضة التي تقع بين الباخرة ونهاية السكة الحديدية، **267** حيث قادنا الصبي إلى إحداها، لنجد رجلًا يعتمر قبعة حمراء ومنشغلًا بكتابة شيء ما، فتركني أنتظر بضع دقائق ثم رفع رأسه وأعلمني أن هذا هو مكتب البضائع، أما مكتب التذاكر فيبعد قليلًا عن هنا. هرع الصبي نحوه قائلاً: "لقد قمت بتغييره إزاء، أليس كذلك؟". ثم اقتادني إلى

عبر آخر أوشك على الإغلاق، وهنا تعطفوا علي بإعطائي تذكرتين، بمئة وخمسين فرنكا لشخصين. تبعنا الصبي الذي حث الخطى فوق سلم الباخرة حاملاً حقيبة الظهر.

كانت سفينة صغيرة للغاية، فوضعتني المشرف في المقصورة رقم واحد، أما كيوبي في رقم سبعة، حيث تحوي كل حجرة على أربعة مضاجع، وبناء على ذلك يجب أن تنفصل المرأة عن الرجل بشكل صارم على ظهر هذه الباخرة؛ فكان وقع الأمر على كيوبي أشبه بالكارثة، فهي تعرف ما يمكن أن تكون عليه رفيقات السفر الإيطاليات، وعلى أي حال هذا ما آلت إليه الأمور. تقع جميع المقصورات في الأسفل، وكلها ولسبب غامض داخلية، وليس لها كوة للخارج. كان الجو حاراً وخائفاً في الأسفل، فرميت حقيبة الظهر على سريري، بينما وقف الصبي على السجادة الحمراء عند المدخل، فأعطيته ثلاثة فرنكات، فنظر إليها وكأنها تفويض بقتلي، وراح يمعن التحديق بها تحت ضوء المصباح، ثم مد ذراعه بإيماءة وقحة، وقذف النقود إلي دون أن ينطق بأي كلمة. فقلت: "كيف لثلاثة فرنكات ألا تكون كافية لك!". **268** فأجاب: "لقد حملت الأمتعة ورافقتكم لمسافة كيلومترين! ثلاثة فرنكات ليست كافية، أريد خمسة فرنكات". وأشاح بوجهه المتجهم عني، ومد يده نحوي وظل واقفاً بسخط. إنه صبي صغير لم يتجاوز طوله جيب صداري العلوي. يا له من ولد ممثل ووقح للغاية! حتى إنني دهشت لجراته وحقارته وكدت أن أقوم بركله إلى الخارج. لكنني أمسكت نفسي.

وحينها حدثت نفسي بصوت مسموع: "يا له من لص صغير محتال وفظيع!". فارتجف صوته من ورائي، وكأنه قد تلقى صفعه: "محتال!". لقد جعلته كلمة "محتال" يحني جسده بسرعة، مع تلك الوداعة الهادئة التي برزت في نبرتي المستجدية. فتناول الصبي الفرنكات الثلاثة وهم بالذهاب، غير أنني أوقفته بازدراء وأعطيته الفرنكين الآخرين، فاختمت كومضة البرق وهو يقفز على سلم الباخرة، وقد تملكه الذعر خشية أن يأتي المشرف ويقبض عليه بسبب ألامعيبه. وفي وقت لاحق رأيت المشرف يرسل صبية آخرين في إثره للمطالبة بأكثر من فرنك ونصف من ذلك الشقي. المسألة الآن تتمحور بشأن المقصورة، فكيوبي قد رفضت بكل بساطة **269** الترحيب بفكرة مشاركة الحجرة مع ثلاث نساء إيطاليات، متذرة أن جميعهن سيمرضن بسبب اضطراب الباخرة، رغم أن البحر هادئ للغاية. تحدثنا إلى مشرف الرحلة، فقال إن جميع مقصورات الدرجة الأولى تحتوي على أربعة أسرة، أما الدرجة الثانية فتشتمل على ثلاثة مضاجع أصغر بكثير. لا أعرف كيف يمكن ذلك! وبرغم هذا فقد وعدنا أن يمنحنا مقصورة خاصة بنا إذا لم يشغلها أحد. تمتاز الباخرة بالنظافة والحدثة ورغم ضيقها.

بعد كل ما حدث معنا قررنا الصعود إلى سطح الباخرة لنرتاح قليلاً، فاقترب منا شخص ما وسألنا إن كنا نعتزم تناول الطعام على شُرْفة الباخرة فرفضنا ذلك، وخرجنا صوب عنبر صغير رابع، وهو عبارة عن محل صغير لبيع المرطبات، واشترينا خبزاً وساردينياً وشوكولاته وتفاخاً، ثم مضينا إلى شُرْفة الباخرة العلوية لتجهيز وجبتنا، فأشعلت المصباح الكحولي، ووضعت الماء فوقه ليغلي، بعد ذلك جلسنا لوحدها في الظلمة، على مقعد مسنده مقابل لمقصورات الشُرْفة، بعيداً عن أعين الطاقم، بينما هبت رياح باردة خفيفة، فقمنا بلف القماش المزركش حولنا لننعم بشيء من الدفء، وانتظرنا الشاي ليغلي. وبالكاد استطعت رؤية شعلة لهب المصباح الكحولي تتطاول للأعلى من مكان جلوسنا.

يال هذا المنظر البديع! نجوم متألقة كالمصابيح، وسط السكون الذي لف السماء، وهي كبيرة للغاية بحيث يسع المرء رؤيتها معلقة بما يشبه الجرم السماوي، وحيدة في فضاءها الخاص بها، رغم أعدادها التي لا تحصى، **270** لكن نجمة المساء كانت ساطعة على نحو خاص، متدلّية لتنير ظلمة هذا الليل القاتم، آه كم ذهلت لروعة ذلك المشهد الساحر! حيث راحت ترسل ومضاتها بشكل مهيب وجمال طاغ. فرسمت لنا شعاع نورٍ يمتد عبر صفحة المياه وفوق أرض الباخرة البارزة المظلمة. وهكذا راحت جميع النجوم تصعد في أثير السماء وتنبض متوهجة فوقنا.

بعد وقت قصير راح الماء يغلي، فشربنا الشاي الساخن وتناولنا السردين والخبز مع النقاق، وأثناء ذلك أقبلت قطتان نحونا وأخذتا تموءان بتوسل.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام تابعنا جلوسنا قريري العين، تحت السماء الرائعة، ملتفين معاً بوشاح صديقنا الراعي العجوز الأسكتلندي، وكم دعوت الله مراراً أن يبارك فيه؛ فهذا أنا ذا وبفضله نصف محمي من رياح الليل الباردة، وأتعافى إلى حد ما من رحلة الستين ميلاً بالحافلة التي قطعناها ذلك اليوم.

لم يظهر أحد من الركاب على الباخرة حتى الآن، فنحن أول من قدم إليها، من مسافري الدرجة الأولى على الأقل، ولهذا فقد ساد السكون جميع الأرجاء فوقنا، أما في الأسفل فالمكان مُنار ومهجور أيضاً. وعلى أي حال إنها سفينة صغيرة، تتسع لثلاثين راكباً في الدرجة الأولى وأربعين في الدرجة الثانية. **271** أما في الشُرْفة السفلية الأمامية للسفينة، فقد وقف صفان من الماشية، ثمانية عشر رأساً، مقيدة جنباً إلى جنب دون حراك وكأنها مخدرة أو متبلدة، وقد أخفضت رؤوسها وتدلّت ذيلها للأسفل، بينما بركت اثنتان منهما فقط. فُتنت كيوبي بهذه الماشية، فأصرت على النزول إليها للأسفل، وتفحصها عن كثب؛ ولكن هذا هو حالها، متخشبة بلا حراك، هامة

بشكل رهيب؛ لكن كيوبي تعتبرها مخلوقات جامحة لا تقهر، وقد غاب عن ذهنها استسلام هذه الماشية وهمودها. كانت هناك طيور أيضًا بأقفاص مختلفة، تصفق بجناحيها باهتياج.

وصل القطار القادم من الجزيرة أخيرًا عند الساعة السابعة والنصف، واندفع حشد من الناس خارجين منه، فنظرنا للأسفل من حافة الشرفة العلوية، بينما أقبلوا نحو الباخرة كجمهرة كثيفة، مرتقين سلمها مع كل أنواع الحقائب التي يمكن تصورها، كالصرر، حقائب السفر اليدوية المطرزة، الحقائب العادية، وأكياس السرج. أخذت كيوبي تندب حظها لأنها لم تشتتر واحدة منها. إنهم جمهرة متلاطمة من الناس والبضائع قدمت على حين غرة، هناك جنود أيضًا، لكنهم اصطفوا على جزء من رصيف الميناء للانتظار.

انصب اهتمامنا لمعرفة ما إذا سيتوافد المزيد من الناس إلى الدرجة الأولى. وبصعودهم سطح الباخرة العريض والذي كان بمثابة ممر رئيسي **272** بادر كل فرد بتسليم بطاقة سفره إلى الرجل الموجود في الأعلى، ليقوم بعدها بإرساله إلى منطقته، وهي غالبًا الدرجة الثانية. هناك ثلاثة أنواع من التذاكر؛ الخضراء للدرجة الأولى، البيضاء للثانية والوردية للثالثة. وهكذا اتجه ركاب الدرجة الثانية إلى مؤخرة الباخرة، أما الثالثة فقد مضوا للأمام، على طول الممر جانب مقصوراتنا نحو السطح السفلي. أما نحن فقد استغرقتنا بمراقبة الأشخاص المتحمسين يصعدون على متن الباخرة ثم يفصلون عن بعضهم. اتجه غالبيتهم إلى الدرجة الثانية، ومعظمهم من النساء، أما الدرجة الأولى ففيها القليل من الرجال، ولا وجود لأي امرأة بينهم حتى الآن. ولكن كل ما برزت قبعة مزينة بريشة طويلة يكاد يغمى على كيوبي.

بقينا في هامش الأمان لوقت طويل، حيث تدفقت النساء إلى مقصورات الدرجة الثانية. تضرعت إحدهن ممن كنّ في الدرجة الثالثة وتوسلت للذهاب برفقة صديقتها للدرجة الثانية، ويسعدني القول إن مساعيها باءت بالفشل. وحينها وللأسف قدم رجل مسن برفقة ابنته إلى الدرجة الأولى، بدوا محترمين للغاية وبمظهر لطيف، لكن كيوبي بدأت تندب: "أنا واثقة أنها ستغدو مريضة بدوار البحر". قبيل الرحيل، جيء بثلاثة محكومين مقيدون ببعضهم، يرتدون ثيابًا صوفية مخططة ضاربة للون البني، لكنهم لا يبدوون أشرارًا. وظلوا يتهايمسون ويضحكون مع بعضهم، وكأنهم ليسوا في محنة أبدًا، أما الجنديان الحارسان فمتوتران جدًا برغم البنادق المعلقة على أكتافهم. وهكذا مضى المحكومون للأمام إلى الطبقة السفلية عبر بمقصوراتنا، **273** فهدأ الجنديان أخيرًا وعادا إلى السطح، ثم شرعا بنصب خيمة لهما على الفور، فمدّا قماشة كبيرة فوق حبل متصالب وسط الشرفة أسفل منا، بين مناطق الدرجة الأولى والثانية، بعد ذلك تم سحب القماش المشمع الكبير للأسفل بإحكام وثُبت على كلا الجانبين، مشكلاً خيمة مظلمة كبيرة؛ فانسل الجنود إلى داخلها ووضعوا حقائبهم. أعجبت كيوبي هذه المرة أيضًا بمنظر الجنود، فاتكأت متدلية على

الحاجز في الأعلى، وراحت تختلس النظر إليهم، بينما رتبوا أنفسهم في صفين. سينام الصفاق ورؤوسهم تستند على حقائبهم بكلا جانبي الخيمة، بينما تتقابل أقدامهم داخلها، ولكن توجب عليهم أولاً تناول الطعام، فالساعة قد تجاوزت الثامنة، أخرجوا عشاءهم وهو عبارة عن دجاجة مشوية بالكامل، قطع كبيرة من لحم الجدي، أقدام الحمل، وأرغفة خبز كبيرة الحجم. قُطعت أوصال الطير بطرفة عين بواسطة سكين كبيرة، ثم تم تشاركه بينهم مع سائر الأطعمة الأخرى، وهكذا جلسوا في خيمتهم الصغيرة مفتوحة الجانبين، محتشدين مع بعضهم، يمضغون الطعام بسعادة وبكل قوتهم، ويربتون على أكتاف بعضهم بمودة، ويشربون جرعات من زجاجات العصير. بات الجميع في النهاية على متن الباخرة الآن، أما الحافلة فقد انطلقت من المدينة وعادت أدراجها. وفي تلك الأثناء إذ بشاب أخرق يندفع في عربة مسرعاً يحث خطاه للصعود على الباخرة، بينما انهمك الطاقم بأداء أعمالهم هنا وهناك. هرول العتالون ودخلوا إلى الباخرة حاملين معهم آخر الرزم الضخمة والطرود، حيث تم تخزينها بأمان، بينما علا صوت بوق الباخرة مؤذناً بالرحيل، **274** تبادل رجالان وفتاة قبلات الوداع مع أصدقائهم الذين التفوا حولهم، ثم ترحلوا عن الباخرة، بينما راح صدى صافرة الباخرة يتردد في عتمة الليل. ها قد غرقت العنابر الآن في ظلام دامس، لتومض البلدة من البعيد بأنوار خافتة، وبدا كل شيء مقفراً في هذا الليل، وهكذا رُفع سلم الباخرة، ولقّت حبالها الضخمة بسرعة، لنبدأ بالابتعاد عن جانب الرصيف. لوح القليل من الناس الحاضرين بمناديلهم البيضاء، حيث بدوا ضئيلين وحزاني على رصيف الميناء. صرخت إحدى النساء ولوحت بيدها وهي تذرف الدموع، بينما لوح رجل بمنديله الأبيض مصطنعاً إشارات مبالغاً بها، أشبه بإشارات الراية، عن طريق التلويح بمنديله الأبيض، وكأنه يؤدي عملاً مهماً، ليُشعر أحد المسافرين بأهميته لديه. أخذنا ننحرف، وبدأت المحركات تدور، وها نحن نتحرك ضمن الميناء الذي تحيط به اليايسة، كان الجميع يراقب ما يجري، بينما علت صيحات القبطان والطاقم بالأوامر، وهكذا ببطء شديد ودون أي صخب، رحنا نبتعد عن الميناء ببطء شديد، مجتازين نقطة تلو الأخرى، مودعين التلال المحيطة بنا، وكتلة تافولارا التي تقع جنوباً، والأرض الممتدة شمالاً وعلى تخوم البحر الواسع. والآن يتوجب علينا المحاولة للحصول على مقصورة خاصة بنا، فاقتربتُ من مشرف الرحلة وذكّرتُه بالأمر، فأجاب بنعم وأنَّ الأمر لم يغب عن باله، لكن هناك ثمانون راكباً في الدرجة الثانية رغم أنها مخصصة لأربعين شخصاً، وأنَّ مراقب النقل الآن يأخذ الأمور بعين الاعتبار، وعلى الأرجح سيقوم بنقل بعض نساء الدرجة الثانية **275** إلى مقصورات الدرجة الأولى الشاغرة، ولكن إذا لم يعدل مراقب النقل عن ذلك فسيقوم بتلبية طلبنا.

أدركت أنَّ ما تفوه به مجرد مراوغة، فقررنا ألا نزعج أنفسنا أكثر من ذلك، وهكذا قمنا بجولة في الباخرة، لرؤية الجنود، الذين انتهوا من تناول عشاءهم، وجلسوا يتبادلون الأحاديث، بينما

استلقى بعضهم في الظلمة طلباً للنوم. ثم ذهبنا لرؤية الماشية الواقفة بثبات في شرفة الباخرة، وألقينا نظرة على الطيور الداجنة التعيسة في أقفاصها، ورحنا نتلصص على ركاب الدرجة الثالثة الذين بدا حالهم رهيباً إلى حد ما. ثم اتجه كلُّ منا إلى غرفته. تتوافر ثلاثة أسرة في مقصورتي شاغرة مسبقاً، والأنوار مطفأة. وعندما دخلتُ سمعت أحد الشبان يستعلم بعطف من صاحب السرير أسفل منه: "هل تشعر بالمرض؟". أجاب الآخر بصوت واهن: "أمم، ليس كثيراً، ليس كثيراً". يا إلهي! إنهما مريضان، مع ذلك فإنَّ البحر أملس للغاية كالزجاج.

ترنحت مسرعاً إلى سريري السفلي، حيث شعرت بارتجاف الباخرة التي تدفعها آلة. وأستمع بذات الوقت إلى صوت صرير السرير فوقى كلما تقلب الشخص النائم فيه، بالإضافة إلى تنهدات الآخرين، وكذلك اندفاع أمواج المياه القاتمة حول الباخرة. لم أشعر بالراحة على الإطلاق وسط هذا الجو الخانق المفقر للتهوية، والذي يتخلله صوت خفق محركات الباخرة، وتنهدات رفاقي في المقصورة، وذلك الديك الذي راح يصيح بصوت عالٍ من أحد الأقفاص. أخذت أتخيل أضواء الباخرة وكأنها فجر آتٍ ليزيح عتمة الليل. لم أحظُ بنوم هانئ رغم أنَّ عينيَّ كانتا تغفوان في بعض الأحيان، 276 فلو توافر هواء بارد نقي وسرير مريح لبات الحال أفضل من ذلك بكثير.

277

هوامش

- 1- بييترو بيروجينو: ولد باسم بييترو فانوتشي وكان من رسامي عصر النهضة الإيطالية من المدرسة الأومبريانية. وضع بعض الصفات التي أوجدت التعبير الكلاسيكي في عصر النهضة العليا.
- 2- كريستين دي بيزان: كانت مؤلفة في أواخر العصور الوسطى ولدت بـ البندقية وقاومت ما يُعرف باسم كره النساء والأفكار النمطية السائدة في الثقافة المنتشرة في أواخر العصور الوسطى.
- 3- الكارباتشيو: هو طبق من اللحم أو السمك، مقطع إلى شرائح رفيعة أو رقيقة، ويقدم نيئاً، عادةً كمقبلات. اخترعه جوزيبي سبيراني عام 1950 من بار هاري في البندقية بإيطاليا وتم نشره في النصف الثاني من القرن العشرين. تم تقديم لحم البقر مع الليمون وزيت الزيتون والكمأة البيضاء أو جبة البارميزان.
- 4- ألسندرو دي ماريانو دي فيليببي: الملقب بـ"بوتشيلي" الذي عاش في فلورنسا 1445-1510 هو رسام إيطالي من عصر النهضة. يعني لقبه بالإيطالية 'برميل صغير'. بدأ حياته صبيّاً في حانوت صائغ بفلورنسا. وقد فتن بفن التصوير في صغره فألحقه والده بمدرسة فيليببو لبيي.
- 5- إدوارد فيرفاكس روتشيسنتر: شخصية خيالية في رواية شارلوت برونتي جين آير. ر.

6- جين آير: رواية إنجليزية للكاتبة شارلوت برونتي، نُشرت بتاريخ 16 أكتوبر 1847 في العاصمة البريطانية لندن. تتبع الرواية أحداث حياة جين آير منذ طفولتها في بيت زوجة خالها السيدة ريد مروراً بالظروف القاسية التي عاشتها في مدرسة داخلية (مدرسة لوود) وصولاً إلى حياتها في قصر ثورنفلد حيث عملت مدرّسة لابنة السيد روتشستر الذي تقع في حبه. تناقش الرواية الظلم الاجتماعي مجسّداً في أحداث حياة جين المأساوية، وتحمل قيماً أخلاقية عالية، وتوضح لدى جين حقائق كثيرة عن الدين والنظام الاجتماعي.

7- غراتسيا ديليدا: هي أديبة إيطالية من مواليد جزيرة سردينيا ولدت في 27 سبتمبر 1871 وتوفيت في 15 أغسطس 1936. هاجرت إلى روما في أوائل القرن العشرين حصلت على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1926. وهي ثاني امرأة تحصل على الجائزة. كانت أعمالها شديدة الارتباط بموطنها الأصلي سردينيا.

8- الغلالة: هي نوع من الملابس المختلفة في الطول، فهي تبدأ من الأكتاف حتى مكان ما بين الأرداف والكاكل. وقد شاع ارتداء الغلالة في روما القديمة بين الرجال والنساء، والتي منشؤها أساساً الملابس الإغريقية. كان الرومانيون المدنيون وغير المدنيون يرتدون الغلالة، لكن المواطنين كانوا يرتدونها تحت التوجة، وخاصة في المناسبات الرسمية.

9- تشيفتيافيكا: أو جبت بگّة، هي مدينة وسط إيطاليا في مقاطعة روما ضمن إقليم لاتسيو يبلغ سكانها 51.119 نسمة، تقع على بعد 80 كم شمال غرب روما، مطلة على البحر التيراني وميناؤها ذو أهمية كبيرة ويعتبر حلقة وصل بين أهم موانئ البحر المتوسط، كما تشتهر بصيد الأسماك.

10- تافولارا: جزيرة صغيرة في سردينيا في إيطاليا، تتميز قشرتها الأرضية بطبقة من الحجر الجيري مساحة الجزيرة 6 ك.2، يسكن الجزيرة بضعة عائلات، تعتبر السياحة المصدر الرئيسي لدخل سكانها نظراً لطقسها الدافئ وتمتعها بساحل يتيح ممارسة الغوص.

11- تيرانوفا: مدينة في شمال شرق جزيرة سردينيا، عاصمة مقاطعة أولبيا تيمبيو، سكانها حوالي 50.365 نسمة. سميت أولبيا في العصر الروماني، وسيفيتا في العصور الوسطى.

الفصل الثامن

العودة

بدا البحر هادئاً ساكناً أشبه بالطريق الممهّد، فلم يسبب المرض لأي شخص على الإطلاق، استنفاق رفاقي في الغرفة عند الفجر، ولم أستغرق وقتاً طويلاً لأحذو حذوهم. يال هذا الجو المكفهر! فلقد غطت الكآبة سطح الباخرة ونثرت لونها الرمادي الباهت على البحر وصباحه

وحتى السماء. وعلى مسافة غير بعيدة عنا امتد ساحل إيطالي بئس مهمل كنسيج العنكبوت. بعد بضع دقائق انضمت كيوبي إليّ وأخبرتني أنها مسرورة برفقتها في الغرفة، ووصفتها بالفتاة اللطيفة والظريفة! وحين أسدلت خصلات شعرها البنية الناعمة المتماوجة وصلت إلى قدميها وقالت باستغراب: "رائع! لن تعرف ما تسوقه لك الأقدار". وفي تلك اللحظة علا صياح الديك من جديد بعد أن استمر طوال الليل بصوته الأجلج الذي يصدح من حلقة الملتهب. التفتنا إلى الماشية فوجدناها أكثر بؤساً من ذي قبل، إلا أنها ما زالت جامدة بلا حراك، أشبه بالإسفنجة الذي ينمو في قاع البحر. أما السجناء فتركوا في الخارج لاستنشاق الهواء، فأخبرنا أحدهم أنهم فارين من الحرب، إذا أمعنت النظر بوجوه هؤلاء الفتية المشرقة فستدرك أنّ الفرار من الجندية هو البطولة الحقيقية الوحيدة، لكن كيوبي التي نشأت في بيئة عسكرية نظرت إليهم كرجال قد نجوا بأعجوبة من برائن شبح الموت الذي يحوم حولهم، فهي تجزم أنهم تعرضوا لإطلاق النار عندما تم اللحاق بهم والقبض عليهم. لقد قام الجنود بفك القماش المشمع الذي نصبوه أنفاً فوقهم، ليزوب ملاذهم لهذه الليلة في عتمة حالكة، فأمسوا مجرد عابري سبيل متهاكين منهكين، يدخلون السجائر ويحدقون في البحر.

أصبحنا على مقربة من تشيفيتافيكيا، وهو ميناء قديم يغلب عليه طابع العصور الوسطى، **278** بقلعته تلك والثكنات المحصنة المستديرة التي تتمركز عند مدخله، فبادر جنود باخرتنا بالصياح والتلويع تحية للجنود المرابطين على أسوارها. تراجعت باخرتنا بسهولة نحو هذا الميناء الذي يفتقر للأهمية والرتابة، وفي غضون خمس دقائق نزلنا من الباخرة وسرنا على طول الشارع الواسع المقفر متجهين صوب المحطة، وعند وصولنا أخذ سائقو العربات يرمقونا بنظرات قاسية، ظناً منهم أننا ألمان فقراء بمجرد ملاحظتهم حقيبة الظهر التي نحملها.

جلسنا بانتظار القطار القادم من الشمال، والذي تأخر وصوله ثلاثة أرباع الساعة فقط، فشغلنا أنفسنا باحتساء بعض القهوة بالحليب خلال ذلك الوقت. إنه قطار سريع مخصص للرحلات الليلية القادمة من تورينو. عند وصوله وجدنا متسعاً كبيراً في إحدى المقصورات فدخلنا إليها برفقة ستة أشخاص من ساردينيا، بعد ذلك انتبهنا لرجل ضخم من تورينو في مقصورتنا، وقد ظهر التعب والإرهاق في عينيه بشكل جلي. بدا عالم جديد تماماً على البر الرئيسي، وبمقدور المرء أن يستنشق عبق تشويق غريب سائد في الجو. ولكي أشغل نفسي خلال سفرنا الطويل عمدت إلى قراءة صحيفة كوريري ديلا سيرا¹ "مراسل المساء" مجدداً من أولها حتى آخر سطر فيها، فها نحن ذا في العالم الحقيقي المفعم بالحياة مرة أخرى، حيث الهواء العليل المليء بالنشاط يذيب لؤلؤة النظام القديم، أتمنى يا عزيزي القارئ أن تعجبك الاستعارة، ومع ذلك لا

يمكنني التغاضي عن تكرار مدى إحساس المرء بقوة المذنبات السائدة في الجو، عندما تحط قدماه فجأة على البر الرئيسي لتُبدل ما يجول في نفسه تمامًا خلال ساعة واحدة؛ فيغدو أكثر مخلوق فضولي في الوجود، فهو يعتقد أنَّ لديه روحًا واحدة لكنه يمتلك العشرات منها. وهنا أحسستُ أنَّ روعي الساردينية العميقة تتلاشى، لأتحول إلى حالة من عدم اليقين وأدوب في زخم إيطالي حقيقي آني، وهذا ما دفعني إلى العودة لقراءة صحيفة كوريري ديلا سيرا¹ "مراسل المساء" أثناء حدوث هذا التحول، فأنا أحب الصحف الإيطالية لأنها تبوح بما يجري في الواقع بصدق **279** دون أن تتجه إلى انتقاء الأخبار الملائمة فقط، ربما يظن البعض أنَّ ما سأقوله مجرد سذاجة مني، ولكنني أعتبر القائمين عليها رجالًا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وليسوا أشباه رجال.

أخذ القطار يسير ببطء وتثاقل على طول بلدة ماريما، وفي تلك الأثناء تلبدت السماء بالغيوم ثم انهزم المطر بغزارة، فتوقفنا عند محطة ليست ضمن مخطط رحلتنا، فهي غير مهيئة بعد ولا ينبغي التوقف عندها، تقع في مكان ما من ريف ماريما، حيث البحر ليس بالبعيد عنا لكنه غير مرئي لنا. لقد تمت زراعة هذا الريف المنخفض بشتى أنواع الفاكهة والخضروات، لكنَّ البؤس يحيط أركانه برغم ذلك. تنهد الرجل من تورينو وحرك قدميه بضجر حين توقف القطار دون مبرر أو فائدة ترجى، لقد ظل القطار متسمِّرًا في مكانه هناك تحت المطر، يا له من قطار سريع مثير للسخرية!

في النهاية انطلق القطار من جديد بعد انتظار طويل، وأخذ يسير بشكل متعرج عبر القنوات الممتدة الغريبة لبلدة كامباغنا الرومانية، فمررنا برعاة يقتادون أغنامهم، وهي خراف مارينو² نحيلة الأقدام. في ساردينيا تمتاز سلالة خراف المارينو بلونها الأبيض الناصع فتذكر المرء بمقولة "أبيض كالصوف"، ولهذا فإنَّ الخراف السوداء وسطها تبدو شديدة السواد. لكن خراف بلدة كامباغنا لم تعد بيضاء بل داكنة قذرة، فالطابع البري الذي يطغى عليها يحمل تاريخًا ذائع الصيت، كآلة الموقد الذي ينثر دفنه في أرجاء المنزل.

وهكذا بدأنا نقترُب من الامتداد البائس لروما الحديثة، فوق نهر التيبر الأصفر، ومرورًا بالضريح الهرمي الشهير، لنتلف حول أسوار المدينة، حتى نقتحم أخيرًا المحطة المعروفة، من بين كل تلك الفوضى. **280** لقد تأخر الوقت، إنها الساعة الثانية عشرة إلا ربع، ولا بد لي من الخروج وصرافة المال، أول ما خطر في ذهني هو أن ألتقي بصديقي، فنزلت وكيوبي إلى أسفل منصة القطار بحثًا عنهما، ولكن خاب أمني فلم نجدهما عند الحاجز. بدت المحطة فارغة إلى حد ما، فأثرنا المضي صوب منصات المغادرة. لحسن الحظ وجدنا قطار نابولي جاهزًا للانطلاق،

فوضعنا حقائبنا داخله وطلبت من المشرف ألا يسمح لأحد بسرقتها، ثم انطلقت لوحدي مسرعاً إلى المدينة بينما انشغلت كيوبي بشراء الطعام من المقصف.

توقف هطول المطر، إلا أنّ روما بقيت كعادتها غير مبالية بأي شيء وكأنها في يوم عطلة رسمية، استطعت صرف النقود وحصلت على مئة وثلاث ليرات مقابل كل ورقة جنيه إسترليني؛ دسست النقود في جيبي وكانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة ودقيقتين، وخرجت بعجالة من ساحة ديلي تيرمي لأعود إلى المحطة. وفجأة إذ بصديقيّ يترجلان ببطء من عربة ما، راح أحدهما يحدق نحوي بنظرة متسائلة من خلال نظارته ذات العين الواحدة عبر خطوط الترام، أما الآخر فطويل القامة رشيق وأنيق يبدو وكأنه يتوقع ظهورنا من العدم لنوفر عليه عناء البحث عنا.

دنوت منهما وتبادلنا التحيات الحارة وعناق المحبة والمودة: "آه، ها أنت ذا! أين كيوبي؟ ولم أنت هنا؟". أجبت: "لقد كنا في منصة الوصول ولم نجدكما هناك". "لم تصل برقيتك إلينا إلا من نصف ساعة فقط، ثم أتينا إليك في الحال". "حسناً، من الجيد أن أراكما". خاطب أحدهما الآخر: "أوه دع الرجل يلتقط أنفاسه". ثم أتبع قائلاً: "أتود الذهاب إلى نابولي في الحال؟ أعليك أن تفعل ذلك؟ أوه يا لك من شخص لا يعرف الاستقرار! كالطيور المهاجرة تماماً!". "دعونا نجد كيوبي بسرعة إذًا، فلن يسمحوا لنا بالدخول إلى المحطة، فهم لا يمنحون تذاكر للمنصة الأساسية في هذا اليوم، بسبب قدوم ضيوف عائدين من حفل زفاف لأحد أبناء بافاريا من سلالة سفويا بالشمال، وقد كان من بين الحاضرين بضع دوقات ملكية، ولهذا فعلينا محاولة استخدام أسلوب المحايلة مع مسؤول المحطة". 281 عند وصولنا إلى الحاجز وجدنا امرأة تحاور الموظفين لأجل السماح لها بدخول المحطة ولكن عبثاً، غير أنّ ما عجزت عنه هذه الممرضة الرومانية يستطيع الشاب الإنجليزي الأنيق فعله. وهكذا تدخل صديقي البطلان وأقنعا القائمين على المحطة، وخلال دقائق أصبحنا برفقة كيوبي داخل قطار نابولي. قال الصديقان: "والآن أخبرنا كل شيء عن رحلتك!". وهكذا دخلنا في محادثة طويلة متنوعة مع الرجل صاحب النظارة ذات العدسة الواحدة، حيث همس في أذني عن الصحراء التي عاد منها قبل أسبوع، وانغمس في وصف شمس الشتاء التي تتوسط سماء تلك الصحراء، أما الآخر بينطاله الأنيق الذي تناثرت عليه بقع الطلاء الصفراء فقد منح كيوبي فكرة موجزة عن شغفه الكبير بفن النقش. وبلمح البصر تغير مسار الحديث فأخذ صاحب العدسة يروي لكيوبي تفاصيل مخطط رحلته إلى اليابان، التي سيبدأ بها بعد ستة أسابيع، بينما راح ذو البنطال الملطخ يسهب بالحديث عن شغفه بفن النقش بالإبرة، حيث أطلعني على خطته التي أعدها للمكوث في ساردينيا طوال شهر مايو، عبر الخربشات والرسوم، لقد تخطت رسوماته حتى براعة الرسام غويا. في النهاية، اتفقنا على قرار حاسم، ألا يحطّ صديقي الرحال معنا في صقلية لأجل الاستمتاع بمنظر تفتح أزهار اللوز، بل سيواصل السفر لعشرة أيام على

الأقل. حسنًا سوف نرسل لهما برقية عندما يشارف موسم تفتح الأزهار على نهايته ويبلغ أوجه وحينها سيأتيا في اليوم التالي. ضرب شخص ما إحدى عجلات عربة القطار ضربتين شديتين مدويتين بواسطة مطرقة، كتنبيه للمسافرين لأجل دخول القطار، فخشيت كيوبي أن تفوتنا الرحلة: "أنا خائفة، علينا الصعود إلى القطار". "هيا لندخل، هل اشتريت جميع مستلزماتك؟ كلها؟". "أجل، وكذلك زجاجتين من أفضل أنواع العصير!". ثم ودعنا صديقنا وقلت لهما: "إذا كما اتفقنا، عشرة أيام ونلتقي مجددًا". "أجل بكل تأكيد، يسعدنا أن نراك، ولو لوقت قصير فقط". ثم التفت أحدهما إلى كيوبي مخاطبًا إياها: "يال كيوبي المسكينة! لم تفتكِ الرحلة وأنت آمنة تمامًا الآن". "وداعًا!". "رافقتكما السلامة!". 282 جلسنا في مقعدينا، ثم أغلق الباب وانطلق القطار خارجًا من المحطة، فأخذت روما تختفي عن مرأى النظر شيئًا فشيئًا، وأصبحنا نسير على طريق بلدة كامبانيا الشتوية، حيث تمتد المحاصيل. أما بعيدًا على الجهة اليسرى برزت لنا تلال تيفولي، لتعود بنا في الذاكرة إلى أيام الصيف الماضي الملتهية، فضلًا عن نوافير فيلا ديستي. راح القطار يعدو ببطء وثقال من فوق بلدة كامبانيا باتجاه جبال مونتي ألبانو³ صوب الوطن.

انقضضنا على طعامنا وأخذنا نلتهم شرائح اللحم البقري الصغيرة الممتازة، أقراص الخبز، البيض المسلوق، التفاح، البرتقال، والتمر. وعمدنا إلى مناقشة الخطط وآخر الأخبار بشكل محموم، ونحن سعداء تمامًا بما لدينا. لقد غمرتنا فرحة كبيرة بعد أن أصبحنا بعيدين جدًا، ونحن نسافر بين هذه الجبال الرومانسية التي تقع وسط الجنوب، قبل أن ندرك وجود ركاب آخرين إلى جانبنا في العربة. اجتاز القطار نصف طريق الرحلة حتى الآن، وحينها مررنا بدير بُني على تلة عالية، فرحنا نتساءل باستغراب عن سبب بنائه في هذا المكان! وبلحظة جامحة، اقترحت على كيوبي أن ننزل ونقضي ليلة هناك في مونتكاسينو، ونرى صديقنا الراهب الذي يعرف الكثير عن العالم، لكونه قد انعزل عنه، لكن كيوبي كانت ترتجف وتصاب بالقشعريرة بمجرد التفكير في البرد الشتوي الرهيب الذي يقبع داخل الدير الحجري الضخم، حيث لا توجد به حتى شرارة واحدة من جهاز تدفئة، ولهذا تراجعنا عن الفكرة واكتفينا بالنزول في محطة كاسينو فقط لشراء القهوة والكعك المحلي، فدائمًا ما تعرض هذه المحطة أغذية جيدة؛ ففي الصيف يضعون الثلجات الكبيرة والفاكهة والماء المثلج، أما شتاءً فتجد لديهم كعكًا حلواً شهياً تتناوله بكل هناء بعد الوجبة.

283

تقع محطة كاسينو في منتصف الطريق المؤدي إلى نابولي، وما إن اجتزناها حتى بدأت الإثارة

والمتعة التي وجدناها في الشمال تتلاشى تمامًا، حيث أطل الجنوب بطلعته الحزينة وسمائه الكئيبة، فأخذت أقواس السحاب تسحّ علينا من دموعها الثقال، لتعود بي الذاكرة إلى الليلة الماضية عندما كنا وسط البحر، حيث اعتراني اضطراب غامض خشية ألا نجد حجزًا على الباخرة. على أي حال، يُحتمل أن نمضي هذه الليلة الطويلة في نابولي، أو نبقى جالسَيْن في قطارنا الذي يسير قدمًا، خلال الليل الطويل صوب مضيق ميسينا. يجب علينا أن نقرر، حالما نصبح على مقربة من نابولي.

حين تغلب على المرء غفوة خفيفة يبقى مدرّجًا لجميع الناس من حوله. سافرنا هذه المرة في الدرجة الثانية، توجد في المقعد المقابل لنا شابة صغيرة، هي ناظرة في إحدى المدارس، وقد وضعت نظارة أنفية⁴، يجلس بجانبها جندي أبيض البشرة أجوف الخدود مع شرائط تزين صدر بزته العسكرية. وعندما نظرت إلى الزاوية شاهدت رجلًا بدينًا يمكث هناك، وبجانبه ضابط بحرية من رتبة متدنية قادم من فيوميه⁵، وقد استغرق في نوم عميق ولربما هو يشعر بالخزي والعار، فلقد استسلم دانونزيو⁶ للتو، ولكن بذات الوقت أخذت تصدح أصوات جنود قادمة من مقصورتين بعيدتين، حيث راحوا ينشدون أغاني تفاخر بفيوميه من تأليف الشاعر دانونزيو وبروح مقاتلة رغم التعب الذي أضناه. إنهم جنود فيلق دانونزيو، وبينهم جندي مريض كان يحدثهم أنّ إيطاليا لاتزال متأججة وجمهورية. لا يُسمح للجنود العاديين بتذكّرهم الرخيصة السفر في القطارات السريعة، غير أنّ جنود الفيالق هؤلاء ليسوا مفلسين، فلقد دفعوا فائضًا من المال وجأؤوا، ويتم إرسالهم حاليًا إلى منازلهم. يا لهم من جنود أقوياء! **284** فلقد استمروا بالغناء لأجل دانونزيو بتحدٍ رغم أنّ رؤوسهم تترنح من شدة التعب. سمع ضابط إيطالي في الجيش النظامي وليس من فرقة جنود فيوميه هتافاتهم من داخل المقصورة فذهب إليهم، ليعم الهدوء المكان، لكن بعد ذلك تراخى الجنود وتجاهلوا قدومه تمامًا، فصاح بعنف وبأسلوب إيطالي: "انهضوا حالاً! على أقدامكم!". ففعلت الحدة فعلها واستجابوا له على مضض ووقفوا جميعهم داخل هذه المقصورة، ثم أتبع الضابط قائلاً: "أدوا التحية حالاً!". وبرغم مرارة ذلك، رفعوا أيديهم لإلقاء التحية، بينما وقف الضابط يتفرج عليهم، ثم استدار بشكل رائع للغاية ورحل مبتعدًا، فجلس الجنود وهم يحملقون بسخط. لقد تعرضوا للإهانة بالطبع، ألم يكونوا على دراية بذلك! تبسم الرجال في مقصورتنا بفضول يعبر عن استهزاء ممل لا طائل منه نحو كلا الطرفين.

أخذت السماء تجود بالمطر الغزير، فامتألت النوافذ ببخار كثيف جدًّا، فقد تم إغلاقها لننعزل عن العالم تمامًا، لم يكن القطار الطويل مكتظًا بالمسافرين، فتسلل شعور التعب والإحباط المنبثق من جنود فيلق دانونزيو المساكين ليشغل حيزًا كبيرًا منه، وعند حلول الظهيرة خيم الصمت في جميع أرجاء هذا القطار الشبه فارغ والمحاط بالضباب، فحاول جنود فيلق دانونزيو كسره بأغنية

خاطفة، إلا أنها سرعان ما تلاشت بسبب الإرهاق والعزيمة المثبطة التي تجثم على صدورهم. راح القطار يجري بتناقل وعلى غير هدى، وأثناء ذلك فوجئنا بشاب متين البنية لم يفقد رباطة جأشه وله شعر أسود كثيف ممشط مثل عُرف ديك منفوش، حيث تقدم بهودة وثبات إلى أسفل الممر وعمد إلى الخربشة دون أي خجل بإصبعه على زجاج النوافذ الضبابي: "نحن جنود فيلق غابرييل دانونزيو". فضحك الجندي المريض بصوت خافت مخاطباً 285 الناظرة: "أوه أجل، إنهم شباب رائعون، لكن هذا التصرف ينم عن حماقة، إن دانونزيو شاعر عالمي وأحد عجائب الدنيا، لكن ذكر فيومييه هو أمر خاطئ كما تعلمين. يجب أن يتم تلقين هؤلاء الفتية درساً، فقد تجاوزوا حدودهم. هم لا ينقصهم المال على الإطلاق، فالشاعر دانونزيو يمتلك الكثير من المال في فيومييه ولم يهتم به". بيد أن الناظرة تتمتع بذكاء حاد، فأوضحت له مطولاً أنه مخطئ وهناك أناس أفضل من شاعر العالم وعجائبه.

رباه! كم أشعر بالاشمئزاز عندما أرى الناس يصدقون ما تتنطق به الصحافة.

لم يكن الجندي المريض عضواً في فيلق جنود دانونزيو، وذكر أنه قد أصيب في رنته لكنه تعافى، رفع غطاء جيب صدر بزته، مبرزاً لنا ميدالية فضية صغيرة معلقة فيه، لقد مُنحت له كوسام إثر إصابته هذه، لكنه لبسها بشكل مخفي فوق مكان الجرح. وفي تلك اللحظة تبادل الجندي المريض مع مديرة المدرسة النظرات على نحو ملحوظ، ثم تحدثا حول المعاشات التقاعدية، وسرعان ما تناولا الموضوع القديم. بعد ذلك أخذت الناظرة تجري بعض العمليات الحسابية قائلة: "لماذا يتقاضى محصل التذاكر اثني عشر ألف ليرة في العام وهو لا يفعل شيئاً سوى ثقب تذاكر المسافرين في القطار، أي همجية هذه! بينما يتم منح أستاذ مؤهل بالكامل خضع لجميع التدريبات المهنية وحصل على الشهادات العلمية خمسة آلاف ليرة فقط". فوافق الجندي كلامها واستشهد بأرقام أخرى، إلا أن السكة الحديدية بحد ذاتها كانت هي الشكوى البارزة؛ حيث أوضحت الناظرة أن كل تلميذ ترك المدرسة الآن يطمح إلى العمل في السكة الحديدية. 286 قال الجندي: "أوه لا! كل شيء أفضل من عمال القطار!".

أما الضابط البحري، الذي تهاوى إثر أحد أكثر المواقف غرابة، بعد أن غلبه النوم، فقد نزل في كابوا ليستقل قطاراً صغيراً يعيده إلى محطته التي اجتازها قطارنا ولم يتوقف فيها. وعند مدينة كازيرتا نزل الجندي المريض ومشى إلى آخر الطريق الكبير المشجر حيث كان المطر ينهمر، بينما بقيت الناظرة والرجل قوي البنية أيضاً معنا، وبذات الوقت صعد شاب إلى القطار. لاحظت الناظرة أننا كنا نستمتع إليهم، فحدثتنا عن الجندي المريض قليلاً، وأخبرتنا أنها ستسقل القارب الليلي المتجه إلى باليرمو. فسألتها: "هل تعتقدين أن الباخرة ستكون مزدحمة جداً؟". "أجل إنها

كذلك، فلم أستطع الحصول إلا على تذكرة لمقعد في آخر المقصورات، رغم أنني ابتعتها منذ الصباح الباكر". وأثناء ذلك انضم الرجل البدين إلينا، وأخبرنا أنه سيعبر إلى باليرمو أيضاً. وبهذا أصبحت على يقين أن الباخرة ستكون ممثلة تماماً، فقلت لهما: "أظن أننا سنعتمد على حجوزاتنا من ميناء نابولي". فأجابا: "كلا، إن الأمر أكثر من مشكوك فيه، حتى إنه مستحيل، فهي باخرة شيتا دي تريست الشهيرة الشبيهة بالقصر العائم، وكل شخص يرغب السفر على متنها".

"هل ينطبق الأمر على الدرجة الأولى والثانية على حد سواء؟".

ردت الناظرة بسخط إلى حد ما: "نعم، الأمر كذلك حتى في الدرجة الأولى". فعلمت أنها تحمل تذكرة بيضاء أي الدرجة الثانية. 287 لقد لعنتُ الباخرة شيتا دي تريستا وبهاءها وازدريتها، وأصبح أماننا خياران الآن؛ فإما أن نمضي الليل في نابولي لأجل ركوب الباخرة، أو نواصل السفر في قطارنا هذا طوال الليل والصباح التالي، لنحط رحالنا على أرض الوطن بمعجزة في وقت باكر من الظهيرة، رغم أن التأخير لست ساعات ليس بالأمر الهام في هذه القطارات العابرة لمسافات طويلة، لكن التعب قد نال منا، وأتساءل كيف سيغدو حالنا بعد الجلوس لأربع وعشرين ساعة أخرى في القطار، الله وحده يعلم. وبذات الوقت إذا اخترنا الذهاب إلى نابولي سنواجه معاناة كبيرة لأجل الحصول على سرير في أحد فنادقها لهذه الليلة الماطرة، فهي تعج بالأجانب الآن.

على أي حال، لم ألتفت لكلام الناظرة والرجل البدين، ولم أقبل تثبيطهم لعزيمتي بتلك السهولة، فالإيطاليون يحبون أن يجعلوا من المسألة أمراً ميؤوس منه. سألتنا الناظرة: "هل أنتم إنكليز؟". "أجل، إننا كذلك". فأردفت بامتعاض: "من الرائع أن تكون إنكليزياً في إيطاليا هذه الأيام، وذلك بسبب فرق العملة، فأنت كإنكليزي مع أموالك التي صرقتها، تأتي إلى هنا وتبتاع كل ما ترغب لقاء لا شيء، وتأخذ أفضل الموجود، ومقابل عملتك لن تكون قد دفعت شيئاً. بينما نحن الإيطاليون الفقراء ندفع الكثير من النقود لقاء أي سلعة نشترها وبسعر مبالغ فيه، دون أن نحظى بشيء يُذكر. كم قيمة الصرف اليوم؟ مائة وأربع وعشرون قرشاً".

تفوهت ذلك بكل جراءة في وجهي، بينما دمدم الرجل البدين بمرارة: "بالفعل، نعم، نعم!". 288 لقد أثارت وقاحتها غضباً شديداً بداخلي وكذلك غصة ومرارة الرجل البدين، ألا يكل هؤلاء الناس من إسماعي تلك السمفونية كلما تسنت لهم الفرصة؟

فقلتُ لها: "أنت مخطئة، فنحن وبأي شكل من الأشكال، لا نقيم في إيطاليا من أجل شيء لا يذكر، حتى مع سعر صرف مئة وثلاثة فرنكات، فنحن لا نمكث هنا لقاء لا شيء، إذ أننا ندفع أموالاً

طائفة مرغمين لأجل أي شيء نبتاعه في إيطاليا. وأنتم الإيطاليون ترون أننا ندفع بسخاء. هل استغربت! أنتم تفرضون أسعارًا باهظة على الأجانب، ثم تقولون إننا نعيش هنا دون مقابل. هل تعلمين أنني أستطيع العيش في إنكلترا بمقدار النقود التي أدفعها هنا، وربما أفضل. قارني بين تكلفة الأشياء في إنكلترا مع تكلفتها هنا، وحتى خذي بالاعتبار فرق صرف العملة، ستجدين أن إيطاليا تكلفك نفودًا بقدر التي تدفعينها في إنكلترا تقريبًا. ربما بعض الأشياء أرخص هنا، كتذاكر السكة الحديدية مع إن القطارات مزرية بشكل لا حدود له، فتغدو التعاسة رفيقة للسفر. ولكن لو نظرت إلى أشياء أخرى كالملابس بكل أنواعها والطعام فستجدينها أغلى ثمنًا من إنكلترا، مع الأخذ بالحسبان فرق صرف العملة".

أجابت: "أوه صحيح، فقد توجب على إنكلترا أن تخفض أسعارها في آخر أسبوعين، فذلك بالواقع يصب في مصلحتها الخاصة".

قلت: "في الأسبوعين المنصرمين! أو خلال آخر ستة أشهر، بينما تجدين الأسعار ترتفع هنا كل يوم".

وهنا أفضى الشاب الهادئ الذي صعد من محطة كازيرتا بما عنده: **289** "نعم، فكل دولة تدفع لمتطلباتها من مالها الخاص، بغض النظر عن فرق الصرف، وذلك الأمر ينجح بشكل متساوٍ بين الجميع".

شعرت بالغضب، فدائمًا ما كان أمر فرق الصرف هذا كشوكة في حلقي، حيث ينظر إلي الآخرون وكأنني سارق، أما المرأة فأصرت على رأيها.

قالت: "نحن الإيطاليون لطفاء للغاية وطيبون، وقلوبنا لا تحمل الضغينة، لكن الآخرين ليسوا كذلك، ولا يبدون ودودين بالنسبة لنا". ثم أطرقت رأسها. وبالفعل! لم أشعر بالود تجاهها وهو أمر قد لمستته. أما بالنسبة لطيبة القلب الإيطالية، فهي تشكل أساسًا متينًا لا يتزعزع في وقتنا الحاضر، لتغطية ابتزازهم وتبرير سلوكهم السيء وحقدهم.

أخذ الظلام يرخي أستاره على السهول المنبسطة الوافرة التي تحيط بنابولي، ويلف الكروم الطويلة الغربية بعروقها البنية في التربة السوداء المحروثة بشكل كثيف. كان الليل قد جنَّ عندما وصلنا المحطة الكبيرة المليئة بالصوص، في الساعة الخامسة والنصف تقريبًا، فلم نكن متأخرين جدًّا. هل ينبغي علينا متابعة الجلوس في مقصورتنا الحالية حتى نصل إلى الميناء مع الناظرة ونخاطر بذلك؟ ولكن علينا أولاً إلقاء نظرة على الحافلة المتجهة إلى صقلية. وهكذا ترجلنا من مقصورتنا وركضنا على طول القطار صوب حافلة سيراكيوز، فوجدناها تعجّ بالصخب والارتباك ولا متنفس لك في الممر بين المقاعد، ولا متسع لنا فيها دون شك. ويصعب علينا أن

نستلقي داخلها لنريح أبداننا قليلاً، وبذات الوقت لم نعد نحتمل الجلوس في مكان ضيق لأربع وعشرين ساعة أخرى. 290 وهكذا قررنا الذهاب للميناء مشياً على الأقدام، فالله وحده يعلم متى سيتم تحويل خط سير عربة السكة الحديدية للأسفل. لأجل ذلك عدنا أدراجنا إلى القطار طلباً لحقيبة الظهر، وأخبرنا الناظرة بنيتنا، فقالت ببرود: "لا يسعك إلا أن تحاول".

حملنا حقائبنا واندفعنا مسرعين خارج تلك المحطة المزعجة التي حلت فيها كل اللعنات، لنسابق الوقت في هذا الليل عبر خليج نابولي المعتم الذي خضّلته قطرات المطر. أخذ سائقو العربات يرمقونا بنظرات مليئة بالفضول، لكن حقيبة ظهري أنقذتني حيث أدركوا أنني لست بحاجة لهم، وقد أصابني ذاك الحوذي بالقلق بعد أن حل الظلام، فهو يشبه الأفعى التي تنقض على فريستها وتعضها. أما خلال النهار فيفرض هؤلاء السائقون تسعيرة باهظة لكثرة طلبات المسافرين عليهم.

تبعد المحطة عن الرصيف البحري حوالي الميل، حيث ترسو الباخرة هناك. ساقطنا أقدامنا عبر الشوارع المتشابكة التي تشبه الدوامة، والمرصوفة بالحصى الأسود الزلق، بينما تناثرت البيوت المعتمة التي برزت من مكان مرتفع على كلا الجانبين، غير أن الشوارع لم تكن ضيقة جداً في هذا الجزء، مما جعلنا نغوص أكثر فأكثر في الظلام العجيب لهذه المدينة المتمردة، حيث لا تلمح عينك أي ضوء يشع من هذه الأبنية باستثناء بعض مصابيح الشوارع الكهربائية الصغيرة. وبعد حين وجدنا أنفسنا عند واجهة المرفأ، فحُثْنَا الخطى عبر المخازن الكبيرة في هذه الليلة الماطرة، حيث تبدأ المداخل الحقيقية للميناء. وفجأة أقبل قطار الأنفاق وأحدث ضجة عالية لدى مروره قربنا، فمضينا نجرر أقدامنا على طول حافة الرصيف 291 التي امتدت إلى أسفل الرمال اللينة المعتمّة الشاسعة لطريق الميناء، حيث يشعر المرء بخطر محقق من كل جانب. لكننا وبعد مرور وقت طويل وصلنا إلى بوابة مجاورة لسكة حديد الميناء، غير أنها ليست المكان المنشود، فتابعنا المسير نحو البوابة الحديدية التالية لمعبر سكة القطار، وهكذا أخذنا نجري خلال العنابر الكبيرة وأبنية محطة الميناء، حتى تراءت مؤخرة الباخرة أمامنا في البحر المظلم. كيف لنا أن نجد الكوة الصغيرة التي تباع فيها التذاكر؟ ونحن معزولون عن العالم في هذه الغابة المقفرة وسط ظلام المرفأ. يا إلهي! ماذا نفعل؟!!

شرعنا إلى سؤال أحد المارة فقادنا إلى مكان قريب، ولم يطلب نقوداً لقاء ذلك عندما لاحظ حقيبة الظهر البسيطة. وحينها وجدنا مجموعة من الجنود وبعض الرجال يتدافعون متزاحمين في غرفة منعزلة لها كوة صغيرة. ها هو أخيراً المكان الذي ناضلت للوصول إليه. تركت كيوبي لتحرس حقيبة الظهر والأغراض، وانغمست في الصراع الدائر، بل إنه قتال بكل معنى الكلمة، فهناك ما يقارب ثلاثين رجلاً يريدون الوصول في وقت واحد إلى كوة صغيرة وسط جدار أصم؛

فليس هناك طابور سكة حديد ولا انتظام، بل مجرد كوة في جدار أصم، وثلاثون نداءً معظمهم جنود يتدافعون عليها بشكل جماعي. غير أنني قمت بهذا الأمر من قبل، والطريقة أن يلج الشخص بشكل جانبي ودون أي عنف، وبضغط وعزيمة هائلين يصل إلى مبتغاه. ويجب أن تبقي يداً سريعة محكمة على حافظة النقود، وأخرى حرة لإمساك جانب الكوة عندما تصل إلى هناك. وهكذا يتحطم المرء إلى ذرات صغيرة بين هذه الطواحين البشرية، كشعوب إغريقية تتصارع على التذاكر؛ فالأمر ليس لطيفاً والتراص هائل جداً، ولهذا فإنك تُسحق بشكل لا مثيل له. ولا ينبغي على المرء أن يغفل ولو لثانية واحدة عن حذره **292** أو ساعة يده ونقوده وحتى منديله. عندما قدمتُ إلى إيطاليا لأول مرة بعد الحرب، تعرضت للسرقة مرتين خلال ثلاثة أسابيع، فقد كنت أحوم في الأرجاء حاملاً تلك الثقة البريئة القديمة والرقية بالجنس البشري. ومنذ ذلك الحين لم أتخل عن حذري، فبشكل أو بآخر يجب أن تبقى يقظاً هذه الأيام حتى وأنت نائم، وهو ما أحبه حقاً، وقد تعلمت درسي الآن، فالثقة بطيبة البشر هي في الحقيقة خيط واهن للغاية، فالحياة الصادقة المستقيمة لن تفيدك بشيء عندما يتعلق الأمر بالطبيعة البشرية، مهما كانت مؤثرة مع الأسود والضباع. ولهذا فقد تشبثتُ بحذري كمسمار يحفر قطعة خشب، ورحت أشق طريقي عبر تلك الزمرة من الرفاق وصولاً إلى الكوة الصغيرة صارخاً لأجل تذكرتين على الدرجة الأولى. تجاهلني الموظف في الداخل لبعض الوقت لخدم الجنود، ولكن إذا تحليت بالصبر والثبات فستنال مرادك. قال الموظف: "اثنان للدرجة الأولى". فأجبتُ: "زوج وزوجته، بحال كان هناك مقصورة بسريرين". فتعالت الدعابات من خلفي، لكنني حصلتُ على تذاكري. وبات من المستحيل وضع يدي على جيبِي، بلغ ثمن كل تذكرة مئة وخمس فرنكات، فقُبضتُ باقي النقود الورقية والقصاصات الخضراء، وبآخر نفس نجحتُ في الخروج من هذا الازدحام. إذن لقد فعلناها، شكرًا لله! وبينما انشغلتُ بفرز نقودي ودسها في جيبِي، تناهى لسمعي طلبُ آخر للدرجة الأولى، لكن الموظف أخبره أنَّ التذاكر قد نفذت. ولهذا يتوجب على المرء أن يحارب جاهداً للحصول على مراده.

لا أستطيع القول عن هذه الحشود الكثيفة المتصارعة سوى أنها انفعالية فحسب وليست عنيفة أو همجية على الإطلاق، ودائمًا ما شعرت بتعاطف من نوع ما على الرجال فيها. **293** انطلقنا نحو الباخرة مسرعين كالسهم تحت المطر المنهمر، وخلال دقيقتين كنا على متنها، وقد حظي كلُّ منا بمقصورته الخاصة على سطح الباخرة، أنا لوحدي وكيوبي في الحجرة المجاورة. تتسم المقصورة بالفخامة، فهي ليست قمرة على الإطلاق، بل غرفة نوم صغيرة حقيقية، مع ستائر حول السرير معلقة فوق النوافذ، وهناك أريكة مريحة، وكراسٍ وطاولة، سجاد وأحواض غسيل كبيرة مع صنابير فضية، إنها فارهة كلياً. أسقطتُ حقيبة ظهري على الأريكة بلهفة، وأزحمتُ

الستائر الصفراء، ونظرت خارج الكوة إلى أضواء نابولي، وتنهتُ بارتياح. بوسع المرء الآن أن يأخذ حمامًا منعشًا، ويبدل ملابسه الكتانية. يا للروعة!

أما القاعة الرئيسية فبدت كصاله فندق، مع العديد من الطاولات التي ازدانت بالورود والمجالات، والمقاعد بمسندين، وذلك السجاد الدافئ، والأضواء الساطعة بلطف، وقد جلس الناس هنا وهناك يتجاذبون أطراف الحديث. كما لفتت نظري مجموعة صاخبة من الإنكليز في أحد الأركان، وأظن أنهم سيدتان انكليزيتان مع أشخاص إيطاليين متنوعين بدوا متواضعين للغاية. بوسع المرء أن يجلس هنا بسلام وهدوء، متظاهرًا بالنظر إلى مجلة مصوّرة. وهكذا أخذنا قسطًا من الراحة، وبعد مضي ساعة من الزمن دخل شاب انكليزي برفقة زوجته صادفناهما قبلًا في القطار، وبهذا عرفت أنه تم تحويل مسار الرحلة إلى الميناء، حيث توجب علينا الانتظار!

قام النذلُ بفرش الطاولات بأغطية بيضاء اللون وصقّها قرب الجدران، فالعشاء سيبدأ عند الساعة والنصف 294 وسرعان ما ستنتقل الباخرة. خيم الصمت علينا حتى تم توزيع ثمانى أو تسع طاولات، وقد فضلنا الانتظار ليفرغ الناس من انتقاء أماكنهم، ثم قمنا باختيار طاولتنا بأنفسنا، وذلك لعدم رغبتنا بمجالسة أحد. وهكذا أصبحت الأطباق وزجاجات العصير أمامنا فتنهنا على أمل أن نحظى بوجبة لائقة. أود أن أنوّه إلى أنّ كلفة الطعام مستقلة وغير محتسبة ضمن المئة والخمسة فرنكات.

ولكن يا للأسف! فلم يتسنّ لنا البقاء لوحدها، فقد انضم إلينا شابان نابوليان لطيفان مهذبان، ومن الواضح أنهما من صفوة أهل الشمال. بعد ذلك اكتشفنا أنهما صائغا مجوهرات، وكم أحببت سلوكهما الهادئ واللطيف. بدأ العشاء بطبق من الحساء، وأثناء ذلك ظهر شاب آخر سار مختلًا متعجرفًا وبدا ضخماً وصاحباً يتحلى بنزعة تجارية. إنه يمتلك جبهة عالية إلى حد ما وشعرًا أسود مسرّحًا للخلف، وخاتمًا كبيرًا حول إصبعه لا يدل على أي شيء؛ فمعظم الرجال هنا يرتدون حلّياً مرصعة بالجواهر إلى حد كبير، ولو قدر المرء كل تلك الجواهر، فلن تصبح إيطاليا أكثر روعة من الهند الأسطورية مهما امتلكت، لكن رفيقنا الصاحب بدا ذكيًا وجلّ اهتمامه هو الحصول على المال الكثير فقط.

قدم لي الملح وتحدث بالإنكليزية: "تفضل الملح". "شكرًا". يا إلهي! لقد توقعتُ هذه المبادرة لكنني تجاهلتها. على أي حال لم يدم انتظاره طويلًا. ومن خلال نوافذ القاعة رأيت كيوبي أنوار الميناء تبتعد شيئًا فشيئًا. فقالت: "أوه، هل نحن ماضون؟" فتعلقت أعين الجميع بالأنوار واستدار الصاحب أيضًا 295 وأجاب: "نعم، إننا ذاهبون".

فسأله كيوبي: "هل تتحدث الإنكليزية؟!"

"أجل، أعرف القليل منها".

في الواقع، كل ما تفوه به هو حوالي أربعين كلمة غير مترابطة، لكن لكانته بدت جيدة للغاية. إنه ليس بمتحدث للإنكليزية تمامًا، بل يقلد صوتًا إنكليزيًا تصدر عنه بعض العبارات، فيخلف انطباعًا مذهلاً للغاية. لقد سبق له أن خدم على الجبهة الإيطالية مع الحرس الأسكتلندي، وهكذا أخبرنا باللغة الإيطالية أنه من ميلانو. يا للروعة! لقد أمضى وقتًا جيدًا مع الحرس الأسكتلندي. صاح قائلًا: "هيا يا شباب!".

ولكم بدت صيحته تلك أسكتلندية، بصوت جهور وواقعي، حتى إنني أوشكتُ أن أختبئ تحت الطاولة، فلقد كان وقعها علينا كالصاعقة.

وبعد ذلك راح يثرثر لوقت طويل دون اكتراث؛ فقال إنه يرتحل طلبًا لنوع معين من الآلات التي يتم صنعها في صقلية، وكذلك يعتزم الذهاب إلى إنكلترا قريبًا، وبدأ مهتمًا بالاستفسار عن فنادق الدرجة الأولى. ثم استعلم إن كانت كيوبي فرنسية الأصل أم إيطالية؟ فأجبت أنه ألمانية. "هي ألمانية حقًا؟!". "أجل بكل تأكيد". ثم قال: "الأرض الألمانية فوق كل شيء!". أجبت: "أعرف، لا مزيد من الكلام لو سمحت". لكنه تابع: "الأرض الألمانية تحت كل شيء إذا؟ حسنًا، الأرض الألمانية تحت كل شيء". 296 ثم نهض عن مقعده مبتهجًا بالكلمات التي ينطقها، فقد كان يعرف بضع عبارات ألمانية كحال الإنكليزية.

نفث كيوبي بحزم: "كلا! الأرض الألمانية ليست تحت كل شيء، لن يدوم ذلك على أي حال". أجابها هذا الرجل الصاخب البغيض: "أوافقك الرأي. لن تبقى ألمانيا تحت الجميع لفترة طويلة، في الوقت الحالي إنكلترا تسود العالم، لكن ألمانيا ستنهض مرة أخرى". فأردفت كيوبي: "بالطبع، وكيف عساها ألا تكون كذلك؟".

استرسل بكلامه: "مادامت بريطانيا تحتفظ بالنقود في جيبها، فلن تقوم لأحد منا قائمة. في السابق ربحت إيطاليا الحرب وخسرتها ألمانيا، أما الآن فكلتاها في الأسفل، ووحدها بريطانيا في القمة وفرنسا أيضًا، يا له من أمر غريب! آه من الحلفاء! وما للغاية من ذلك التحالف؟ لكي تبقى بريطانيا على رأس الهرم، وفرنسا تسير على دربها، أما ألمانيا وإيطاليا ففي الحضيض". فقالت كيوبي: "لن يبقيا على هذا الحال إلى الأبد".

"حسنًا، سنرى كيف ستكمل إنكلترا سيرها الآن".

فقاطعت حديثهما: "في النهاية، إنكلترا لا تسير بشكل رائع".

297 "كيف لا؟ ربما تقصد إيرلندا. أليس كذلك؟".

"كلا، ليس إيرلندا فحسب، بل الصناعة بالمجمل. إنَّ إنكلترا قريبة من الخراب كحال دول أخرى". "كيف ستمسي خرابًا مع كل تلك النقود التي بحوزتها؟ في حين أننا الآخرون لا نملك شيئًا؟". "وما الفائدة التي ستجنيها أنت إن هي أصبحت خرابًا؟".

وهنا علتُ وجهه ابتسامة متلهفة: "أوه حسنًا، كم أتوق لذلك اليوم!". إنَّ ما يدفعهم جميعًا لكراهية إنكلترا هو الجانب التجاري، أما من الناحية الإنسانية فهم لا يكتفون لها أية بغضاء. غالبًا ما تخاطب الصحف الناس بلسان تجاري، أما على مستوى الفرد، عندما تكون في عربة القطار، أو كما هو الحال الآن على متن باخرة، يهيمن الصوت البشري، فتعلم مقدار محبتهم لك، وهذا أمر مؤكد قطعًا. حين تقف المنفعة المتبادلة عند مستوى مئة وستة رجال بعيدين عن الإنسانية، فربما كثير منهم سيقفوا عيونهم التجارية مبصرة، ويصابوا بالعمى الإنساني الذي دفعوه على نحو بغيض إلى داخل النفس البشرية، وحينها ستدرك كم يكرهونك. إنَّ الأمم الأخرى تملؤها الضغينة نحو إنكلترا، فنحن ككائنات بشرية عرضة للحسد والحقد؛ هم يمتقوننا بأعين حسودة، ويحتقروننا بأرواح تفيض بالغيرة، وهو أمر قد لا يؤدي من الناحية التجارية، بيد أنَّ الإنسانية باتت مقرزة وكريهة بالنسبة لي. 298 انتهى وقت العشاء، وراح الصاحب البغيض يقدم السجائر بسخاء، وطلب زجاجتين من العصير فتقاسمنا جميعًا شربهما. انضم اثنان من المسافرين التجاريين مع البغيض إلى طاولتنا، وهما من الرفقاء الشباب الأذكى، أحدهما مكروه أيضًا، والآخر محترم ولطيف. أما صائغا المجوهرات فقد التزما الصمت، إلا عندما يوجه لهما الكلام، فيتحدثان عن الأسهم المالية فقط ولكن بهدوء وحساسية بالغة، فلا يسع المرء إلا الإعجاب بهما. وهكذا كنا سبعة أشخاص، ستة رجال وامرأة واحدة.

سألني البغيض: "ما رأيك بفنجان من القهوة يا سيد؟" فأجبت: "أجل، بكل تأكيد!". لقد تحدث بصوت أسكتلندي خالص، فبدا الأمر هزليًا ومضحكًا جدًا. ثم نادى النادل، وأمسكه من فتحة الأزرار ووقف مواجهًا له بمودة وطلب منه إحضار القهوة، فأجاب النادل بلباقة أنه سيجلبها إذا كانت متوفرة، فدار البغيض حول الطاولة داعيًا إيانا جميعًا لشرب القهوة، ملحًا علينا بأخذ سجائره الإنكليزية باهظة الثمن بكل ثقة بالنفس.

وبعد دقائق وصلت أكواب القهوة، ليتشاركها خمسة أشخاص، لكن مذاقها حاد وسيء، والسماء وحدها تعرف مصدرها. راح البغيض يثرثر مطولًا، مسهبًا بالقليل من الانكليزية وأربع كلمات بالألمانية. بدا مبتهجًا للغاية يلوح بيديه ويلوي جسده بطريقة غريبة معبرًا عن ذات يصعب إرضائها. وهنا حان دوري لتقديم بعض الحلوى اللذيذة لهم. 299 وأثناء لحظة من الهدوء تسنى لي اختلاس النظر عبر النافذة لرؤية أضواء جزيرة كابري⁹ الخافتة، بالإضافة إلى بصيص نور يعلو أناكابري¹⁰ حيث تخيم ظلمة حالكة، إنه نور المنارة. كنا قد اجترنا الجزيرة خلال ذلك

الوقت، وحينما تذكرت أناساً عرفتهم سابقاً يعيشون على هذه الجزيرة. استأنف البغيض الحديث بصخب تارة أخرى عن إنكلترا، إيطاليا وألمانيا. وراح يتفاخر بإنكلترا بكل السبل، فهي الأقوى بالطبع. حسناً، إذا كان بمقدوره التحدث ببعض الإنكليزية، ومخاطبة أشخاص إنكليز، حتى إنه وكما قال بصدد الذهاب إلى إنكلترا في نيسان، فلما عساه يكون أكثر نجاحاً من رفاقه الذين لم يستطيعوا الوصول إلى مثل هذه المستويات من المعرفة! وفي ذات الوقت لم يعد بوسعي تحمله أكثر.

قال البغيض: "إلى أين ماضون وكيف كان حالنا، وأين كنا نعيش؟ أوه، بالطبع فالإنكليز قد عاشوا في إيطاليا، آلاف وآلاف من الشعب الانكليزي عاش في إيطاليا، والأمر كان لطيفاً بالنسبة لهم، فلطالما تواجد الألمان هنا أيضاً، لكنهم الآن في الحضيض، أما الإنكليز فلن يجدوا مكاناً لهم اليوم أفضل من إيطاليا، وسينعموا بشمسها ودفئها، وسيحظوا بوفرة من كل شيء، وسيتعاملوا مع أناسها الرائعين، ولديهم سبل تغيير حياتهم!". وافق المسافرون أصحاب النزعة التجارية هذا الرأي، حتى إنهم ناشدوا كيوبي لتعبر إن كان في جعبتها ما يعاكس ذلك. لقد اكتفيث من كل هذا الجدل جملة وتفصيلاً، فأجبت البغيض: "آه نعم، إنه لأمر لطيف للغاية أن تكون في إيطاليا، وخاصة إن لم تقطن في فندق، وعليك أن تُعنى بالأشياء بنفسك. 300 من الرائع أن تُطالبَ بسعر عالٍ في كل مرة، ثم تتعرض للإهانة إن اعترضت بكلمة واحدة. وكذلك من الممتع أن توبخ لأجل الفكة، إذا قلت كلمتين لأي ايطالي، حتى لو كان شخصاً غريباً تماماً. كم هو جميل أن تصادف نُدلاً وأصحاب متاجر وحمالين على سكة القطار يسخرون منك بطباع سيئة، وتوجه إليك الإساءة بطرق لئيمة وضيعة طوال الوقت. ومن الجيد أيضاً أن تشعر بكل ما يملأ قلوبهم تجاهك. وإن كنت تفهم ما يكفي من الإيطالية، فمن الممتع أن تسمع ما يقولونه عنك بمجرد أن تدير ظهرك لمتضي. ياه كم ذلك لطيف ورائع في الحقيقة!".

لعل النقاش الطويل هو ما أجب هذا الغضب بداخلي، ثم أطبق الصمت على الجميع، فجلسوا دون أن يهمسوا بحرف. وفجأة بدأ البغيض يتحدث مُستنكراً:

"هذا ليس صحيحاً يا سنيور، فإنكلترا هي الدولة الأولى في العالم".

"وهل يتوجب علي أن أدفع الكثير من النقود بسبب ذلك".

"يؤسفني كلامك يا سنيور، فنحن الإيطاليون ودودون للغاية".

أليست كلماته تلك مطابقة لما تقوله ناظرة المدرسة!

أجبت: "حسناً، ربما تكون الفكرة جيدة عندما لا يتعلق الأمر بالنقود، لكن بما أن الحال دائماً يدور حولها، فسيتعرض المرء للإهانة على الدوام وبطرق وضيعة". 301 أعتقد أنني بالغت

في انتقادي، لكن على أي حال يصعب على الإيطاليين تحمل هذه القسوة؛ فظهر الكدر على صائغِي المجوهرات، بينما نظر البغيضان باستعلاء شبه مبتهجين حتى بهذا الوقت، يعتريهما شيء من الخجل، بعد أن تم الإيقاع بهما. أما الرجل اللطيف فقد اتسعت عيناه مرتعبًا من فكرة أنه سيمرض كحال جميع الإيطاليين، واستعرض نوعًا معينًا من العصير، وطلب منا بتواضع أن نتذوقه، ثم ذهب مع النادل لينتقي أجود نوع منه. وهكذا شربناه واستمتعنا به، لكن الرجل اللطيف جلس بعينين واسعتين قلقتين للغاية، ثم قال إنه سيأوي إلى سريره؛ فقدم له البغيض عدة نصائح عن دوار البحر، بسبب وجود تموجات خفيفة فيه. ثم انصرف إلى فراشه. راح البغيض يديق على الطاولة مصدرًا إيقاعًا ومدندناً بشيء ما، ثم سأل كيوبي إن سمعت عن أوركسترا روسنكافلير قبلاً، فهو دائماً ما يستعين برأيها، فقالت إنها تعرفها. ولقد أخبرنا أنه مغرم بالموسيقى، ثم شرع يغني بصوت جهوري إلى حد ما. كان يعرف الموسيقى الكلاسيكية فقط، فأخذ يموء قليلاً بموسيقى موسورجسكي، فقالت كيوبي إن موسورجسكي هو موسيقار الأوبرا المفضل لديها. صرخ البغيض: "آه لو أن هناك بيانو فقط!". أخبره رفيقه بوجود بيانو في الباخرة. فأجاب: "أعلم هذا، لكنه مقفل". فقال رفيقه بثقة تامة: "إذا دعونا نحصل على المفتاح". وبما أن النذل رجال يملكون أحاسيس مثلها فسيلبوا طلبهما. وهكذا كان المفتاح في طريقه إلينا، فدفعنا فواتيرنا التي بلغت ستين فرنكاً، ثم مضينا على طول الباخرة التي تتهدى في عرض البحر، وصعدنا الدرج الملتف نحو حجرة الرسم. فتح البغيض باب الغرفة 302 وأنار الأضواء.

إنها غرفة تدخل السرور إلى القلب، مع أرائك عريضة منجدة بألوان شاحبة، وخلف الطاولات الصغيرة أطلت أشجار نخيل يتوسطها بيانو أسود مستوٍ. جلس البغيض على كرسي البيانو وبدأ استعراضه، فراح الضجيج يتدفق من البيانو كماء يتناثر من دلو، فاشرباب بعنفه وهز خصل مقدمة شعره الكثيف وصدح ببعض القطع الموسيقية من الأوبرا، وراح يلوي ظهره الكبير على كرسي البيانو، ليهتز جسده فوق أردافه الممتلئة. من الواضح أنه يملك قدرًا كبيرًا من المشاعر تجاه الموسيقى ولكن تعوزه البراعة.

أما صديقه البغيض الآخر، الذي بدا شخصًا هادئًا يرتدي حلة باهتة اللون، وذا بنية قوية، وأكبر سنًا منه، فوقف بجانب البيانو بينما استمر رجلنا البغيض بالعزف. وقد تربّع الأخوان الصائغان على الأريكة الطويلة، وانتشج وجهاهما النحيلان بالغموض التام. جلست كيوبي بجواري، تطلب سماع هذه الموسيقى وتلك، إلا أن عازف البيانو البغيض لم يستطع تقديم أي منها؛ فهو لا يعرف سوى أربع مقطوعات موسيقية، مع القليل من أصوات موسيقية متناثرة لا أكثر. مكث البغيض الأكبر سنًا بجانبه مطمئنًا ومشجعًا إياه، ومعجبًا به كعاشق يُثني على محبوبته ويبيدي انبهاره ببراعتها. بينما أصغت كيوبي بامعان، وراحت تنظر بحماسة وإعجاب، نحو رجل يعزف وهو يحلق بأجنحة الخيال دون أن يكثرث بمن حوله. أما بالنسبة لي فلم يحرك في داخلي أي شعور.

وبعد لحظات نهضت وسرت مبتعداً، فلحقت بي كيوبي، فقلت لها وأنا عند أول الممر: "ليلة سعيدة!". فاستدارت وعادت للداخل إلى حجرة النساء **303** بينما مضيت حول الباخرة لألقي نظرة على ظلام ليل البحر.

حل الصباح بشمسه الساطعة وسمائه المكلفة بندف من الغيوم، بينما لاح ساحل صقلية من البعيد شامخاً بلون أزرق باهت. آه يا ترى كم كان الأمر رائعاً ليوليسيس¹¹ أن يغامر في البحر المتوسط ويفتح عينيه على جمال كل هذه السواحل الشامخة، وينسلّ بسفينته عبر هذه الموانئ الساحرة. هناك شيء أبدي كوهج الصباح يلف هذه الأراضي التي ترنو فوق البحر، فتذكر المرء دائماً بالأوديسة¹² كلما قلب ناظريه عبرها، وجميع عجائب الدنيا الصباحية الفاتنة في أيام هوميروس¹³!

وبينما كنت مستغرقاً بهذا المشهد الجميل سمعت خطوات مسرعة، وإذ بالبغيض يسير مندفعاً على ظهر الباخرة، مرتدياً معطفاً مطرياً، فهتف لي ملقياً تحية الصباح وقائلاً: "إنها طريق طويلة للغاية إلى تيبيراري". فأجبته: "أجل بل تأكيد". فأردفت: "وداعاً بيكاديلي". فقلت: "وداعاً". ثم واصل طريقه برشاقة إلى أسفل الدرج. سرعان ما أقبل الآخرون أيضاً، ولم أرغب بالحديث معهم سوى إلقاء تحية الصباح، لكنني أحببت الاطمئنان على الشخص اللطيف إن كان ما زال يشعر بوعكة فأجابني أنه أفضل حالاً.

وهكذا رحنا ننتظر باخرة شيتا دي تريست العظيمة لتشق طريقها نحو ميناء باليرمو، حيث بدت البلدة هناك قريبة للغاية، وكذلك الطوق الكبير للميناء وكتلة التلال التي تحيط به. ها قد اقتربنا من باليرمو أخيراً، وها هي الموانئ أمامنا مصطفى على شاطئها. تمنيتُ أن تسرع الباخرة الكبيرة لأنني كرهتها الآن **304** وكرهت ترفها، فقد بدت أنها معدة لهؤلاء المسافرين التجاريين مع نفودهم. سئمتُ تلك الصورة الكبيرة التي شغلتُ أحد جانبي القاعة الفاخرة، لفاتة قروية أنيقة مثالية بملامح إيطالية، تتنزه على حافة جرف جميل بين الورود الملونة، وتسند على ذراعها بطريقة راقية غصناً من أزهار اللوز وبقا لشقائق النعمان. وكم شعرت بالنفور من النادلين، وتلك الأناقة الرخيصة، والترف المبتذل. ولم يعد في الصدر متسع للناس الذين كشفوا أسوأ جوانبهم المادية الزائفة على ظهر هذه الباخرة، أو لتلك النزعة التجارية السوقية التي تميز فترة ما بعد الحرب، وأموال قروش البحر ذات الرائحة النتنة. كم أتوق للنزول من على متنها. وفجأة اقترب زورق قطر من الباخرة وعمد إلى محاذاتها شيئاً فشيئاً وصولاً إلى الميناء، ثم التف ببطء حول مؤخرتها الواسعة. وحتى ذلك الحين، بقينا لخمس عشرة دقيقة بانتظار شخص ما ليضع سلم الباخرة لأجل ركاب الدرجة الأولى، بينما راح ركاب الدرجة الثانية بالطبع يتدفقون خارجها

ويتلاشون مثل الثلج الذائب عبر حشود المتفرجين على رصيف الميناء، واستمر ذلك لفترة طويلة قبل أن يسمح لنا بالخروج.

كم كنت سعيدًا بمغادرتنا الباخرة رغم أنها نظيفة ومريحة، وبدا المسافرون متحضرين تمامًا. لقد غمرتني سعادة كبيرة لأنني لم أشارك سطح الباخرة مع أي مسافرين تجاريين آخرين، بل وقفت حرًا بمفردي. لم يتطلب الأمر أن أستقل عربة، فحملت حقيبتي على ظهري واتجهت صوب الفندق، وأنا أنظر بعين مستنكرة لحركة المرور البطيئة عند الواجهة البحرية للميناء، حيث كانت الساعة قد شارفت على التاسعة. **305** عندما وصلت إلى الفندق واستلقيت على سريري للنوم أخذت ذات الأفكار تدور في ذهني؛ إذ لا ينبغي لوم الإيطاليين على حقدهم تجاهنا، فنحن الإنكليز قد أخذنا على عاتقنا لعب دور الأمة الرائدة لفترة طويلة، وإذا حدث أننا بفترة الحرب أو ما بعدها، قد سقناهم جميعًا إلى بقعة موحلة، بصرف النظر عن انعدام الوفاق الدولي، فحينها ستغدو ضغينتهم تجاهنا مشروعة. إن أخذت على عاتقك تحمل عبئ القيادة، فسيرميك من حولك بالوحل إن قدتهم إلى مستنقع عف، وخاصة إذا كنت أنت بحد ذاتك وسط هذا المستنقع ولا هم لك سوى الخروج والتخلص منه عبر الصعود على أكتاف بقية الأشرار البائسين. أي سلوك يشع يصدر عن هذه الأمم العظيمة!

ومع ذلك، لازلت متمسكًا بفكرة أنني فرد واحد من بني البشر، ولست مجموعة وطنية خالصة، أو شذرة من إنكلترا أو ألمانيا. أنا لست بقايا أي كتلة قديمة نتنة، بل أمثل نفسي فقط. عندما حل المساء أصرت كيوبي على ذهابنا إلى مسرح الدمى المتحركة، فلديها شغف عاطفي تجاهه، وفي الطريق صادفنا صديقًا أمريكيًا قديمًا فاصطحبناه معنا، وهكذا أخذنا نحن الثلاثة نسير بين الأزقة الجانبية المعتمدة والمتعرجة، وأسواق باليرمو التي لفتها الظلمة، حتى التقينا أخيرًا برجل لطيف دلنا إلى المكان المنشود. كانت الشوارع الخلفية في باليرمو ليست بالكبيرة، إلا أنها وبذات الوقت خالية ومظلمة تبعث الرعب في القلب، كأحياء نابولي المحاذية للميناء. أما المسرح فهو عبارة عن صالة صغيرة مفتوحة ببساطة على جانب الشارع. **306** لا وجود لأحد في كشك التذاكر الصغير، ولذلك مررنا عبر الباب الزجاجي الرئيسي، فأسرع رجل عجوز رث الثياب يحمل بيده غصنًا طويلًا من نبات الشمر ليجلسنا في المقاعد الخلفية، وطلب منا التزام الصمت عندما تحدثنا بشأن التذاكر، فقد كان العرض جاريًا، وهناك تنين يخوض صراعًا مع فارس يرتدي درعًا نحاسيًا لامعًا، فأحسست بإثارة كبيرة. لاحظت أن الجمهور يتألف في الغالب من فتيان محدقين باهتمام محموم صوب المسرح الساطع بالأنوار، ولم يخل الأمر من وجود بعض الجنود وكبار السن أيضًا، وبدا المكان مزدحمًا للغاية، فقد حُشر خمسون شخصًا على المقاعد الخشبية الضيقة، التي صُفت بشكل قريب جدًا وراء بعضها، حتى إن طرف الرجل الذي أمامي كان ملتصقًا بركبتي. ولمحت عيناي إشعارًا أن سعر الدخول هو أربعين سنتًا.

كان العرض على وشك الانتهاء عند وصولنا، فجلسنا متحيرين غير قادرين على متابعة مجرى الأحداث. يتمحور العرض حول قصة أبطال العدالة الفرنسية، فيتناهى إلى مسامع المرء أسماء كرينالدو! أورلاندو مرارًا وتكرارًا، لكن القصة رويت باللهجة المحلية التي يصعب متابعتها.

لقد أعجبتُ بالشخصيات، وبدا المشهد بسيطًا للغاية، يُظهر ما يجول داخل قلعة، بدا الممثلون قصار القامة ورائعين بدروعهم الذهبية اللامعة وقفزاتهم القتالية. جميعهم فرسان، حتى ابنة ملك بابل، والتي ميزها شعرها الطويل فقط. أما زيهم فيتألف من دروع لامعة جميلة، مع خوذ وأفئدة يمكن إنزالها حسب الرغبة. قيل لي إنَّ هذا النوع من الدروع قد تم توارثه على مدى أجيال، لا شك في ذلك فهو رائع للغاية. هناك ممثل وحيد لا يرتدي درعًا، إنه الساحر عزّاف الفرسان، **307** كان يلبس رداءً قرمزيًا طويلًا يحفه الفرو، ويضع على رأسه قبعة قرمزية مثنية من ثلاثة جوانب.

وهكذا تتبعثُ عيوننا التتين وهو يقفز ويلتف ويصيب الفارس في ساقه فيقتل على الفور، ثم يقتحم الفرسان القلعة. شاهدنا تعانق الدروع المتلاحمة للفرسان المنقذين؛ حيث راح أورلاندو وصديقه المقرب والقزم الصغير، يصدمون دروع صدورهم بدروع إخوانهم ومنقذهم، وتفيض عيونهم بالدموع. وحينها تلتهم النيران تمثال الساحرة الشريرة فجأة ليرافقه هدير ابتهاج من الأولاد في المسرح، ثم انتهى العرض، فبات المسرح فارغًا خلال لحظة، بيد أنَّ القائمين عليه ورجلين كانا بجوارنا لم يسمحوا لنا بالمغادرة، فعلينا أن ننتظر العرض التالي. أخبرني الشخص الجالس بجانبني وهو رجل بدين ومرح القصة بأكملها، أما جاره الوسيم المخمور فقد ظل يناقضه قائلاً إنَّ الأمر ليس كذلك، لكن جاري البدين غمزني كي لا أشعر بالضيق.

لقد تم عرض قصة أبطال فرنسا هذه لثلاث ليالٍ متتالية، ونحن جننا في منتصف الليل بالطبع، ولكن لا بأس في ذلك فكل ليلة يُعاد العرض كاملاً. أعتذر لأنني نسييتُ أسماء الفرسان، إلا أنَّ القصة تمحورت حول أورلاندو وصديقه المقرب والقزم الصغير؛ فبسبب مكائد القزم نفسه، الذي ينتمي لأبطال العدالة، قد تم أسرهم وسجنهم في القلعة المسحورة للساحرة العجوز المروعة التي تعيش على دماء المسيحيين. وبات الأمر الآن يقع على عاتق رينالدو وبقية الفرسان وبمعونة من ماجيتشي الساحر الطيب، **308** لتحرير إخوانهم الأسرى من الساحرة الشمطاء المروعة.

لقد فهمت الكثير مما قصه علي الرجل البدين، عندما كان المسرح ممثلًا، فهو يعرف أدنى تفصيل عن دور كل بطل. ومن الواضح أنَّ دور الفارس لا يقتصر على نص واحد، فجاره الوسيم المخمور ظل يُخطئه، وراح يقص روايات مختلفة، ويصرخ مطالبًا فريقًا من الأقران أن يأتوا ويحكموا من على صواب، فاجتمع النظراء، وبدا أنَّ عاصفة تلوح في الأفق، لكن صاحب عصا الشمر قوي البنية جاء وأخمد الضجيج، مخبرًا الرجل الوسيم المخمور أنه يعرف الكثير

من الأحداث لكن السؤال لم يوجه إليه، وعندئذ قطب المخمور حاجبيه. قال صديقي الرجل البدين: "آه! لو أني جئت ليلة الجمعة، فقد كانت رائعة للغاية، عرضوا فيها عائلة باول المباركة". وأشار صوب الجدران حيث هناك لافتات تعلن عرض عائلة باول المباركة. من الواضح أن آل باول هؤلاء هم عبارة عن مجتمع سري فظيع مع أغطية للرأس وخناجر وعيون مرعبة تتطلع عبر الثقوب، فخطر لي أنهم قتلة مأجورون مثل عصابة اليد السوداء لا محالة. أوضح البدين أن آل بول المباركين كانوا منظمة لحماية الفقراء، واقتصروا عملهم على تعقب وقتل الأغنياء الظالمين. يا إلهي! إنهم مجتمع رائع ليس له مثيل. سألت البدين: "هل كانوا نوعًا من مافيا الكامورا؟" فأجاب: "آه بل على العكس". وهنا خالج صوته شيء من التوتر. "إنهم يكرهون الكامورا، هؤلاء آل باول المباركون، هم أعداء لدودون للكامورا الكبرى التي تضطهد الفقراء. ولذلك تعقب آل باول سرًا قادة مافيا الكامورا الكبرى واغتالوهم، أو قاموا بتغطية رؤوسهم وإحضارهم إلى محكمة مخيفة 309 لتتطرق بالحكم الرهيب لآل باول. وبمجرد أن يصدر آل بول حكمًا بموت رجل، ينتهي كل شيء. آه يا لها من قصة ممتعة! لماذا لم آت يوم الجمعة؟".

استفسرت من البدين عن سبب عدم تواجد النساء أو الفتيات فأجاب: "آه، لأن المسرح صغير جدًا". أجبت: "هناك مكان للرجال والأولاد فلا بد من توافر متسع للفتيات والنساء". "لا، ليس في هذا المسرح الصغير، بالإضافة إلى أن العروض لا تليق بالنساء، لا يعني ذلك وجود أي أمر غير محتشم، ولكن ما الذي ستفعله النساء والفتيات في عرض للدمى؟ إنه شأن ذكوري". أوافقه الرأي حقًا، وكنت ممتنًا من عدم وجود فتيات وأنسات مع الكثير من الابتسامات المتكلفة. أما هذا الحضور الذكوري، فقد كان مشدودًا للغاية للعرض ولا شيء يعكر انتباهه. قال البدين: "لنلتزم الصمت! فالمسرحية ستبدأ". وفجأة أخذ صبي من الحضور يضرب على مفاتيح بيانو محطم، تحت خشبة المسرح، فأخذ مدير العرض يصرخ بصوته الهادر: "صمتًا!". ومدّ يده لينخز الأولاد المشاكسين بعصا الشمر الطويلة، فانقطع صوت البيانو وارتفعت الستارة وخيم الصمت؛ ها هو فارس يتقدم متأرجحًا بتألق، ويسير بمشية عسكرية على صوت إيقاع فضولي بخطوات قافزة، ويحرق من حوله بعيون راسخة مقاتلة. واستهل العرض موضحًا لنا مكان الحدث، ثم استل سيفه وراح يلوح به بشكل مثير، وضرب الأرض بقدمه وبدأ صوته رجوليًا مقاتلًا بشكل رائع أجش إلى حد ما. ثم ظهر رفاقه المناصرون 310 الذين انضموا إليه، وهم يتقدمون متأرجحين على خشبة المسرح واحدًا تلو الآخر، حتى باتوا خمسة فرسان، بما في ذلك الأميرة البابلية وفارس بريطانيا، ووقفوا بصف واحد رائع بهي. ثم جاء العراف بثوبه الأحمر، ووجهه المشرق الجميل الممتلئ إلى حد ما، وعينيّه الزرقاوين ترمزان للذكاء الشمالي، وطفق يخبرهم بكثير من الكلمات عمّا عليهم فعله وكيف يجب أن يمضوا قدمًا.

وحينها بات الفرسان على أتم الاستعداد. سأل رينالدو: "هل هم جاهزون؟". ثم استل سيفه بصرخة حماس: "أنديامو! هيا بنا". فأجاب الجميع: "أنديامو!". يا لها من كلمة رائعة.

أول من ظهر أمامهم هم فرسان إسبانيا الأعداء، بتلك الحلل الحمراء الطويلة والرؤوس نصف المعصوبة، لتبدأ معركة رهيبة؛ فاندفع أولاً فارس بريطاني متباهٍ ألقى عليهم كلمات حادة كالسهام، ولكن المسكين ضُرب وأصيب بالعرج. وقف الفرسان الأربعة الباقون متراصين جنباً إلى جنب بأزيائهم المتألقة، وراحوا يراقبون ما يجري باهتمام بالغ، وفي هذا الوقت تقدم فارس آخر واستأنف القتال. يا للهول! كم بدا ضرب السيوف ببعضها مرعباً، فضلاً عن ذلك اللهاث الرهيب الذي يصدر من وراء الأقنعة المسدلة، حتى سقط في النهاية فارس إسباني صريعاً، ووضع فارس العدالة قدمه عليه، فعلت هتافات الفرسان وصيحات فرحة من الجمهور. صرخ مدير المسرح وهو يلوح بعصا الثمر: "صمناً!".

خيم السكون واستمر العرض. ادعى فارس بريطاني أنه من قتل الفارس الإسباني، **311** فتهامس الحضور في ما بينهم ساخرين منه بصوت واهن: "إنَّ فارس بريطانيا لا يفعل أي شيء سوى التباهي والثرثرة". همس البدين وقد غاب عن ذهنه أنني إنكليزي: "أتساءل إذا كان فارس بريطاني مجرد تراث يروى، أم أنه لمسة سياسية تم دسها بأيامنا هذه". على أي حال انتهى النزاع، وعاد ميرلين العراف لتقديم المشورة بشأن الخطوة التالية: "هل أنتم مستعدون؟". فعلت حناجرهم بتلك الكلمة تارةً أخرى: "إننا كذلك، أنديامو! هيا بنا". وانطلقوا حالاً. في الوهلة الأولى قد ينشغل المرء بمشاهدة الشخصيات وتآلقها ونظراتها القتالية الخالية من التعابير وإيماءاتها المفاجئة الحادة، فتجد فيهم شيئاً موحياً للغاية، فهي ملائمة جداً لأداء حكايات الأساطير القديمة أكثر مما قد يقوم به الناس العاديون، ولو كنا سنشاهد أناساً حقيقيين على خشبة المسرح بدلاً من تلك الدمى، لتوجب عليهم أيضاً ارتداء أقنعة وأزياء تنكرية، فالدراما في الواقع هي نتاج مخلوقات رمزية تشكلت انطلاقاً من الوعي البشري. إنَّ ما يعرض على خشبة مسرحنا مغلوطة كلياً وممل للغاية.

على أي حال، تبين لي تدريجياً أنَّ ما تراه عيناى ليس بتلك الأهمية، وأنَّ الصوت هو ما استبد بجوارحي، فهو قوي وأجش إلى حد ما، وذكوري يأسر المشاعر بعيداً عن العقل. ومرة أخرى أخذ الإنسان القديم يهز أعماق روحي، وأحسستُ بدماء الرجولة القديمة اللامبالية الجامحة الغنية تسري في عروقي. ما الذي يحتاجه المرء حقاً؟ وما الذي يهيمه بالمبدأ والإملاء العقلي؟ ألا نجد أنَّ ذلك الذكاء الهائل والتهور المندفِع في النفس الذكورية يتلخص بكلمة واحدة مفاجئة وهي "أنديامو! دعونا نستمز! أنديامو! دعونا نذهب للجحيم" أيّاً كان طريقها ولكن دعونا نمض، فذلك

الطيش الممزوج بشغف رائع لا يعرف أي مبدأ **312** ولا أستاذ مدرسة، فغفويته المنصهرة هي مرشده فقط.

لقد أحببت أصوات نصراء الخير، مثل رينالدو وأورلاندو والرجال المندفعين من تلقاء أنفسهم دون توجيه من أحد. لقد قام ميرلين العراف بكل تأكيد بإلقاء خطاباته الطويلة بنبرة متذمرة مُضجرة إلى حد ما، ولكن من هو حقًا يا ترى؟ هل يعتبر نصيرًا للعدالة والمعيا؟ كلا، ليس كذلك، بل إنه شخص متذمر يلبس حلة طويلة، فالأمر يتطلب دماء طائشة تمنحك الذكاء العقلي والأخلاقي الجذابين، ولكن لا بد أن تحتاج لمساعدة إضافية، مجرد أداة.

كان التنين رائعًا، لقد تسنى لي من قبل رؤية تنانين في فاغرن، كوفنت غاردن¹⁴ وعلى مسرح برينز ريغنتين في ميونيخ، وبدأت سخيفة حقًا، إلا أن هذا التنين قد أفرغني بقفزاته وتلويته، وعندما نهش ساق الفارس تجمد الدم في عروقي، فبدأ أشبه بالشيطان بقفزاته التي رافقها الدخان ورائحة الكبريت، لكنه مجرد خادم للساحرة العجوز العظيمة، بلونه الأسود وتكشيرته، ملوحًا بمؤخرته وذيله، غير أنه عاجز بشكل يدعو للفضول، فهو خادم خانع لقوى شريرة. نجحت الساحرة بشعرها الرمادي وعينيها المحدثتين أن تبدو مروعة، ولبمسة واحدة فقط ستتحول إلى سيدة عجوز خيرة طويلة القامة، لكن استمع إليها واصغ إلى صوتها الأنثوي الرهيب الذي تتخلله صرخات شريرة. نعم، لقد أوقعت الرعب في نفسي وضللتنني فكيف لي أن أتنبأ أنها مصدر الشر. أما التنين ذلك الشيطان الضعيف فليس سوى أحد أدواتها. **313** إن روحها الأنثوية المسنة الرهيبة المتجهمة، هي التي طوقت الأبطال بالأغلال، برسلة ذلك الحقد الرهيب الذي لا حدود له، إنها جوهر الأذى؛ فشعرت بقلبي ينتفض ساخطًا عليها كحال الأولاد المتفرجين، وتأججت كراهية عميقة تجاه هذا التجسيد للأنثى الغول المسنة، وذاك التنين الضعيف الذي هو عبدها القبيح. تطلب الأمر من مارلين العراف استخدام كل ذكائه المرح، وكل إصرار متقد عاصف من أنصار العدالة لقهرها.

لن يتم القضاء عليها في النهاية، أو يعرف الموت إليها سبيلًا أبدًا، حتى يتم إحراق تمثالها المحتجز في سراديب القلعة. أوه لقد كان أداءً تحليليًا نفسيًا للغاية، وبوسع المرء أن يعطي تحليلًا فرويديًا¹⁵ جيدًا لذلك. ولكن تأمل صورة الساحرة؛ هذه الفكرة البيضاء الخفية عن المرأة التي تحكمنا من أعماق اللاوعي، وانظر كيف سيقوم الفرسان الذكور الطائشون الذين يصعب ترويضهم بفعل ما يلزم للقضاء عليها، وعندما تلتهم النار التمثال، وهو عبارة عن ورق يغطي بعض الأسلاك، تتعالى صرخات الحضور بكل حماس! وكم أتمنى تحقيق هذا الفعل الرمزي في الواقع، فترى الصبية الصغار فقط هم من يصرخون، أما الرجال فترتسم ابتسامة خادعة على وجوههم، فهم يعرفون جيدًا أن الصورة البيضاء ستحتل ذلك.

وهكذا انتهى الأمر، ونظر الفرسان إلينا مرة أخرى. إنَّ أورلاندو بطل الأبطال لديه انحراف بسيط في عينيه، وهذا ما منحه مظهر الرجل الصلب وطيب القلب في الوقت ذاته وهي سمات يعشقها هؤلاء الناس، مظهر رجل لا يفكر، لكن قلبه محموم دائماً بعاطفة سخية حارقة. **314** وهذا سبب إعجابهم به.

وهكذا بدا كل الفرسان، فجميعهم يمتلكون تلك الوجوه الرائعة وذلك الألق والرجولة. إنني حزين لأنهم سيوضعوا في صندوق الدمي الآن.

ساد جو من الارتياح، وعاد الولد الجالس بين الحضور يضرب على البيانو لتصدر عنه جلجلة صاخبة، وهناك شخص ينظر يميناً وشمالاً وهو يقهقه ورحنا كلنا نتلفت من حولنا، بينما جلس فوق مكتب التذاكر ولد بدين في عمر العامين أو الثلاثة، ويده مطويتان فوق بطنه، وجبهته عريضة وكأنه تمثال بوذا؛ فضحك الجمهور بتعاطف جنوبي وحماسي.

ولكن تبقى القليل مما يلي العرض، فأمام الستائر المسدلة خرج رسم كاريكاتوري مسطح لشخص بدين من نابولي، وفي الجهة المعاكسة ظهر رسم كاريكاتوري لشخص صقلي طويل. فاندفعوا نحو بعضهما بصفعة قوية، تبعتهما صفعة أخرى جعلت النابولي يقع على مؤخرته، فصرخ الصبية بفرح. إنه ذلك التصادم الأزلي بين الشعبين النابولي والصقلي. والآن يتبادل المهرجان الكثير من المزاح كل بلهجته. ولكن يا للأسف، فبالكاد أستطيع فهمهما، غير أنه يبدو حواراً كوميدياً ومضحكاً جداً. لقد تلقى النابولي معظم الضربات بالطبع، ولا يبدو أنَّ الحوار مشوب بأي كلام بذيء على الإطلاق باستثناء مرة واحدة. كان الأولاد يصرخون ويتمايلون بفرح، دون أن يطلب منهم أحد الصمت!

لكن كل ذلك قد انتهى، وبات المسرح خالياً خلال لحظة واحدة، فصافت جاري البدين بمودة وروح محبة. **315** لقد أحببت كل من تواجد في المسرح حقاً، تلك الحفاوة والدم الجنوبي الحامي والعفوي للغاية، فهو يربطك بعلاقات وثيقة ونقية مجردة من أي تواصل عقلي أو تعاطف روعي.

لم أتمنَّ تركهم وحزنت على فراقهم كثيراً. **316**

هوامش

1- كوريري ديلا سيرا أو "مراسل المساء": هي صحيفة يومية إيطالية تطبع في ميلانو. وهي تميل في توجهاتها إلى الليبرالية ويمين الوسط. وتعتبر الأولى توزيعاً على مستوى إيطاليا. تعتبر من أقدم وأوائل الصحف الإيطالية، تأسست في 5 مارس 1876 من قبل أوجينيو توريللي فولير.

2- خروف المارينو: هو أحد سلالات الغنم لإنتاج الصوف. أصل هذا النوع من إسبانيا، لكن النوع الحديث منه تم تربيته في أستراليا. ويعتبر صوف المارينو أحد أنعم وأفضل الصوف. بول مارينو هو نوع هجين بدون قرون أما الخروف الذي يملك قرونًا تكون طويلة وملتفة وتنمو بجانب الرأس.

- مونتي كافو أو مونتي ألبانو: هو ثاني أعلى جبل في مجمع تلال ألبان، بالقرب من روما، إيطاليا. تم إخماد بركان قديم منذ حوالي 10 آلاف عام، ويقع على بعد حوالي 20 كم من البحر، في أراضي كومونا روكا دي بابا. إنها الذروة السائدة في تلال ألبان.

4- النظارة الأنفية: نمط من النظارات، كان شائعًا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، يتم دعمه بدون سماعات أذن، عن طريق قرص جسر الأنف.

5- فيوميه: دولة حرة مستقلة كانت موجودة بين عامي 1920 و1924، تقع بين صربيا وكرواتيا وسلوفانيا وإيطاليا، ثم انضمت إلى إيطاليا بعد مفاوضات شارك بها الشاعر غابرييل دانونزيو.

6- غابرييل دانونزيو: كان كاتبًا إيطاليًا، صحفيًا، شاعرًا، مؤلفًا مسرحيًا وجنديًا خلال الحرب العالمية الأولى. احتل مكانة رفيعة في الأدب الإيطالي بين عامي 1889 و1910، وفي الحياة السياسية لاحقًا بين عامي 1914 و1924.

7- كابوا: هي مدينة وبلدية في مقاطعة كازيرتا، كامبانيا، جنوب إيطاليا وتقع على بعد 25 كيلومترًا إلى الشمال من مدينة نابولي، على الطرف الشمالي الشرقي من سهل كامبانيان. كابوا القديمة تقع حيث الآن سانتا ماريا كابوا فيتيري. بنيت المدينة الحديثة بعد أن دمرت القديمة ساراكينوس عام 841 م.

8- كازيرتا: مدينة جنوب إيطاليا في إقليم كامبانيا. مركز زراعي وصناعي وتجاري مهم، الكثير من ضواحيها بنيت إبان الحكم الفاشي. تشتهر بقصرها الملكي الذي كان مخصصًا لملك نابولي وكان أكبر قصور أوروبا في القرن الثامن عشر.

9- كابري: أو قبيرة، هي جزيرة إيطالية تقع في البحر التيراني من خليج نابولي. تبلغ مساحة الجزيرة نحو 10,4 كم² وعدد سكانها 12,200 نسمة. أعلى نقطة في الجزيرة هو جبل مونتي سولارو إذ يبلغ ارتفاعه فوق البحر 589 مترًا. وتنتمي الجزيرة إلى إقليم كامبانيا من مقاطعة نابولي.

10- أناكابري: تقع في جزيرة كابري، في مدينة نابولي الحضرية بإيطاليا. تعني البائدة اليونانية القديمة "أنا" "أعلى" أو "أعلاه"، مما يدل على أن أناكابري تقع على ارتفاع أعلى في الجزيرة من كابري. إداريًا، لديها وضع منفصل عن مدينة كابري. الموقع الأكثر أهمية في القرية هو فيلا سان ميشيل.

11- يوليسيس: أو أوديسيوس هو ملك إيثاكا الأسطوري، ترك بلده كي يكون من قادة حرب طروادة، وصاحب فكرة الحصان الذي بواسطته انهزم الطرواديون.

12- الأوديسة: هي واحدة من ضمن ملحمتين إغريقيتين كبيرتين منسوبتين إلى هومر. وهي جزئيًا تنتمي لملممة الإلياذة المنسوبة هي الأخرى إلى هومر. وتعد ركنًا رئيسًا للأدب الغربي الحديث، فهي ثاني أقدم عمل أدبي أنتجته الحضارة الغربية، بينما الإلياذة هي الأقدم. يعتقد العلماء أن الأوديسة ألفت بنهاية القرن الثامن قبل الميلاد، في منطقة أيونيا اليونانية الساحلية في الأناضول.

13- هوميروس شاعرٌ ملحمي إغريقي أسطوري يُعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة.

14- كوفنت غاردن: تقع حديقة كوفنت غاردن في حي ويست إند الذي يُعدّ مركز المسارح الرئيسي والترفيه في مدينة لندن. تعجّ ساحات هذا الحي الرائعة والخالية من السيارات بالسائحين الذي يقصدون محلات الأزياء والموضة ومتاجر الجرف اليدوية في سوق أبل ماركت ودار الأوبرا الملكية.

15- فرويد: يعرف اختصارًا بسيغموند فرويد هو طبيب نمساوي، اقتص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث.
